صدر في سلسلة «التراث الروحيّ»

١- **أناشيد من الشرق**، اختارها ونقلها إلى العربيّة جورج يونس.

٢- **إعترافات القدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

٣- **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى للقدّيس أغوسطينوس**، نقله إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

٤- **خواطر فيلسوف في الحياة الروحيّة للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

٥- **مجموعة الرسائل الروحيّة ليوحنّا الدلياتيّ، الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

٦- **كتاب الصلوات لغريغوريوس الناريكيّ**، نقله عن الفرنسيّة الأب جورج عقل اليسوعيّ.

٧- **أفراهاط الحكيم الفارسيّ: المقالات**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.

٨- **أقوال الشيوخ، حِكَم آباء البرّيّة**، اختارها ونقلها إلى العربيّة الأب كميل حشيمه اليسوعيّ.

٩- **ثيودورُس أسقف المصّيصة: العظات التعليميّة**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.

١٠- **الرياضة الروحيّة أو الحاشية في تدبير رياضة المتروّضين للمطران جرمانوس فرحات**، حقّقها وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

١١- **مجموعة الميامر الروحيّة ليوحنّا الدلياتيّ، الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

١٢- **مدينة الله للقدّيس أوْغُسْطينُس، المجلّد الأوّل** (الكتب ١-١٠)، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٣- **مدينة الله للقدّيس أوْغُسْطينُس، المجلّد الثاني** (الكتب ١١-١٧)، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٤- **مدينة الله للقدّيس أوْغُسْطينُس، المجلّد الثالث** (الكتب ١٨-٢٢)، نقله عن الفرنسيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٥- **ميتوديوس الأولميّ: الوليمة**، نقله عن الفرنسيّة الأب صبحي حموي اليسوعيّ.

١٦- **القدّيس أوْغُسطينُس: محاورة الذات**، نقله عن اللاتينيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

ISBN 2-7214-5209-6
9 782721 452092

منشورات:
دار المشرق - ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠، لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب. ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان

التراث الروحي

مَدينَةُ اللهِ لِلقِدِّيسِ أوْغُسْطِينُس

المُجَلّد الأوّل
الكتُب (١ - ١٠)

نَقَلَهُ إلى العَرَبيّة
الخورأسْقفُ يُوحَنّا الحُلو

دار المشرق - بيروت

التراث الروحي

مَدينَةُ اللهِ
لِلقِدِّيسِ أَوْغُسْطِينُس

المُجَلّد الأوّل
الكتُب (١ - ١٠)

نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّة
الخوراسْقف يُوحَنّا الحُلو

طبعة ثانية

دار المشرق - بيروت

هذا الكتاب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

جميع الحقوق محفوظة، طبعة ثانية ٢٠٠٦

دار المشرق ش.م.م،
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5209-6

التوزيع: **المكتبة الشرقيَّة**
الجسر الواطي – سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦، بيروت، لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ – ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

مترجم عن النسخة الفرنسيَّة التي عنوانها:

La Cité de Dieu, Volume 1, Livres I à X
Éditions du Seuil, mai 1994, Paris.

بطريركية انطاكية وسائر المشرق للموارنة
بكركي

أ.م - هـ-١٠ ٨/٢٠٠٠

البركة الرسولية تشمل حضرة الخوراسقف يوحنا الحلو ،
النائب العام لأبرشية صيدا ، الجزيـــل الاحتـــــرام

أعلمتمونا أنكم تواصلون نقل بعض مؤلفات القديس أغوسطينوس الى العربية ، فبعـــد أن نقلتم إليها "الاعترافات وشرحه رسالة القديس يوحنا الأولى ، وخواطر فيلسوف في الحياة الروحية" عقدتم العزم على نقل أكبر مؤلّفاته إليها ، وهو "مدينة الله" ، علـــى الرغـم ممّـا يستوجبه هذا العمل من وقت وجهد وتعب .

إنّا إذ نهنّئكم بإقدامكم على هذا العمل ، الذي تغنون به المكتبة العربية الروحية ، نأمل أن يلقى كتابكم الجديد ما يستحق من الرواج ، وأن يقبل عليه المثقّفون والمفكّرون ، فينـــهلون من معين هذا الفيلسوف الكبير والمفكّر العميق ، والقديس القديم الجديد ، الذي يبقى معـــاصرا لكل الأجيال ، ما يضيء لهم الطريق وللأجيال الطالعة ، ليصلوا إلى ما يصبون إليـــه مـــن راحة القلب ، لن يلقوها ، على ما أكّد اغوسطينوس ، إلا في الله والاستقرار فيه .

هذا وننتهزها فرصة لنجدّد لكم عاطفة المحبة والتقدير ، سائلين الله ، بشفاعة القديـــس غوسطينوس ، أن يكافئكم خيرا ويشملكم دائما برضاه وبركاته .

بكركي ، في الثالث عشر من كانون الثاني سنة ٢٠٠٠ .

الكردينال نصرالله بطرس صفـــير
بطريرك انطاكية وسائر المشـــرق

الكتاب الأوّل

المقدّمة(*)

مسيحيّون ووثنيّون يعيشون أوقاتًا عصيبة جدًّا خلال اجتياح ألاريك وجيشه لروما عام ٤١٠: ضحايا كثيرة لا تُعَدّ ولا تُحصى تقع، بلا رحمة ولا شفقة، خرابٌ وتدمير، بلا هوادة.

الوثنيّون الرومان يَعْزُون هذه الكارثة الشاملة إلى المسيحيّين؛ ويعتبرون أزمنة الويل والدمار «أزمنة مسيحيّة»، أي تلك التي غُيِّب فيها عن روما دور آلهتها وأصبح الدور الأوّل فيها للمسيحيّين بعد أن حرّم الأمبراطور تِيودوسِيوس سنة ٣٩١ عبادة آلهة الرومان وأغلق هياكلَهم، ولو أنّها بقيت، بنظرهم، تحت رعاية آلهتها التقليديّين لما وقعت الكارثة.

وانبرى أوغسطينس، دحضًا لتلك المزاعم، يكتب، مستندًا إلى التاريخ الرومانيّ، إلى ما كتبه فرجيل وسلُستس وتِيت لِيف، وأنّه لا يقلّ أصالة عن أخصامه، وأنّ الحقيقة هي غير ما يدّعون، وأنّ للمسيحيّة الفضل الأكبر في الحفاظ على السكّان

(*) هذه المقدمة، وسائر المقدّمات إلى الكتب الاثنين والعشرين التي تتألف منها مدينة الله، هي بقلم المترجِم.

من رجال ونساء، مسيحيّين ووثنيّين، دخلوا الكنائس واحتموا في مؤسّساتها بعد أن عجز آلهة الرومان عن حمايتهم من الكارثة. وإذا كان التاريخ يشهد للرومان بخلاصهم من عدّة أزمات، فالفضل لا يعود إلى آلهتهم بل إلى ما تحلّوا به من قِيَم وخصال حميدة.

ومن خلال هذا الموقف، توصّل إلى أن يقول لأخصامه إنّ الخير والشرّ يمكن أن يكونا على السواء من نصيب الصالحين والأشرار، ولكن المهمّ لا يكمن في تلقّي الخير والشرّ بل في كيفيّة استعمال هذا أو ذاك. وفي ذلك الحوار الذي أقامه مع الرومان لا ينسى أن يشير إلى أنّ أعداءه اليوم قد يصيرون في الغد مواطنين له؛ كما أنّ مَن يشاركونه اليوم في الأسرار المقدّسة قد لا يكونون مشاركين له مستقبلًا في المجد لأنّ المدينتين متداخلتان ومتشابكتان، وستظلّان هكذا حتّى الدينونة الأخيرة التي فيها يتميّز السكّان.

فضلُ المسيحيَّة على روما وآلهتها

إنّ مدينة الله المجيدة، سواءٌ أكانت تتابع حجّتها وتعيش إيمانها بين الأمم، أم استقرّت في الأبديّة التي تتوق إليها بصبرٍ حتّى «يعود القضاء إلى العدل» (مزمور ٩٣/ ١٥) والذي ستظفر به أخيرًا هذه المدينة، بسلام تامّ، أيّها العزيز مَرسِلّينُس، تعهّدت الدفاع عنها من أناس يفضّلون آلهتهم على مؤسّسها الإلهيّ. إنّه لعمل شاقّ يتطلّب وقتًا طويلًا. لكنّ اتّكالنا على الله الذي يمدّنا، بقوّة منه، لإقناع أولئك المتكبّرين بما للتواضع من سلطان يرفعنا فوق مراتب هذا العالم التي يحرّكها الزمن ويتلاعب بها، إذ ليس ثمرة كبرياء، بل عطيّة النعمة الإلهيّة بحسب ما أوحى به مؤسّس تلك المدينة وملكها في تشريعه الإلهيّ السامي: «يقاوم الله المتكبّرين ويهب للمتواضعين نعمته» (مزمور ٦١/ ٩). وتجد النفس، الممتلئة كبرًا وادّعاء، غبطتها في ما تظنّه مديحًا لها من خلال القول التالي: «إنّه يغفر للمنسحقين ويحطّم المتكبّرين». وسوف أتحدّث أيضًا عن مدينة الأرض سيّدة الشعوب المستعبدة التي سوف تكون بدورها أسيرة شهوة التسلّط: وفي هذا المجال لن أرفض شيئًا ينسجم مع موضوعي.

١

ألا يخرج من مدينة الأرض هذه أولئك الأعداء الذين يجب أن نحمي مدينة الله منهم؟ بعضهم مَن تراجع عن كفره وضلاله ودخلها مواطنًا على جانب من الأمانة؛ وكم من أحقاد متوقّدة وقلوب انغلقت على ذاتها فتنكّرت لإحسانات الفادي الواضحة الصريحة

التي لولاها لكانت ألسنتها اليوم صامتة عن التجديف، لو لم يجد هؤلاء الكفرة ملجًا مقدّسًا لهم، هربًا من سيوف العدوّ الذي يطاردهم فراحوا اليوم يضحّون بها؟ إنّ الذين يناصبون العداء لاسم المسيح، أليسوا أولئك الرومانيّين الذين نجَوْا من ظلم البرابرة باسم المسيح؟ إنّي أتّخذ شهودًا على كلامي أنصاب الشهداء وكنائس الرسل التي فتحت أبوابها أمام كلّ طارئ، سواءٌ أكان مؤمنًا أم لا. إنّ العدوّ الغاضب الغاطس في بحر من الدم كان يقف أمام ذلك الحاجز فتخمد شهوة القتل فيه على عتبة البيت المقدّس، حيث كان منتصرون تملّكتهم الشفقة يقودون أناسًا حافظوا على حياتهم خارج الأماكن المقدّسة لئلّا يقعوا بين أيدي جماعة من الشرسين فيقضوا عليهم. أجل إنّ أولئك الناس، المعروفين بقسوتهم وفظاظتهم، بعيدًا عن الأماكن المقدّسة، كانوا يتخلّون عن أسلحتهم على أبوابها، ويتنازلون عن الحقّ الذي كانت الحرب تسمح لهم به في مكان آخر. هناك كانت تتوقّف الشراسة التي تفتكُ بالضحايا ويتحطّم كلّ نهم إلى اتّخاذ الأسرى. وعلى هذا النحو، فقد نجا من الموت معظم النمّامين في عصرنا المسيحيّ، الذين ينسبون إلى المسيح الشرور التي عانتها روما؛ وأمّا بقاؤهم في قيد الحياة فالفضل فيه عائد، بحسب رأيهم، لا إلى المسيح، بل إلى قَدَرهم؛ على أنّ قليلًا من الاستقامة، لو تحلّوا به، لعرفوا، في كلّ ما عانوه من مآسٍ، تلك العناية الإلهيّة التي تتّخذ الحرب سلاحًا للإصلاح وسحقًا للفساد البشريّ؛ وإذ تختبر، بتلك الضيقات، النفوس البارّة والصدّيقة، تؤهّلها، بعد الامتحان، إلى مصير أفضل، أو تبقيها على الأرض لمقاصد أخرى. أمّا فيما يختصّ بالحماية العجائبيّة التي أحاطهم بها اسم المسيح في كلّ مكان وفي الأبنية الإلهيّة والأكثر رحابة المعدّة للجماهير لكونها أكثر اتّساعًا لقبول الناس وللشفقة الجديدة التي كان يجهلها، حتّى ذلك الحين، الغزاة الظافرون والبرابرة الشرسون، أما كان عليهم أن يكرموا المسيحيّة ويشكروا الله ويلجأوا إلى اسمه، بإيمان صادق، هربًا من عذابات النار الأبديّة؟ كثيرون اغتصبوا هذا الاسم زورًا لكي يهربوا من ضيقات الحياة الحاضرة. كم هم الذين استطاعوا أن يهربوا من حدّ السيف، القاطر دمًا، ممّنْ جدّفوا بوقاحة وسخرية على خدّام المسيح لو لم يتّخذوا لقب خدّام المسيح؟ والآن يا لفظاعة الجحود ونكران الجميل!. ويا لهذيان الشرّ والفساد! إنّ قلبهم الفاسد يسرع إلى عذاب الظلمات الأبديّة لأنّهم قاموا على هذا الاسم الذي لم تلجأ إليه ألسنتهم إلّا لكي يضمنوا التمتّع بالنور الزمنيّ!

٢

انهزام آلهة الرومان أمام الغزاة

إفتحوا تواريخ عدّة حروب حدثت قبل تأسيس روما، أو بعد ولادتها وتوطيد إمبراطوريّتها، وطالعوها! إقرأوها وقدّموا لنا غرباء وأعداء سيطروا على مدينة وحافظوا على اللاجئين إلى هياكل آلهتهم! أعطونا رئيس برابرة يعفو، بعد سقوط المدينة بيده، عن إنسان في هذا الهيكل أو ذاك. ألم يُر إينِه (Enée) مذبوحًا على المذبح يطفئ بدمه النيران التي كرّسها بذاته؟ يقول فيرجل: «إنّ دِيُومِيد وأُولِيس اللذين ذبحا حرّاس المدينة واستوليا على تمثال

الألهة تجاسرا ولمسا بأيديهما الملطّخة بالدم، أحزمتها النقيّة» وليس صحيحًا أنّ أبناء دانِيُوس منذ ذلك الوقت شعروا بفقدان آمالهم. إنّهم منذ أن انتصروا وسلّموا طروادة إلى حدّ السيف أشعلوا فيها النيران ودحرجوا أمام مذابحها رأس بْرِيَّام. لم تخرب طروادة لكونها فقدت مِينِرْفا؛ وهل خسرت مينرفا شيئًا لكي تهلك؟ قد تكون خسرت حرّاسها؛ أجل بالتأكيد. لقد مات حرّاسها فاستطاع العدوّ احتلالها ولم يكن التمثال حارسًا للناس، بل الناس هم الحارسون له؛ وكان الوطن والمواطنون، بحكم طقوسهم العامّة، في حماية الإلهة العاجزة عن حماية حرّاسها.

٣

تأمّلوا الآلهة الذين فاخر الرومان بهم حرّاسًا لمدينة روما. يا لفداحة الخطأ الذي يستدعي الشفقة! يقاومونا عندما نتكلّم بهذا الشكل عن آلهتهم ويقبلون بأقوال شعرائهم؛ بل ينفقون المال، حفظًا لأشعارهم، ويعتبرونه أجرًا محقًّا وتكريمًا ضروريًا للأساتذة؛ ويوضع الشاعر الكبير فيرجل بين أيدي الأولاد كأفضل الشعراء وأكثرهم حكمة فتتغذّى فتوّتهم بمطالعاته ولا يعود النسيان قادرًا على محوه من ذاكرتهم. وعلى حدّ قول أوراس: «إذا شبع القمقم من أوّل عطر احتفظ به طويلًا» (**رسائل أوراس** ١، ٢، ٦٩). إنّي أقول إنّ فيرجل يصوّر جُونُون، عدوّة الطُرُوادِيّين، تثير عليهم أبولّو، ملك الصواعق، هاتفة: «إنّ شعبًا أكرهه يسافر في البحر التِّيراني باتّجاه إيطاليا حاملًا معه آلهة المنازل المنهزمين».

وهل من الفطنة تسليم مدينة روما إلى أولئك الآلهة المنهزمين ليؤمّنوا لها النصر؟ جونون تتكلّم بلهجة امرأة ثائرة ولا تدري ما تقول. ماذا؟ أصغوا إلى إينه، إينه التقيّ يقول: «هوذا بانتوس بن أوثريس كاهن المدينة وهيكل أبولون، الذي عهد إليه آلهتنا المنهزمون بالأمور المقدّسة، يجرّ بيده حفيدًا له ويركض نحو عتبة منزلي لا يلوي على شيء» (فرجيل). وأولئك الآلهة الذين لا يخاف البطل من أن يسمّيهم مهزومين، على حدّ قوله، أليسوا تحت وصايته؟ وليس العكس صحيحًا عندما يسمع هذه الكلمة: «إنّ طروادة تعهد إليك بطقوسها وآلهة منازلها؟»

وعلى هذا النحو فإنّ فيرجل يُعلن أولئك الآلهة، ويا لهم من آلهة مهزومين، ويعهد بهم إلى إنسان ليخلصوا من أيدي الظافرين أيًّا كانت الوسيلة! ويكلُ أمر روما إلى أمثالهم ليحموها؟ وإن لم يهلكوا فهل بقاؤها مضمون؟ يا للجنون! ما العمل؟ إقامة هؤلاء الآلهة أربابًا لها وأوصياء عليها يعني تسليم أمرها إلى أسوأ طالع، بدلًا من أن تكون بين أيدي آلهةٍ خيّرين. أليس من الحكمة الاعتقاد بأنّ روما لم تتآمر على سلامتها بل إنّ هلاكهم كان سابقًا لخرابها لو أنّها لم تتكرّم وتأخذهم تحت حمايتها؟ مَن ذا الذي لا يرى بعد برهة من التأمّل بطلان الادّعاء أنّ الهزيمة لن تقع تحت رعاية حماية مهزومين؛ ثمّ ينسب الخسارة إلى آلهتها الذين يحمونها عندما يكفي أن تسلّم رعايتها إلى مَن هم قابلون للهلاك؟ آه! كلّا؛ عندما يكلّمنا هؤلاء الشعراء في أناشيدهم عن الآلهة المهزومين فلا يكذبون، بل يعبّرون بصفاء نيّة عن حقيقة ما يقولون. لندع التبسّط بهذا الموضوع لوقت ومكان لاحقين. أعود الآن إلى موضوعي السابق راغبًا في أن أفضح بكلمة أخيرة

جحود أولئك المجدّفين الذين يحملون مسؤوليّة الضيقات التي يعاينها بحقّ فسادهم، السيّد المسيح، علمًا بأنّهم غير جديرين بالصفح وقد غفر لهم السيّد المسيح دون أن يفكّروا بذلك! لقد دفعتهم غطرستهم إلى توجيه كلام قاس إلى الاسم الإلهيّ، بألسنة نجسة، بعد أن اغتصبوه على غير حقّ لكي يخلّصهم من الموت. إنّ هذه الألسنة الحقيرة التي احتفظت بالصمت في الأمكنة المقدّسة، الملاجئ الأمينة، المحصّنة بالأسوار التي لا تقهر، والتي حفظت الناكري الجميل من غضب العدوّ، انطلقت بعداوة شرسة وملعونة ضدّ الذي حرّرها!!.

٤

شعراؤهم شهود على عجزهم

إنّ طُرُوادة أمّ الشعب الرومانيّ لم تستطع في هياكل آلهتها أن تحمي مواطنيها من نيران أعدائها ومن الإغريق أنفسهم الذين يعبدون الآلهة ذاتها. وفي هذا المجال يقول فيرجل: «في بيت جونون وقف حارسان من أفضل الحرّاس وهما فِينِكُسْ وأوليس القاسي القلب ليسهرا على غنائم الحرب حيث تكدّست كنوز طروادة المسروقة من معابد تحترق؛ فضلًا عن طاولات الآلهة وآنية الذهب الصافي وجثث الأسرى، وحواليها تجمّعت، وقوفًا، أمّهات وأولاد في صفوف طويلة في جوّ من الرعب والهلع» (**الإنيادة** *Enéide* ٢: ٧٦١-٧٦٧). وهكذا فقد اختير مكان مكرّس للآلهة، لا ليكون ملجأ بل سجنًا للمغلوبين. وهذا الملجأ ليس خاصًّا بآلهة عاديّة، بل بأخت جُوبِيتِرْ وزوجته وملكة الآلهة

أجمعين. فعليك الآن أن تقارن بينه وبين مباني رسلنا. إلى هناك تُنقل أسلاب الآلهة وكلّ ما أُخِذَ من الهياكل التي أحرقتها النيران؛ لا لتعاد إلى المغلوبين بل ليتقاسمها الظافرون. وهنا كلّ شيء معروف بأنّه خاصّ بتلك الأماكن المقدّسة يعاد إليها باحترام وإكرام. هناك حرّيّة ضائعة وهنا حرّيّة محفوظة. هناك قيود وهنا انعتاق من الأسر! هناك يكدّس العدوُّ البشَر كالحيوانات بقساوة؛ وهنا عدوّ شفوق يقود إلى الخلاص أسراه! وأخيرًا هناك يفضّل هيكل جونون على سواه استنادًا إلى جشع الإغريق وكبريائهم وهنا كنائس المسيح يختارها أولئك البرابرة الشرسون تجاوبًا مع شيء من التقوى والرحمة؟ ولكن هل يحترم الإغريق المنتصرون هياكل الآلهة التي يكرمونها؟ وقد تكون تلك المعابد ملاذًا يحتمي فيها الطروادِيّون التعساء من السيف والأسر؟ أمّا حكاية فيرجل فليست سوى أكذوبة شعريّة. كلّا ثمّ كلّا؛ تلك صورة تنقل بأمانة البؤس الذي تعيشه مدينة يحتلّها العدوّ.

٥

ومؤرّخوهم يشهدون

إنّ القيصر ذاته، بشهادة المؤرّخ الشهير والأمين سلّستس عرض في خطابه في مجلس الشيوخ ما يختصّ بالمتآمرين قائلًا: «العذارى يُسبَيْن والأطفال يُنتزعون من أحضان أمّهاتهم والنساء يتعرّضن للإهانات من قِبَل الظافرين؛ بيوت ومعابد تُنهب؛ أسلحة وجثث في كلّ مكان؛ قتل وحداد في كلّ مكان». (سلّستس: **كاتيلينا** ٥١: ٩) لو أنّه لم يتحدّث عن الهياكل لكنّا اعتقدنا بأنّ

المنتصرين احترموا بيوت العبادة؛ وليس الظافر هنا غريبًا. إنّه كاتِيلِينا ومحازبوه أشرف الناس في روما وفي مجلس الشيوخ؛ فعلى الهياكل الرومانيّة أن تخشاهم! سوف يقال: مواطنون أشرار وقتلة الوطن الأم!!

٦

ولماذا نتيه وسط شعوب كثيرة تحاربوا وما حافظوا على المنهزمين الذين التجأوا إلى هياكل آلهتهم؟ فلنثبت نظرنا ولنتذكّر الرومان الذين استحقّوا ثناء عظيمًا عندما صفحوا عن المستسلمين وكبحوا جماح كبريائهم وتجاوزوا عن الثأر للإهانة، وإذ سيطروا على عدّة مدن مزدهرة وهدموها لكي تمتدّ إلى البعيد إمبراطوريّتهم؛ أيّة هياكل امتنعوا عن هدمها وعهدوا إليها بحياة المهزومين وحرّيتهم؟ هل صنعوا ذلك حقًّا؟ والمؤرّخون الذين سجّلوا مآثرهم احتفظوا بالصمت عن شفقتهم! وماذا؟ هل يا ترى تركوا طي النسيان شهادات في التقوى، هم الذين يسألون كثيرًا عن المديح؟ إنّ مركوس مرسلّس الاسم الرومانيّ العظيم الذي انتصر على مدينة سيراكوز بكى، كما قيل، على تلك الضحيّة الجميلة التي أزمع أن يضربها وقبل أن يسفك دمها ذرف الدموع عليها. وماذا أقول؟ يهمّه أن يحافظ على شرف العدوّ. وعندما أوشك أن يعطي الأمر بالهجوم الظافر منع منعًا باتًّا وصريحًا استعمال العنف في معاملة أيّ شخص حرّ؛ ومع ذلك فقد تُركت المدينة بين قَدَر الحرب؛ وما من رواية تؤكّد أنّ منتصرًا على هذا القدْر الكبير من الشفقة والعفّة سمّى هذا المعبد أو ذاك مركزًا لا

ينتهك؛ يلجأ إليه المنهزمون. وهل نَسِيَ التاريخ أن يسجّل تلك القصّة؛ وهو الذي لم ينسَ، لا تلك الدموع، ولا ذاك المنشور الراعي للعفة؟ لقد أثني على فابِيُوس الذي هدم تارانتا لكونه امتنع عن سرقة الآلهة؛ ولمّا سأله الكاتب عمّا قرّر أن يصنع بتلك المغانم الثريّة خرج عن اعتداله بجواب قاس واستعلم عن تلك التماثيل؛ ولمّا علم أنّ الكثير منها ضخمٌ جدًّا ومدجّج بالسلاح تركت أهل تارنتا آلهتهم الغضبى». وعلى هذا النحو فإنّ مآثر تاريخ روما الفاتحة لا تهمل لا دموع هذا وشفقته ولا الاعتدال الروحيّ والسخري لذاك؛ فكيف لها إذًا أن تسكت على تلك التقوى الشفوق التي سمحت لمعابد هذا الإله أو ذاك أن يحمي بعض الناس من الموت أو الاستعباد؟

٧

البرابرة يبعثون السكان والأسرى إلى الكنائس

وعلى هذا النحو فإنّ الدمار والقتل والنهب والحريق والبؤس وكلّ ما ارتكب من فظائع في كارثة روما الأخيرة، فهو ما تسبّبت به الحرب. إنّما الغريب فيها والجديد هو ذاك التحوّل من شراسة لدى البرابرة إلى شفقة تختار وتعيّن للجماهير الكنائس الأرحب والأوسع لتكون لهم ملجأ يأوون إليه ويكونون في مأمن من الضرب والخطف وحيث كان المنتصرون يبعثون بأسراهم تأمينًا لحرّيّتهم؛ فلا يتمكّن قساة القلوب بينهم من أن يأخذوهم عبيدًا باسم المسيح. كان يتمّ كلّ ذلك وبفضل العهد المسيحيّ يُحقّق؛ ومَن لا يراه فهو مصاب بالعمى. ومَن يلزم الصمت فهو ناكر للجميل. وكلّ مَن يعترض

على الشكر فهو فاقد الشعور. معاذ الله أن نرى إنسانًا عاقلًا يعزو هذا الفضل إلى تلك القلوب الفظّة والوحشيّة! وحده كبح جماحهم بعذوبته الرائعة؛ أوليس هو الذي أملى على النبيّ منذ القدم قوله: «إنّي أفتقد الأثمة بالعصا والخطأة بالسوط، ولكن لن أحبس عنهم رحمتي» (مزمور ٨٨/ ٨).

٨

التشابه بين الناس في تحمّل مصائب هذه الحياة لا يعني تشابهًا في المصير الأبديّ

ولربّ إنسان يقول: ولماذا يبسط رحمته على الأثمة وناكري الجميل؟ لماذا؟ إنّها آتية ولا شكّ من لدن الذي «يشرق كلّ يوم شمسه على الأخيار والأشرار ويمطر غيثه على الأبرار والفجار» (متّى ٥/ ٤٥). على أنّ الكثيرين يتوبون عن معاصيهم فيندمون؛ وآخرون، لقسوة قلوبهم، يدخرون لنفوسهم غضبًا ليوم الغضب واعتلان دينونة الله العادلة الذي سوف يكافئ كلًا بحسب أعماله» (روما ٢/ ٤-٦). إنّ الله، بصبره، يدعو الأبرار إلى التوبة؛ كما أنّ التجارب ضربات تمرّن الصالحين على الصبر؛ وكما أنّ رحمة الله تغمر الصالحين لتعضدهم فإنّ حزمه يمسك بالأشرار لكي يؤدّبهم. وقد شاءت العناية الإلهيّة أن تعدَّ للأبرار في المستقبل خيراتٍ لن يتمتّع بها الأشرار ولهؤلاء ويلات لن يذوقها الأبرار. أمّا في ما يختصّ بالخيرات والويلات الزمنيّة فتريدها مشتركة بين الفئتين لئلّا يسعى الإنسان إليها، بحماسة كبيرة، إذ يراها أيضًا بين أيدي الأشرار ويقبل تلك الويلات التي تحلّ عادة

بالأبرار أنفسهم. على أنّ الخير الجدّي يكمن في استعمال ما يسمّونه سوءًا أو خيرًا والإنسان الفضيل لا يبطر لهذا ولا يتحطّم لذاك. أمّا الشرّير فإنّه يرى في الويلات الزمنيّة عذابًا لأنّ السعادة بنظره فساد. وغالبًا ما يظهر عمل الله واضحًا بشكل جليّ في توزيع الخير والشرّ؛ لو كان يعاقب حالًا على الخطيئة بوضوح لما بقي شيء في نظرنا حتّى الدينونة الأخيرة؛ ومن جهة أخرى لو نجت كلّ خطيئة اليوم من ملاحقة العدل الإلهيّ لما اعتقد أحد بالعناية الإلهيّة. وتلك هي الحال بالنسبة إلى النِعَم الزمنيّة، إذ لو لم يكن الله، بسخاء منه ملموس، يستجيب لطلباتنا لقلنا إنّ ذلك غير متوفّر لديه؛ أمّا لو أعطاها باستمرار لظننّا أنّ خدمته واجبة من أجل المكافأة. إنّ عبادة كهذه لن تكون مدرسة للتقوى بل للجشع والنفع الخاصّ. ومع أنّ الأخيار والأشرار يتقاسمون البلايا فهم متمايزون لأنّ التشابه في الألم لا ينفي التمايز بين محتمليه، والتطابق في العذاب لا يعني تطابقًا بين الرذيلة والفضيلة. في البوتقة الواحدة الذهب يلمع والقشّ يدخن؛ الضربة الواحدة تحطّم القشّ وتفصل الحبّ؛ الزيت والعكر لا يمتزجان إذا سالا معًا تحت حجر المعصرة. وعلى هذا النحو البوتقة تمتحن وتنقّي وتذوب في المحبّة النفوس الفاضلة؛ إنّها تشجب وتهدم وتفني الأثمة فينطلق الأشرار من العذاب والضيق إلى مسبّات وتجاديف؛ والأخيار يصلون ويباركون. المهمّ ليس ما يعاني الإنسان منه بل النفسيّة التي بها يقبل العناء!! إنّ حركة واحدة تهزّ حمأة أو عطورًا، ولكن تفوح من الأولى روائح كريهة ومن الأخرى رائحة زكيّة.

٩

وفي ذاك الدمار الشامل، أيّ عذابٍ قاساه المسيحيّون ولم يكن، في نظر الإيمان، في سبيل نجاحهم؟ وإذا ما تأمّلوا، بادئ ذي بدءٍ، بتواضعٍ، في الخطايا التي انتقم منها الغضب الإلهيّ فملأ الدنيا كوارثَ رهيبة أيعتقدون بأنّهم، وإن كانوا بعيدين عن الإثم والفوضى والجريمة، في عصمة من الخطأ الذي يستوجب بعض التكفير الزمنيّ؟ ما من مؤمن، وإن خلت حياته من اللوم وأيّة شائبة، إلّا ويستسلم أحيانًا لنزواته اللحميّة، ودون أن يقع في جرم فظيع أو في حمأة الدعارة يتساهل أحيانًا، وإن نادرًا، في قبولها؟ ومَن ذا الذي أمام وحوش الصلف والبغاء والخساسة الذين يضطرّون الله بسبب آثامهم وفظائعهم إلى تحطيم الأرض بحسب ما سبق وهدّد به منذ القديم؟ أجل مَن ذا الذي يقف أمامهم كما يجب ويتعاطى معهم كما يجب أن يتعاطى مع أمثالهم؟!. عندما يتعلّق الأمر بتنويرهم وتنبيههم، أو حتّى بردعهم، أو إصلاحهم، غالبًا جدًّا ما تمنعنا مخادعة سيّئة إمّا لامبالاة كسول أو حياء بشريّ لا يجرؤ على الخروج إلى الآخرين لمواجهتهم خوفًا من أحقاد قد تقلقنا وتلحق بنا الأذى في الخيرات الزمنيّة التي نتوق إلى امتلاكها؛ ونحرص عليها ونخشى، مع ما بنا من ضعف، أن نخسرها. ومع أنّ رجال الخير يكرهون حياة الأشرار فيحفظون من السقوط في الجحيم الذي ينتظر المنبوذين لدى خروجهم من هذا العالم، فالضعف الشفوق تجاه الشرور المميتة، خوفًا من ردّات الفعل على خطاياه الشخصيّة الخفيفة والعرضيّة، الناجية من العذابات الأبديّة،

يستوجب أن يقاصَّ، بعدلٍ، من خلال ضربات زمنيّة؛ ومن العدل أن تشعر الحياة بالمرارة بعد أن سكرت من أطايبها كما هو عدل وحقّ أن ترسل العناية الإلهيّة بعض العذابات لكون الإنسان تحوّل عن تقديم كأس المرارة الخلاصيّة إلى الأشرار.

إذا أرجأنا تأنيب الخطأة وإصلاحهم إلى زمن أكثَر ملاءمة، حبًّا لمصلحتهم، وخوفًا من أن يزدادوا سوءًا، أو من أن يمانعوا من تدريب الضعفاء على التمرّس بالتقوى والفضيلة، بالضغط عليهم وتحويلهم عن الإيمان، فلن يكون ذلك بدافع غريزيّ إلى الجشع بل عن فطنة ومحبّة. الشرّ هو في مَن تشهد حياتهم، لرعب فظيع، من أمثلة أشرار يعطونها ويسكتون عن خطايا إخوة لهم تخوّفًا من عداوتهم، كيلا تتأذّى مصالحهم الشرعيّة العزيزة حقًّا. على مَن يسافرون في هذا العالم أن يقودهم الرجاء بالوطن السماويّ. ليست محبّة الخيرات الأرضيّة والزمنيّة التي يعيشها أولئك الملتزمون الحياة الزوجيّة، الحاصلون على أولاد، أو الراغبون في أن يكون لهم أولاد، والذين يتوجّه إليهم الرسول ليعلّمهم الواجبات المسيحيّة المفروضة على الأزواج تجاه نسائهم أو على النساء تجاه رجالهنّ وواجبات الوالدين تجاه أولادهم وهؤلاء تجاه ذويهم والخدم تجاه معلّميهم والأرباب تجاه خدّامهم، والذين يهمّهم، إلى حدّ كبير، التمتّع بها أو خسارتها حتّى تنقصهم الشجاعة على التصدّي لحقد أناس يكرهون فيهم حياة سافلة ومجرمة؛ وليسوا وحدهم على تلك الحال؛ لكن المؤمنين أنفسهم الذين ترقّوا إلى مرتبة عالية، الأحرار من رباط زواجيّ، الذين يقنعون بالقليل في مأكلهم وملبسهم ولا يرضخون للتهديدات مهما تكن رهيبة؛ إلّا أنّهم لا يجرؤون على توجيه

اللوم إلى ما قد يرفضون الاقتداء به. ولربّما كانوا توصّلوا إلى أن يخلّصوا الكثيرين لو قاموا بواجب التوبيخ الذي منعهم عنه الخوف من تعريض حياتهم وصيتهم للخطر. ولم تعد هاهنا هذه الفطنة التي تحفظهما في سبيل تعليم القريب بل ذاك الضعف الذي يرتضي، بالكلام الخدّاع، في يوم القضاء البشريّ الكاذب فيخشى رأي العالم الضربات وموت الجسد؛ إنّه لضعف مرتبط بربط الجشع وليس برباط المحبّة. ولهذا عندما يروق الله أن يضرب فساد الناس ضربات زمنيّة فالأخيار يصابون مع الأشرار؛ يعاقبون مثلهم لا ليعيشوا مثلهم بل ليحبّوا مثلهم، ولكن أقلّ منهم هذه الحياة الزمنيّة التي يجب عليهم أن يزدروها. وبفضل هذا الاحتقار قد تكتسب توبيخاتهم للأشرار الحياة الأبديّة. وإذا لم يستطيعوا أن يتّخذوهم رفاقًا لهم على طرق الخلاص فعلى الأقلّ يعرفون أنّهم يتألّمون ويحبّونهم كأعداء وما داموا هم في قيد الحياة فلا أحد يعرف هل كانوا لا يولدون مرّة أخرى إلى إرادة فضلى. وأولئك هم أكثر إثمًا؛ وقد قال فيهم النبيّ: «إنّ هذا الرجل يموت في إثمه لكنّي من يد الرقيب أطلب دمه» (حَزقيال ٦/ ٣٣). لأنّ أولئك المراقبين ورعاة الشعوب لم يقاموا في الكنيسة إلّا لكي يتعاملوا مع الخطيئة، بشدّة لا تلين؛ على أنّ المؤمن، وإن يكن غريبًا عن الخدمة المقدّسة، ليس معصومًا كلّيًا عن الخطأ. وإذ يرى ما يستوجب الكثير من الإصلاح في مَن هم مرتبطون به اجتماعيًا يوفّر عليهم التنبيه واللوم خوفًا من أن يزعجه غضبهم في الخيور التي يستعملها استعمالًا حسنًا، ولكن بارتياح داخليّ غير مبرّر. وهناك سبب آخر يحمّل الناس الخيّرين العذابات الزمنيّة وأيّوب هو أكبر مثل على ذلك. بها يكشف

الربّ للإنسان قوّة تقواه حتّى يشهد لنفسه هل هو حقًا يحبّ الله مَن دون مصلحة شخصيّة.

١٠

فكّر في هذه الأمور، ولاحظ هل ذوو الإيمان والتقوى قد حلّ بهم أذى معيّن ولم يتحوّل خيرًا بالنسبة إليهم. وهل تكون كلمة الرسول هذه قد قيلت عبثًا: «إنّا نعلم أنّ كلّ شيء يؤول لخير مَن يحبّون الله». (روما: ٨/ ٢٨)؟ بيد أنّهم في كلّ ما لهم، ماذا خسروا؟ هل خسروا الإيمان؟ هل خسروا التقوى؟ هل خسروا تلك الخيور الباطنيّة التي تجعل الإنسان غنيًّا بحضرة الله؟ ذاك هو الغنى المسيحيّ، غنى الرسول الذي يقول لنا: «وفي الحقيقة، التقوى المقترنة بالقناعة تجارة عظيمة لأنّا لم ندخل العالم بشيء ومن الواضح أنّا لا نستطيع أن نخرج منه بشيء فإذا كان لنا القوت والكسوة فإنّا نقتنع بهما. أمّا الذين يرومون الغنى فيسقطون في التجربة وفي الفخّ وفي شهوات كثيرة سفيهة مضرّة تُغرق الناس في العطب والهلاك لأنّ حبّ المال أصل كلّ شرّ وهو الذي رغب فيه قوم فضلّوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة» (١ طيم ٦/ ٦-١٠). على أنّ الذين فقدوا في خراب روما أموال الأرض، لو أنّهم كانوا يستعملونها بحسب تعليم ذاك الفقير، الغنيّ باطنيًا، الذي يستعملها، وكأنّه لا يستعملها، لهتفوا مع ذلك الإنسان الذي لا تقهره أشدّ التجارب قسوة: «عريانًا خرجت من جوف أمّي وعريانًا أعود إلى هناك. الربّ أعطى والربّ أخذ فليكن اسم الربّ مباركًا». (أيّوب: ١/

٢١). الله أعطاني كلّ شيء والربّ أخذ كلّ شيء فليكن اسم الربّ مباركًا. «هكذا شاء الربّ أن يمنح عبده الأمين ثرواته وبهذا التسليم يزداد غناه الروحيّ ولا يحزن لكونه تخلّى، حيًّا، عمّا يجب أن يتخلّى عنه، ميتًا. أمّا الضعفاء الذين استبقَوْا بعض الجذور لتلك الخيرات في قلوبهم؛ وإن لم يفضّلوها على المسيح فقد شعروا بألم خسارتها وخطأ تعلّقهم بها. وبقدر ما التزموا به أكان ألمهم كبيرًا، وفقًا لما جاء في كلام الرسول الذي ذكّرت به آنفًا، لأنّه عندما يقول: «إنّ الذين يرومون الغنى يسقطون في التجربة»؛ والرسول يشجب شهوة الغنى ولا يشجب استعماله، ما دام يوصي في مكان آخر أغنياء هذا العالم بألّا يستكبروا ولا يتّكلوا على الغنى غير الثابت بل على الله الحيّ الذي يؤتينا كلّ شيء بكثرة لنتمتّع به وأن يصنعوا خيرًا ويتموّلوا من الأعمال الصالحة ويكونوا أسخياء في التوزيع مرتاحين إلى المؤاساة مدّخرين لأنفسهم أساسًا حسنًا للمستقبل حتّى يفوزوا بالحياة الحقيقيّة». (١ طيم ٦/ ١٧-١٩). إنّ المؤمنين الذين يستعملون غناهم على هذا الشكل يجدون تعزية عن القليل الذي خسروه في الكثير الذي ربحوه؛ كما وأنّ الحسنات التي وزّعوها زرعت في قلوبهم فرحًا يضاهي بكثير الحزن الذي تسبّب لهم به فقدان ما جمعوه بالشحّ والبخل؛ فكان على الأرض أن تسلبهم ما قد رفضوا أن يأخذوه منها. وفي الواقع فإنّ المسيحيّين سمعوا وصيّة سيّدهم القائلة: «لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون، لكن اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون، لأنّه حيث يكون كنزك يكون هناك قلبك» (متى ٦: ١٩-٢١). إنّ

أولئك المسيحيّين قدّروا بأنفسهم الحكمة التي تمرّسوا بها في أيّام الضيق، إذ التزموا تعاليم سيّد الحقيقة الأضمن والأقوى لحفظ كنزهم. إن هنّأ الكثيرون أنفسهم لكونهم أخفَوْا ذهبهم في أماكن لم تصل إليها يد العدوّ صدفة، فما أعظم غبطة أولئك المؤمنين وطمأنينتهم لأنّهم استندوا إلى كلام الله فوضعوه في أمكنة يستحيل الوصول إليها!! وإنّ حبيبنا بُولان مطران نُول، ذاك الثريّ الذي استبدل ثرواته بالفقر الاختياريّ، وغنى العالم بالغنى الروحيّ، ولمّا وقع أسيرًا في أيدي البرابرة الذين احتلّوا مدينة نول، كان يتضرّع إلى الله، سرًّا، كما قال لنا: «ربّ، لا تدعني أتعذّب بسبب الذهب أو الفضّة لأنّك تعلم أين هو كلّ مالي». لقد أخفى كلّ شيء حيثما طلب منه النبيّ الإلهيّ الذي تنبّأ عن كوارث العالم أن يخبّئه ويكنزه. وعلى هذا النحو فإنّ المؤمنين العاملين بطواعيّة بتوجيهات الربّ الذي علّمهم، كيف، وأين يجب أن يكنزوا، استطاعوا أن يخفوا عن أيدي البرابرة ثروتهم الزمنيّة. أمّا الذين ندموا على عصيانهم فقد تعلّموا كيف يجب أن يتصرّفوا بمالهم، إن لم يكن بالحكمة التي تمكّنهم من الحفاظ عليه فعلى الأقلّ بما تعلّموه بالاختبار. بيد أنّ بعضهم يقول إنّ مسيحيّين قد سيموا العذاب ليكشفوا عن كنوزهم علمًا بأنّهم ما قدروا لا أن يكتشفوا ولا أن يخسروا الخير الذي يجعلهم صالحين. وإذا فضّلوا العذاب على الكشف عن ثروتهم البائسة فما كانوا صالحين. إنّ هؤلاء الذين عانوا كثيرًا في سبيل الذهب كانوا بحاجة إلى أن يعرفوا كم يجب أن يتحمّلوا في سبيل المسيح ليتعلّموا أن يحبّوا مَن يغني بالسعادة الأبديّة المعذّبين لأجله، مفضّلينه على الذهب والفضّة؛ فيا لتعاسة المعذّبين الذين

تربحهم كذبة وتخرسهم الحقيقة. ما من أحد خسر المسيح، وهو يعترف به؛ وما من أحد خلّص ذهبه إلّا وهو ينكره في التعذيبات التي، إذ تعلّمهم محبّة خير لا يفسد تكون أكثر فائدة لهم من تلك الخيرات التي تجعل من مالكيها التعساء المتعلّقين بها ضحايا حزن عقيم. كثيرون أيضًا سيموا عذابًا لأنّ البرابرة لم يصدّقوهم وقد يكونون توّاقين إلى التملّك. هؤلاء ما اختاروا الفقر المقدّس وكان عليهم أن يعرفوا أنّ تلك العذابات ما تسبّبت بها الثروات، بل شهوة الثروات. وهل هناك مَن أعلنوا عن حياة فضلى وما كان لديهم مال أو ذهب مخبّأ ومعروفون لدى الناس بأنّ لهم مالًا قد عُذّبوا؟ لست أدري. وعليه حتّى ولو كان الأمر هكذا فإنّ الذين كانوا يعترفون بالفقر المقدّس، خلال تعذيبهم، بالمسيح كانوا يعترفون. وكلّ مَن يعترف بالفقر المقدّس ويقع ضحيّة همجيّة كافرة يكافأ على عذابه بالسماء.

١١

موت الجسد لا بدَّ آتٍ ولا خوفَ منه

إنّ مجموعة مسيحيّة فنيت إثر مجاعة طال أمدها. أوليس ذلك برهانًا على أنّ تسليم المسيحيّين الحقيقيّين بكلّ تقوى يحوّل التجربة لمنفعتهم؟ إنّ الذين تميتهم هذه المجاعة كما هو المرض يخلصون من شرور هذه الحياة؛ أمّا الذين ينجون فتكون بمثابة درس في الانقطاع الصارم عن الأكل وممارسة أصوام طويلة. ولكن كم من مسيحيّين قُتلوا وذهبوا فريسة موت لا يرحم راح يتنامى بشكل بشع جدًّا! يا لقسوة القدر! غير أنّه مشترك بين جميع

الذين أُعدّوا لهذه الحياة. على أنّ ما أعرفه هو أنّه ما من أحد مات إلّا وسوف يموت يومًا ما؛ غير أنّ نهاية الحياة تحوّل أشدّها طولًا أو قصرًا على القياس عينه لأنّه لا شيء أفضل ولا أسوأ ولا أطول ولا أقصر في مساواة العدم. وما همّ أن يعرف الإنسان نوع الميتة التي يموتها ما دام أنّه لا يضطرّ إلى أن يموت مرّة أخرى؟ وبما أنّ الحوادث اليوميّة في الحياة تعلّق، نوعًا ما، فوق كلّ رأس معدّ للموت، التهديد بعدد لا يحصى من الميتات، وما دام الشكّ بالميتة المتوقّعة قائم، أليس من الأفضل تحمّل ميتة على أن يعيش في خوف دائم منها جميعًا؟ إنّي أعرف جيّدًا أنّنا نحن معشر الجبناء نفضّل أن نعيش طويلًا تحت وطأة الخوف من ميتات كثيرة، ولا أن نموت مرّة لئلّا يبقى علينا شيء نخافه. ولكن شيء هو ما يرهب الجسد والحواس وآخر هو اقتناع نيّر وأصيل للعقل. الموت ليس شرًّا عندما ينهي حياة سعيدة ولا يكون شرًّا إلّا بالحدث الذي يتبعه. وما همّ أناس حتّم عليهم أن يموتوا من الحادث الذي به يموتون؟ لكنّ المهمّ هو المكان الذي إليه يذهبون بعد الموت، على أنّ المسيحيّين يعرفون أنّ موت المسكين تحت ألسنة الكلاب التي تلحس قروحه أفضل بكثير من موت الغنيّ في البرفير والأرجوان. والآن كيف يمكن لتلك الميتات الرهيبة أن تؤثّر على الإخوة إذا كانوا قد عاشوا عيشة صالحة؟

١٢

في ذاك الحصاد الرهيب من الجثث كم من مؤمنين حرموا من الدفن؛ وذاك شرّ قلّ ما يخشاه إيمان حيّ يثق، بكلّ تأكيد، بأنّ غيظ

الحيوانات المفترسة لا يقدر شيئًا على قيامة أجساد الضحايا التي لن تهلك شعرة واحدة من رؤوسها ما دامت الحقيقة قد قالت: «لا تخافوا الذين يقتلون الجسد ولا يستطيعون أن يقتلوا النفس» و(متى ١٠/ ٢٨). وهل يستطيع القتلة القساة القلوب أن يقضوا على بذور الحياة الأبديّة في جثث أعدائهم إلّا إذا وجد أحمق ما ادّعى أنّه لا يخاف من قتلة الجسد قبل أن يقتلوه، بل يخاف أن يتركوه بعد أن يقتلوه، بل بدون دفن؟ إذ ذاك يبطل أن يكون حقًّا كلام الربّ: «لا تخافوا ممَّن يقتلون الجسد ولا يستطيعون شيئًا» (لوقا ١٢/ ٤) إن طاب لهم أن يسيئوا إلى الجثث.

ماذا؟ هل كلام الحقيقة على خطأ؟ حاشى لنا هذا التجديف! للقتلة كما هو مكتوب قدرة ساعة يقتلون، لأنّ الجسد يشعر بالضربة القاضية، أمّا فيما بعد فلا يستطيعون شيئًا لأنّ الجثّة تفقد كلّ شعور. صحيح أنّ الأرض لم تستقبل عددًا كبيرًا من أجساد المسيحيّين ومَن ذا الذي أخذها من السماء ومن الأرض التي يملأها بحضوره هذا الذي يعرف أن يعيد إلى الحياة مَن كان لها خالقًا؟ صحيح قول صاحب (المزامير ٧٨/ ٣) «سفكوا دماءهم حول أورشليم ولم يكن من دافن». إنّه يتكلّم هكذا لا ليتفجّع على الضحايا التعيسة بل ليفضح قسوة الجلّادين. كريم في عيني الربّ موت أصفيائه؛ ولكنه قاسٍ صعب في عيني البشر. وما بقي من اهتمام بالجنازات واختيار المدفن والاحتفالات فتعزية للأحياء ولا يفيد الأموات منها بشيء. ألهذا الخاطئ تقام جنازات فخمة وأيّ فائدة له منها؟ وعليه قد تعتبر الدفنة الحقيرة أو عدم وجودها سوءًا للرجل البارّ ولذاك الثريّ الشهوانيّ جنازة حاشدة يسير فيها عدد كبير من عبيده تعظُم في عيني البشر؛ ولكن كم هي أعظم

منها في عيني الله جنازة ذاك الفقير المغطّى بالقروح التي أعدّها له الملائكة؛ ودون أن يقيموا له مدفنًا من رخام حملوه إلى أحضان إبراهيم. إنّي أرى الذين أدافع ضدّهم عن مدينة الله يضحكون؛ في حين أنّ فلاسفتهم أنفسهم لا يعيرون أهمّيّة للدفن. وقلّ ما تهتمّ جيوش بأسرها بهذا الموضوع إذ يموتون في سبيل وطنهم الأرضيّ وتبقى جثثهم مطروحة هنا وهناك طعامًا للوحوش. والشعراء أنفسهم يقولون مفاخرين: «السماء تغطّي مَن ليس له قبر». ما هو ذاك الجنون الذي يدفع بهم إلى احتقار المسيحيّين المتروكين بلا دفن، ما دام لهم الوعد بقيامة الجسد، بأعضائه كافّة، حين يُبعَثون فجأة من سباتهم العميق في باطن الأرض فيعودون إلى الحياة.

١٣

إحترام الجثة عمل مبرور

على أنّه ليس ذلك سببًا لأن تترك جثث الأموات؛ وبخاصّة جثث الأبرار والمؤمنين، العضو والأداة بيد الروح القدس لكلّ عمل صالح. إن كان ثوب أو خاتم أو أيّ غرض آخر يشبهه لوالد ما عزيزًا على قلوب أولاده بقدر ما يشعرون تجاهه بعاطفة بنوة رقيقة، فأيّ احترام يجب علينا تجاه أجسادنا المتّحدين بها أكثر من أيّ ثوب كان؟ إنّ الأجساد ليست فقط بالنسبة إلى الإنسان زينة ولا عونًا خارجيًّا بل هي جزء من طبيعته. ولهذا كانت تقام الواجبات التقويّة الاحتفاليّة لأبرار العهد القديم إضافة إلى الجنازات الفخمة والاعتناء بقبورهم. وقبل وفاتهم كان

الأهل يأمرون أولادهم بالاهتمام بدفنتهم ونقل رفاتهم. إنّ العناية بالموتى وفقًا لشهادة الملاك تستنزل على طوبيّا النِعَم الإلهيّة وربّنا ذاته الذي سوف يقوم في اليوم الثالث يعلن ويأمر بإذاعة عمل المرأة القدّيسة الصالح التي سكبت عليه الطيب الغالي الثمن كما لو أرادته لدفنه. إنّ الإنجيل أيضًا يذكر بتقدير هؤلاء الذين قبلوا جسد المسيح لدى إنزاله عن الصليب فكفنوه ووضعوه في القبر. إنّ هذه الأمثلة الجديرة بالاحترام لا تعني أنّ الجثث تفقد كلّ إحساس بل إنّ العناية الإلهيّة ترعى رفات الأموات وترضى عمّا يقدّم لها من فروض تقويّة لأنّها تثبت الإيمان بالقيامة. ولنا في ذلك تعليم خلاصيّ؛ كم يكون عظيمًا الجزاء على الحسنات إلى الفقير الذي يعيش إن لم يضع شيئًا ممّا يقدّم أمام الله من أعمال محبّة عن ذلك الرفات الفاقد الإحساس؟ هنالك أيضًا وصايا أخرى بشأن الدفن ونقل الرفات أعطاها البطاركة القدّيسون وكأنّها صادرة عن إلهام نبويّ. ولكن ليس المكان أهلًا للتعمّق في هذه الأسرار ونكتفي بما أشرنا إليه. إذا كان الحرمان من الأشياء الضروريّة للحياة كالقوت والكسوة امتحانًا قاسيًا للإنسان الفاضل يعجز عن النيل من صبره وعن اقتلاع التقوى من قلبه بل بالعكس يقوّيها ويخصبها، فالحرمان من الاحتفالات الجنائزيّة أعجز من أن يعكّر صفو النفس في الأماكن السعيدة والمقدّسة. أن تكون أجساد المسيحيّين قد حرمت الواجبات الأخيرة لدى خراب روما وسائر المدن فذلك لا يشكّل خطأ على الأحياء الذين لم يستطيعوا أن يعملوا شيئًا، ولا عقابًا للأموات لأنّهم لم يشعروا بشيء.

١٤

الفرق عظيم بين أمانة المسيحيين وأمانة الوثني

ولكن هنالك مسيحيّون وقعوا في الأسر! آه! إن اقتيدوا إلى مكان لم يجدوا فيه إلههم فتلك هي الذروة في سوء حظّهم؛ غير أنّ الكتب المقدّسة تقدّم لنا تعازي في مثل تلك الورطة، لقد وقع الأطفال الثلاثة كما وقع دانيال وأنبياء آخرون في الأسر، لكنّ الله لم يتأخّر عن تعزيتهم ولم يترك المؤمنين به تحت ظلم البرابرة وإن كانوا بشرًا؛ هو الذي لم يتخلّ عن نبيّه في جوف الحوت. وهنا، فإنّ أخصامنا يؤثرون الضحك على الإيمان ومع ذلك فإنّهم يعتقدون، استنادًا إلى أقوال كتّابهم، بأنّ آريون الذي هو من ملتيمن الموسيقار الشهير الذي ألقي من السفينة في البحر استلقاه حوت وحمله على ظهره إلى الشاطئ. وهل رواية نبيّنا غير قابلة للتصديق؟ أجل، لأنّها أشدّ غرابة؛ هي أشدّ غرابة لأنّ يدًا أقدر كانت هناك.

١٥

بيد أنّ لهم بين المشاهير من رجالهم مثالًا كريمًا في النفي الاختياريّ لسبب دينيّ وهو م. راغُولُوس (Regulus) رئيس القوّات المسلّحة الرومانيّة الأسير في قرطاجة. إنّ القرطاجيّين الذين فضّلوا استعادة أسراهم على الاحتفاظ بأسرى الرومان لديهم أرسلوه مع سفراء لهم إلى رومة لدرس قضيّة الأسرى عن طريق المقايضة وأرغموه على القسم بالعودة إلى قرطاجة إن

رُفِض اقتراحُهم. فذهب وإذ لم يعتقد بأنّ المقايضة ليست لمصلحة الجمهوريّة أقنع مجلس الشيوخ بعدم جدواها وبدون أن يضطرّه إلى ذلك مواطنوه رجع إلى العدوّ حفاظًا على قسمه حيث كان الموت بانتظاره، إضافة إلى عذابات رهيبة اخترعوها من أجله: وضعوه في صندوق ضيّق غرزت فيه مسامير حادّة فاضطرّ إلى البقاء واقفًا لعدم استطاعته الاتّكاء إلى جهة من الجهات بدون أن يتحمّل عذابات رهيبة فمات وقد نهكه السهر. بكلّ تأكيد تجب الإشادة بفضيلة هذا الرجل الأعظم من مصابه على أنّه أقسم بأولئك الآلهة الذين حرّمت عبادتهم، كما قيل، لأنّها كانت سبب الكوارث في الكون. وعليه فإذا كان هؤلاء الآلهة الذين يكرّمون وصولًا إلى السعادة الزمنيّة، شاءوا أو سمحوا بمثل ذاك العذاب يسام به إنسان شريف يحافظ على قسمه، فأيّ عذاب لا ينزله غضبهم بمَن يخون عهده؟ ولكن فليسمح لي بأن أستنتج من هذا التحليل شيئين: إنّ احترام راغولوس للآلهة والأمانة للقسم لم يسمحا له بأن يبقى في وطنه ولا بأن يذهب إلى مكان آخر ولم يتردّد في الرجوع إلى ألدّ أعدائه. وهل اعتبر ذاك القرار مفيدًا له في الحياة الحاضرة؟ لكنّ الخوف من نهايته يدلّ على خطإه ويظهر بمثله أنّ عبادة الآلهة لا تنفع شيئًا في سبيل السعادة الزمنيّة ما دامت الأمانة للقسم الذي قطعه لهم أدّت به إلى الهزيمة والأسر والعذابات غير المعروفة حتّى ذاك التاريخ ثمّ الموت الذريع! إن كان مَن يتّقي الآلهة لا ينال أجره إلّا بعد الحياة الحاضرة فلماذا يتّهمون الدين المسيحيّ؟ ولم القول إنّ روما خربت بسبب كفرها إذ إنّها، على تمسّكها الشديد بعبادة آلهتها، كادت تكون في الشقاء عينه الذي وقع فيه راغولوس؟ اللهمّ إلّا

إذا قام إنسان أحمق وادّعى أنّ مدينة بكاملها تكرّم آلهتها لا يمكنها أن تلقى البؤس الذي قد يحلّ بواحد من أبنائها كما لو أنّ قدرة الآلهة على حماية مجموعة من الناس المؤلّفة من أفراد أضمُن لشخص واحد. أيقولون إنّ راغولوس الأسير المعذّب سعيد بما يشعر به داخليًّا من فضيلة؟ إن كان الأمر هكذا فليسعوا إلى اقتناء تلك الفضيلة وسيلةً لإسعاد المدينة. إنّ سعادة الإنسان تختلف عن سعادة مدينة تتكوّن من مجموعة بشر يعيشون متّحدين؛ وأنا لست بصدد مناقشة فضيلة راغولوس؛ حسبهم هذا المثال لكي يعترفوا بأنّ عبادة الآلهة ليست مفروضة، حصولًا على خيرات جسديّة، أو منافع عابرة وخارجيّة؛ لأنّ ذاك الإنسان آثر التخلّي عن كلّ الأشياء على أن يخون آلهته الذين اتّخذ اسمهم شاهدًا عليه. ومع ذلك فأيّ شيء ينتظر من أولئك الحمقى الذين يفاخرون بمثل ذاك المواطن وهم يخافون من أن تتشبّه المدينة به؟ أمّا إذا لم يكن ذلك الخوف قائمًا فعليهم أن يعترفوا بأنّ ما أصاب راغولوس قد يصيب أيضًا مدينة لا تقلّ عنه أمانة للآلهة؛ وليكفّوا عن التشهير بالمسيحيّة! ولكن بما أنّ المسألة أثيرت بشأن المسيحيّين الأسرى، العديمي الفطنة والساخرين الوقحين من الدين المسيحيّ فليتأمّلوا ويلزموا الصمت. وإذا لم يكن من العار على هؤلاء الآلهة أن يتخلّى أحد عبادهم عن وطنه من دون أن ينتظر وطنًا آخر، أمانة منه على قسمه، وأن يقاسي بين أيدي أعدائه كلّ أنواع العذابات المتطوّرة فيقضي بعد نزاع طويل، فبأيّ حقّ يتّهمون الإيمان المسيحيّ بأنّه السبب في أسر عدّة مؤمنين ينتظرون، بثقةٍ لا تخيب، الوطن السماويّ «معترفين بأنّهم غرباء ونزلاء في بيوتهم على هذه الأرض»؟

١٦

العفّة الحقيقية

إنّهم يعتقدون ولا شكّ بأنّهم يضعون على المسيحيّين غطاء من الخزيِ والعار عندما يضيفون إلى لوحة الأسر القاتمة لوحة أخرى تعبّر عن العنف الذي مورس على النساء والفتيات حتّى الراهبات. وهنا لا يقلق الإيمان ولا التقوى ولا نسمّيه بفضيلة العفّة يضطرب أمام إنذارات الحياء وهدوء العقل، بل تفكيرنا وحده هو الذي يقلق. ولا نفكّر بجواب نعطيه أعداءنا بل ما نعزي به أخواتنا. وفي بداية الأمر فليكن راسخًا في العقول أنّ الفضيلة، المبدأ الأساسيّ لحياة صالحة، هي التي تأمر من أعلى النفس، مقرّها، أعضاءَ الجسد فيتقدّس الجسد بإرادة مقدّسة. وما دامت الإرادة ثابتة ومستمرّة ومهما يكن في الجسد وللجسد؛ ولم يستطع الإنسان الهروب بلا خطيئة يكون بريئًا ممّا يعاني. إنّ نوعًا من العنف الذي يتحمّله الإنسان في جسده قد يثير فيه شعورًا مخالفًا لشعور الألم، علمًا بأنّ انتهاكًا من ذاك النوع لا يحرم النفس من العفّة التي تعانقها، بل تثير فيها الخفر، وتخاف من أن يظنّ أحد بأنّ الفكر قَبِلَ بفعلٍ قد يستحيل على الجسد عدم المبالاة به. وعلى هذا النحو أيّ قلب لا يصفح لتلك التعيسات اللواتي قبلن الموت هروبًا من تلك الإهانات؟ أمّا اللواتي رفضن الموت هروبًا من جرم الآخرين عليهنّ إلى ارتكاب جرم شخصيّ فمَن ذا يتّهمهنّ ولا يُتّهم بالجنون؟

١٧

إن لم يكن مسموحًا أن يقتل الإنسان إنسانًا آخر بقوّة سلطانه الخاصّ، إذ ما من شريعة تمنح هذا السلطان، فالذي ينتحر قاتل هو أيضًا، ويزداد جرمه الانتحاريّ بقدر ما يخفّ السبب الذي دفعه إلى الانتحار. إذا كان جرم يهوذا مكروهًا حقًّا وقال الحقّ إنّ اليأس هو الذي دفعه إلى الانتحار وليس التكفير عن قتل ربّه (توبة مقيتة أوصدت بوجهه كلّ أبواب الندامة الخلاصيّة) فكم أحرى بالإنسان أن يمتنع عن قتل نفسه وليس على ضميره أنّ يكفّر بهذه القسوة عن أيّ شيء ارتكبه؟ يهوذا انتحر ولم يمت مسؤولًا عن قتل المسيح وحسب بل أجرم أيضًا بقتل نفسه. إرتكب جرمًا فانتحر ثمّ ارتكب جرمًا ثانيًا بقتل نفسه.

١٨

وعلى هذا الأساس لماذا نرى إنسانًا لا يعرف السوء يسيء لنفسه؟ وإذ ينتحر يقتل بريئًا ليستبق في ذاته جرم إنسان آخر؟ أجل، إنّه يعتدي على نفسه لئلّا يحصل اعتداء غريب عليه؛ وقد يخشى أن يوصم بوصمة غريبة؛ وهذه وصمة أعجز من أن تصِمه حتّى إذا وصمته لم تعد غريبة عنه. ولكن بما أنّ الطهارة فضيلة في النفس وأنّ القدرة رفيقتها العاديّة تؤهّلها لأن تتحمّل كلّ شيء لا أن تقبل بالشرّ؛ كذلك لا أحد، على ما تحلّى به من ثبات وعفّة، يستطيع أن يكون مسؤولًا عمّا يجري في جسده من أحداث، بل هو مسؤول عن كلّ ما تقبل به أو ترفضه إرادته؛

ومَن ذا الذي يكون على هذا القدر من الحماقة ليظنّ نفسه خاسرًا لعفّته لأنّ الجسد وقع ضحيّة شهوات الآخرين؟ إن فُقدت العفّة على هذا النحو فليست حقًّا فضيلة في النفس ولا تعدّ من الخيرات التي تجعل الحياة صالحة، بل من الخيرات الزمنيّة كالقوّة والجمال والصحّة وما شابهها التي إذا فقدت لا تؤثّر لا في الحكمة ولا في طهارة الأخلاق. إن لم تكن العفّة تزيد بشيء عن تلك الخيرات الواهية فلماذا يعمل الإنسان على رعايتها حتّى المغامرة بحياته؟ إن كانت خيرًا للنفس فهل تبقى تحت رحمة العنف الذي يمارس على الجسد؟ ماذا أقول؟ عندما تقاوم العفّة هجمات الشهوة الجسديّة يتقدّس الجسد ويثبت في قداسته إن استمرّت النيّة على ثباتها لأنّ الجسد، بقدر ما هو متعلّق به، يسلّم الإرادة السلطان عليه ولا تقوم قداسة الجسد في الإبقاء على أعضائه بعيدة عن كلّ اتّصال لأنّها تتعرّض في ظروف عدّة إلى أعمال عنف وتجريح وتفرض عليها سلامتها عمليّات تخفيف الناظر إليها. وأحيانًا تشوّه يد قابلة قانونيّة عذريّة فتاة إمّا عن قصد أو جهل أو صدفة. إذ ذاك ألا يعتبر من الحماقة القول إنّ قداسة جسدها قد انتهكت لكونها فقدت زهرته؟ ما دامت النفس ثابتة وعازمة على تقديس الجسد فلا تقوى أيّة شهوة خارجيّة شرسة على أن تنال من قداسة ترعاها عفّة مواظبة على السهر واليقظة. أمّا إن استسلمت إرادة امرأة إلى إغراءٍ معيّن فانتهكت إيمانها المكرّس لله واستلقت بين أيدي فاتنها فهل يا ترى لا تزال تحتفظ بقداستها الخارجيّة وقد فقدت وخنقت قداستها الداخليّة التي كانت تقدّسها بكليتها؟ حاشا لنا الوقوع في هذا الخطأ! إنّنا نستنتج بخلاف ذلك أنّ الجسد الذي يتعرّض للعنف لا يفقد شيئًا

من قداسته ما دامت النفس نقيّة، لكنّه وإن حافظ على سلامته وفقدت النفس قداستها يفقدها هو أيضًا. ليس على امرأة أن تعاقب ذاتها بميتة اختياريّة عندما يفرض عليها آخر الخطيئةَ عنوةً وبالأحرى قبل السقوط؛ لأنّها ترتكب جرمًا بالقتل أكيدًا، في حين لا تزال غير متثبّتة من هذا الجرم الغريب! وعليه نقول إن حافظت الإرادة على طهارتها لدى سقوط الجسد فالذنب على الظالم وليس على الضحيّة. وهل هذا واضح؟ وهل يتجاسر على رفض هذا الرأي أولئك الذين ندافع ضدّهم عن القداسة الباطنيّة والقداسة الجسديّة للنساء اللواتي يتعرّضن للإهانة خلال أسرهنّ؟

١٩

بيد أنّهم يشيدون بعفّة لُوكْرِيس السيّدة النبيلة في روما القديمة وقد انتهك حرمة جسدها الشهوانيّ الشنيع ابن تُركُوِينُوس فكشفت عن جريمة الشابّ السافل إلى كولاتينوس زوجها وإلى بْرُوتُوس نسيبها وكلاهما شريف المحتد والنفس وربطتهما بقسم للثأر ثمّ انتحرت بعد أن اشتدّ عليها الألم وضاقت ذرعًا بالفعل الفاضح. ماذا؟ أهي زانية أم عفيفة؟ مَن ذا الذي يتحمّل وزر الجواب؟ «واحد من الاثنين كان زانيًا»: كلمة حقّ رائعة من خطيب مفوّه يميّز في ذاك الفعل المخجل شهواتٍ سافلة لدى الواحد وإرادةً متعفّفة لدى الأخرى؛ وإذ تأثّر بتباعد النفسين وتعانق الجسدين، هتف قائلًا: «كانا اثنين معًا ولكنّ واحدًا منهما زان»!! وماذا؟ هل يجب الثأر بشكل رهيب من البريء؟ له النفي مع والده ولها العذاب الأخير! إذا لم يكن الفجور الأخلاقيّ مقيمًا في الإهانة

فهل من العدل معاقبة العفّة؟ إليكم أتوجّه يا قضاة روما ويا شرائعها: هل تسمحون بضرب المذنب بلا شفقة قبل صدور الحكم عليه مهما كان ذنبه؟ يحوّل هذا الجرم إلى محكمتكم: إمرأة تقتل قبل أن يصدر الحكم ضدّها؛ في حين هي عفيفة وبريئة وهو شيء واضح بالبرهان! ألا تعد عدالتكم عقابًا للمجرم السفّاح؟ والمجرم السفّاح هو لوكراس التي أشيد بها كثيرًا هي التي سفكت دم لوكراس الشقيّة والعفيفة. أصدروا الآن حكمكم. لا يمكنكم. غيابها يُخرجها عن أحكامكم. أجل! ولِمَ هذه المدائح تكال لامرأة قتلت امرأة فاضلة؟ وهل يمكنكم أن تدافعوا عنها أمام قضاة جحيم كما يصوّرهم شعراؤكم؟ أليست تُقيم حيث ينزل أولئك القليلو الحظّ «الذين بيدهم انتزعوا حياة بريئة وألقوا إلى البعيد بأنفسهم؟» ألا تريد أن تعود مرّة أخرى إلى الحياة؟ «المصير لا ينثني والمياه الميتة في المستنقع المشؤوم يكبّلها إلى الأبد». (فرجيل ٦) قد لا تكون هناك؛ ربّما، وهي تنتحر، استسلمت إلى وخز ضميرها السري ولا إلى يأس الخفر. وفي الواقع، حين وقعت ضحيّة عنف لم تقو على ردّه، لو ارتضت اللذّة، ماذا يكون (هي وحدها تعلم ذلك) لو أرادت تحت تأثير وخزات ضميرها أن تمحو خطيئتها بدمها؟ على أنّه لم يكن عليها أن تنتحر لو استطاعت أن تضحّي لآلهة كذبة بتوبة حقيقيّة؛ ولكن، إذا كان هذا هو الموضوع وإن لم يكن صحيحًا أنّ واحدًا من الاثنين زانٍ وكانا كليهما مجرمين، أحدهما بالعنف الفاضح والآخر بالقبول الخفيّ فإنّها لم تقتل لوكراس البريئة ويستطيع محاموها الفقهاء أن يقولوا بأنّها ليست في الجحيم مع أولئك التعساء الذين بأيديهم انتزعوا حياة بريئة». إذ ذاك نصل إلى

نهايتين حتميّتين: إنتفاء القتل إثبات للزنى؛ إن أبرئت من الزنى اقتنعت بأنّها قاتلة؛ ولا مخرج من هذا المأزق: إن كانت زانية فلِمَ هذه المدائح؟ وإن كانت عفيفة فلم هذه الميتة؟

حسبنا ذاك المثل الشهير لتلك المرأة، دحضًا لمواقف أولئك الناس الغريبين عن كلّ حسّ قداسة، الذين يشتمون أخواتنا الممتهنات المقيَّدات في الحديد. حسبنا أن يقال في مدحها: «كانا اثنين وواحد منهما كان زانيًا». لا أحد أراد أن يصدّق أنّ ارتضاءً ما أثيمًا شوّه فضيلة لوكراس؛ أمّا إن ضربت ذاتها فلأنّها ضحيّة الزنى وليس مشاركة فيه؛ وليس حبًّا للعفّة، بل ضعف أمام العار؛ إنّها تحمرّ خجلًا من الجرم المقترف بحقّها وليس معها؛ إنّ هذه الرومانيّة الأبيّة الحريصة على المجد تخشى من أن تعيش عرضة للشكّ وتصبر؛ فتتّهم بالاشتراك في الجريمة فاتّخذت الموت شاهدًا على نفسها التي لم تستطع أن تكشفها أمام أعين الناس؛ فما اقتدت النساء المسيحيّات بمثلها في ذلك الامتحان القاسي فعرفن أن يعشن وما انتقمن لأنفسهنّ من ذنب بذنب آخر وإذ وقعن ضحيّة شهوة الزنى ما اعتقدن بضرورة الاستسلام إلى عار قاتل. إنّ العفّة المجيدة وشهادة الضمير هما فيهنّ أمام أعين الله ولم يعد من قلق لديهنّ ولا شيء يعملنه يكون شرعيًّا. إنّ الهروب بواسطة الشرّ من إهانة التهم البشريّة يعني التخلّي عن سلطان الشريعة الإلهيّة؛ أليس كذلك؟

٢٠

لا يجد القارئ في الكتب المقدّسة والقانونيّة، عن عبث، أمرًا

من الله، أو أذنًا بالانتحار، سعيًا وراء الخلود؛ بل بالعكس، نجد أمرًا عن ذلك قائلًا: «لا تقتل» (خروج ٢٠/ ١٣) من دون أن تضاف كلمة «قريبك» كما هي الحال في ما يختصّ بشهادة الزور حيث يقول: «لا تشهد على قريبك شهادة زور» (**خروج** ٢٠/ ١٦)، مع أنّ شاهد الزور على نفسه يظنّ أنّه لا يخطأ ما دامت محبّة القريب قائمة على محبّة الذات. وقد كُتب: «وتحبّ قريبك مثل نفسك» (**مرقس** ١٢/ ٣١). وعليه فإن كانت شهادة الزور على الذات ليست أقلّ إثمًا من شهادة الزور على القريب، وإن كانت الشريعة لا تنهى فقط عن شهادة الزور على الذات بل تنهى عن التفكير بقتل النفس، فلا يجوز للإنسان أن يقتل نفسه عملًا بالأمر القائل: «لا تقتل» حتّى إنّه لا يستثني أحدًا ولا الذي يتقبّله، فضلًا عن أنّ الكثيرين يرون فيه نهيًا عن قتل الحيوانات؛ ولِمَ لا تدخل النباتات أيضًا وكلّ ما على الأرض يعيش من جذوره؟ وإن تكن بلا شعور ألا يقال عنها إنّها حيّة؟ يمكن أن نقول فيها إنّها تموت؛ وإذا هلكت عنوة نقول إنّها قتلت. وعلى هذا النحو يقول الرسول في كلامه عن الزرع: «يا جاهل إنّ ما تزرعه أنت لا يحيا إلّا إذا مات» (**١ كور** ١٥/ ٣٦) ونطالع في المزامير: «أهلك بالبرد كرومهم» (٧٧/ ٤٧). وهل إنّ الوصيّة القائلة: «لا تقتل» تحمّلنا جريمة اقتلاع شجيرة، وبلغنا من البلاهة حدّ التبنّي لضلال ماني (manès)(*)؟ إذا نبذنا خارجًا عنّا تلك التصوّرات ورفضنا تطبيق هذا المبدأ على النباتات الخالية من الحسّ والحيوانات العجماء التي لا تشاركنا مجتمعنا لأنّها غير عاقلة

(*) مؤسس الفلسفة المانوية ولد في بلاد الفرس في بداية الجيل الثالث بعد المسيح.

(وحيث إنّ العناية الإلهيّة بتدبير منها عادل وضعت حياتها وموتها في خدمتنا) بقي علينا أن ندرك أنّ عبارة «لا تقتل» تتعلّق بالإنسان وحده فلا يحقّ له أن يقتل إنسانًا آخر أو أن ينتحر لأنّ مَن ينتحر يقتل كذلك إنسانًا.

٢١

القانون العام يجيز أحيانًا القتل

غير أنّ تلك السلطة الإلهيّة قد وضعت بعض الاستثناءات في تحريم القتل؛ ويأمر الله أحيانًا بالقتل بواسطة شريعة عامّة أو من خلال وصيّة وقتيّة أو خاصّة، على أنّ ذاك العمل لا يكون، أدبيًا، قتلًا، لأنّ مهمّته تأتيه من السلطة وليس هو سوى أداة كالسيف الذي به يضرب. أو لم يتجاوز الوصيّة أولئك الذين بأمر من الله عملوا الحرب، أو، تمرّسًا بالسلطة العامّة، عاقبوا بالموت، بموجب الشريعة، أي وفقًا للعدل؟ ألا يُتّهم إبراهيم بالقسوة وهو المعروف بتقواه عندما أراد أن يقتل ابنه فيصبح قاتلًا طوعًا؟ ويتساءل الإنسان بحقّ هل عليه أن يرى أمرًا إلهيًا في مقتل ابنة يفتاح المسرعة إلى لقاء أبيها الذي أقسم بأن يذبح لله أوّل ما يقع عليه نظره لدى عودته من المعركة منتصرًا. وإن عذرنا شمشون لكونه دفن ذاته مع الأعداء تحت ردم بناء، انصياعًا لأمر من الروح باطنيّ، كان بواسطته يعمل العجائب. خارجًا عن هذه الاستثناءات التي أوصى الربّ فيها بالقتل، إمّا بشريعة عامّة وعادلة، أو بأمر صريح من الله، فالذي يقتل أخاه أو نفسه هو قاتل ومجرم.

٢٢

يمكن الإنسان أن يتأمّل الشجاعة العظيمة التي تجلّت في الذين انتحروا ولا يسعه أن يمتدح حقيقة حكمتهم على أنّ العقل لو أحسنوا استشارته لما رضي بتسمية ذاك اليأس الجامح من الحزن أو من خطايا الآخرين شجاعة عظيمة. إنّه بالأحرى ضعف نفسيّ يمنع الإنسان من أن يتحمّل استعباد الجسد أو جنون الرأي. أوليس الأفضل أن يتحمّل الإنسان بؤس الحياة، على أن يتهرّب منه، فينبذ على نور الضمير السليم ظلمات الضلال التي تغلف عادة فكر الإنسان؛ ولا سيّما الإنسان العادي؟ ولكن إذا لم يستطع الإنسان؛ إلّا أن يعترف بشيء من البطولة لمَن ينتحر، فعليه أن يكون معجبًا بكْلِيُومْبُرُوتُوس بعد قراءة الكتاب الذي يناقش فيه أفلاطون خلود النفس، قيل إنّه ألقى بنفسه من على حائط لكي ينتقل من هذه الحياة إلى حياة أخرى، أفضل بحسب اعتقاده؛ على أنّ ذلك لم يحدث عن يأس أو مصيبة ولا بسبب جرم كاذب أو حقيقيّ يثقل عليه؛ ما من شيء دفعه إلى الموت وإلى تحطيم ربط الحياة الحاضرة، لا شيء سوى قلبه الكبير. ومع ذلك، بشهادة أفلاطون ذاتها، الذي سبق وقرأه، فالعمل هذا لم يكن جيّدًا وحسب بل عظيمًا. ربّما أفلاطون كان أوّل مَن صنعه وأوّل مَن أمر به لو لم يدرك من خلال حدسه الذي به اكتشف خلود النفس أنّ ذاك العمل ممنوع كلّيًا.

يقال إنّ كثيرين ضربوا أنفسهم لئلّا يقعوا بين أيدي أعدائهم، على أنّنا لا نبحث هاهنا عمّا صار بل عمّا كان يجب أن يصير، لأنّ العقل السليم أفضل من الأمثلة؛ ومنها ما نتّفق عليها؛ وبقدر ما هي

صادرة عن تقوى أصيلة تكون أهلًا لأن تحتذى؛ فلا البطاركة ولا الأنبياء ولا الرسل قدّموا ذواتهم على هذا النحو؛ والسيّد المسيح ذاته الذي دعاهم إلى الهروب من الاضطهاد من مدينة إلى مدينة أما استطاع أن ينصحهم، بميتة اختياريّة، هروبًا من المضطهدين؟ إن لم ينصح أو يأمر جماعته بمثل ذاك الخروج من الحياة في حين أنّ المنازل الأبديّة التي وعدهم بها وهيّأها لهم تنتظرهم ليوم سفرهم، أيًّا تكن الأمثلة التي يواجههم بها الوثنيّون الذين لا يعرفون الله، فمن الواضح أن لا شيء من هذا النوع يسمح به لمَن يعبدون الإله الواحد الحقّ.

٢٣

بعد لوكراس التي أبديت رأيي فيها، بما فيه الكفاية، يصعب عليهم التوجّه إلى غير سلطة كاتون(*) الشهير الذي ينتحر في أوتيكا، لا لأنّ لا مثيل له بل لأنّ شهرته في العلم والفضيلة تعطي دفعًا للرأي القائل بأنّ الإنسان استطاع ولا يزال يستطيع أن يعمل مثله. وماذا عليّ أن أقول أيضًا فيه، سوى أنّ أصدقاءه الأكثر حكمةً منه، والمساوين له في المعرفة، كانوا يعتقدون وهم يحاولون إقناعه باتّخاذ ذلك القرار بأنّ ذاك العمل ينمّ عن صغارة في النفس ولا عن قوّة، لا عن مبدأ شرف يقف بالمرصاد ضدّ العار بل عن ضعف وتخاذل أمام المصيبة؟ وكاتون ذاته يعبّر عنه لابنه بنصائح يوجّهها إليه لأنّه إذا كان من العار أن يعيش تحت حكم القيصر المنتصر فلِمَ ينصح ابنه بهذا العار عندما يأمره بأن

(*) رجل دولة روماني.

يأمل كلّ شيء من رأفة الظافر؟ ولِمَ لا يدعوه إلى مشاطرته الموت؟ إذا كان الناس يثنون على تُورْكُواتُوس لأنّه أرسل ابنه الظافر إلى الموت لكونه انتصر بالرغم من أوامره، لماذا كاتون ذاته المهزوم يحافظ على ابنه المهزوم مثله عندما لا يحافظ على نفسه؟ وهل النصر أشدّ عارًا على الإنسان الرافض للنصيحة من الهزيمة على ما فيها من عار؟ كلّا إنّ كاتُون لا يرى عارًا في العيش تحت حكم القيصر؛ وإلّا حرّر السيف الوالديّ ابنه من ذاك العار؛ بل بقدر ما يحبّ ابنه ويرجو ويريد أن يشفق عليه القيصر، يستجديه الصفح المجيد (ذاك ما قاله القيصر)؛ فلنكن عادلين؛ ذاك ليس شعور حسد بل شعور بالعار.

٢٤

مقارنة بين مسيحيّ ووثنيّ في مواجهة العذاب

إنّ خصومنا لا يقبلون أن نفضّل على كاتون أيّوب، الإنسان القدّيس، الذي يفضّل أن يقاسي في جسده أمرّ العذابات على أن يتحدّى سائر الشرور بالانتحار؛ كذلك سائر القدّيسين الذين تقدّمهم إلينا الكتب المقدّسة ذات السلطان الجديرة بالإيمان؛ أناس يقبلون الحديد وسيطرة الأعداء ويرفضون التخلّص الاختياريّ منها. لنحمل بأيدينا الكتب العالميّة مفضّلين ماركوس راغولوس على مَارْكُوس كاتُون! ما تغلّب كاتون قطّ على القيصر؛ ويأنف من الخضوع لقيصر الظافر؛ ولئلّا يخضع له قرّر أن ينتحر. راغولوس الذي انتصر على القرطاجيّين الذي رئس الجيوش الرومانيّة لمجد روما الظافر بالأعداء من من دون

مواطنيه، أحرز نصرًا أسال دموع الغرباء من دون دموع المواطنين. ومنذ ذلك الحين، ولمّا انهزم، آثر نير العبوديّة الثقيل على موت يتحرّر به منه. ما ضعف صبره قطّ تحت حكم قرطاجة ولا حبّه القويّ لروما خفّ. فتخلّى لأعدائه عن جسم مهزوم واستبقى لروما قلبًا لا يقهر. وإن لم يتخلّ عن حياته فليس تعلّقًا بها ما دام أنّه برهن عن ذلك بأمانته لقسَمه وخروجه من مجلس الشيوخ عائدًا إلى أعدائه الذين جرحهم بكلامه حتّى الموت أكثر ممّا فعل بهم سيفه. وعزم على تحمّل جميع أنواع التعذيب القاسية حتّى الموت. ومع أنّه يزدري الحياة نراه يعتبر الانتحار جرمًا فظيعًا. فيجد الرومان بينهم إنسانًا أفضل منه وأعظم؟ عندما انتصر ظلّ فقيرًا ولم يغره زهو الانتصار. فلا المصيبة قهرته؛ ولا العذابات منعته من العودة. وعلى هذا النحو فإنّ أولئك الأشاوس المدافعين عن الوطن الأرضيّ الذين يعبدون حقًّا آلهة الكذب ولا يحلفون باسمهم بالباطل بالرغم من العادة المرعيّة والحقّ بالحرب ضربًا للعدوّ المهزوم، وإذ انهزموا أمام خصمهم يأبون أن ينتحروا؛ ويؤثرون ذلّ الاستعباد على الموت الذي قد يواجهونه بلا وجل! أي واجب على المسيحيّين عبدة الإله الواحد الحقّ محبّي الوطن السماويّ لا يفرض عليهم الكفّ عن مثل ذلك الجرم عندما تسمح العناية الإلهيّة، على سبيل الامتحان، أو العقاب، بتسليمهم إلى أعدائهم، إلى زمن؟ ألا يعلمون أنّ تواضعهم محفوظ لدى ذلك الذي نزل متواضعًا من علُ؟ أو لم يتحرّروا من النظام البربريّ والحقّ الوحشيّ المطالب بدم المغلوب؟

وعليه ما هو هذا الخطأ الشنيع؟ أينتحر إنسان تكفيرًا تداركًا لجرم إنسان آخر وقع أو يجب أن يكون ضحيّة له، عندما لا يجرؤ أن يضحّي بخصمه، بداعي الخوف، أو الثأر لتلك الإهانة؟ وما يجب أن يخشاه كلّ إنسان هو أن يفاجئ الجسد الروح بقبول الجرم بعد أن تستهويه لذّة حيوانيّة وتستولي عليه. وليس الانتحار تحاشيًا لخطيئة الآخرين إنّما هروبًا من الخطيئة الشخصيّة. إنّه لمَن المستحيل أن يقبل القلب، أسير الله وحكمته، الحرّ من الغرائز اللحميّة، بتلك الحركات الجسديّة المخجلة التي تثيرها فيه شراسة غريبة؛ حتّى إن كان جرم القتل الانتحاريّ مكروهًا كلّيًا ومشجوبًا كما تعلن عنه الحقيقة فأيّ إنسان بلغ به الجنون حدّ القول: «لنخطأ الآن» لئلّا نخطأ فيما بعد «ولنُقْتَل الآن لئلّا نرتكب خطيئة الزنى». ماذا أقول: إن كان الشرّ متملّكًا فينا حتّى أفقدنا حرّيّة الاختيار بين البرارة والجرم وفرض علينا الإثم دون سواه أليس من المفضّل افتراض الزنى مستقبلًا على القبول حاليًا بالقتل المؤكّد والقبول بالخطيئة التي تشفي منها التوبة على مَن يتحدّى الندامة؟ أتوجّه بهذا الكلام إلى المؤمنين الذين، خوفًا من السقوط في ضعفهم الشخصيّ أمام شراسة الآخرين يظنّون أنّه يجب عليهم أن يعاملوا أنفسهم بعنفٍ قاتل. حاشا للنفس المسيحيّة التي تضع ثقتها ورجاءها وقوّتها بالله أن تقبل السقوط الأثيم في ظلّ شهوة الحواس! وإذا ما تحرّكت تلك الشهوة الجامحة الكامنة في أعضاء الموت فينا، تلقائيًا، مستندةً إلى سنّتها الخاصّة ضدّ سنّة الروح، فالإرادة حتمًا ترفضها لأنّها نائمة.

ولكن يقولون إنّ نساء قدّيسات في زمن الاضطهاد قد قَبِلْنَ الغرق في النهر والموت، هروبًا من العار، حيث هلكن، علمًا بأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تحتفل بذكرى استشهادهنّ بكلّ ورع؛ وهاهنا أمتنع عن أيّ سوء ظنّ؛ هل أوحت السلطة الإلهيّة إلى الكنيسة من خلال اتّصالات جديرة بالثقة بأن تكرم ذكراهن؟ لست أدري؛ قد يكون. مَن يدري هل قد استسلمن في الواقع لا إلى توجيه بشريّ، بل إلى أمر الله طوعًا، ولا إلى الخطأ على مثال شمشون ولا يجوز الاعتقاد بخلاف ذلك؟ على أنّ الله عندما يأمر وينهى بوضوح لا يجرؤ أحد على مخالفة إرادته؛ إذ ذاك مَن يستطيع أن يتّهم ذاك التسليم التقويّ؟ وهل هذا يعني أنّ الإنسان يستطيع أن يفكّر في تقديم ابنه لله لأنّ إبراهيم فعله بقداسة؟ الجندي الذي يقتل تلبية لأمر سلطة شرعيّة لا يُعتبر قاتلًا أمام أيّة سلطة شرعيّة. ماذا أقول؟ إن لم يضرب يُتّهم بالخيانة والتمرّد. وإن عمل تلقائيًا يبقى مسؤولًا عن الدم البشريّ الذي يسفكه. ويعاقب، بالفعل عينه، الذي صنعه بدون أمر، أو لم يفعله، بالرغم من الأمر. إن كانت هذه هي الحال عندما يأمر رئيسٌ ما فكيف تكون عندما يكون الخالق آمرًا؟ فليضرب المؤمن نفسه وإن علم أنّ الانتحار ممنوع، طوعًا لأمر مَن لا يحقّ له أن يزدري أمره! هذا إذا تثبّت بوضوح كلّيّ من الإرادة الإلهيّة وانتفى عنه كلّ شكّ. في ما يخصّنا يبقى السمعُ الدليلَ الوحيد لتوجيه الضمير؛ ولا ندّعي الحكم على ما هو خفيّ: «لا أحد يعرف ما في الإنسان غير روح الإنسان الذي فيه» (١ كو ١١/ ٢) ولكن

تلك هي فكرتنا وقناعتنا وتعليمنا أن لا أحد يستطيع أن ينتحر، لا هربًا من عذابات زمنيّة، ولا خوفًا من اللجج الأبديّة لأنّ الهرب من هذا الجرم الغريب الذي يدعنا أطهارًا يجرّنا إلى جرم شخصيّ، لا بسبب الخطايا الماضية، لأنّ التوبة تحتاج إلى الحياة لتشفي منها، ولا توقًا إلى حياة أحسن يرجوها بعد الموت، لأنّ ميناء حياة سعيدة لا يفتح أبوابه بوجه المجرمين الذين تسبّبوا بموتهم الشخصيّ.

٢٧

الانتحار مرفوض أيًا يكن السبب

وأخيرًا إليك السبب الأخير الذي لمسته لدى مَن يظنّ أنّ الانتحار مفيد، خوفًا من أن ينعطف الشخص إلى اللذّة، أو تهرّبًا من حدّة الألم، فيقع في الخطيئة. لو كان هذا السبب مقبولًا لوجدنا أنفسنا مضطرّين إلى النصح به وإيثار الانتحار بعد التطهّر بالماء المقدّس في سرّ التجديد، ساعة ينال الإنسان الصفح عن جميع خطاياه؛ وهو الزمن الذي يتدارك المرء فيه آثامه المستقبليّة بعد أن يلغى الماضي بأكمله حتّى إذا كان الموت وسيلة مقبولة فلِمَ التسويف؟ هذا مؤمن يخرج من العماد فلِمَ يتمسّك بالحياة؟ ولِمَ يعرّض لجميع الأخطار العالميّة هذه الجبهة المحرّرة حديثًا؟ من السهل التخلّص منها بالموت. أو لم يقل الكتاب: «مَن أحبّ الخطر وقع فيه»؟ ولِمَ محبّة هذا العدد الضخم من الأخطار؟ وإن كنّا لا نحبّها فلماذا نلتزم بها؟ ولِمَ البقاء في هذه الحياة إن جاز الخروج منها؟ أإلى هذا الحدّ تغوص النفس في ظلمات الجرائم فتنحرف في سفالتها عن وجه الحقيقة فتختار الموت لئلّا يدفعها

ظلم إنسان مستبدّ إلى الجريمة؛ وكأنّ الحياة واجب لتقبل العالم المليء في كلّ ساعة بتلك التجارب التي يخشاها الإنسان تحت إمرة ربّ واحد وبعدد لا يحصى من التجارب الأخرى التي يستحيل التخلّي عنها في حجّتنا على هذه الأرض؟ ولِمَ تضييع الوقت في إرشاد المعمّدين وحثّهم على محبّة الطهارة والتبتّل والعفّة في الترمّل وأمانة المضجع الزوجيّ عندما تتقدّم طريقة أخرى أقصر وأضمن وفي مأمن من الخطيئة؟ الموت، حيث علينا أن نستعمل كلّ ما لدينا من فصاحة لندعو بها أبناء النعمة الحديثي العهد، ونبعث بهم إلى الربّ، أسلم وأنقى؟ كلّا، ثمّ كلّا؛ الاعتقاد بأنّ هذا التدبير يمكن العمل والنصح به، مرفوضٌ جملة وتفصيلًا؛ لا لكونه غير معقول وحسب بل لأنه بلاهة وخبل. وكيف يقال: مت؛ بصفتك أسير إنسان همجيّ يخشى عليك من أن تزيد خطيئة رئيسيّة على خطاياك العرضيّة؛ مت واستفد من الحلّة الحديثة تجنّبًا لسقطات رهيبة توقعك فيها حياتك في هذا العالم المليء بالملذّات والفظاعات الغريبة، الرهيبة، التي لم تخطر على قلب بشر بما فيها من إغراءات مقرونة بالغضب والجنون! أجل إنّه لجرم فظيع أن يتكلّم الإنسان على هذا الشكل وتاليًا إنّه لجرم الانتحار؛ وكأنّ للموت الاختياريّ سببًا شرعيًّا!! ولا داعي له هاهنا البتّة. فيا بنات المسيح القدّيسات لا تثقلن الحياة عليكن إن كان الأعداء قد تلاعبوا بعفافكن... التعزية الكبرى والحقيقية، لكن هي، بالشهادة الصادقة الصادرة عن ضميركن، إذ رفضتنّ الخطيئة التي ارتكبت بحقّكن.

٢٨

قد تقولون: ولم سمح بذلك؟ يا لأسرار العناية الإلهيّة التي أبدعت الكون وتدبّره! أحكامها لا تدرك وطرقها لا تفحص! هل الطهارة والعفّة مواهب لا تغذّي فيكن الكبرياء؟ ارتضيتنّ بمدائح الناس، لكن ألا تدبّ الغيرة في نفوس الأخوات بسببها؟ أنا لست في موقف مَن يتّهم ولا أنتظر جوابًا من الأخوات على ذاك التساؤل. ولكن، إن صحّ الأمر، فلا تعجبن لفقدان ما جعلكن حريصات جدًّا على كسب رضى الناس والحفاظ على ما لا يستطيعون أن يروه بأعينهم. إن لم تشاركوا في الخطيئة فبعون من الله تمّ ذلك واقترن بنعمة منه تعالى حفظتها. لكنّ الذلّ البشريّ يعقب المجد البشريّ لئلّا تتعلقنه. في الاثنين تعزية للنفوس الضعيفة: الامتحان يبرّر والقصاص يعلّم. إنّ اللواتي تثبّتْنَ بواسطة ضميرهن من عدم الاستسلام إلى كبرياء التبتّل والتعفّف وانعطفن، قلبيًّا، إلى التواضع وتمتّعن بعطيّة الله بوجل، غير مباليات بمدائح الناس التي تنتصر عادة وتنشط بقدر ما تكون الفضيلة التي تستحقّها نادرة، ومن غير أن يحسدن أحدًا على كنز المحبّة والعفّة الذي له يؤثرن الاندماج في العدد على التمايز في وحدة النفوس القدّيسة؛ وإن عانى بعضهن شراسة ووحشيّة فلا يتّهمْن الله ولا يخامرْهن شك في عنايته التي تسمح بما لا يبقى دون عقاب؛ لأنّه غالبًا ما يترك العنان بحركة منه سرّيّة لسلسلة الشهوات الرديئة إبقاء عليها حتّى العدالة الأخيرة. وهؤلاء النساء ضحايا عنف الأعداء حتّى ولو لم يكن ضميرهنّ يوبّخهن على أنفة الفضيلة قد يكون فيهنّ ضعف خفيّ يتحوّل إلى صلف لولا

الهوان الذي لقينه إبان تلك الكارثة العموميّة؛ مَن يدري؟ بعضهم يموت خوفًا من أن يُفسد الإغراءُ الإرادة؛ وبعضهم الآخر يذهب ضحيّة العنف لئلّا يشوّه الازدهار بساطته؛ وعلى هذا النحو فلا النساء المتباهيات، بشرف سليم، ولا أخواتهنّ اللواتي، لسوء الحظّ، لم يحصل لهنّ هذا الفخر، فقدن عفّتهنّ، وقد ربحن التواضع. شفاءً من جهة ووقاية من جهة أخرى. وأخيرًا علينا أن نتذكّر أنّ كثيرات استطعن أن يعتبرن العفّة موهبة جسديّة تبقى ما بقي الجسد سليمًا من كلّ عيب خارجيّ؛ وليست خيرًا متعلّقًا بالإرادة دون سواها بمساعدة النعمة الإلهيّة التي تقدّس النفس والجسد وليس كخير يستحيل فقده دون موافقة باطنيّة؛ وذاك ضلال نجون منه؛ وعندما يفكّرن في الاستقامة الداخليّة التي خدمن الله بها فإنّ إيمانهنّ الراسخ لا يسمح لهنّ بالظنّ أنّ الله يتخلّى عمَّن يعبدونه ويدعونه هكذا ويعرفون مدى رضاه عن العفّة ومن ثمّ يصلون إلى هذا اليقين بأنّ الله ما كان ليسمح بتلك المصيبة لقدّيسيه المحبوبين لو قدّر للقداسة التي أحبّها فيهم أن تضيع.

٢٩

إنّ عائلة الله الحقّ القدير تنعم بتعزية لا تغشّ، مرتكزة على رجاء لا يخيّب؛ رجاؤها لا يتّكل على الأشياء الزائلة؛ والحياة الزمنيّة هذه هل لها أن تزدري بها ما دامت دار ابتداء تعدّ للأبديّة؛ وفيها تستعمل خيور الأرض كالغريبة دون أن يتوقّف عليها قلبها؛ وحيث المصائب تأديب وامتحان؟ وأولئك

المجدّفون بسبب عذابها، الصارخون في أيّام الضيق قائلين: «أين إلهك؟» فليجيبوا بدورهم: «أين يكون آلهتهم عندما يتألّمون مثلها؟» مع ذلك، لكي يتلافوا تلك الشرور يعبدون آلهتهم أو يزعمون أنّه يجب أن يعبدوهم. أمّا جوابها فها هو: «إلهي حاضر في كلّ مكان وبكليته حاضر؛ لا يعرف حاجزًا؛ حضوره سرّيّ وغيابه يصير بلا تنقّل. عندما ينخزني بمهماز الشدّة يمتحن فضيلتي ويعاقب معاصيّ. ولقاء تلك المصائب الزمنيّة التي أحتملها بتقوى يعدّ لي مكافأة أبديّة. ولكن، أنتم، مَن أنتم، لكي نحدّثكم حتّى عن آلهتكم ونحدّثكم عن إلهنا، الإله الرهيب فوق كلّ الآلهة؟! جميع آلهة الأمم شياطين؛ «الربّ هو صانع السماوات» (مزمور ٩٥/ ٤).

٣٠

لو أنّ شيبيون الشهير(*)، حبركم فيما مضى، الذي اختاره مجلس الشيوخ بالإجماع كأفضل مواطن لكي يستقبل إلهة فريجيا تحت هول حرب قرطاجة، ما زال حيًّا، لما كنتم تتجاسرون على النظر إلى وجهه، هو الإنسان العظيم؛ لو أنّه حيّ لوبّخكم على وقاحتكم لأنّكم في مصابكم تتّهمون مجيء المسيح وتتذمّرون منه. وفي الواقع أليس لأنّكم تريدون التمتّع، دون إزعاج، برذائلكم، أحرارًا من كلّ عذاب جهنّميّ، لا يطاق، والغوص، ما شئتم، في فسادكم؟ تشتهون السلام والبحبوحة والخيرات، ألكي تتمتّعون بها بطريقة شريفة واعتدال وخوف الله؟ كلّا ثمّ

(*) عَمِل على تدمير قرطاجة.

كلّا؛ تنوّع من الملذّات، لا ينضب له معين، وهدر جنونيّ. وأخيرًا نموّ خصب في الخراب الأخلاقيّ أشدّ هولًا من سيف العدوّ: ذاك ما تسعون إليه. تحدّث عنه مسبقًا شيبيون، حبركم العظيم، أفضل الرومانيّين، على حدّ قول مجلس الشيوخ عندما اعترض على تدمير قرطاجة مناهضًا لرأي كاتون الذي ألحّ على تدميرها؛ لقد كان يخاف على النفوس المتراخية من عدوّ آخر هو الأمن؛ وأبى أن يحرّر القاصر الرومانيّ من الخوف وصيّه الضروريّ فبرّر الحدث احترازه فدُمّرت قرطاجة وقضي على الرعب الأبديّ الذي كان يلفّ رومة ودُفن تحت أنقاضها؛ إذ ذاك أنجب الحظّ سلسلة مشؤومة من المآسي فتحطّم الوفاق، وتطاير شظايا، عقبتْه اضطرابات دمويّة وترابطت أحداث أدّت إلى حروب داخليّة؛ الكوارث فظيعة والدم يسيل أنهارًا. وكان في الناس عطش جامح إلى الملاحقات والنهب؛ والرومان الذين ما خافوا في عصور الفضيلة إلّا من أعدائهم صاروا يخافون اليوم، بعد أن خسروا أخلاقهم الموروثة، من مواطنيهم؛ وشهوة التسلّط هذه بين كلّ شهوات الجنس البشريّ والتي تسكر بها النفس الرومانيّة تغلّبت على عدد قليل من أقوى الناس ووجدت مَن بقيَ تَعِبًا منهوك القوى فاستعبدته.

٣١

هل تستطيع شهوة جامحة أن تستقرّ في تلك النفوس المتعالية قبل أن تصل إلى القدرة الملكيّة على طريق التكريمات المستمرّة؟ وهذه التكريمات هل كانت لو لم يتغلّب الطموح؟ على أنّ

الطموح، ما كان ليتغلّب، إلّا عند شعب أفسده الجشع والدعارة اللذين أنجبهما ذاك الازدهار الذي أراد شِيبِيُون ناشِيا أن ينجّي منه، بحكمته، روما بالإبقاء على خصمها اللدود والقويّ. أجل كان يبغي ضبط غريزة الحرّيّة الزائدة والدعارة بواسطة الخوف ويكبح جماح البغاء، بواسطة البخل، كما أراد أن تتجذّر الفضيلة وتزدهر في الجمهوريّة وتتنامى فيها الحرّيّة الضروريّة للفضيلة، عن طريق كبت الرذيلة والدافع إلى هذا الموقف من قبل ذاك الحبر الأعظم الذي اعترف به مجلس الشيوخ بالإجماع كأفضل الرجال هو محبّته للوطن؛ لقد أقنع زملاءه بأن يعدلوا عن بناء ذاك المسرح الكبير بما كان عليه من فصاحة لأنّه مشروع فاسد ومُفسد تدخل بواسطته إلى البيت من الخارج تلك الحرّيّة الزائفة والزائدة مع الرذيلة الإغريقيّة لتقضي على الآداب التقليديّة الرومانيّة وتفسد وتخنّث رجولة القوّة الرومانيّة. لقد أيقظ بكلامه ونفوذه مجلس الشيوخ الذي اهتمّ للحال، فمنع المقاعد التي أخذ المواطنون يستخدمونها لحضور الألعاب المسرحيّة. بأيّ اندفاع راح ذلك الإنسان العظيم يحرّم تلك الألعاب وكيف استطاع أن يقوم ضدّ سلطة مَن كان يظنّهم آلهة، لو لم يكن يعلم أنّهم أبالسة رهيبون! لربّما عرف ذلك؛ لكنّه اعتقد بأنّ من الضرورة تهدئتهم، لا الازدراء بهم، لأنّ ذلك التعليم السماويّ لم يكن قد أوحي به إلى الأمم والذي يسمو بالقلب البشريّ إلى السماء وما فوق السماء بعد أن يطهّره بالإيمان؛ التقوى المتواضعة تحوّل حبّه؛ وتحرّره من طغيان الأرواح الخبيثة.

٣٢

تعلّموا أنتم أيّها الجهلة، أنتم يا مَن تتظاهرون بالجهل؛ وإذ تخلصون من أمثال أولئك المستبدّين، تمتموا ضدّ محرّركم واعلموا أنّ تلك الألعاب المسرحيّة والمشاهد الخلاعيّة وفسق الأباطيل لم تقم في روما برذائل البشر بل بأمر من آلهتكم. أوليس الأفضل توجيه الإكرام الإلهيّ إلى شيبيون لا إلى أمثال أولئك الآلهة؟ وهل كان هؤلاء بمستوى حبرهم؟ أصغوا هل عقلكم، الذي سكر طويلًا من شراب الضلال، يترك لكم بعض هنيهات من الهدوء؛ انتبهوا؛ إنّ ألهتكم يطالبون بهذه الألعاب المسرحيّة تهدئة للطاعون، قاتل الأجساد، في حين أنّ حبركم يعترض على بناء مسرح ما، تلافيًا للطاعون الأخلاقيّ. إذا بقي لكم قبس من العقل يدفعكم إلى تفضيل النفس على الجسد عليكم أن تختاروا هاهنا آلهتكم. هل انتقلت العدوى من الأجساد لكون عدوى الألعاب المسرحيّة أشدّ نفاذًا إلى العقول الحربيّة التي اعتادت حتّى ذاك الحين، ما يصير على الملاعب الشعبيّة؟ كلّا؛ بيد أنّ خبث العقول الجهنّميّة الذي يعرف مسبقًا أنّ واحدة من هاتين العدوّتين سوف تقضي على الأخرى تمسك بفرح رهيب، بهذا الظرف، لتشنّ هجومًا شديد الخطورة، لا على الحياة بل على الأخلاق. يا له من عمى أسود! يا له من فساد مقيت! وهل يظنّ الخلف أنّ تلك النفوس المريضة التي نجت من خراب روما، ما إن كادت تلجأ إلى قرطاجة حتّى راحت يوميًّا إلى المسرح، تفجّر حماسة جنونيّة لممثّلين فاشلين؟

٣٣

يا لها من عقول تتخبّط في هذيان! ما هو هذا الضلال العجيب؟ ماذا أقول؟ بل ما هو هذا الجنون؟ شعوب الشرق قاطبة تبكي على روما؛ في أقاصي الأرض كما في المدن الكبيرة ذهول تامّ وحداد عامّ!! وأنتم تركضون إلى المسارح تحاصرونها وتملأونها؛ وجنونكم يثير مَكْرهًا وتأثيرها! إنّه الداء، هذه الآفة للنفوس، هذا القضاء الكامل على الشرف والاستقامة؛ ويعرف ما كان شيبيون يخشى منه عليكم؛ عندما يعترض على المسارح ويدرك مسبقًا السهولة التي يتمتّع بها الحظّ السعيد لكي يفسدكم ويهلككم، إذ كان يرفض أن يحرّركم من خوف قرطاجة لأنّه ما كان يؤمن بسعادة مدينة، أسوارها قائمة، وأخلاق بنيها في خراب؛ بيد أنّ الأرواح الشرّيرة أغوتكم فانصعتم لها؛ وتركتم أناسًا بعيدي النظر يعملون لخلاصكم كما أنّكم تتنصّلون من الشرّ الذي تعملونه وتعزونه إلى الدين المسيحيّ؛ في حالات الأمن لا تحبّون سلام الجمهوريّة بل الفوضى التي لا يطالها العقاب تحبّون. الازدهار أفسدكم والضيق عجز عن إصلاحكم؛ لقد أراد شيبيون العظيم أن يكون الخوف من العدوّ حافظًا لكم من السقوط في الرذيلة، فإذا بكم وقد سحقكم العدوّ تضيعون ثمرة الهزيمة وتتمرّغون في أوحال الرذيلة حتّى أصبحتم أشقى الناس وشرًّا منهم؛ مع أنّكم تعيشون؛ وهذه نعمة من الله الذي يدعوكم برأفته إلى أن تُصلحوا ما فيكم بواسطة الندامة. أذن لكم بالنجاة، تحت اسم خدّامه، من غضب أعدائكم، إلى مباني شهدائه.

٣٤

قيل إنّ رُومُولُوس ورِمُوس فتحا ملجأ لا يطال العقاب كلّ مَن يحتمي فيه، بغية إيجاد سكّان لمدينة روما التي راحا يبنيانها؛ فيا لها من سابقة رائعة لتلك الرأفة، المعلن عنها، ماضيًا، كرامة للمسيح! إنّ الذين هدموا روما يكرّرون المرسوم القديم لمؤسّسيها؛ وهل من عجب أن يأمر هؤلاء، بغية تكثير عدد مواطنيهم، ما قد أمر به أولئك من أجل خلاص جماهير أعدائهم؟؟ على العائلة التي اشتراها السيّد المسيح، ملكنا، المدينة الغريبة هاهنا، أن تردّ هكذا على أخصامها بما يناسب؛ وبمزيد من الفصاحة، إن أمكن!!

٣٥

عليها أن تتذكّر بأنّ أعداءها أنفسهم يخفون في صفوفهم عددًا كبيرًا ممَّن سوف يصبحون مستقبلًا، مواطنين لها؛ لئلّا تظنّ أنّ صبرها عليهم عقيم فتحملتهم كأعداء مع الأمل بأن تفرح بهم كمعترفين!! عليها أن تتذكّر أيضًا بأنّ كثيرين ممَّن اشتركوا معها في الأسرار خلال مسيرتها في هذا العالم لم يشتركوا معها في المجد في سعادة القدّيسين الأبديّة؛ سواء أكانوا معروفين أم لا؛ إنّ أولئك الناس المختومين بالخاتم الإلهيّ لا يخشون الانضمام إلى أعداء الله ليتمتموا ضدّه فيملأون أحيانًا المسارح معهم؛ وأحيانًا أخرى الكنائس معنا؛ على أنّه لا يجوز لنا أن نيأس من توبة الكثيرين بينهم إلى الله؛ إن كان بين مَن يعلنون بصراحة كلّيّة خصومتهم لنا أصدقاء اختيروا للسماء على غير علم منهم لأنّ

المدينتين تترابطان وتختلطان في هذا العالم حتّى الدينونة الأخيرة التي تفصل بينهما، إنّي أريد أن أتبسّط بدروسي وأفكاري حول أصلهما ونموّهما والنهاية التي تنتظرانها، بعون الله تعالى، لمجد مدينة الله التي تزداد وضوحًا من خلال التوفيق بين كثير من التناقضات.

٣٦

يبقى عليّ أن أقول شيئًا ما، بشأن الذين يلقون مسؤوليّة ما حلّ بروما على ديانتنا، لأنّها تحرّم تقديم الذبائح لآلهتهم؛ علينا أن نذكر، وفقًا للمساحة التي تشغلها ذكرياتنا أو ما يحتاج إليه موضوعنا، كلّ الكوارث التي حلّت بهذه المدينة وبالمقاطعات الخاضعة للإمبراطوريّة قبل حظر تلك الذبائح؛ إنّها لكوارث قد ينسبونها إلينا، ولا شكّ لو قيض لديانتنا أن يشعّ نورها وتحرم احتفالاتهم النجسة. فلنبيّن الفضائل والغاية التي من أجلها تنازل الله وقدّم مساعدته تكبيرًا للإمبراطوريّة، الله الحقيقيّ الذي يضبط بيده ممالك الأرض كلّها، لا أولئك الآلهة المزعومون الذين أساؤوا جدًّا بشهرتهم وإغراءاتهم. وأخيرًا يجب أن نقوم ضدّ الذين دحضتهم الشهادات الصريحة الواضحة المقنعة وظلّوا مع ذلك مصرّين على أنّ عبادة الآلهة ضروريّة لا لمصلحة الحياة الحاضرة بل لتلك التي تعقب الموت. إنّها لمسألة شائكة جدًّا، إن صحّ قولي، إذ من خلالها ندخل في نزاع مع الفلاسفة المشهورين، الحائزين، بحقّ، أعلى درجات المجد؛ ومتّفقون معنا على خلود النفس، وحقيقة إله واحد خالق العالم وعلى

عنايته التي تدبر ما صنعه. ولكن بما أنّهم يعلنون من جهة ثانية عن أفكار مناهضة لأفكارنا فمن الضروريّ علينا أن نحاربهم؛ وأنّه لواجب لا يجوز أن نتراجع عنه حتّى إذا ما نقضنا كلّ ما يعترض به الكفر علينا بكلّ ما يمدّنا الله من قوّة نثبت آنذاك المدينة المقدّسة والتقوى الحقيقيّة وعبادة الإله الذي به وحده يتحقّق لنا الوعد بالسعادة الأبديّة. وعليه فإنّنا نضع الآن حدًّا لهذا الكتاب لنتابع مرّة أخرى ما تبقّى من هذه الخواطر.

الكتاب الثاني

مقدمة

يرى أوغُسطِينُس، لزامًا عليه، قبل أن يباشر المقارنة بين تاريخ مدينة الله ومدينة الأرض أن يدافع بمسؤوليّة الكوارث الأخيرة التي حلّت بروما عن الديانة المسيحيّة التي حرّمت تقديم الذبائح إلى الآلهة ويلقي بمسؤوليّة خراب النبات والحجر فيها على الآلهة لأنّهم أقاموا فيها، من خلال طقوسهم التي فرضوها ودعوا الناس إلى ممارستها، مدرسة لاأخلاقيّة، عمّمت الفساد على طبقات المجتمع.

وما كان الآلهة ليعلّموا الناس أن يعيشوا عيشة لائقة تُحتَرم فيها الآداب وتُصان الأخلاق؛ وذلك بشهادة أناس أفاضل من الرومان أمثال شِيبيون ناشيا وشيبيون الإفريقيّ فكان انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة نتيجة حتميّة لانهيار الأخلاق تسبّبَ به فساد ديانة الرومان. فالفساد الدينيّ أوصل إلى الفساد الخلقيّ والفساد السياسيّ. واستسلم الشعب إلى نزواته وأشباع ملذّاته ولم يعد يطالب الدولة بإقامة العدل وصيانة حقوق الإنسان.

واتّبَع أوغسطينس أسلوبًا خاصًّا بيّن فيه الصلة الوثيقة بين الديانة الرومانيّة والصورة التي تعطيها على المسرح في ممارسة

العبادة كما بيّن الارتباط المتماسك بين فساد الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة والانهيار السياسيّ الذي أودى بالأمبراطوريّة الرومانيّة، والديانة تُعرَف من خلال الصور التي تعطيها والأمثلة الحيّة التي تقدّمها والتي يجد فيها الشعب غذاءًا له مميتًا. ولقد أعطت الآلهة في روما أسوأ ما يمكن من صور وأمثلة يتصوّرها عقل بشريّ.

١

إن كان العقل البشريّ، الضعيف والمريض هنا، يعجز عن أن يقاوم بهاء الحقيقة، يعالج أمراضه بتعليم الخلاص، آملًا أن تشفيه النعمة الإلهيّة بواسطة الإيمان والمحبّة، حسبه، دون الكلام الكثير، حسٌّ مستقيم وقدرة على التعبير ليقنع كلّ ضلال بأنّه عدم؛ بيد أنّ هذا الداء الذي يفتك بالعقول التائهة يزداد اليوم ضررًا حتّى إنّه بعد كلّ الدوافع الممكنة التي ينتظرها الإنسان من إنسان آخر يصاب بالعمى؛ ولا يعود يرى الحقيقة، أو يصاب بعناد فلا يقوى على قبولها، يحمل تلك العقول في هذيانها على اعتبار تصرّفاتها منطقًا وحقيقة. وعليه فمن الضروريّ التبسّط بإسهاب في شرح حقائق واضحة لا بإظهارها للذين يرون، بل لنضرب بها العيون التي ترتدّ عنها ونجعل أصحابها يلمسونها لمس اليد؛ ومع ذلك، كيف نضع حدًّا لمناقشاتنا وأحاديثنا إن كان علينا أن نجيب على كلّ جواب؟ إنّ عدم الفهم والعناد المكابر يردّان هكذا: «ينطقون بالصلف ويهذرون» (**مزمور** ٩٣/ ٤). إن شئنا أن ندحض آراءهم كلّما أعلنوا عنها، بغية مناقضتنا، وحسب، يكون العمل عقيمًا لا ينتهي ولا يرجو منه الإنسان شيئًا!! يا أيّها العزيز مرسلّينس لا أريدك حَكَمًا في ما أكتبه، لا أنت، ولا واحدًا ممَّن أوجّه إليهم ثمار سهري إن كنتم تطالبوني بجواب على كلّ مناقضة توجّه إليّ أشبه بما يقول الرسول: «يتعلّمنَ دائمًا ولا يبلَغْنَ معرفة الحقّ أبدًا». (**٢ تيم** ٣/ ٧)

٢

لقد تطرّقت في الكتاب السابق إلى عمل المدينة المقدّسة الذي أقرّر أن أرفعه، بعون الله؛ واعتبرت الإجابة على الكفرة الذين يعزون آفات الحرب التي حطّمت العالم، ولا سيّما مأساة روما، إلى الدين المسيحيّ، واجبًا عليّ مسبقًا؛ لأنّه يحرّم عليهم عبادة الأبالسة الممقوتة. بيد أنّ واجبهم يفرض عليهم أن يرفعوا الشكر للمسيح على الرأفة الغريبة التي أظهرها لهم البرابرة، حبًّا، لاسم المسيح؛ فانفتحت أمام المهزومين الأماكن الأقدس والأرحب يلجأون إليها؛ ولم يمسّ بأدنى أذى كلّ مَن جاهر، عن صدق، بالمسيح أو ادّعى ذلك، عن خوف، حتّى إنّ المنتصر لم يسمح لنفسه باستعمال حقّ الحرب. هنا برز السؤال التالي: لِمَ شمل هذا الإنعام الإلهيّ الأثمة وناكري الجميل؟ ولِمَ شملت كوارث الحرب الصالحين والأشرار على السواء؟ إنّه لسؤال يهتمّ بتقلّبات الحياة العصريّة وما تعرفه من نِعَم إلهيّة، ومصائب بشريّة، يعيشها الصالحون والطالحون بلا تمييز؛ أجل، سؤال يستوقف عددًا كبيرًا من العقول للتفكير فيه؛ كما يستوقفني، بعض الوقت، إيجاد الجواب عليه، وفقًا لغاية هذا الكتاب؛ وبخاصّة تعزية للنساء القدّيسات اللواتي جُرِحن في خفرهنّ دون طهارتهنّ؛ لئلّا تكون الحياة وخزَ ضمير، ما دُمنَ ليس عليهنّ أن يندمن على شيء. ثمّ توجّهت بوجيز الكلام إلى أولئك الأنذال يشتمون المؤمنين المتألّمين والنساء القدّيسات، أخواتنا، اللواتي حفظن طهارتهنّ وامتُهن خفرهنّ، وهم أشدّ الناس وقاحة وفجورًا. فيا لهم من ذرية سافلة للرومان الذين يحفظ لهم التاريخ أشرف

الذكريات! ماذا أقول؟ يا لهم من أعداء ضحّوا بمجد آبائهم! إنّ روما التي ولدت ونشأت بفضل شجاعة الأجداد جعلوها في عزّها، أشدّ خجلًا منها في هزيمتها. هنا دمار في النبات والحجر ومن خلال حياتهم سقطت القوّة والجمال الأخلاقيّ؛ فكانت قلوبهم تتحرّق بالشهوات أكثر من النيران التي تلتهم سطوح المنازل. هكذا أنهيت الكتاب الأوّل وأريد الآن أن أذكر بكلّ الشرور التي تحمّلتها روما، سواء في الداخل أم في سائر المناطق التابعة لها؛ شرور يحمّلون الدين المسيحيّ مسؤوليّاتها كما لو أنّ حرّيّة القول الإنجيليّ اعترضت بقوّة على آلهتهم الكذبة والخدّاعين.

٣

إتهام الدين المسيحي بالكوارث زور وبهتان

ولكن عليك أن تتذكّر بأنّي أرافع هنا ضدّ جهلة أعطى جهلهم المثل التالي: «إنحبس المطر عن الأرض والمسيحيّون هم السبب». وإن يكن بينهم مثقّفون كثيرون يحبّون التاريخ وقد اطّلعوا بسهولة على الأحداث التي سوف أرويها، نراهم يثيرون علينا عددًا كبيرًا من رعاع القوم، متظاهرين بالجهل، ساعين إلى إقناع العامّة بأنّ تلك الكوارث التي ضربت الجنس البشريّ في أوقات وأمكنة مختلفة تجد سببًا وحيدًا لها في الاسم المسيحيّ الذي تمتدّ له شعبيّة كاسحة في كلّ مكان للقضاء على آلهتهم. فليتذكّروا الأزمنة التي سبقت مجيء المسيح والدعاية العظيمة لاسمه التي يغارون منها دون جدوى؛ ليتذكّروا الكوارث العديدة المتنوّعة

التي حطّمت الجمهوريّة الرومانيّة؛ وإن أمكن فليعملوا على حماية هؤلاء الآلهة الذين لا يعبدونهم إلّا لكي يبعدوا عنهم العذاب الذي يتهموننا به اليوم. ولماذا سمحوا بعذاب خدّامهم قبل أن يستهين اسم المسيح الممجّد بهم ويحرّم مذابحهم؟؟

٤

خلاعة الآلهة لدى الرومان

وقبل كلّ شيء لِمَ لا يهتمّ الآلهة بهذه الفوضى الأخلاقيّة؟ لقد أهمل الإله الحقيقيّ، عن حقّ، أولئك الذين لا يعبدونه؛ بيد أنّ هؤلاء الآلهة يتركون خدّامهم دون قوانين، في ظلام، علمًا بأنّ آخرين ناكري الجميل يتململون لكونهم لا يستطيعون أن يعبدوهم؟ إذا كان الناس يكرّمون آلهتهم، أليس من العدل أيضًا أن يسهر الآلهة على أعمال الناس؟ قد يقال: ما من شرّير إلّا بإرادته. ومع ذلك، أليس من واجب الآلهة أن يعلنوا لمؤمنيهم ما تأمر به الفضيلة وتنهى عنه بألسنة أحبارهم فيوبخون الخطأة ويهدّدونهم بالعقاب ويعدون الأبرار بحسن الجزاء؟ هل رددت هياكلكم أصداء تلك التعاليم؟ وأنا أيضًا في سنّ المراهقة كنت أحضر تلك المشاهد والاستعراضات المدنّسة وألتذّ بتلك الحركات الجنونيّة والحفلات الموسيقيّة والألعاب السافلة التي تقام على شرف الآلهة والإلهات؛ ويوم الوضوء السماويّ الاحتفاليّ للعذراء يرْسَنْتِيا، والدة جميع الآلهة، علنًا، وعلى سريرها، كان المغنّون السفهاء ينشدون أغاني يخجل الإنسان من سماعها موجّهة إلى والدة الآلهة، أو إلى والدة شيخ من مجلس

الشيوخ أو حتّى أيّ إنسان آخر شريف؛ وماذا أقول؟ بل يخجل من أن تُقال لأمّه واحد من المهرّجين؛ لأنّ الإنسان يحفظ في قلبه تجاه والديه عاطفة من الحياء لا تقوى على طمسها الأعمال الخلاعيّة الأخيرة. أي مهرّج من هؤلاء لا يخجل من أن يستعيد في بيته، أمام أمّه، تلك الأناشيد والحركات الخلاعيّة والوقفات الشهوانيّة التي تقام أمام والدة الآلهة وجمهور غفير من الجنسين فتثير موجة من الحزن وخجلًا في السمع والبصر؟ أما كان يعود ذاك الشعب المندفع وراء فضوله إلى بيته مشمئزًّا خجلًا؟ إن كانت تلك هي الاحتفالات المقدّسة فكيف يكون انتهاك القدسيّات؟ إن كان ذاك هو الوضوء فكيف يكون الوسخ؟ وكلّ ذلك يسمّى وليمة؛ وفي الواقع وليمة يقدّم فيها للأبالسة أطعمة تستطيبها أذواقهم! مَن ذا الذي لا يدري أيّة أرواح ترتضي تلك السفاهات إلّا إذا كان يجهل بوجود الأرواح القذرة التي تغوي الناس باسم الآلهة؛ ويحيا حياة يسعى فيها من خلال احتقار الإله الحقّ إلى كسب رضى الآلهة واجتناب غضبهم؟؟

٥

نَاشيا بصفته أفضل مواطن أمام الصنم الدنس دون سائر الحمقى الذين، بدلًا من أن يقاوموا تلك الحماسة الطامية للعادة المخجلة، يلتذّون بها ويغتبطون. إذ ذاك نعرف هل كان يريد أن تقوم أمّه بخدمات للجمهوريّة حتّى تستحقّ ما يكرّم به الآلهة كما يفعل الإغريق والرومان وسائر الشعوب الذين اعترافًا منهم بجميل مواطنيهم المحسنين إليهم، وقد ظنّوا أنّهم أصبحوا

خالدين، يقدّمون لهم الإكرام الواجب للآلهة. بكلّ تأكيد لو كان هذا ممكنًا لتمنّى لأمّه تلك السعادة المجيدة؛ ولكن هل يريد لها تكريمًا بهذا الشكل الشائن؟ ولا شكّ أنّه يجيب على السؤال هاتفًا: «كلّا؛ أتمنّى أن تكون أمّي بلا شعور ولا حياة ولا تكون إلهة تستمع إلى تلك الفظائع»! لا يمكننا أن نفكّر البتّة في أنّ شيخًا رومانيًّا راجح العقل، غير قابل بهذا المسرح في هذه المدينة التي تضمّ نفوسًا قويّة، يقبل لأمّه عبادة كإلهة ترفع إليها فيها صلوات ترى فيها، كإنسان عاديّ، ألفاظًا مخجلة. كلّا؛ قد لا يصدّق أنّ التكريم الإلهيّ أفسد، إلى ذلك الحدّ، شعور امرأة فاضلة حتّى تقبل تلك المشاهد الخلاعيّة تكريمًا لها والتي في حياتها تهرب منها وتصمّ أذنيها عن سماعها لئلّا يخجل منها ذووها وزوجها وأولادها. وعلى هذا النحو فإنّ أمّ الآلهة هذه التي يأبى أحقر الناس أن تكون له أمًّا، إذ تريد أن تستولي على النفوس الرومانيّة، تطالب بأكثر المواطنين فضيلة. لكي تجعله هكذا بما تغدق عليه من نصائح وتغمره به من عون؟ كلّا، بل تريد أن تغويه على مثال المرأة التي «تصطاد النفس الكريمة» (**أمثال** ٦/٢٦) على حدّ قول الكتاب المقدّس. إنّها تريد من ذاك القلب الكبير الفخور بشهادة يعتبرها إلهيّة، المؤمن بسموّ فضله، ألّا يطلب التقوى والدين الحقيقيّ، وإلّا وقعت الصفات النبيلة في العدم من الكبرياء. وماذا تطلب إذًا في سعيها إلى إنسان طيّب؟ أن تأخذه على حين غرّة هي التي تطلب لأعيادها الاحتفاليّة تسليةً يمقتها لأعيادهم رجال الخير.

٦

عدم مبالاة الآلهة بشؤون الناس

إنطلاقًا من ذلك الواقع، لا يبالي الآلهة بتنظيم حياة الشعوب سكّان تلك المدن وضبط أخلاقهم فيبعدوا بتهديداتهم الرهيبة الويلات التي تلتهم لا الحقل والكرمة ولا البيت والمال بل الشرف؛ وهذا الجسد الخاضع للنفس وهذه النفس وهذا العقل الذي يدبّر الجسد. بل إنّهم يتركون العنان لشرّ الإنسان فيطفح الكيل. هل استعملوا التوبيخ؟ إن صحّ قولهم فليبرهنوا لنا! لا يتذرّعنّ أحد، خلف بعض همسات تمتموا بها في أذن بعض مَن يتدرّبون، أسرارًا حيّة لتقليد سرّيّ؛ عليهم أن يعلنوا عن الأمكنة المختصّة بالاجتماعات التقويّة دون سواها وقد تدنّست بالأغاني والمواقف المعيبة: أعياد تذكّر بطرد الملوك يُترك فيها الحبل على الغارب لكلّ الفظائع. هناك يقبل الشعب تعاليم الآلهة في قمع الجشع وسحق الطمع ولجم الإباحيّة؛ هناك يتلقّى الشعب ما يُريد بِرْسْ (Perse)(*) أن يتعلّمه:

«تعلّموا أيّها التعساء، هتف الشاعر بمرارة، عودوا إلى العلل؛ تعلّموا ما نحن؛ ما هي الحياة التي من أجلها وجدنا؛ ما هو النظام المفروض؛ في أيّ مكان من الدولاب يجب أن تنطبع حركة الدائرة؛ بؤس الثروات والشهوات؛ نفع هذا الدرهم الذي لا يزال قاسيًا؛ ما هو نصيب الوطن منه ونصيب الأهل المحبوبين؛ ما يريد الله منك أن تكون وفي أيّ واقع بشريّ وضعتك عنايته»:

(*) شاعر لاتينيّ من القرن الميلاديّ الأوّل.

(Perse, *Satires, III*)

قولوا لنا أين كانت تعلن هذه الحكم باسم الآلهة؟ أين كانت تجتمع الشعوب لسماع هذه الوصايا الإلهيّة؟ وفي أيّ مكان شبيه بكنائسنا التي نشير إليها لأمثال تلك الاجتماعات حيثما تنتشر الديانة المسيحيّة؟

٧

الاتّجاه إلى تعاليم الفلاسفة

قد يذكر لنا أحدهم مدارس الفلاسفة ومناقشاتهم. إنّها ليست في الأصل رومانيّة بل إغريقيّة؛ وإن كان لا بدّ من اعتبارها رومانيّة لأنّ اليونان أصبحت مقاطعة في الإمبراطوريّة الرومانيّة فهي لا تنشر التعاليم التي للآلهة بل اختراعات البشر الذين، بفضل عبقريّتهم ونبوغهم الحادّ، بدأوا يكتشفون، بعقلانيّة، ما تخفي الطبيعة من أسرار وما يجب السعي إليه أو الهروب منه في السلوك الحياتيّ؛ يا له من استنتاج أكيد في التفكير الذي يعبّر عن ترابط الأفكار فلا يوصل إلى نتيجة أو يناقض ما يريد الإنسان أن يستخلصه من نتائج؛ واكتشف بعضهم حقائق عظيمة لكون الله قد أمدّهم بعونه؛ ولكن، بصفتهم أسرى الضعف البشريّ، ضلّوا فقاومت العناية الإلهيّة كبرياءهم لتبيّن لهم من خلال أولئك الناس سبيل التقوى التي ترتفع إلى السماء من عمق التواضع وهي مسألة علينا أن نناقشها ونتعمّق فيها بنعمة من الله والربّ يسوع. إن كان الفلاسفة قد اكتشفوا سرًّا ما للسير من خلال حياة صالحة إلى الحياة السعيدة، فإنّه لعدل أن يوجّه إلى أمثالهم ما يكرم به الآلهة.

أليس من الأفضل والأحسن مطالعة كتب أفلاطون في هيكله من أن تحضر في الهيكل عمليّات بترٍ للأعضاء يقوم بها كهنة، بناءً على طلب أشخاص، وتشاهد تكريسًا مخجلًا وجراحًا مؤذية وأشياء معيبة وفظّة تمارَسُ باحتفال في أعياد أولئك الآلهة السفلة؟ وكم هي أكثر نفعًا لتربية الشبيبة، أخلاقيًّا، قراءةُ كتاب الشرائع الإلهيّة من تلك المدائح العقيمة لقوانين وترتيبات أجدادنا! إنّ عبدة أولئك الآلهة لا يشعرون باختمار سمّ شهوة أثيمة في نفوسهم بحسب تعبير بِرْس (Perse)، إذ يفكّرون بأعمال جوبيتر بدلًا من دروس المجمع ودروس كاتون الصارم، على أنّ تِيرَنْس (Térence)(*) وهو شابّ خليع في رسم على جدار كيف أنّ جوبيتر يمطر نقاطًا ذهبيّة في حضن داناي Danaé وإذ غطّى عاره بسلطة هكذا عظيمة يفاخر لكونه اقتفى آثار إله. وأيّ إله! يقول هو الذي يجعل القبّة السماويّة ترتجف من صوت رعده؛ وأنا القزم أخجل من الاقتداء به؟ كلّا ثمّ كلّا!! لقد اقتديت به بقلب كبير» (Térence, *l'Eunuque* 585).

٨

وسوف يقول أحدهم: لا تنسب هذه التعاليم إلى أعياد الآلهة بل إلى قصص الشعراء الخياليّة؛ ومَن ذا يمنعني من أن أجيب بأنّ أسرار الديانة أشدّ عارًا من خلاعات المسارح؛ على أنّي أكتفي بأن اقول ما لا يمكن إنكاره، ما لم يقنعني التاريخ بأنّ تلك الألعاب الخاضعة لقصص الشعراء الخياليّة لم تدخل الأعياد الدينيّة من

(*) شاعر لاتينيّ هزليّ.

خلال خرافات الرومان الجاهلة، بل الآلهة أنفسهم أمروا بإدخالها والاحتفال بها كما ذكرت ذلك بكلام وجيز في الكتاب الأوّل لأنّ الألعاب المسرحيّة تحت تأثير عدوى وخيمة أقيمت بادئ ذي بدء بأمر من الأحبار. وعليه مَن ذا الذي لا يتّخذ قاعدةً لحياته تلك الأفعال التي تظهر في الألعاب التي يسمح بها الآلهة، من دون تلك القوانين الموجودة في دساتير الحكمة البشريّة؟ إن لم يعرف ربّ الآلهة خطيئة الزنى إلّا في روايات الشعراء الأثمة فالآلهة الأعفّاء الغضبى لا يثأرون لإيقافها؛ بل لاستمراريّتها بشكل لا يحدّ. ومع ذلك فهنالك الترفيه الأكثر قبولًا: تمثيليّات مأساويّة وأخرى هزليّة يتخيّلها الشعراء فتُعرض على المسارح وتخفي بتعابير لبقة قذارة مواضيعها فتكوّن قسمًا من الدروس المسمّاة شريفة وأدبيّة فيأخذها الكبار ويضعونها بين أيدي الأولاد ليطالعوها ويحفظوها.

٩

ما هو شعور الرومان الأقدمين بالنسبة إلى الألعاب المسرحيّة؟ يطلعنا عليه شَيْشَرون في كتبه عن الجمهوريّة حيث شِيبيون يناقش فيقول: «ما كان للكُومِيدِيا أن تفرض خلاعتها على المسرح لولا قبول أخلاق الأفراد بها». بالنسبة إلى الإغريق الأقدمين قد يكون لهم عذر في رأيهم السابق في الفجور. حيث كان القانون يسمح بالتكلّم، بحرّيّة، واسميًّا عن كلّ شيء وعن الكلّ. وفي الكتب عينها يضيف شيبيون الإفريقيّ قائلًا: «مَن ذا الذي وفّره المسرح؟ ومَن ذا الذي لم يصل إليه؟ ومَن ذا الذي لم يهاجمه؟ إنّنا لنرضى

بأن يجرح الذين يغرّون الشعب، مواطنين فطروا على الشرّ والغشّ أمثال كُلِيُون وكَلْيُوفُون وهِيبْرُبُولُس؛ لا مانع؛ وإن يكن من الأفضل انتقادهم، من قبل رقيب، ولا من قبل شاعر؛ ولكن، أن توجّه الشتائم شعرًا إلى بارِيكْلِسْ (Périclès) ثمّ ينشد الشعر على المسرح ضدّ مَن حكم الجمهوريّة، سنين طويلة، بسلطة تامّة، في السلم، كما في الحرب؛ فهذا أمر لا يقلّ أذى عمّا لو قام بيننا بلوت أو نافِيُوس وأراد أن يشتم شيبيون أو سِيسِيلِيُوس كاتون» وفيما بعد: «وبخلاف ذلك فإنّ شرائعها في اللوحات الاثنتي عشرة غير القابلة بسهولة بحكم الإعدام تقضي على كلّ مواطن تعدّى على كرامة آخرين في قصائده أو تمثيليّاته المهينة؛ وفي الواقع يجب أن نخضع في حياتنا إلى رقابة القضاة الشرعيّة، لا إلى نزوات الشعراء؛ وعلينا أن نكون، في حمى، من الإهانة إذا لم يسمح لنا بالجواب أو بالدفاع عن أنفسنا أمام القضاة». ذاك هو المقطع من الكتاب الرابع من الجمهوريّة الذي لشيشرون؛ وقد رأيت واجبًا عليّ استخراجه، حرفيًّا، مع بعض التغييرات والإغفالات الطفيفة، تسهيلًا لفهمه، لأنّه مهمّ جدًّا بالنسبة إلى موضوعي؛ ويتبعه توسّع في الموضوع، يُظهر في النتيجة رفض الرومان الأقدمين لأن يهان إنسانٌ في حياته أو يُمدح على المسارح؛ والإغريق، كما قلت سابقًا، الذين قبلوا بتلك الحرّيّة الزائدة، ماثلوهم وقاحة وفاقوهم منطقًا؛ لأنّهم رأوا آلهتهم يصفّقون للإهانة تلصقها المسرحيّات بالناس والآلهة على السواء، أكانت من مخيّلة الشعراء أو سردًا لقصّة تمثّل تمثيلًا حقيقيًّا جرائم الآلهة؛ ويا ليت الناس اكتفوا بأن تَسلّوا بها ولم يقتدوا بها. ومن دواعي الكبرياء أن ينزّه الناس صيت وجهاء المدينة

وأبنائها عنها، بينما يمرّغ الآلهة كرامتهم في أوحالها. عادةً ما يقدّمون عذرًا مدَّعين أنّ ما ينسب إلى الآلهة كذب وافتراء، ومن عمل المخيلة؛ إذ ذاك هل من ذنب أقوى من استشارة التقوى الحقيقيّة؟ لا شيء أشدّ خبثًا وخداعًا من العودة إلى الشياطين. إن كان التشهير بمواطن فاضل ومخلص لوطنه يزداد قبحًا إذا تناول أخلاقه زورًا وبهتانًا فأيّ عذاب لا يستحقّه مَن يوجّه إلى الآلهة إهانة على هذا القدر من الفظاعة؟؟

١٠

اللامبالاة المسرحيّة بالأمور الأخلاقية

ما همُّ أولئك الأرواح الخبيثة التي يعتبرها الناس آلهة، إن نسبت إليها جرائم خياليّة، شرط أن تأخذ النفوس البشريّة في شباك من الآراء الغريبة وتقتادها إلى عذاب محتوم؟ أن تكون تلك الجرائم من صنع أناس يفرحون بالمجد الذي وصل إليه أصدقاء الضلال البشريّ، المهرة في الشرّ والتدجيل، القادرون على أن يحلّوا محلَّ أدوات الصنم الدينيّة؛ أو ألّا يكون أحد قادرًا على ذلك، ما همّ؟ إنّهم يريدون أن تقدّمهم الأسطورة إلى الآلهة لكي تجد كلّ سفالة ويجد كلّ عمل وحشيّ، معنًى ومثالًا، كأنّ السماء والأرض تتبادلان التجارة بالجرائم! وعلى هذا النحو فإنّ الإغريق وقد شعروا بأنّهم عبيد لأولئك الآلهة، ما صدّقوا بأنّه كان على الشعراء أن يحفظوهم فوق ذلك المسرح المدوّي بالإهانات، إمّا طمعًا بالاندماج مع آلهتهم، أو خوفًا من إثارتهم، إن ارتفعوا عليهم، سعيًا وراء شهرة أفضل؛ واستنادًا

إلى هذا المبدأ كانوا يقبلون الممثّلين في أعلى المناصب. إنّ كتاب «الجمهوريّة» عينه يروي أنّ أشين، خطيب أثينا المفوّه، بعد أن مثّل التراجيديا في شبابه توصّل إلى أن يحكم الدولة؛ وأنّ أريستُودَام الممثّل الدراميّ غالبًا ما كان الأثينيون يرسلونه إلى فيليبُوس ليفاوضه في أمور الحرب والسلم الهامّة. وفي الواقع ما دام الفنّ والمسرح شيئين يرتاح إليهما الآلهة فهل من المعقول أن يصنّف أبطالهما مع سفلة المواطنين؟

١١

كان ذاك عارًا على الإغريق؛ غير أنّهم كانوا يتكيّفون مع أهواء آلهتهم ولم يتجاسروا أن يحموا حياة مواطنيهم من ألسنة الشعراء القتلة ومن سخافة الممثّلين الذين يمزّقون حياة الآلهة باعتراف الآلهة أنفسهم ورضاهم؛ وبدلًا من أن يحتقروا ممثّلي تلك الروايات الخياليّة السخيفة التي يغتبط بها آلهتهم اعتبروهم جديرين بأعظم تكريم. وأيّ داعٍ، في الواقع، إلى تكريم الكهنة الذين يسترضون الآلهة بدم الضحايا ويؤثّمون الممثّلين، أدوات الملذّات المسرحيّة التي يطالب بها الآلهة تكريمًا لهم، حتّى إذا منعوها عنهم أغضبوا السماء وفقًا لتهديداتهم؟ على أنّ الشهير لابيُون (Labeon) المتعمّق في علم المقدّسات ألا يريد أن يرى في اختلاف الطقس تمييزًا بين الصالحين والأشرار من الآلهة؟ للأشرار تقادم دمويّة وصلوات جنائزيّة؛ وللصالحين تلذّذ وغبطة «ألعاب» «وولائم» كما يقول. سوف نناقش، بعون الله، لاحقًا، وفي العمق، تلك الآراء؛ أمّا المسألة الحاضرة، سواء أتُكرَّم الآلهة بلا تمييز كأنّهم صالحون

(ويطيب لهم أن يكونوا أشرارًا أو بالأحرى هم جميعهم هكذا لأنّهم أرواح شرّيرة)؛ أو بحسب رأي لابيون نميّز في تكريمهم. يكرّم الإغريق معًا، وبحقّ، الكهنة مقدّمي الذبائح والممثّلين الذين يحتفلون بالألعاب؛ وفي الواقع ألا يكونون مقتنعين بأنّهم يهينون الآلهة أجمعين إن كان المسرح يلذّ لهم جميعًا؛ أو الأسوأ من ذلك كلّه، إهانة للصالحين إن كانوا وحدهم به يفرحون؟

١٢

القانون الروماني يرعى كرامة الناس

أمّا الرومان فأبوا أن تظلّ حياتهم وصيتهُم فريسة لمكر الشعراء؛ وهدّدوا بالإعدام كلَّ مَن يتّهم بقول شعر يشهّر فيه بالآخرين؛ وذاك ما فاخر به شيبيون في كتاب **الجمهوريّة**. يا له من احترام للشخص البشريّ! إنّما كبرياء وإثم بحقّ الآلهة! هل كان إنسان يجهل ما يعانونه صابرين؟ ماذا أقول؟ بفرح يقبلون هجمات الشعراء الشرسة عليهم؟ كان الناس يعتبرون أنفسهم أجدر بالاهتمام من الآلهة وكان القانون يقف سدًا بينهم وبين الإهانات في حين أنّ الآلهة ينهلون منها في الألعاب المقامة احتفاءً بهم! «وماذا يا شيبيون؟ إنّك تثني على الأمر الذي ينهى الشعراء عن إهانة مواطن في روما دون أيّ إله! إذًا أنت تحترم كرامة مجلس الشيوخ أكثر من كرامة الكابيتول؛ وكرامة روما وحدها أكثر من كرامة السماء بأسرها؟ لا يستطيع الشعراء أن يشهروا سلاح ألسنتهم ضدّ المواطنين لأنّ القانون يمنعهم؛ لكنّ لهم ملء الحرّيّة تجاه الآلهة فلا يخشون شيخًا ولا رئيسًا أو رقيبًا

ولا حبرًا ويمكنهم أن يشتموهم ولا لوم عليهم! إنّه لا يليق! أليس صحيحًا أنّ بلوت أو نافيوس يتّهمان شيبيون وسيسيليوس كاتون؟ ولكن صحيح أيضًا أن يثير تارنس (Térence) شهوة الشبيبة بالمثل الذي يعطيه جوبيتر المتسامي بالعظمة والطيبة!»

١٣

تكريم الآلهة على المسارح شرّ

لو كان شيبيون حيًّا لأجابني: كيف نرفض الإعفاء من العقاب مَن كرّسته الآلهة؟ ألم يُدخلوا في العادات الرومانيّة هذه الألعاب المسرحيّة حيث يُعرض ويقال ويجري كلّ شيء؟ ألم يأمروا بأن يسمّى الاحتفال ويقام إكرامًا لهم؟ ألم يقتنعوا بأنّهم آلهة دجّالون غير جديرين بأن ينالوا من مثل هذه الجمهوريّة ما يكرم به آلهة؟ إن طلبوا من الرومان أن يقدّموا لهم تمثيليّات مهينة أليست تلك عبادة غير معقولة وغير لائقة؟ كيف استطاع الناس أن يتّخذوهم آلهة يعبدونهم في حين هم أرواح تستحقّ كلّ احتقار؟ وإذ حرصوا على خداع الناس عملوا على أن ينشروا إجرامهم بواسطة دينهم؟ وبالرغم من أنّهم عاشوا في وَهم قاتل دفعهم إلى تكريم آلهة يطالبون بالإكرام من خلال مسرحيّات مخجلة فقد حافظ الرومان على قدر من الكرامة والحياء ورفضوا تكريم الممثّلين كما فعل الإغريق؛ ولكن بحسب ما جاء في أقوال شيبيون نفسه في شيشرون: «وإذ كانوا يعتبرون الفنّ وألعاب المسرح أمورًا شائنة فقد حكموا بعدم أهليّة مَن يتعاطونها إلى استلام وظائف وأرادوا من المراقب أن يخرجهم من دائرة جماعتهم». يا

للحكمة الرائعة التي يجب أن تدخل في الفضائل الرومانيّة الحقيقيّة! ولكن لِمَ لا تكون لها دليلًا ومثالًا؟ عندما يختار مواطن رومانيّ مهنة التمثيل تُسدّ بوجهه جميع أبواب التكريم. ماذا أقول؟ إنّ المراقب الحازم يُخرجه من جماعته وهذا أمر صحيح. يا لغريزة المجد النبيلة ويا للإيحاء الرومانيّ الساذج! أجيبوني؛ ما هو الداعي إلى استثناء رجال المسرح من كلّ تكريم وإدخال الألعاب المسرحيّة في تكريم الآلهة؟ ظلّ الفنّ المسرحيّ مدّة طويلة مجهولًا عند الرومان ولم يسعوا إليه إلّا ترفيهًا عن الإنسان؛ ومع أنّ الآلهة يطلبونه من باب الوجاهة نراه ينصبّ في قلب الفساد؟ وهذا الممثّل أحد خدّام عبادة الآلهة ينبذ بازدراء! إنّه لخلاف بين الإغريق والرومان يجب العمل على حلّه؛ فالإغريق يجدون تكريم رجال المسرح شيئًا منطقيًّا ما داموا يعبدون آلهة يطالبون بالألعاب المسرحيّة في حين يأبى الرومان أن يلطّخوا بحضورهم شرف مجلس الشيوخ. ماذا أقول؟ العشيرة نفسها حيث عامّة الشعب مقبولة؟ غير أنّ الصعوبة نجد لها حلًّا إذا فكّرنا فيها جدّيًّا. يضع الإغريق المبدأ التالي: إذا كان تكريم هؤلاء الآلهة واجبًا وجب حتمًا تكريم أولئك الرجال؛ ويعترض عليهم الرومان قائلين يستحيل تكريم أمثال أولئك الرجال؛ إذ ذاك يستنتج المسيحيّون قائلين: يستحيل إذًا تكريم أولئك الآلهة!

١٤

وأتساءل الآن لماذا لا يعتبر هؤلاء الشعراء مؤلّفو تلك القصص الخرافيّة الذين تحرّم عليهم شريعة اللوحات الاثنتي

عشرة المسّ بصيت المواطنين عندما يمطرون الآلهة بسيل من الإهانات والشتائم، سفهاء على مثال الممثّلين لتلك الخزعبلات الشعريّة، خزيًا للآلهة؟ وهل من العدل التشهير بالممثّلين وتكريم المؤلّفين؟ يُعطَى أفلاطون وإغريقيّ وسام سعف العدل الذي فكّر بطرد الشعراء وكأنّهم أعداء لما فكّر في إنشاء دولة مثاليّة لأنّه لا يقبل بتلك الشتائم المنتهكة للقدسيّات ولا بالأمثال الكاذبة والمفسدة للأخلاق. وهوذا أفلاطون إنسان يشجب الشعراء ويطرد الكذب من المدينة في حين نرى الآلهة يطالبون بالألعاب المسرحيّة بمثابة تكريم لهم. قارن الآن ما بين إنسان والآلهة! الإنسان يرفض كتابة تلك الأمور المعيبة فيحمل، على التخلّي عنها، الإغريق العائشين في الخفّة والميوعة، من دون جدوى؛ الآلهة يلحّون عليها في المسارح أمّا هو فيأمر بنزعها، احترامًا لاحتشام الرومان ووقارهم! ماذا أقول؟ الآلهة يريدون أيضًا أن تكون تلك المسرحيّات موجّهة إليهم من دون سواهم بشكل احتفاليّ. مَن ذا الذي يليق به التأليه؟ أهذا الحكيم الذي يحرّم هذا العدد الضخم من المشاهد الإباحيّة أم أولئك الأبالسة المعجبون بأضاليل البشر الذين عجز أفلاطون عن إقناعهم بالحقيقة؟ لابيُون (Labéon) ظنّ أنّه يجب رفعه إلى مصاف أنصاف الآلهة على مثال هِركُولْ وروموولوس، على أنّه يؤثر أنصاف الآلهة على الأبطال ويضعهم جميعًا في عداد الآلهة. أمّا أنا فأعتبره، لا أفضل فقط من الأبطال، بل من الآلهة أنفسهم ذاك الذي يسمّيه لابيون (Labéon). إنّ القوانين الرومانيّة تتقارب من تفكير أفلاطون لأنّه إذ يشجب الخزعبلات الشعريّة بأسرها نرى الرومان يأبون على الشعراء، أقلّه، شتم الناس بحرّيّة زائدة،

إذا حرم عليهم السكن في المدينة، فالرومان يطردون الممثّلين من المجتمع المدنيّ ولربّما يطردونهم كلّيًا لو كان لهم بعض الجرأة على أولئك الآلهة الذين يفرضون عليهم الألعاب المسرحيّة. وعليه فالرومان لن يقدروا أن ينتظروا أيّ قانون ينظّم أو يُصلح أخلاقهم من الآلهة الذين تذلّهم الشريعة الرومانيّة. الآلهة يطلبون ألعابًا مسرحيّة تكريمًا لهم والشريعة الرومانيّة تُبعد عن كلّ تكريم رجال المسرح؛ الآلهة يفرضون على التمثيليّات الشعريّة الإعلان عن سفالتهم، والشريعة تحرّم على الشعراء التشهير بالناس. أفلاطون، نصف الإله، قام ضدّ شهوة الآلهة المخجلة هذه، ويا لهم من آلهة! لقد بيّن ما يجب على الخلق الرومانيّ أن يعمله إذ ينفي عن كلّ مدينةٍ حسنةِ التنظيم، الشعراء، زبانية التدجيل، الذين يُغرون الناس الضعفاء دافعين بهم إلى الاقتداء بالأعمال الأشدّ قبحًا وكأنّها أفعال آلهة. أمّا أنا، فمن دون أن أقدّم أفلاطون بمثابة إله أو نصف إله، ومن دون أن أشبّهه بأيّ من ملائكة الله القدير القدّيسين أو بأيّ من أنبياء الحقّ أو برسول أو شهيد للمسيح حتّى بمسيحيّ عاديّ (وهذه الفكرة بنعمة الله سوف أدافع عنها فيما بعد). على أنّ هذا الذي سمّوه اعتباطيًّا نصف إله أجده أفضل من رومولوس وهرقل وإن لم تنسب إليه رواية أو قصّة خياليّة منسوبة إلى شاعر أو مؤرّخ مقتل أخ أو أيّة جريمة أخرى، ولكن، بكلّ تأكيد، أراه أفضل من بْرِياب (Priape) ومن سِينُوسِيفال (Cynocéphale) وأخيرًا لا فِيفْرْ (La Fièvre) وهم آلهة اقترضتهم روما عن هياكل الغرباء أو كرّستهم هي بنفسها. وكيف لهؤلاء الآلهة أن يتداركوا أو يقتلعوا من الجذور بواسطة شرائع أو وصايا، فسادًا، بهذا القدر، من العقول والأخلاق في

حين نراهم يهتمّون بنشر الرذائل عندما يطالبون الفنّ المسرحيّ بدعاية علنيّة لجرائمهم الحقيقيّة أو الخياليّة إذكاءً لنيران غرائز الإنسان المخجلة وكأنّها مقبولة إلهيًّا. وعبثًا يهتف شيشرون (Cicéron) قائلًا: «عندما يجد الشعراء أنفسهم أمام هتافات الشعب المؤيّد لهم، وهو المعلّم الحكيم والرائع بلا شكّ أيّة ظلمات لا ينشرون! وأيّ رعب لا يثيرون! وأيّ شهوة لا يضرمون!» (**الجمهوريّة**: شيشرون ٤: ٩)

١٥

أيّ عقل اختار هؤلاء الآلهة، الآلهة الكذبة؟ أعقل هو أم بالأحرى تضليل؟ لأنّ هذا الحكيم الذي ينصّبونه نصفَ إله حتّى أفلاطون ذاته، الذي جاهد طويلًا ضدّ شرور النفس البالغة الشؤم وتأثيرها المأساويّ في الأخلاق البشريّة من خلال أعماله النبيلة؛ إنّهم لا يرونه جديرًا بأن يكون في أحقر هيكل؛ ويفضّلون على الكثيرين من آلهتهم صاحبَهم رومولوس مع أنّ عقيدتهم السرّيّة تعدّ له عبادة نصف إله دون تكريم إله. ألم يقيموا له كاهنًا خاصًّا به وهي رتبة كهنوتيّة رفيعة جدًّا في الطقوس القديمة بحيث لم يكن سوى ثلاثة منهم في خدمة ثلاثة آلهة؟ ويشهد بذلك علوّ التاج: فارتبط دِيالِيس (Dialis) بخدمة جوبيتر (Jupiter) ومارْسِيالِيس (Martialis) بخدمة مارْسْ (Mars) وكُوِيرينالِيس (Quirinalis) بخدمة رومولوس (Romulus)، الأمير الذي قُبل في السماء بنعمة من مواطنيه باسم كُوِيرِينُوس (Quirinus)، علا شأنه فوق نِبْتُون (Neptune) وبْلُوتُون (Pluton)، إخوة جوبيتر. وسما

قدره على أبيهم ساتُوْرْن (Saturne) ما داموا قد ألحقوا بهياكله الكهنوت العظيم المختصّ بجوبيتر والذي لم يحظَ به مارس والد رومولوس إلّا إكرامًا لابنه.

١٦

لو استطاع الرومان أن يتسلّموا من آلهتهم شرائع أدبيّة لما راحوا، لسنوات من تأسيس روما، يقترضون من الأثينيّين قوانين سُولُون (Solon)؛ على أنّهم لم يحفظوها كما تسلّموها، بل سعوا إلى تحسينها وتطويرها تاركين إلى لاسيديمون (Lacédémone) قوانين لِيكُورْغْ (Lycurgue) وإن يكن هذا المشترع قد قدّمها بمثابة قوانين سنّها أَبُولُون (Apollon)؛ بيد أنّ الرومان وقد أَبَوا أن يؤمنوا بها، عن حكمة، رفضوها كلّيًا وإذا بنُوما بَومْبِيلِيُوس (Numa Pompilius) خليفة رومولوس يسنُّ، على ما يبدو، بعض قوانين غير كافية لنظام الدولة. ومع أنّ الآلهة مدينون له بتنظيم عدّة أعياد مقدّسة فلا أحد يقول إنّه تسلّم منهم تلك الشرائع. وعلى هذا النحو، فإنّ شرورًا نفسيّة عدّة وأوبئة أخلاقيّة وفوضى في الحياة وآفات رهيبة، وفقًا لشهادة أكثر الناس علمًا في الوثنيّة، هدمت المدن وبقيت أسوارها قائمة، في حين أنّ الآلهة لم يهتمّوا بالمحافظة على عبادهم فيها؛ بل عملوا كما سبق وقلنا على الزيادة من أخطارها.

١٧

من الممكن ألّا يكون الآلهة قد أعطوا الشعب الرومانيّ في

روما قوانين «لأنّ العدل والشرف كانا يحكمان بواسطة الضمير كما يحكم القانون» على حدّ قول سلّستس (Salluste) (كاتيلينا ١ : ٩). ولا شكّ أنّه بفضل هذه العدالة الطبيعيّة تمّ خطف السابينيّات (Les Sabines)، وهنّ فتيات أجنبيّات، وقعن في فخّ مشهد واختطفن عنوة من ذويهنّ حتّى استطاع كلّ واحد أن يؤمّن لذاته امرأة منهنّ. وهل من عمل شرعيّ وعادل أفضل من ذلك العمل؟ إنّما إذا لم يكن من حقّ السابينيّين أن يرفضوا فهل حقّ للرومان أن يختطفوا؟ ألم يكن من الأفضل على الآباء أن يقاتلوا جيرانًا يرفضون بناتهم على أن يعودوا إلى مطالبة خاطفيهنّ؟ وتاليًا مَن ذا الذي كان يحتفظ بابن الإله مارس المتثبّت من مساعدة أبيه له؟ ولِمَ عُدِم الثأر بقوّة السلاح وتعويض الإهانة لبكارات مرفوضة؟ للحرب أن تعطي المنتصر بعض الحقّ، بأن يسلب شيئًا مرفوضًا، عن غير حقّ؛ في حين أنّ السلم لا يمنحه أيّ حقّ؛ فكانت الحرب، ظلمًا لآباء غضبوا، عن حقّ، على أنّ هذا العمل انتهى بنجاح. وحتّى إذا كان منظر الألعاب في مدينة الملاهي قد حمل إلينا ذاك الخبر، فمدينة روما رفضت ذلك المثال. وقد يحمل هذا الخطرُ الإنسانَ على أن يجعل من رُومُولُوس إلهًا، إلّا أنّه لن يسمح له، بحكم العادة، أو القانون، أن يقتدي بتلك الجريمة. ألم يكن بدافع من الشعور الطبيعيّ إلى العدل أن يُرغم القنصل جُونِيُوس بْرُوتُوس زميله تَارْكُوان كُولاتان، زوج الضحيّة، الرجل الفاضل، الذي لا عيب فيه، على التخلّي عن وظيفته، والخروج من روما بعد طرد الملك تركوان الذي ألحق ابنه العار بلوكراس؟ يا له من ظلم غريب يتسبّب به أو يشارك فيه هذا الشعب ذاته الذي كان كولاتان كما هو بروتوس مسؤولًا عن كرامته. وبعد

حرب دامت عشر سنوات قام خلالها الجيش الرومانيّ بعدّة معارك خاسرة ضدّ الفائيّين (Véiens). وروما آنذاك تعيش في هلع وفي ريبة من خلاصها. ألم يكن هو الشعور ذاته ضدّ بطل ذلك الزمن مركوس كاميللوس المنتصر بسرعة على أولئك الأعداء الألداء وعلى مدينتهم القويّة؟ شكاه الغيارى من قوّته ونوّاب الشعب الوقحون فبرز نكران جميل مدينةٍ أمّن لها الخلاص؛ وإذ كان واثقًا من الحكم عليه أعلن لها مسبقًا عن رغبته في الذهاب إلى المنفى بحرّيّته؛ وصدر الحكم الغيابيّ عليه القاضي بتغريمه بعشرة آلاف مثقال من النحاس، هو الذي اختير سلفًا لأن يثأر لوطنه الناكر الجميل، والذي انتزعه من أيدي الغول! هل أذكّر بالكثير من مشاهد الظلم والعنف التي كانت لها روما مسرحًا عندما حاول الأعيان أن يستعبدوا الشعب فصمد وسيطرت على الجهتين شهوة التغلّب بدلًا من أن يستلهموا العقل والعدالة؟

١٨

وعلى هذا الأساس أضع حدًّا لما أقول مكتفيًا بشهادة سلّستس ذاته الذي استعمل في مدح الرومان كلمات تصلح لأن تكون نصًّا لهذا الخطاب: «لديهم العادل والمستقيم يسيطران وفقًا للعدل والضمير» (سلّستس: التواريخ ٢: ١)، وإذ يشير إلى الحقبة التي نجت فيها روما من قبضة الملوك ونمت بشكل لا مثيل له نراه يعترف، في بداية كتابه الأوّل، قائلًا: «منذ أن انتقلت روما من حكم الملوك إلى حكم القناصلة أثارت مظالم الأقوياء انفصال مجلس الشيوخ عن الشعب كما حدثت نزاعات داخليّة أخرى.

ثمّ يذكر أنّه بين الحرب الإفريقيّة الأولى والثانية، عاش الشعب الرومانيّ موحّدًا وقويًّا؛ ويعود الفضل في هذا الانسجام الخيّر لا إلى محبّة العدل بل إلى الحذر الدائم من سِلْم غير ثابت مع قرطاجة؛ إنّه لخوف حريص على الخلاص، منعًا للفوضى وحفظًا للأخلاق وحدًّا من الرذيلة؛ ذلك كلّه دفع بناشيا (Nascia) الحكيم إلى الوقوف ضدّ تدمير قرطاجة، غير أنّ الخلافات على حدّ قول المؤرّخ، والجشع والطمع الذي أوصلا إلى الازدهار، تفاقم بنوع خاصّ بعد خراب قرطاجة»، يجعلنا ندرك أنّه قبل ذلك التاريخ قد أبصر النور كلّ ذلك ونما وازدهر. وعلى هذا الشكل يشرح فكرته قائلًا «إنّ ما ارتكبه الكبار من مظالم بحقّ الشعب تسبّب بانشقاق بين مجلس الشيوخ والشعب، عقبَتْه نزاعات داخليّة أخرى وقد حدث ذلك منذ طرد الملوك لشدّة ما كان الشعب يخاف تارْكُوين (Tarquin). وعليه أن يتحمّل أعباء حرب شرسة ضدّ إترُورِيا (Étrurie) ما دامت السلطة الشرعيّة مرتكزة على الاعتدال والمساواة»، بيد أنّ هذا الحكم القصير القائم على العدل الذي تلا القضاء على خذل الحكم الملكيّ يعود الفضل فيه إلى الخوف، إلى خوفٍ من الحرب ضدّ الملك المخلوع، حليف شعب الإترُوْسْكْ (Étrusques) التي كانت تهدّد الرومان. ولنلق نظرة على ما يقوله سلّستس في روايته: «أراد الأعيان أن يستعبدوا الشعب؛ تصرّفوا كالملوك بحياة المواطن وشخصه، فطردوه من حقله واستبدّوا به وبكلّ ما له. إذ ذاك فرغ صبر عامّة الشعب لما لقي من عنف وظلم واستغلال ولا سيّما وقد رزح تحت ثقل الضرائب وتعسّف المليشيات فانسحبت عامّة الشعب بسلاحها على الجبل المقدّس وجبل أفانْتان (Aventin).

إذ ذاك حصلت على ممثّلين لها فضلًا عن ضمانات أخرى. ووضعت الحرب الإفريقيّة الثانية وحدها حدًّا لتلك الخلافات والمعارك». تلك كانت حال الرومان في الوقت القصير الذي عقب نفي الملوك والذين يقول عنهم المؤرّخ: «لديهم سيطر الشرف والاستقامة استنادًا إلى القانون والضمير». وعليه فإن كان قد وجد تلك الحقبة من أفضل وأجمل حقبات الجمهوريّة فماذا نقول عن الزمن الذي تلاه وهو، كما يقول سلّستس، «عهدٌ أخذ يتغيّر تدريجًا تدهورت فيه روما عن مركز الفضيلة والجمال إلى قعر الرذيلة والفساد بعد خراب قرطاجة».

أسباب الانحطاط في روما

يستطيع الإنسان أن يطالع في صفحات خطَّها سلّستس بسرعة كيف أنّ روما انتقلت من الازدهار إلى حروب داخليّة على دروب الفوضى والاضطرابات: منذ ذلك، حين لم تعد التقاليد القديمة تسير، شيئًا فشيئًا، بل راحت تطغى كالنهر الطامي؛ طغى الترف والبخل على قلوب الشبيبة حتّى استحال عليهم الحفاظ على تراثهم في نفوسهم؛ وأبوا أن يتقبّلوه في نفوس الآخرين. وكذلك يتوقّف سلّستس على رذائل سِلّا Sylla وعلى ما ارتكبت الجمهوريّة من فضائح؛ وسايره في هذا الرأي كتّاب آخرون دون أن تكون لهم فصاحته. يسهل على الإنسان أن يرى بؤرة الفساد التي كانت تعيش فيها روما قبل مجيء ملك المجد؛ وتكفيه لذلك نظرة خاطفة. حصل ذلك كلّه قبل أن يتجسّد المسيح ويبدأ يعلّم الناس؛ أجل، لقد حصل ذلك قبل أن يولد من عذراء. وعلى هذا النحو فإنّ أرجاس تلك الأزمنة التي كانت مقبولة، في

البداية، ثمّ مرفوضة كلّيًّا ومكروهة بعد خراب قرطاجة؛ لا يجرؤ الرومان أن يلقوا بمسؤوليّتها على آلهتهم الذين يبثّون خبثهم الجهنّميّ في عقول الناس وأفكارهم ضلالًا يلد مجموعات من الجرائم البشعة والشائنة؛ ويتّهمون المسيح بالشرور التي يعيشونها حاليًّا، في حين نرى السيّد المسيح يشجب بتعاليمه عبادة الآلهة الكذبة الدجّالين ويضرب بحرم إلهيّ الغرائز الهدّامة ويسحب تدريجًا عائلته بأسرها من تلك الهوّة التي تهدّد العالم بالخراب لكي يبني، لا على البُطل، بل على الحقّ، مدينته الممجّدة والأبديّة!

١٩

«وها هي الجمهوريّة الرومانيّة تتحوّل شيئًا فشيئًا وتتهاوى من علياء مجدها في الرذيلة والعار». هكذا يقول سلّستس ولست أنا القائل بل أذكّر بما قاله المؤرّخون قبل العهد المسيحيّ بزمن طويل، الذين أخذنا عنهم العلم. قبل مجيء المسيح وبعد خراب قرطاجة «لم تعد التقاليد القديمة تسير على مهل بل طغت كالنهر الطامي لشدّة ما ألحق الفجور والجشع من فساد بالشبيبة». بحقّكم اقرأوا علينا الإرشادات التي يعطيها الآلهة للشعب الرومانيّ ضدّ الجشع والفسق. آه لما سكت أولئك الآلهة عن إعطاء قوانين في الحياء والوداعة وفرضوا على ذلك الشعب إباحيّات مخجلة كسبًا لحظوة ألوهة مصطنعة وسلطة شرّيرة! إقرأوا كتبنا؛ فيها وصايا سامية وأوامر إلهيّة تستمع إليها الشعوب مجتمعة؛ اقرأوا الأنبياء والإنجيل المقدّس وأعمال الرسل

ورسائلهم! لا مجال فيها للضجيج الباطل الذي تثيره المماحكات الفلسفيّة؛ إنّه الصوت الصاعق للمعجزات الإلهيّة في سحب السماء؛ ولا يتّهم الكفرة آلهتهم بذاك الفجور الذي يجرّ روما إلى مهاوي الرذيلة والعار قبل مجيء المسيح على أنّ تلك الكوارث الحديثة كانت عقابًا عادلًا على عجرفتهم وتخنّثهم، ثمّ يلقون بمسؤوليّتها على الديانة المسيحيّة! حبّذا لو لقيت تلك النصائح بالعدل والاستقامة آذانًا صاغية لدى الملوك والشعوب وقضاة الأرض والشبان والعذارى والشيوخ والأولاد ولدى الذين يتوجّه إليهم يوحنّا المعمدان من العشّارين والجنود، لكانت الجمهوريّة تغمر بسعادتها مجالات الحياة الحاضرة وترتقي ذرى الحياة الأبديّة لتملك فيها سعيدة. بيد أنّ الواحد يصغي والآخر يزدري؛ ومعظمهم أصدقاء الرذيلة التي تدغدغهم أكثر ممّا هم لأشواك الفضيلة الخلاصيّة. على خدّام المسيح أيًّا كانوا ملوكًا وأمراء، قضاة وجنودًا وأبناء الريف، فقراء أو أغنياء، أحرارًا أو عبيدًا سواء أكانوا من هذا الجنس أم من ذاك، أن يتسلّحوا بالصبر؛ وعليهم أن يحتملوا هذه الجمهوريّة مهما كانت سافلة؛ وبهذا الصبر يضمنون لأنفسهم مركزًا مرموقًا في بلاط الملائكة المقدّس والسامي، في تلك الجمهوريّة السماويّة حيث إرادة الله هي الشريعة الوحيدة.

٢٠

الفوضى الأخلاقية

ولكن ما همُّ خدّام أولئك الآلهة الحقيرين الذين يلهثون وراء

جرائمهم ودعارتهم بنهم؟ ما همّ أمثال هؤلاء الرجال من فساد الجمهوريّة والعار اللاحق بها؟ حسبها على حدّ قولهم أن تقف مزدهرة بقوّة جيوشها وزهو انتصاراتها أو بالأحرى بالأمن والسلام؛ ما همّنا؟ أو بالأحرى همّنا أن يزداد كلّ واحد غنى ويكدّس الثروات ليؤمّن مصاريفه اليوميّة الباهظة ويجعل الضعيف تحت رحمة القويّ ويخضع الفقير للغنيّ عن حاجة إليه؛ فتكون رعاية الواحد ضمانةً لاسترخاء الآخر في كسل مستمرّ؛ فيستثمر الأغنياء الفقراء ويتّخذونهم زبائن وأدوات بين أيديهم يتباهون بهم وتصفّق الشعوب لا لمَن يخدمون مصالحهم بل لمَن يلبّون ملذّاتهم. لا فاسد ممنوع ولا مُرهِق مفروض؛ اهتمام الملوك ينحصر بفرض الطاعة على عبيدهم دون رعاية الفضيلة. على العبيد الطاعة لمواليهم، لا كموجّهين لهم، يرعون أخلاقهم بل كحكّام لهم، وكلاء لملذّاتهم. فالإكرام الذي يؤدّونه لهم ليس سوى جزية الخوف، خوف العبيد من مواليهم المجرمين. فالقوانين وضعت لا لإعلان براءة الإنسان بل لحماية الكرامة. لا يمثل إنسان أمام القضاء إلّا إذا أساء إلى حياة الآخر، أو إلى ماله، أو إذا ألحق الشرّ أو الأذى بالآخرين؛ بيد أنّه يحقّ للقريب أن يصنع بقريبه ما شاء وما قبله منه قريبه. حسبهم أن تكثر الخليلات لمَن أراد التمتّع؛ وبخاصّة لمَن لا يستطيع أن ينفق على خليلة! في كلّ مكان قصور فخمة! وفي كلّ مكان ولائم فاخرة! في كلّ مكان يمكن الإنسان وحيثما شاء أن يلعب ويأكل ويفيد من مكان يتقيأ فيه ما أكله كما في بيت الدعارة! في كلّ مكان ضجيج الرقص؛ وفي كلّ مكان وعلى المسارح هتافات تتصاعد في أجواء من الفرح والمرح والاستهتار الخلقيّ واللذّة

الشائنة! وكلّ مَن لا يرضى بهذا النمط من الحياة يُعتبر عدوًّا للشعب حتّى إذا ما قام مواطن يعكّر صفو هذا النمط من العيش تنبذه الجماعة عنها، دون أن تستمع إليه، فتطرده وتجعله خارجًا عنها. ليس من آلهة حقيقيّين للجماعة إلّا أصحاب هذا النوع من العيش وحماته! تكريمهم موفور لدى الطلب وكذلك الألعاب التي تروقهم يحصلون عليها ويمارسونها مع مَن يعبدونهم أو بواسطتهم! همّهم الوحيد ألّا تفسد الحرب ولا الطاعون أو أيّة كارثة أخرى هذا القدر الكبير من الازدهار! أهذه هي الإمبراطوريّة الرومانيّة بالنسبة إلى كلّ عاقل؟ أليس هو بالأحرى قصر ذلك الملك القديم سارْدانابال (Sardanapale) أسير الملذّات الذي أمر بأن يحفر على بلاطة قبره: إنّه لا يحمل إلى الموت سوى التهتّك الذي التهم كلّ شيء في حياته؟ آه! ألا يغتبط أعداؤنا بمثل هذا الملك الذي يرضى عن أهوائهم والذي لا تجد فيه أيّة رذيلة بعض القسوة؟ له قد يكرّسون هيكلًا وكاهنًا للخدمة بطيبة خاطر تفوق ما قام به الرومان الأقدمون تجاه رومولوس!

٢١

قد يزدرون الذي شجب بشهادته تلك الفوضى والفساد. ما همّهم ما يلحق بروما من عار وما تعيشه من انحطاط خلقيّ! همّهم أن تبقى وتستمرّ! عليهم أن يستمعوا إلى قضاء شيشرون لا إلى رواية سلّستس؛ وشيشرون يعلن أنّ الجمهوريّة قد انتهت ولم يعد لها من وجود ويدخل في نقاشه حول الجمهوريّة شيبيون

(Scipion) الذي انتصر على قرطاجة؛ ويحصل ذلك النقاش في الزمن الذي كان يوحي الفساد إلى سلّستس بانحطاط وشيك. آنذاك هلك أحد رجال الغُراك (Gracques) المتسبّب الأوّل بالاضطرابات الكبرى التي حصلت لأنّه يحكي في الكتاب عينه عن موته في حين يقول شيبيون في نهاية الكتاب الأوّل إنّه إذا وجب الوصول إلى شيء من التجانس والتوافق بين أصوات مختلفة ومتنافرة في الآلات الموسيقيّة حتّى على حساب السمع المرهف وإن كان تعيين النغم يوحّد بين الأصوات الأكثر تباينًا فمن الضروريّ أيضًا تأمين التجانس في النظام العامّ في صفوف المجتمع العالي والمتوسّط والفقير تأمينًا لوحدة المواطنين لأنّ تجانس المنشدين يشبه الاتّحاد في الدولة وهو نوع من الرباط الضيّق الذي يضمن لها، بحقّ وقوّة، استمراريّتها التي لا يمكن أن تتحقّق بلا عدالة. ويتبسّط شيبيون بإسهاب في الحديث عن منافع العدالة في الدولة وعن الأخطار التي يتسبّب بها غيابها، غير أنّ أحد المحاورين المدعوّ بِيلُوس (Pilus) يأخذ الكلام ويطلب أن تدرس المسألة، في العمق، وبشكل أجدى، فتناقش مرّة أخرى قضيّة العدالة بسبب الحكم المسبق المعروف القائل باستحالة إدارة الحكم في الجمهوريّة من دون التعرّض للظلم. لقد وافق شيبيون على متابعة الحلّ للمشكلة، مضيفًا أنّه يعتبر الخطب السابقة باطلة وأنّه يستحيل كلّ تبسّط في الموضوع لاحقًا، إن لم يضع المرء بادئ بدء أنّه ليس من الخطأ فقط إمكانيّة إدارة الجمهوريّة، بلا ظلم، بل بالعكس لمن الأصحّ أنّ حكم الجمهوريّة لا يمكن أن يتحقّق بدون عدالة تامّة. وإذ أرجئ البحث في المسألة إلى الغد، راح المؤلّف في كتابه الثالث

يناقشها بحرارة فتبنّى بِيرُوس الرأي الأوّل دون أن يدّعيه لنفسه. ويدافع بقوّة عن الرأي القائل بفرضيّة الظلم في الحكم بخلاف الرأي الآخر. وإذ لم يُغفل في دفاعه أيّ سبب وأيّ مثل نوعيّ بدا وكأنّه يعمل حقًّا لإظهار فائدة هذا الرأي وعدم جدوى الرأي الآخر. إذ ذاك طلب الجمهور من لِيلِيُوس (Lelius) بالإجماع الدفاع عن العدالة، فدعم، بكلّ قدرته، الرأي القائل بأنّ أشدّ الأعداء خطرًا على دولةٍ ما هو انتفاء العدل فيها؛ كلّ دولة تخلو من العدل والحزم تشملها الفوضى ولا يعود من مجال للاستقرار فيها. وعندما ظهرت مناقشة هذه المسألة أمرًا مرضيًا أخذ شيبيون الكلام مرّة أخرى ليذكر ويوصي بالتعريف الموجز الذي أعطاه عن الجمهوريّة، وهي بنظره أمر يخصّ الشعب. على أنّ الشعب ليس جمعًا طارئًا أو وليد الصدف بل جماعة تقوم على احترام الحقّ والمصلحة المشتركة؛ ثمّ يبيّن التحديد المنطقيّ والمهمّ منطلقًا منه إلى تعريف الجمهورية التي هي شيء يخصّ الشعب؛ ولا قيام لها إلّا بقدر ما تدار بالصلاح والحكمة، إمّا بواسطة ملك ما أو بعض مواطنين ذوي ثقة أو بواسطة الشعب كلّه. أن يكون الملك غير عادل، على حدّ قول الإغريق، أو أن يظلم الحكّام من خلال الاتّفاق على ما سمّي حزبًا، أو أخيرًا أن يكون الشعب ذاته ظالمًا، ولعدم وجود تعبير ينطبق عليه يعود فيسمّيه مستبدًّا، إذ ذاك لا تسمّى الجمهوريّة مهترئة فاسدة بموجب النتائج التي توصّلنا إليها سابقًا بل انسجامًا مع التحديد الذي أعطانا إيّاه العقل تنتهي الجمهوريّة؛ وقد بطلت أن تكون شيءَ الشعب لتصبح فريسة حزب مستبدّ ظالم؛ إذ ذاك فالشعب غير العادل يكفّ عن أن يكون شعبًا إذا كان حقًّا جماعة ترتكز

على احترام القانون والمصلحة المشتركة، لا جماعة طارئة وليدة الصدف. وعلى هذا النحو فإنّ الجمهوريّة الرومانيّة كما يصفها سلّستس ليست غارقة في الرذيلة والفساد لكي تنتهي وفقًا لما قرّره في اجتماعهم أعظمُ مواطني ذلك العصر، ويكمّل شيشرون برهانه في بداية كتابه الخامس، لا ليتكلّم باسم شيبيون ولا باسم آخر بل باسمه الشخصيّ مستشهدًا بالبيت الشعريّ القائل: «تستمرّ روما بأخلاقها ورجالها الأقدمين» (Ennius, *Annales*, 500) ثمّ يهتف قائلًا: يا له من إيجاز ويا لها من حقيقة يُعبّر عنها هذا البيت الشعريّ! أظنّني أمام أعجوبة؛ وفي الواقع لولا الفضل والقوّة التي عُرف بها أولئك الرجال لما استطاعوا أن يقيموا سلطانًا على هذا القدر من العدل والشموليّة؛ وأن يحافظوا عليه سنوات طويلة. قبل عصرنا تسلّم السلطة في البلاد، على جانب كبير من الخلقيّة، رجال بارزون رعوا الأخلاق والتقاليد الحميدة وحافظوا على مؤسّسات الأسلاف، بيد أنّ عصرنا الحاضر وقد تسلّم الجمهوريّة وكأنّها لوحة رائعة، قد شوّهها الزمن، لم يُهمل تجديدها فقط، بل لم يفكّر بالمحافظة على رسومها وخطوطها. فأيّ شيء يبقى من تلك الأخلاق القديمة التي علّق الشاعر بقاء الجمهوريّة عليها؟ أمّا وقد أدرك تلك الأخلاق نوع من العفاء، في أيّامنا الحاضرة، فقد ضاع التعرّف إليها والتمرّس بها! ماذا أقول في الرجال؟ ألم تذهب الأخلاق بذهاب الرجال؟ إنّها لكارثة لا يكفي أن نشرحها بل أن نحمي أنفسنا منها، كما من جرم فظيع؛ لقد ضيّعنا كلّ شيء ولم يبقَ لنا من الجمهوريّة سوى الاسم؛ لا إثر مصيبة حلّت بنا، بل لأنّنا فقدنا أخلاقنا ومنذ زمن طويل فقدناها. «ذاك ما اعترف به شيشرون بعد وفاة شيبيون

الإفريقيّ ولكن قبل مجيء المسيح. إذا كان هذا الانحطاط الذي نشير إليه بدأ حقًّا منذ أن انتشر الدين المسيحيّ فأيّ عدوّ لنا لا يجرمنا به؛ ولما بقي أولئك الآلهة بسقوط هذه الجمهوريّة وضياعها التي أسف على خرابها شيشرون بفصاحته المعهودة قبل مجيء المسيح. أمّا الذين يبكون عليها الآن ويتحسّرون فعليهم أن ينظروا إلى ما كانت عليه في زمن أولئك الناس علّهم يرون العدل الحقيقيّ مالكًا فيها؛ ويرونها قوّة حيّة لا رسمًا ساطعًا بحسب التعبير الذي انطلق على لسان شيشرون في مديحه لروما قديمًا. سوف نحكي عن هذا الموضوع في مكان آخر إن شاء الله لأنّي أريد أن أبيّن من خلال الأساليب القصيرة التي تحدّد معنى الجمهوريّة والشعب التي ينسبها شيشرون إلى شيبيون بأفكاره الشخصيّة وبأفكار سائر محاوريه الذين سوف أستعين بشهادتهم فأقول إنّ روما ما كانت قطّ جمهوريّة حقيقيّة لأنّها ما عرفت العدالة الصحيحة. قد يصحُّ فيها تحديد آخر إذا سمّيناها مظهر جمهوريّة أحسنَ إدارتَها الرومانُ الأقدمون أفضل ممّا صنع أبناؤها، إذ إنّ العدالة الحقيقيّة قائمة فقط في هذه الجمهوريّة التي أسّسها ملكٌ عليها، المسيح، حتّى إذا سمّيناها جمهوريّة كانت في الحقيقة شأن الشعب وإذا كانت هذه التسمية تعني في مكان آخر خلاف ذلك فما أبعدها عن لغتنا العاديّة. بكل تأكيد العدالة الحقيقيّة هي ملك هذه المدينة التي قال فيها الكتاب المقدّس: «يحدَّث عنك بالمفاخر يا مدينة الله» (مزمور ٨٦/ ٣)

عودة إلى الموضوع الأساسيّ؛ ومع أنّ خصومنا يكيلون المدائح للجمهوريّة كما كانت بالأمس وهي اليوم؛ هل صحيح استنادًا إلى شهادة مشاهير كتّابهم الذين جاؤوا قبل المسيح بزمن طويل أنّها كانت فسادًا وفوضى أو بالأحرى لم تكن شيئًا لأنّها ذهبت بذهاب أخلاقها؟ كيف ذلك؟ أما كان على آلهتها الأوصياء عليها أن يقدّموا إلى ذلك الشعب الأمين تعاليم ومؤسّسات أخلاقيّة تحفظه من الخراب لقاء ما قدّم لهم من معابد وهياكل وذبائح واحتفالات وأعياد إكرامًا وتعظيمًا؟ كلّا إنّ هؤلاء الآلهة لا يفكّرون إلّا بمصلحتهم وقل ما يفكّرون بأخلاق ذلك الشعب أو بالأحرى إنّهم يحرصون على أن يظلّ في الرذيلة، شرط أن يبقيه الخوف مرتبطًا في هيكلهم. هل أعطوا بعض التعاليم؟ أين هي؟ فليظهروها وليقرأوها علينا؟ إزدراءً بقوانين فرضها الآلهة، أشعل جماعة الغراك (Gracques) الاضطرابات الرهيبة؛ وهل اندفع ماريوس وسنّا وكاتون(*) إلى تلك الحروب غير العادلة في أسبابها، الشرسة في الأسلوب والغاية؟ ما هي الشرائع الإلهيّة التي داسها سيلّا برجليه وقد أثار في حياته وأخلاقه وأعماله الرعب بحسب ما جاء عنه في كتاب سلّستس وسائر المؤرّخين؟ مَن ذا الذي يعترف بأنّ هذه الجمهوريّة قد انتهت؟ وهل يتذرّعون بفساد المواطنين بفكرة فيرجيل، هذه التي يستشهدون بها، عادة، دفاعًا عن آلهتهم: «لقد انسحب الآلهة حماة هذه الأمبراطوريّة

(*) ماريوس وسنّا وكاتون قادةٌ رومان.

من معابدهم وتخلّوا عن مذابحهم» (فرجيل، إنييد ٢: ٣٥١). إن كان الأمر هكذا، لِمَ يتّهمون الدين المسيحيّ بأنّه وراء هروب آلهتهم وإهانتهم ما دام انحطاط أخلاق أسلافهم قد طرد منذ زمن بعيد من هياكل روما ذاك السرب من الآلهة الصغار؟ ولكن أين كانت جماهير الآلهة عندما احتلّ الغول روما وأحرقوها لسنوات طويلة قبل الانحطاط الأخلاقيّ فيها؟ كانوا حاضرين ولكنّهم نائمون! سقطت المدينة بأسرها في أيدي العدوّ ولم يبق للرومان سوى صخرة الكابيتول (Capitole) التي كانت سقطت لو لم يكن البطُّ حرّاسًا للآلهة النائمين. وهذا الحدث، من خلال إقامة عيد البطّ، كاد يجرّ روما إلى الوقوع في خرافة المصريّين عبّاد الحيوانات والطيور؛ ولكن ليس الموضوع هنا متعلّقًا بالشرور الخارجيّة وهي أمراض جسديّة؛ بل بأمراض النفس يتعلّق. لست أتكلّم هنا إلّا عن أوساخ الأخلاق التي ضربت في البداية بألوانها الزاهية ثمّ انجرفت كالنهر الطامي واستقرّت في ذاك الخراب حتّى إنّ مشاهير الكتّاب ما تردّدوا في أن يقولوا إنّ السطوح والجدران وحدها سلمت من الخراب؛ فكان أنّ الآلهة ما كادوا يتخلّون عن معابدهم وهياكلهم حتّى تركوا روما تخرب كما لو أنّها ازدرت نصائحهم الحكيمة والسديدة! ولكن بربّك قل لي: مَن هم هؤلاء الآلهة الذين رفضوا العيش مع هذا الشعب خادمهم الذي تركوه يعيش في الخطأ وما فكّروا قطّ بأن يعلّموه أن يعيش عيشة صالحة؟

٢٣

بُطلان الآلهة وكذبهم

ماذا أقول؟ ألم يساهموا في إذكاء شهواتهم الثائرة؟ أو على الأقلّ لقد رفضوا بصراحة ضبطها. وبفضل تلك المساعدة فإنّ ماريوس، ذاك الإنسان الوضيع المحتدِ، الحديثَ النعمة، صار قنصلًا سبع مرّات، ومات في الدورة السابعة مشبعًا من أيّامه، وخلص بالموت من يد سِلّا العائد منتصرًا بعد أن تسبّب بحروب ضارية. ولِمَ لم يتحوّل بواسطة تلك المساعدة عن ذاك العدد الكبير من الجرائم؟ قد يقال إنّ الآلهة لم تساعده! فيا له من اعتراف! إنسان يصل إلى ذاك النجاح المادّيّ الذي استهواكم دون مساعدة الآلهة! إنسان تفاض عليه الخيرات من قوّة وصحّة وحظّ وعزّ وعمر طويل، على مثال ماريوس، والسماء غاضبة، بينما آخرون على مثال راغولوس يعانون الأسر والبؤس والسهر وشتّى أنواع التعذيب حتّى أهوال الموت بالرغم من رضى الآلهة عنه! فيا له من إقرار بعجز الآلهة وعدم جدوى عبادتهم؛ لأنّهم إن حصروا اهتمامهم فقط بتعليم الشعب أمورًا تضاد الاستقامة والفضائل الأدبيّة التي يكافأ الإنسان عليها بعد الموت؛ وإن لن ينفعوا أصدقاءَهم ويضرّوا بأعدائهم في الأمور الزمنيّة والفانية فلِمَ يتهافت الناس على خدمتهم وتكريمهم؟ ولِمَ نسمع في هذه الأيّام الحزينة الكثير من الشكاوى والتذمّرات والشتائم ضدّ الدين المسيحيّ وكأنّ هؤلاء الآلهة قد انسحبوا من الساحة غاضبين؟ إن كانوا في هذا الزمن قادرين على الخدمة أو على الأذيّة نراهم

يؤمّنون الحماية لماريوس القذر ويمنعونها عن ريغولوس الفضيل! أليس هذا كافيًا للدلالة على شرّهم وإثمهم؟ وهل يظنّ الناس أنّ هذا يدعو إلى الخوف منهم وتكريمهم؟ خطأ! هل كان راغولوس أقلّ تكريمًا لهم من ماريوس؟ ولكن لا يجوز أن يكون تفضيل الآلهة لماريوس باعثًا على الرذيلة لأنّ مِتِلُّس (Metellus) الذي أثنى عليه كثيرًا رجالُ الخير كان أبًا لخمسة قناصل، حائزًا على كلّ ما يهنأ به المرء في هذه الدنيا، في حين مات ذاك المسكين كاتيلينا الخائن مرهقًا بالديون والجرائم في مبارزته مع والده! أمّا السعادة الحقيقيّة والثابتة فهي التي يعطيها الله وحده مَن كان له خادمًا. وعلى هذا النحو عندما كانت هذه الجمهوريّة تحتضر في الرذائل لم يعمل الآلهة شيئًا توجيهًا وإصلاحًا لأخلاقها وتداركًا لخرابها. ماذا أقول؟ بل ساعدوا على إفسادها تسريعًا لسقوطها. لا يتظاهرنَّ أحد منهم بالصلاح كأنَّ الشرّ الرومانيّ قد طردهم من روما! لقد ظلّوا فيها وافتضح حضورهم وكذبهم؛ عجزوا عن إسداء النصائح خلاصًا للناس؛ ولم يسكتوا ليخفوا أنفسهم. هل أقول إنّ سكّان منتورن أشفقوا عليهم فسلّموا أمر ماريوس إلى الإلهة مَاريكا حتّى استعاد بعض الرجاء فدخل ذاك اللصّ روما على رأس جيش من اللصوص؟ فيا له من نصر دام رهيب، كان أشدّ قسوةً على المواطنين منه على العدوّ! أطلعوا التّاريخ بأخباره المتشابهة. لندع ذلك جانبًا؛ لست أعزو نجاح ماريوس الدمويّ إلى تلك الخاملة الذكر ماريكا بل إلى عناية إلهيّة خفيّة لكي أُسكت الوثنيّين وأحرّر من الضلال أولئك الذين تحرّروا من شهواتهم فراحوا يتأمّلون بحكمة في تلك الأحداث. وفي الواقع إن كان للشياطين بعض السلطان، في هذا الزمن، فذلك يكون

بقدر ما تسمح لهم به مشيئة الله القدير الخفيّة لكي تجعلنا نترفّع عن مباهج هذه الأرض التي هي من حظّ الأشرار على مثال ماريوس فلا نصنّفها بين الشرور ما دمنا نرى خدّامًا أتقياء لله الواحد الحقّ يتمتّعون بها عنوة عن الشياطين؛ وأخيرًا ليس لنا أن نسعى إلى استرضاء الأرواح الشرّيرة بسبب خيرات هذه الأرض ومضارّها لأنّهم لا يستطيعون فرض إرادتهم إلّا بقدر ما يكون عقلنا قادرًا، أو لا على فهمهم، وبرُّنا على خذلهم.

٢٤

وعندما اقترب سيلا شخصيًّا من روما بقصد الثأر لسلطان جعله يندم تاليًا، فحارب ماريوس، كانت الضحايا منعطفة إليه على حدّ قول تِيت لِيف حتّى إنّ بُوسْتُومِيُوس (Posthumius) العرّاف أراد أن يتحمّل مسؤوليّة تنفيذ قرارات ذلك الرجل الذي يحميه الآلهة بشكل تامّ؛ لا رجوعَ عنه على حساب حرّيّته وحياته؛ إذ لم يكونوا قد انسحبوا من معابدهم ولا تخلّى الآلهة عن مذابحهم، أولئك الحريصون، على مكانة سلًّا أكثر منهم على إصلاحه نفسيًّا، وكانوا متفائلين يعدونه بنجاح باهر من دون التهديد بسحق نزواته الشرّيرة. عندما كان في آسيا يحارب ميتريدات (Mithridate) أرسل جوبيتر إليه تِيسِيُوس لُوسِيُوس يبشّره بأنّه سوف ينتصر؛ وانتصر. ثمّ عندما فكّر بالعودة إلى روما لينتقم منهم بسبب الشتائم التي وجّهوها إليه وإلى أصدقائه حيث أجرى أنهارًا من الدم الرومانيّ بعث جوبيتر إليه مرّة أخرى بجنديّ من اللواء السادس يذكّره بأنّه قد تنبّأ له عن أنّه سوف

ينتصر على ميتريدات وأنّه سوف يعطيه أن يتغلّب على الأعداء بحيث ينتزع منهم الجمهوريّة بعد سفك دم غزير، فسأل سلاً الجنديّ عن تلك الرؤيا وعرف فيها تلك التي وعدته بالنصر على ميتريدات. بأيّ جواب نردّ على الآلهة الذين أسرعوا فبشّروا سلاً بسعادته المزعومة وما فكّر واحد منهم بأن يردعه ويكبح جماحه، إذ شهر سيفه بلا شفقة وضرب فجرح بل قضى على الجمهوريّة! أولئك الآلهة إنّهم ولا شكّ شياطين. إنّ التاريخ والكتب المقدّسة تبيّن لكم، بما فيه الكفاية، أنّ هدفهم الوحيد أن يَظهَروا كآلهة ويُعبدوا كآلهة ويَحصلوا على تقادم تقيم بينهم وبين مَن يعبدونهم تضامنًا في الجريمة والعذاب؛ فيما بعد يغادر سلًا إلى تارانتا ويقدّم ذبيحة فيرى في أعلى كبد الضحيّة رسم إكليل من ذهب فيعده بوستوميوس الساحر بنصر باهر ويأمره بأن يأكل وحده من الذبيحة؛ بعد زمن قصير هتف عبد أحدهم المدعوّ لوسيوس بونتيوس كأن قد حلّ عليه إلهام: «بللونه يرسلني، لك النصر يا سلا!» ثمّ يردف قائلًا «سوف يحترق الكابيتول!» وما إن أنهى كلامه حتّى خرج من المعسكر ثمّ عاد في الغد صارخًا: «لقد احترق الكابيتول!» وكان الكابيتول رمادًا؛ وهل أسهل على إبليس من أن يوحي فجأة بذاك الحدث؟ ذاك ما جرى وهو يهمّ، بنوع خاصّ، موضوعنا؛ أولئك هم الآلهة؛ ويريدون أن يخضعوا لهم؛ إنّهم يجدّفون على اسم الله الذي يخلّص الإرادة البشريّة من استبداد الشياطين! ويصرخ ذلك الرجل قائلًا «إنّه إله: لك النصر يا سلا». ولكي يجعل الناس يؤمنون بروح النبوءة الذي يتكلّم فيه، يخبر عن حدثٍ وشيك يتمّ بعيدًا عن النبيّ. ومع ذلك لا يهتف قائلًا: «ضع حدًّا لجرائمك يا سِلّا!» يا لفظاعتها! يا له من ظافر شرس يقرأ نصره في فألٍ عجيب على كبد متوّج! إن حمل إليك الفأل آلهة بررة، لا الأرواح الخبيثة فقد لا تعرض أحشاء الضحايا أمام سلا سوى جرائم وما تجرّه من ويلات. يفقد الظافر مجده عندما تنتصر شهواته التي لا تعرف لها حدًّا؛ يرتفع أو بالأحرى ينهزم في نجاحه ويصبح جلّادًا لذاته لا لأعدائه! إنّه لمستقبل رهيب وبائس يخفيه عنه الآلهة؛ صمت العرّافين والضحايا، صمت الأحلام وكاشفي الغيب! كانوا يخافون إصلاح أخلاقه أكثر من هزيمته! أو لم يريدوا أن يروا ذلك المنتصر بعظمةٍ على مواطنيه، عبدًا وأسيرًا لرذائله البشعة، موثق اليدين بقيودٍ يشدّها عليهما الشياطين؟

٢٥

وعليه فمَن ذا الذي لا يريد الانفصال عن تلك الجماعة من الآلهة إن رفض الاقتداء بهم؟ ومَن ذا الذي لا يدرك ولا يرى ما تبذله من جهود تلك الأرواح الشرّيرة لتغلف الجريمة بسلطة إلهيّة؟ أجل، وفي حقل واسع من كامبانيا الذي نزف دمًا لدى احتدام المعارك الداخليّة، أما رآهم الناس يتقاتلون؟ في البداية ضجيج وصخب... ثمّ أخبر الكثيرون من الشهود عن معركة دامت عدّة أيّام بين جيشين وعندما انتهت المعركة وجد الناس آثارًا لرجال وخيول تدلّ على حدوث معركة حتّى إذا كان الأمر صحيحًا فلا عذر لحروب الناس؛ لكنّنا نتأمّل هنا في شرّ الآلهة وتعاستهم! إن تظاهروا بالمعركة فهل أرادوا شيئًا آخر غير أن يتداركوا وخز ضمائر الرومان الذين نالوا الإذن للاقتداء بمثلهم

الإلهيّ؟ فالحرب الداخليّة قد اشتعلت وتسابق الناس على إراقة أنهار من الدماء ولمّا تَزَلِ الأفكارُ تعيش تحت تأثير تلك الحقبة الزمنيّة الرهيبة. جنديّ يسلب عدوًّا قتيلًا فيعرفه، عريانًا؛ إنّه شقيقه. يشمئزّ من تلك المعارك الرهيبة؛ ينتحر ويسقط فوق جثّة أخيه. يجب التنبّه إلى ذلك القرف من تلك الفظائع وإضرام الحماس فيها من جديد إلى الجرائم؛ وهؤلاء الشياطين المعروفون والمكرّمون والمخدومون كآلهة يظهرون للناس في قتال ما بينهم. ولشدّة خوفهم من أن يتراجع الناس عن الاقتداء بنزاعاتهم الإلهيّة فلا يجدون عذرًا للقتال الأخويّ الذي يعيشونه أمامهم نراهم يطالبون، بالروح الخبيث عينه، كما قلت سابقًا، بإحياء الألعاب المسرحيّة إكرامًا لهم حيث الغناء والدراما (العمل المسرحيّ) يعبّران عن تلك القبائح حتّى إذا ما صدق الحاضرون بواسطتها الآلهة أو رأوهم يصفّقون لها حذوا حذوهم دون أيّ وسواس. وإذ يحرصون على أن يحلّوا من ذنب إهانة الآلهة القصص الشعريّة عن الجماعات السماويّة وبغيرة منهم على تبرئة ساحة الشعراء يخدعون الناس؛ ولا يكتفون بأن تمثّل على المسارح معاركهم بل يظهرون شخصيًّا على المسرح معاركهم وهم ينظرون نظرات قاتلة. إنّنا نذكّر بهذه الأمور لأنّ الكتبة الوثنيّين لا يخشون أن يقولوا ويكتبوا بأنّ روما ماتت بالفساد ولم يعد لها وجود قبل مجيء المسيح بزمن طويل؛ وخرابها هذا لا يُعزى إلى الآلهة؛ وتلك الشرور التي لا تهمّ حياة أبناء الخير وموتهم تُعزى إلى مسيحنا! هو الذي أعطى كثيرًا من التعاليم تثبيتًا للفضيلة ومقاومة للشرّ في حين أنّ آلهة غير مكترثين بأخلاقيّة خدّامهم وخلاص هذه الجمهوريّة نراهم يسرّعون

سقوطها بما يعطون من أمثلة مفسدة ذات سلطان على الشعب ولا أحد يجرؤ، وهذا هو أملي، على الادّعاء أنّ الجمهوريّة قد سقطت «لكون الآلهة قد انسحبوا من معابدهم وتخلّوا عن هياكلهم. وكأنّي بحبّهم للفضيلة قد اغتاظ لِما رأى من رذائل بشريّة؛ كلّا؛ إنّ السحرة والعرّافين وأحشاء الضحايا التي يبنون عليها علمهم في معرفة المستقبل ليؤكّدوا تأثيرهم على مستقبل الحروب يتّهمون بما فيه الكفاية حضورهم. آه! ولِمَ لم ينسحبوا حقًّا؟ وحده عنف الرومان تسبّب بحروب داخليّة أقلّ هولًا من تحريضاتهم الخبيثة.

٢٦

الفساد يتنامى في المجتمع والشرّ يتفاقم

أجل، بغاء وشراسة، هوان وجرائم منسوبة إلى آلهة ينشرونها أو يخترعها الناس تحت التهديد؛ أعياد يقيمونها احتفاء بتلك القبائح تعرض أمام الناس ليقتدوا بها؛ شهوة دميمة تقنعهم بأنّهم ليسوا سوى أرواح شرّيرة.... أجل، تلك هي الحال.. ومع ذلك فإنّ هؤلاء الشياطين يقرّون بأنّهم أرباب كلّ خلاعة وفظاعة من خلال الإعلان عن قبائحهم الواقعيّة أو الخياليّة، وبواسطة المشاهد الخلاعيّة التي يطلبونها أو تلك التي ينتزعونها من الحياء البشريّ. يقال إنّ هؤلاء الشياطين يعطون، خفية في معابدهم، عددًا قليلًا من الناس المبتدئين تعاليم في حسن الأخلاق. إن صحّ هذا القول فلا يقتنع به هؤلاء الأشرار إلّا، عن تفنّن، في الخبث والشرّ؛ لأنّ الاستقامة والعفّة تملكان القدرة على أن تجعل الطبيعة البشريّة تتأثّر بالثناء وإن تكن رازحة تحت الرذيلة

فلن تفقد كليًّا معنى الشرف. «وإذا لم تتحوّل أحيانًا إلى ملاك من نور على حدّ قول الكتاب المقدّس» (٢ كور ١١/ ١٤) فلن يستطيع الأبالسة الخبثاء أن ينفذوا عملهم بالإغراء. وعلى هذا النحو يضرب الإثم الشعوب بأصواته الإباحيّة من الخارج؛ أمّا من الداخل فإنّ التصنّع بالعفّة يكاد يُسِرُّ بصوت خفيّ في آذان عدد قليل من الناس، درسًا في الرذيلة يعطى في الهواء الطلق وفي فسحة واسعة؛ أمّا النصائح الشريفة ففي السرّ تعطى. الشرف يختبئ والعار يعتلن. العمل السيّئ يدعو حشدًا من المشاهدين، أمّا الصالح فيكاد يجد بضعة مستمعين وكأنّ على الإنسان أن يخجل من الشرف ويمجّد العار؛ ولكن أين يتمّ ذلك إن لم يكن في هياكل الأبالسة أو في المواخير؟ وعلى هذا النحو نجد قلّة من الناس شرفاء تنساق وراء الإغراء ومن جهة أخرى تنغمس عامّةُ الشعب في الدعارة. أين؟ وكيف كان هؤلاء المتدرّبون يقبلون تلك الدروس الإلهيّة في العفّة؟ لسنا ندري. ولكن أمام هذا الهيكل وبحضرة ذاك التمثال الشهير المعروض على مرأى من الجميع كان يتراكض كلّ واحد من الجماعة ليأخذ مكانًا حيث ما أمكن. في حين كنّا نلقي بأنظارنا مداورةً تارة على حشد من البغيّات وطورًا على تلك الإلهة العذراء. يا له من احترام عميق وعبادة طاغية! كلّا؟ ما أُعجِبنا قطّ بوداعة الممثّل ولا بحياء الممثّلة الهزليّة لأنّ كلّ واحد كان أمينًا لدور الشرّ الذي يقوم به؛ وكان الإنسان يعرف ما يروق الإلهة العذراء؛ فالألعاب تثقّف امرأة ويردّها الهيكل إلى بيتها الزوجيّ أكثر معرفة. أمّا أكثر الناس حكمة فكانوا يحوّلون أنظارهم عن المواقف الإباحيّة، خجلًا من ذاك التفنّن في الإثم، الذي كان

يدخل سرًّا أفكارهم؛ وما كانت النساء ليتجاسرن بحضرة الرجال إلى التحديق بنظرة حرّة في الحركات الوقحة الخالية من كلّ حياء. إنّما هل كان القلب حقًّا عفيفًا لكي يشجب عبادة تلك الإلهة التي كنّ يتوسّلنها؟ الهيكل يعطي دروسًا علنيّة في ما يغلفه المنزل الخاصّ بالسرّ. أليس من الغرابة أن يبقى بعض الخفر ضابطًا لتلك الآثام التي يتبنّاها الدين باسم الآلهة وهي جرائم كان الآلهة يفرضون عرضها فتنفّذ أوامرهم تفاديًا لغضبهم؟ هل من عقل ينخز بمهماز سرّيّ النفوس المجرمة، حثًّا لها على الزنى والتشبّع منه، سوى ذلك العقل الذي يجد لذّته في التكريمات النجسة ويقيم في الهياكل أشباح آلهة ويداعب في الألعاب أصنام الرذائل ويوشوش في الخفاء بضع كلمات عن العدل يفاجئ بها بعض رجال الخير؛ نراه علنًا، وفي كلّ مكان، يكثر من إغراءات اللذّة ليظلّ مسيطرًا على عدد لا يحصى من الأشرار؟

٢٧

استرضاء الآلهة بواسطة الدعارة

شيشرون رجل مهيب وفيلسوف مسكين ورئيس مجلس بلديّ منتخب يهتف في الفُورُوم (Forum) أنّ من بين واجبات وظيفته الهامّة أن يجعل الإلهة فْلُورا (Flora) مرضية لدى الناس بواسطة الاحتفال بفخامة بتلك الألعاب التي تكتسب صفتها الدينيّة بقدر ما تكون وقحة وسافلة؛ وإذ كان قنصلًا يوم كانت المدينة تعيش خطرها الداهم قال إنّ الاحتفال بالألعاب استمرّ عشرة أيّام من دون إغفال أيّ شيء إرضاءً وتهدئة لغضب الآلهة. أو لم يكن من

الأفضل إثارة الآلهة بواسطة الاعتدال من أن يهدئهم بواسطة الدعارة؟ أو لم يكن إضرام حقدهم بواسطة الفضيلة أفضل من كسب عطفهم بواسطة هذا العدد الكبير من القبائح؟ مهما كان شرسًا انتقام أولئك الناس الذين نستدعي غضب الآلهة عليهم لكانوا أقلّ شرًّا من الآلهة يضعون أنفسهم في خدمة تلك القبائح لأنّ الإنسان ما كان يحصل على رضى أولئك الآلهة إلّا على أنقاض الفضيلة في النفوس وذلك حفاظًا على الشرّ الذي كان على الجسد وحده أن يخشاه من عدوّه. يا للعجب من حرّاس أسوار روما الذين شرعوا يهاجمون الأخلاق الحميدة! ذاك هو طقس الدنس والعربدة والوقاحة والفجور، إنّه الطقس الذي يفسد الوزراء والممثّلين الذين تحظّر عليهم التكريم وتنبذهم من العشيرة إنّه لطقس كريه ينبذه دين الحقّ الصحيح وتلك الأمثال الخرافيّة التي كان يستطيب فيها الآلهة الشتم؛ وأخبار القباحات الكريهة المنسوبة إلى الآلهة حيث العار وفنّ اللصوصيّة في الاكتشاف لا يمكن أن تتقدّم عليها إلّا بالعار واللصوصيّة الحقيقية! تلك كانت التعاليم التي تلتهمها روما بأسرها وتتقبّلها بأعينها وآذانها! وبينما كانت ترى الآلهة يرتضون ذاك الشكل بتلك الفظائع كان واجبها يقضي عليها لا أن تعيدها فقط تكريمًا لآلهتها بل أيضًا بأن تحذو حذوها غير مبالية بكلّ صالح وشريف أُشرِكَ به عدد قليل من المختارين بشيء من السرّيّة والذي كان يُخشى من إعلانه أكثر من إغفاله.

٢٧

مقارنة بين عبادة الإله الحقّ وتكريم الآلهة الكذبة

إنّ الإنسان ينتقل من ظلمات الكفر المميتة إلى أضواء الحبّ الخلاصيّة فيشكو بعد أن تحرّر باسم المسيح من ذاك النير الجهنّميّ، مجتمعًا مليئًا بالجرائم والتعذيب! إنّ أولئك الأسرى، في باطنهم، الذين يعيشون في ظلمهم وجحودهم فيضيقوا عليهم روح الشرّ، يتذمّرون من إقبال الناس إلى الكنائس بعدد وفير حيث يقيمون الاحتفالات الطاهرة وحيث يقوم فاصل بين جنس وآخر ويتعلّم كيف يعيش الإنسان بطهارة في هذا الزمن ليستحقّ بعد هذه الحياة حياة سعيدة إلى الأبد؛ وحيث الكتاب المقدّس يعلّم البرّ ويعلن المعجزات من مكان مرتفع على مسمع من الجميع فيقبلها المؤمن لخلاصه؛ في حين تكون شجبًا للقلب غير المؤمن أو الفاتر. إن أتى مَن يستهزئ بهذه الشرائع الإلهيّة ينتقل فجأة من وقاحة كانت مسيطرة عليه أو يستسلم لكابح الخوف إن لم يكن للعار لأنّه ما من صورة تفرض ذاتها على النفس حيث أمام الله لا يعرف الإنسان إلّا أن يذيع تعاليمه ويخبر عن عجائبه ويبارك عطاياه ويستجدي منه النِعَم.

٢٩

دعوة النفس الرومانيّة إلى عبادة الإله الحقّ!

أيّتها النفس الرومانيّة ارتفعي بأشواقك إلى فوق، أنت يا دمًا

سخيًّا من ذريّات رِيغُولُس (Regulus) وشِيفُولا (Scévola) وشيبيون وفابْرِيسِيُوس (Fabricius)، ارتفعي بأشواقك إلى فوق وميّزي بين تلك الحقائق وهذه المجموعة الجهنّميّة من الأباطيل والعار والتدجيل! إن برز فيك مبدأ طبيعيّ للفضيلة فإنّه ينتظر نقاءه وكماله من التقوى الحقيقيّة. الكفر يبدّده ويضيّعه. عليك أن تختاري ما توجّهين إليه محبّتك، لا يكن فيك بل في الله، الإله الحقّ الذي يُسبَّح من الآن وصاعدًا بلا خطأ. لقد كنت فيما مضى ملكًا للمجد البشريّ وبحاجة إلى الدين الحقيقيّ وينقصك اختياره، عملًا بتدابير خفيّة، اتّخذتها العناية الإلهيّة. إستيقظي أيّتها النفس الرومانيّة ألست الآن يقظة واعية في الكثيرين ممّن بذلوا الفضل وتحمّلوا العذاب في سبيل الإيمان الصحيح فكانوا مجدًا لنا؛ وانتصر الأبطال بموتهم على العدوّ وقوّاته وولدوا لنا هذا الوطن الجليل بما سفكوه من دماء؟ إلى هذا الوطن ندعوك؛ تعالي وانضمّي إلى مواطنيه؛ هنا مغفرة الخطايا تفتح ملاذًا؛ لا تصغي إلى النفوس السفيهة التي غمضت حقوق المسيح والمسيحيّين واتّهمت عهد الخلاص بالكوارث! علامَ يبحثون في الزمن؟ يسعون لا إلى الراحة في الحياة بل إلى الرذيلة الآمنة؛ إنّه لعار لم تقبليه طوال حياتك حتّى ولو كان في سبيل الأرض كلّها. إليك اليوم الوطن السماويّ خذيه؛ سهل هو الحصول عليه حيث لا حدود لملكك سوى الحقيقة والأبديّة؛ لا محلّ فيه لِفِسْتا (Vesta) ولا لأيّ حجر من الكابيتول (Capitole) بل الإله الواحد الحقّ الذي لا يقيس لك لا المكان ولا الزمان ويعدك بملك لا نهاية له حاشا لك أن تعبدي هؤلاء الآلهة الكذبة الدجّالين! انبذيهم باحتقار وطيري إلى الحرّيّة لأنّهم ليسوا آلهة بل

أرواح شرّيرة يتألّمون لأنّك تسعدين إلى الأبد. كلّا ثمّ كلّا إنّ جونون (Junon) ما حسدت قطّ الطرواديّين (Les Troyens) أسلافك الزمنيّين على مجد المدينة الرومانيّة كما يحسد هؤلاء الأبالسة الجنس البشريّ على سعادته في المنازل الأبديّة. لقد قدّرت العباقرة الأشرار حقّ قدرهم عندما طمْأنتهم بواسطة ألعابك فوصمت اللاعبين بوصمة الألعاب المشينة. إقبلي أن تتأكّد حرّيّتك من تلك الأرواح الفاسدة التي حنت رأسها تحت خزيهم البالغ الخطورة! لقد أقصيت عن كلّ تكريم ممثّلي الجرائم الإلهيّة فاسألي إله الحقّ أن يبعد عنك هؤلاء الآلهة الذين يرتضون بالجرائم، خياليّة كانت أو واقعيّة. يا للعار! يا لفساد الأخلاق! أنت انكفأتِ عن المجتمع المدنيّ وعن الممثّلين الهزليّين؛ هذا شيء حسن؛ تابعي وانظري جيّدًا. ما كان الجلال الإلهيّ موافقًا على تكريم آلهة يسيئون إلى كرامة الإنسان. كيف لك أن تضعي في عداد القوّات السماويّة المقدّسة هؤلاء الآلهة الذين يعملون بجدّ على تحطيم كرامتك، وبخاصّة عندما تحذفين بيدك من صفوف أواخر مواطني روما خدّامهم الأشرار وسطاء الشناعة والقبح؟ أليست تلك المدينة العلويّة أكثر منها مجدًا حيث النصر هو الحقّ، والكرامة قداسة، والسلام سعادة، والحياة خلود؟ هل يمكن أن يكون لها في مجتمعها أمثال أولئك الآلهة إن كنت تخجلين بمثل هؤلاء الرجال في مجتمعك؟ إن أردت الوصول إلى هذه المدينة السعيدة إيّاك والتعاطي مع الشياطين! ماذا! الإنسان الشريف يدعو أولئك الآلهة الذين يشنيهم عن غضبهم السفيه! على الطهارة المسيحيّة أن تنتزع من المجتمع كما انتزعت علامة المراقب هؤلاء من كراماتك. أمّا فيما يختصّ

بالخيرات والويلات الزمنيّة وهي الخير والشرور الوحيدة التي يتوق الأشرار إلى امتلاكها ويرفضون العذاب فهؤلاء الشياطين ليس لهم كلّ السلطان الذي نفترضه فيهم؛ حتّى ولو كان لهم، فإنّنا نرفض أن ننصاع لهم؛ أليس من الواجب علينا أن نزدري تلك الأشياء بدلًا من أن نقدّم للقوّات الشرّيرة عبادةً تحوّلنا عن الهدف الذي يحسدوننا عليه؟ بيد أنّها لا تفيد شيئًا حتّى في الزمن كما يظنّ الذين يحافظون على عبادتهم باسم المصلحة الزمنيّة. وعلينا أن نرجئ درس هذا الموضوع إلى وقت آخر لنضع حدًّا لهذا الكتاب.

الكتاب الثالث

مقدّمة

يحاول أوغسطينس أن يبيّن عجز آلهة الرومان عن نصرة الشعب. وكيف للمرء أن يعتقد أنّ الآلهة تركوا طروادة تخرّب عقابًا لها على الزنى الذي ارتكبه الإله باريس في حين أنّهم لا يعاقبون روما على مقتل شقيق رومولوس. وكيف يحقّ لهم أن يشجبوا في الناس جرائمهم عندما يرتكبون هم أيضًا جرائم مماثلة؟

آلهة الرومان هم أيضًا آلهة طروادة، ولِمَ لم يعملوا شيئًا لنجدتها يوم اجتاحها الغول؟ أمّا السلام الذي نَعِمت به مدّة، فلم يكن سوى منّة من جيرانها لها. عمل الرومان على تكثير عدد الآلهة في سبيل ازدهار المدينة بيد أنّ هذا الأسلوب لم يمنع الكوارث العديدة عنها التي تعاقبت عليها «دون أن ينسحب الآلهة من معابدهم ويتخلّوا عن هياكلهم» على حدّ قول فيرجيل الشهير. وهل يعجب القارئ لكلام قاس يطلقه أوغسطينس ضدّ آلهة روما عندما يكشف المؤرّخون الرومان عن عيوبهم وسوء تصرّفهم؟ حتّى إذا لم يستطيعوا أن يمنعوا عن روما ما حلّ بها من كوارث فليكفّوا عن اتّهام المسيحيّة والمسيح بها هم الذين تسبّبوا بخراب الجمهوريّة قبل مجيء المسيح بزمان طويل!

١

حسبنا، على ما يبدو لي، ما تكلّمنا به عن أمراض النفس التي تهدم الأخلاق؛ وعلى المرء أن يخشاها دون سواها. حسبنا أن نبيّن أنّ الآلهة، بدلًا من أن يفكّروا في خلاص شعبهم، الأمين، الرازح تحت ثقل شروره، يزيدونه ضغطًا. لنتكلّم الآن عن الشرور التي يرفضها كلّ وثني وهي الجوع والمرض والنهب والأسر والموت وما شابه ذلك من المآسي التي أتينا على ذكرها في الكتاب الأوّل لأنّ الإنسان الشرّير لا يعتبر شرًّا إلّا ما لا يجعل الإنسان شرّيرًا؛ ولا يخجل، في وسط الخيور التي يمتدحها، من أن يكون شرّيرًا خلال مدحه لها؛ إنّه يستاء من الفوضى القائمة في مدينته أكثر من الشرّ الذي هو عليه؛ وكأنّ أفضل خير يتوق إليه هو ما يحصل عليه خارجًا عن ذاته؛ على أنّ الناس لم يجدوا لدى آلهتهم عونًا على شرور يخشونها دون سواها؛ مع أنّهم يعبدونهم بملء حرّيّتهم. قبل مجيء فادينا حدثَتْ كوارث في كلّ زمان ومكان، وقضت فيه على البشر؛ وما كان ليخطر بعضها على بال إنسان؛ فهل كان الناس يعبدون آلهة أخرى؟ الشعب العبرانيّ وحده كان يعبد إلهه؛ وخارجًا عنه وجد الله، بقضاء منه سرّيّ وعادل، أناسًا قليلين جديرين بنعمته. وخوفًا من أن أطيل الكلام، أتجاوز تلك الآفات التي ضربت الدول العالميّة الأخرى، مكتفيًا بالحديث عن روما والإمبراطوريّة الرومانيّة وما تحمّلته من عذاب قبل مجيء السيّد المسيح، إضافة إلى المناطق الأخرى المتّحدة بها، إمّا عن طريق التحالف معها، أو انصياعًا لأوامرها، فأصبحت بالنسبة إليها أشبه بالأعضاء في جسم كبير.

٢

الكذب سيّد المواقف

وبما أنّ الموضوع هنا يستدعي الكلام وإظهار الحقيقة، نتساءل لماذا إليونَ أمّ روما قد هزمها الإغريق واحتلّوها وهدموها، وآلهة الواحدة منهم آلهة الأخرى؟ وقيل لنا إنّ بِرْيَام تكفّر عن شرّ لايُوميدُون (Laomidon)(*)؛ وعليه فإنّه لصحيح أن أبلُّون ونبتون(**) قد ساعدا لايوميدون؛ إنّي أعجب من أبلّون المفسّر الإلهيّ للمستقبل كيف أنّه يلزم نفسه بذاك العمل الشاقّ، مع علمه بأنّ لايوميدون سوف ينكر عليه دينه. وهل أغرب من ذاك الجهل أيضًا عند عمّه نبتون، شقيق جوبيتر، سيّد مملكة المياه؟ وهوميروس الذي عاش كما يقال قبل أن تظهر روما إلى الوجود؟ ألا يتنبّأ له عن مستقبل عظيم لأبناء إينِه (Enée) الذين أسّسوا المدينة؟ أليس هو القائل إنّ الإله اختطف البطل في سحابةٍ ليخلّصه من سيف أخيل؟ بيد أنّه، وبحسب ما اعترف به فيرجيل «أراد أن يهدم أسوار المدينة التي حنثت بوعدها بعد أن بنتها يداه» (فيرجيل، **الإنياذة**، ٥: ٨١٠). وهكذا فإنّ هذين الإلهين العظيمين، نبتون وأبُلُّون، قد تحقّق لهما أنّ ليوميدون سوف يقضي عليهما فأكملا بالمجان رسالتهما تجاه مَن ينكرون جميلهما. حذار أن تكون الثقة بأولئك الآلهة أشدّ خطرًا من الحنث بالوعد. هوميروس ذاته لا يبدو هنا واثقًا، لكونه يصوّر

(*) ملك طروادة ووالد بريام.

(**) أبلّون إله النور والفنون، ونبتون إله البحر.

نبتون محاربًا ضدّ الطرواديّين وأبلّون إلى جانبهم؛ وإن تساويا في الإهانة. إن صدّقتم الأساطير اخجلوا من تكريم أمثال أولئك الآلهة؛ وإن لم تؤمنوا فلا تسألوا عن شهادات الزور في طروادة أو اسألوا عن السبب الذي من أجله يعاقب الآلهة على شهادات الزور في قرطاجة ويحمون شهادات الزور في روما وكيف أنّ هذه المدينة الكبيرة والخاطئة قدّمت هذا العدد من الخونة لتغريم كاتيلينا؛ وقد كانت ألسنتهم وأيديهم تتغذّى بشهادات الزور والدم الرومانيّ؟ وهؤلاء الشيوخ القضاة الفاسدون والمجالس الشعبيّة التي ترتشي وتقترع في كلّ ما يرفع إليها من دعاوى، ألم تكن شهادة الزور جريمتهم العاديّة في كلّ الدعاوى المرفوعة إليهم؟ في ذلك الفساد الأرعن كان القسم مرعيًا بحسب التقليد، لا لكي يضع حدًّا للجريمة، عن طريق الخوف، بل ليطفح كيلهما من جرّاء شهادات الزور.

٣

وعليه فلا داعي لأن نتّهم الآلهة الذين يدعمون هذه الإمبراطوريّة وقد اتّضحت هزيمتهم أمام الإغريق بأنّ غضبهم على الطرواديّين خياليّ كما أنّ زنى بارس (Paris) الذي تذرّعوا به، عبثًا، دفاعًا عن الآلهة، لم يتسبّب بهروبهم الساخط لأنّهم إذ يأتون الجرائم وينصحون بها فما تعوّدوا قطّ أن ينتقموا لها. يقول سلّستس: «منذ البداية، أنّ أوّل مَن أسّس روما وسكنها هم الطرواديّون التائهون، على غير هدى، تحت قيادة إينيه». وإن ظنّ هؤلاء الآلهة أنّه يجب عليهم أن يثأروا، لزنى بارس، أما

كان عليهم أيضًا أن يلاحقوا بثأرهم الرومان طال ما أنّ والدة إينيه هي المسؤولة؟ وهل لهم أن يكرهوه في بارس، ولا يكرهونه مثلًا في فينوس، رفيقتهم، التي اقترفت الزنى مع أنشي فولدت منه إينيه؟ لربّما اغتاظ مَنَلاس وتجاوزه فولكَانْ. أنا أعلم أنّ الآلهة ليسوا شديدي الغيرة على زوجاتهم بل يشركون الرجال بهنّ؛ هل يتّهمونني بالسخرية وقلّة الاحترام في قضيّة بهذه الأهمّيّة؟ أجل؛ لنتوقّف عن الاعتقاد بأنّ إينيه هو ابن فينوس ولنتوقّف عن الاعتقاد أيضًا بأنّ رومولوس هو ابن مارس(*)؛ وإلّا لماذا نرفض هذا ونقبل الآخر؟ هل يسمح للآلهة بمضاجعة النساء في حين مضاجعة الرجال للإلهات تُعتبر جريمة؟ قَدَر قاسٍ، أو بالأحرى، لا يمكن أن يصدّق! بشأن فينوس، هل ما يسمح به لمارِس يحرّم على الإلهة؟. كلّا ثمّ كلّا؛ إنّ روما بما لها من سلطان تثبت هذا وذاك ولم يكن القيصر أقلّ إيمانًا بتحدُّره من فينوس من رومولوس القديم بأنّه ابن مارس.

٤

ولربّ قائل يقول: هل تصدّق كلّ ذلك؟ كلّا. لأنّ عالمكم وصاحبكم فَرُّون (Varron) وإن بدا متردّدًا في إعطاء رأيه، يخلص إلى الاعتراف بأنّ ذلك كذب، لكنّه يزعم بأنّ مصلحة الدول تقضي بأن يعتقد عظماؤها، وإن باطلًا، بأنّهم من ذرّيّة الإلهة، لكون الإنسان الذي يعتقد بأنّه من أصل إلهيّ يندفع بحماسة كَلّيّة إلى الأعمال الكبرى ويقوم بها بنشاط، مستقويًا

(*) إله الحرب والفلّاحين.

بالثقة التي تضمن له النجاح. إنّ هذا الرأي الشخصيّ لفرُّون الذي أُلبسه أفضل ما لديّ من تعابير يفتح بابًا واسعًا للخطأ ويجعلنا نفترض القصص الخياليّة التي يستطيع الإنسان أن يقدّمها كلّ مرّة يعتقد بأنّ الكذب في أمور الدين هو مفيد للمواطنين. ولكن هل كان باستطاعة فنوس التي زنت مع أنْشِيز (Anchise) أن تلد إينيه أو كان باستطاعة مارس أن يلد رومولوس من خلال معاشرته لسيلفيا ابنة نُومِيتُور (Numitor)؟ إنّه موضوع أتخلّى عنه الآن، إذ يبدو أنّه يتكرّر في كتبنا لمعرفة هل استطاع الملائكة الأشرار أن يجامعوا بنات الناس مجامعة أعطت أولئك الجبابرة العمالقة الأقوياء الذين ملأوا الأرض.

٥

لنحصر المسألة الآن في الحدّيْن التاليين. إن كان ما قيل عن والدة إينيه وعن والد رومولوس صحيحًا فكيف يستاء الآلهة من الزنى عند الناس، حين يمارسونه، فيما بينهم، بطيبة خاطر؟ إذا كان هذا الأمر كذبًا فكيف لهم أن يستاءوا من أعمال الزنى الحقيقيّة عند البشر، إن ارتضوا بأعمال الزنى التي يتّهمهم بها شخصيًّا الكذب؟ فضلًا عن ذلك فإن لم يؤمن الإنسان بزنى مارس فعليه أيضًا ألّا يؤمن بزنى فنوس؛ ولن يعود من مجال للتذرّع بالجرم الإلهيّ بشأن ما تقدّمه من أعذار والدة رومولوس. على أنّ سيلفيا كانت زوجة كاهن، مشهورة بعفّتها، وكان على الآلهة أن يثأروا، بقسوةٍ لانتهاكها الأقداس في روما أكثر من زنى بارس في طروادة، لأنّ الرومان الأقدمين كانوا يدفنون الكاهنة

التي يأخذونها في الجرم المشهود حيًّة، في حين كانوا يعاقبون الامرأة الزانية بغير عقاب القتل ويثأرون من منتهكي الأقداس بشكل أقسى ممَّن يخونون المضجع الزوجيّ.

٦

ماذا أقول؟ إنّ كره الآلهة جرائم الناس حتى إنّهم، لشدّة استيائهم من زنى بارس، تخلّوا عن طروادة للحديد والنار، كان على مقتل شقيق رومولوس أن يثيرهم ضدّ روما أكثر من إهانة زوج إغريقيّ لأليون وأن يثأروا لموت مدينة ناشئة، ويستاءوا أكثر من استيائهم لزنى مدينة في عزّ ازدهارها. وما هم إن كان رومولوس هو الآمر بالقتل أو القائم به شخصيًّا؛ وهو ما ينكره الكثيرون بوقاحة أو يرتابون من أمره أو يخفونه عن ألم. ومن دون أن نتوقّف طويلًا على شهادات التاريخ العديدة حول هذا الموضوع، فمن الثابت أنّ شقيق رومولوس قتل، لا بأيدي أعداء ولا بأيدي غرباء، بل اقترفت هذه الجريمة على يد رومولوس؛ أو بأمر منه؛ فضلًا عن أنّه رئيس الرومان كما هو بارس بالنسبة إلى الطرواديّين وأكثر. كيف جلب الخاطف على طروادة غضب الآلهة في حين مقتل الشقيق يستحقّ حماية الآلهة لروما؟ إن كان رومولوس غريبًا عن تنفيذ الجريمة، أو عن الأمر بها، ولم يثأر لها، فالمدينة بأسرها متّهمة بأنّها وافقت عليها؛ ولم يعد الدم دم شقيق بل دم والد؛ ويا للشيء الرهيب! أليس لها مؤسّسان وإن لم يبق لها سوى ملك واحد؟ وأخيرًا عليهم أن يقولوا إن أمكن: أيّ شرّ أتته طروادة لكي يتخلّى عنها الآلهة فتخرب؟ وأيّ خير

أتته روما لتستحقّ حضور الآلهة معها وحمايتهم لها؟ كلّا. انهزموا وهربوا ولجأوا إلى روما ليخدعوا الرومان بدورهم أو بالأحرى مكثوا على أرض طروادة ليُغروا، بعاداتهم، السكّان الجدد فازدادوا هنا مكرًا وعظمة وتمتّع كبرياؤهم بمزيد من الإكرام.

٧

وأيّة جريمة جديدة ارتكبت طروادة الشقيّة لتغرق في نهرٍ جارفٍ من الحروب الداخليّة وتخرب على يدي أشدّ المتحالفين حماسةً مع ماريوس وفِمْبِريًّا (Fimbria) الظافر الأشدّ قسوة من الإغريق القدامى؟ في زمن تجربتها القاسية الأولى نجا عدد كبير من الطرواديّين من الموت عن طريق الهرب أو الأسر؛ على أنّ فمبريا حرّم في بداية الأمر العفو وحوّل المدينة إلى رماد وأحرق معها السكّان بأسرهم؛ ذاك ما عانته إليُون (Illion) لا على يد الإغريق الذين أغضبهم ذنبها، بل على يد الرومان الذين وُلِدوا من شقائهم وتمّ ذلك تحت وصاية الآلهة أنفسهم! إنّهم آلهة لا يبالون بشيء أو بالأحرى عاجزون عن دفع هذا العدد الضخم من النكبات. أيقال مرّة ثانية: «انسحبوا من معابدهم وتخلّوا عن هياكلهم» أولئك الآلهة حماة إليون الناهضة من تحت الرماد ومن بين أخربتها القديمة؟ إن كان الأمر هكذا فلِمَ هذا كلّه؟ قضيّة الآلهة، على ما يبدو لي، تزداد سوءًا بقدر ما تتحسّن قضيّة الطرواديّين؛ لقد أغلقوا بوجه فمبريا أبواب مدينتهم ليحفظوها لسلّا؛ غضب فمبريا فانتقم منها بالحريق والإبادة، غير أنّ سِلّا هو الزعيم للحزب الأفضل يحمل بيده السيف ليستعيد

الجمهوريّة. بدايات حسنة، لكنّها لا توصل إلى النتائج الوخيمة؛ وهل يستطيع السكّان أن يعملوا أفضل ممّا عملوا؟ وأيّ شيء أشرف وأكرم وأكثر أمانة للقرابة الرومانيّة من إبقاء مدينتهم في عصمة أفضل حزب وإغلاق أبوابها أمام ذاك السارق، قاتل الجمهوريّة؟ هل دفعوا غاليًا يا ترى ثمن ذلك القرار؟ ماذا يقول المدافعون عن الآلهة؟ أن يكون الآلهة قد تخلّوا عن شعب من الزناة وسلّموا طروادة إلى نيران الإغريق، فتولَد روما أعفى وأنقى من بين الرماد؟ أمّا اليوم فلِمَ تترك تلك المدينة أمّ روما الأمّ الخاضعة لابنتها الشريفة، أمينة وحليفة للقضيّة العادلة؟ لِمَ التخلّي عنها إلى نذلٍ، إلى أحقر الرومان، من دون الأبطال الإغريق؟ إن كان حزب سِلّا الذي أحبَّ هؤلاء المنكودي الحظّ وحفظ لهم مدينتهم لا يروق الآلهة، فلِمَ يسرعون فيعدون سِلّا ذاته بكثير من الهناء والسعادة؟ ألا نجدهم هنا أيضًا يحبّذون الازدهار، ويغرون به، ولا يحمون من سوء الطالع؟ إنّ إليون لم تسقط لأنّ هؤلاء الآلهة الشياطين العاملين دومًا على خداع الناس، قيامًا بما يستطيعون، قد تخلّوا عنها. تماثيلهم كلّها تحطّمت واحترقت مع المدينة؛ أمّا تمثال مينرفا وحده فقد وُجد سالمًا منتصبًا تحت أنقاض الهيكل الفظيعة وذلك بشهادة تِيتْ-لِيفْ (Tite-live). كلّا، ولا شكّ، لقد حدث كلّ ذلك لكي يقال إكرامًا لهم: «يا آلهة الوطن، حماة طروادة الدائمين!» إنّما يستحيل عذرهم أمام القول: «إنسحبوا من معابدهم وتخلّوا عن هياكلهم»؛ وقد سمح لهم باجتراح معجزة، لا لتبرهن عن قدرتهم، بل لتقيم، ضدّهم، القناعة بأنّهم كانوا حاضرين.

٨

فضائح تنكشف أمام الملأ

بعد هذا المصير المحتوم لطروادة ما هي الحكمة في تسليم الدفاع عن روما إلى أولئك الآلهة؟ هل يدّعون أنّهم كانوا فيها، منذ زمن طويل، عند سقوط إليون في يد فمبريا الغاضب؟ وكيف بقي تمثال مينرفا منتصبًا بين الأنقاض؟ ثمّ إن كانوا في روما عندما هدم فمبريا إليون فهل يا ترى كانوا في إليون عندما سقطت روما، بأيدي الغول، وأحرقوها؟ لكن بما كان لهم من سمع مرهف وخفّة مميّزة أسرعوا على صراخ البطّ يخلّصون، أقلّه، صخرة الكابيتول بعد أن تنبّهوا مؤخّرًا لحماية الباقي من المدينة.

٩

ولا يزال أناس يعتقدون بأنّ نُوما (Numa) خليفة رومولوس تمتّع بالسلام، طوال عهده، بنعمة منهم، كما كان لهم الفضل بإغلاق أبواب جانوس التي فتحتها الحرب، مكافأة له على الاحتفالات الدينيّة التي أقامها إكرامًا للرومان. ولا شكّ أنّ تهنئته بتلك الأوقات الحرّة والسعيدة كانت واجبة، لو أنّه عرف أن يكرّس بمشاريع مفيدة ويضحّي بما لديه، من فضول خبيث، سعيًا حقيقيًّا وتقويًّا إلى الإله الحقّ؛ بيد أنّ ذلك الوقت الحرّ مدين به لأولئك الآلهة الذين كانوا قلّلوا من خداعهم له لو وجدوه أكثر انشغالًا.

لقد أخذوا على أنفسهم أن يشغلوا أوقات فراغه. إنّ كلّ ما قام به من أعمال وأسرار مارسها، وصولًا إلى شراكة بينه وبينهم، بين روما وأمثال أولئك الآلهة، قد كشفه لنا فرُّون، ولكن سوف نتكلّم عن ذلك إن شاء الربّ بمزيد من اللياقة فيما بعد. نتناول هنا أعمالهم الصالحة والسلام واحد منها، لكنّه عمل الإله الحقيقيّ كالشمس والمطر وسائر الخيرات في الحياة التي يفيضها على ناكري الجميل والأشرار. أمّا إذا كان أولئك الآلهة هم أصحاب ذلك الخير الثمين بالنسبة إلى روما وبومبيليوس، فلماذا يبخلون به حتّى في أزمنة الفضيلة؟ هل كانت تلك الاحتفالات المكرّسة أثناء إنشائها أكثر منها ساعة الاحتفال بها؟ لم تكن قبل نوما، فهو الذي أضافها فوُجدت، ولكي يستفيد الناس منها، أصبحوا يمارسونها. إنّ ثلاثًا وأربعين سنة أو تسعًا وثلاثين، كما يقول آخرون، من حكم نوما التي انقضت بسلام، فضلًا عن الأعياد التي تقام بحضور الآلهة ورعايتهم في الحقبة الممتدّة بين تأسيس روما، وعهد أوغُسْطُس، لا نجد فيها سوى سنة سلام واحدة، وكأنّها معجزة كبرى استطاع الرومان أن يقفلوا فيها أبواب الحرب منذ نهاية الحرب الإفريقيّة الكبرى!

١٠

ويجيب أحدهم قائلًا: لولا تلك الحروب المتتالية لما كان ممكنًا على الإمبراطوريّة الرومانيّة أن تبسط إلى البعيد سلطانها وعظمتها؛ وكان لها لكي تتوسّع أن تستمرّ في اضطراب كهذا لا ينتهي. يا للعجب! أليس من الأفضل أن يكون للإنسان قامة

متوسّطة يتمتّع بالصحّة فيها من قامة عملاق لا تتنامى إلّا بواسطة أزمات متلاحقة يعيشها الإنسان من دون أن يعرف الراحة حيث الألم يقيس عنف هجماته بقدرة الأعضاء؟ وهل نعتبر شرًّا أو بالأحرى خيرًا عظيمًا أن يعيش الإنسان في الأزمنة السعيدة التي يصفها سَلُّستس كما يلي: «في البدء كان الملوك المختلفو الميول، الاسم الأوّل الذي اتّخذته السلطة على وجه الأرض، يقومون بتمارين فكريّة وجسديّة فتنقضي حياة البشر، خالية من كلّ طمع، فيرتضي كلّ واحد بما له». فهل كان من الواجب في سبيل توسيع الإمبراطوريّة المرور بذلك الانحطاط الأخلاقيّ الذي وصمه فرجيل بالعار قائلًا: «يذبل الجيل تدريجًا وتشحب ألوانه ثمّ يفاجأ بثورة السلاح والعطش إلى الذهب». على أنّ الرومان يجدون عذرًا شرعيًّا لهذه الحروب الكثيرة؛ وإذ يضطرّون إلى مقاومة هجمات الأعداء المفاجئة لن يعود الموضوع بالنسبة إليهم موضوع مجد بشريّ بل موضوع حياة وحرّيّة.

السلاح ضروري حفاظًا على الأمن

يقول سلّستس: «عندما توسّع الدولة مؤسّساتها وشرائعها وأرضها وتظهر على درجة من الازدهار والقدرة فإنّ نجاحها يولّد الحقد، وفق ما يقضي الحظّ به في الأمور البشريّة، فيختبر ملوك الأرض المجاورة لهم وشعوبها قدراتهم بالحرب؛ وقلّما يهب الأصدقاء لنجدتها ويُبقي الرعب والإرهاب الكثيرين بعيدًا عن الخطر؛ بيد أنّ الرومان اليقظين في الداخل والخارج يهبون ويتأهّبون ويذهبون إلى العدوّ بجرأة. الحرّيّة والوطن والعائلة كلّ ذلك يحمونه بأسلحتهم؛ وإذ يقوون على صدّ الأخطار عنهم يذهبون لمساعدة حلفائهم وأصدقائهم. إذ ذاك يشعلون الحرب

لتأدية الخدمة دون سواها. على هذه السبل الكريمة ترتفع روما. ولكن ماذا يحدث في عهد نوما؟ كيف التوفيق بين ذاك السلام الطويل الأمد وتلك العداوات الاعتياديّة؟ إذا كانت روما المحاصرة لم تواجه السيف بالسيف فكيف يمكنها أن تكبح جماح العدوّ إن امتنعت عن المعركة، وتوقّفت لديها تلك الوثبات النشيطة التي أوحى بها إليها الإله مارس؟ مَن ذا الذي كان يمنعها من أن تصبح إمبراطوريّة لولا الجهاد وأبواب جانوس مغلقة؟ إن لم يكن ذلك في مقدورها فلقد تمتّعت بالسلام؛ لا، لأنّ الآلهة هكذا أرادوا بل لأنّ جيرانها أوقفوا هجماتهم. إلّا إذا نجرّأ أمثال أولئك الآلهة ومالأوا الإنسان، في ما يريد، أو لا يريد؛ وسمحوا للأبالسة بأن يقودوا أرواح الشرّ أو بأن يضبطوها، لما لهم من خبث وشرّ؛ ولكن لو كانوا دومًا في تلك المقدرة ولو لم تكن نشاطاتهم ضحيّة قدرة خفيّة وسامية لاستطاعوا أن يحكموا في السلم والحرب والنصر؛ وهي أحداث غالبًا ما تتعلّق بالشهوات البشريّة.

١١

على أنّهم يصلون، في معظمهم، رغمًا عن إرادة أولئك الآلهة، لا بحسب ما تقوله الأمثال الكذابة التي تكاد تخلو من كلّ الحقيقة فقط، بل كما يعترف به التاريخ الرومانيّ. ولأيّ سبب آخر، راح أبُولُون ذِي كُوم Appollon de cumes يبكي بعة أيّام خلال الحرب ضدّ الملك أرِيْسْتُونِيكُوس والخائنين. ام هذا المنظر استولى خوفٌ شديد على العرّافين وهمّوا بإلقاء

التمثال في البحر، غير أنّ الشيوخ توسّطوا لديهم، مؤكّدين أنّه في أثناء الحرب ضدّ أنطيوكس وبِرسِه (Persée)(*) حدث فأل مماثل فانتصر الجيش الرومانيّ؛ وصدر قرار من مجلس الشيوخ بإرسال هدايا بشكل عاديّ إلى أبولون واستُدعي إلى المكان عرّافون آخرون فقالوا إنّ دموع التمثال فأل كبير. أليست كوم مستعمرة إغريقيّة؟ يبكي أبولون مأساة مسقط رأسه وخراب اليونان والحداد عليها ثمّ يصل نبأ هزيمة أريستونيكوس وأسره وهو مصاب انتزع دموع الألم والتشفّي من حجر الإله. وعلى هذا النحو فإنّ الشعراء لا يخطئون دومًا وتبقى قصائدهم رسمًا دستوريًّا قريبًا من الحقيقة يمثّل عادات الأبالسة. إنّ ديانا في فرجيل تتحسّر على كَاميلِ وهرقل يبكي على بالّاس (Pallas)(**) المشرف على الموت؛ ولهذا فقد يكون الأمر صحيحًا فإنّ نوما بومبيليوس الذي يتمتّع بسلام حقيقيّ، دون أن يعرف صاحبه، ولا يبحث عنه، يروحُ في أوقات فراغه يشير إلى الآلهة الذين سوف يعهد إليهم بالوصاية على روما ورعاية عهده. وكما أنّه يفترض أنّ الإله الأكبر الحقيقيّ والقدير لا يبالي بأمور الأرض، وإذ يتذكّر أنّ آلهة طروادة الذين جاءهم الناس على مراكب بِبْليون ما استطاعوا أن يحافظوا على طروادة ولافِينِيُون Lavinion التي أسّسها إينيه، ظنّ أنّه يجب التثبّت من آلهة يحمون روما غير الذين جاؤوا إلى روما مع رومولوس أو الذين مرّوا بها بعد خراب ألب (Albe)؛ آلهة عاجزون يهربون أمام الخطر أليسوا بحاجة إلى مَن يحرسهم ويساعدهم؟

(*) آخر ملك مقدوني.

(**) عملاق في الميثولوجيا الإغريقيّة.

١٢

لم تستفد روما من آلهتها!

بيد أنّ روما لم تكتفِ بالآلهة الكثيرين الذين أقامهم نوما؛ لم يكن حتّى ذلك التاريخ هيكل أساسيّ لجوبيتر. إنّ الملك تاركون بنى الكابيتول وأسكولاب جاء من أيدور إلى روما وبصفته طبيبًا ماهرًا أراد السكن في مدينة شهيرة يمارس فيها فنّه بمزيد من المهارة وهكذا جاءت والدة الآلهة لا أدري من أين، قد يكون من بسّينُونْتْ (Pessinunte) وهل كانت في الواقع الإقامة لمدّة طويلة في مدينة وضيعة عندما كان ابنها يسيطر على رابية الكابيتول؟ إن كانت هي أمّ جميع الآلهة فليس فقط تبعتهم إلى روما؛ بل سبقت الكثيرين منهم. والحقّ يُقال، لقد فوجئت بقولهم إنّها ولدت سِينوسيفال الذي جاء من مصر فيما بعد. سلوا حفيدها إسكولاب كانت الإلهة فيفر (الحمى) ابنة لها أيضًا ولكن إن كانت أمّ تلك الإلهة مواطنة رومانيّة هل يجرؤ الآلهة الغرباء أن يزدروا أصلها؟ إنّ روما القائمة تحت رعاية عدد كبير من الآلهة، ومَن ذا يستطيع أن يعدّهم؟ مواطنون وغرباء آلهة السماء والأرض والجحيم والبحار والينابيع والأنهر سواء أكانوا حقيقيّين أم لا، كما يقول فارّون، وفي كلّ أنواعهم، ذكور وإناث كالأنواع الحيوانيّة. أجل تحت رعاية هذا العدد الكبير من الآلهة، هل لروما أن تحزن وتضطرب أمام هذا العدد الضخم من النكبات الرهيبة والتي لا أريد أن أذكر منها سوى القليل؟ عبثًا دعا دخان الذبائح، مشيرًا إلى الدفاع عنها، ذلك العدد العجيب

من الآلهة. ألم تكن تلك الهياكل والمعابد والاحتفالات إهانات تُلحَق بالإله الحقّ والسامي الذي يليق به وحده كلّ إكرام؟ عاشت روما سعادة أكبر مع عدد أقلّ من الآلهة ولكن بقدر ما نمت وازدهرت ظنّت أنّ عليها اتّخاذ مزيد من الآلهة لخدمتها لأنّ للمركب الكبير عددًا أكبر من البحّارة؛ إنّ هذا العدد القليل من الآلهة الذين رعوها كانت حياتُها في عهدهم نقيّةً بالنسبة إلى حياة الفسق التي تبعتها؛ فكانوا لها سندًا ضعيفًا. ألم تكن مصيبة حقيقيّة تلك النزاعات الدمويّة التي عقبت مقتل شقيق رومولوس وجرت كلّها تحت رعاية الملوك أنفسهم، ما عدا نوما، الذي سبق الكلام عنه آنفًا.

١٣

زواجات غريبة من نوعها

لم تستطع جونون مع حبيبها جوبيتر أن تساعد الرومان المسيطرين على العالم؛ وهو الشعب القدير، ولا استطاعت فينوس بالذات أن تساعد أولاد إينيه الأعزّاء على تأمين زواجات شرعيّة وشريفة لهم. فتأمّلوا هذا النقص في الزوجات الذي تسبّبت به تلك الأحداث المؤسفة! خاطفون أشرار تماسكوا بالأيدي مع آباء نسائهم وحتّى الآن لم تغفر تلك النساء التعيسات لأزواجهنّ أقسى إهانة أخذنها مهرًا وهو دم آبائهنّ! ويقال إنّ الرومان ربحوا في تلك المعركة؛ ولكن كم كلّفت تلك المعركة، في الجانبين، من قتلى وجرحى! إنّ النزاع القائم بين قيصر وبُمبيوس بين حموٍ واحدٍ وصهر واحد بعد موت ابنة القيصر

زوجة بومبيوس أغضبت لُوكايْن(*)؛ فيا له من ألم حقيقيّ وعميق! «إنّي أنشد تلك الحرب التي هي أكثر من حرب داخليّة، وقد تقرّرت في سهول أماتيا، وبرّر النصر الجريمة». هكذا قال لوكاين. لقد انتصر الرومان؛ وإذ تلطّخوا بدماء أحمائهم، أرغموا بنات الضحايا على القبول بعناقاتهم المشؤومة؛ ولم يستَطِعن البكاء على آبائهم، وقد ماتوا، خوفًا من أن يزعجن أزواجهنّ المنتصرين، وهل عرفن خلال المعركة في أيّ سبيل يقدّمن النذور؟ كلّا؛ ليست فينوس هي التي ترئس أعراس الشعب الرومانيّ الدمويّة، بل بلّون(**). إنّها ألكتو الجهنّميّة الأشدّ شؤمًا على أولاد إينيه الذين تحميهم جونُن منها على جدّهم الذي سلّمته الإلهة إلى المعركة المحتدمة؛ وكان الأسر بالنسبة إلى أندروماك أهنأ من زواجات روما. وعندما خرج پرّوس(***) من بين يدي أسيره ما عاد يغمس يديه في الدم الطروادي. إنّ الرومان يضربون في المعركة أقارب النساء اللواتي يقاسمنهم المضجع الزوجيّ. لقد كان على أندروماك أن تبكي على أهلها بعد أن سيطر عليها المنتصر، ولم يبقَ عليها أن تخشى فقدهم. تستدعي بنات المحاربين وزوجاتهم الشفقة لدى ذهاب المحاربين إلى القتال ورجوعهم منه لأنّ هؤلاء التعيسات يخفن على آبائهنّ ويبكين موتهم؛ وهل يمكنهنّ أن يعرفن بموت مواطنيهنّ وأقاربهنّ وإخوتهنّ ووالديهنّ، ولا يُصَبن باليأس أو لا يفرحن فرحًا مقبولًا

(*) شاعر لاتينيّ عاش في الجيل الميلاديّ الأوّل.
(**) إحدى إلهات الميتولوجيا.
(***) پرّوس ملك إپير انتصر على الرومان في القرن الرابع قبل الميلاد عندما فاجأ الرومان بحرب الفيلة.

بانتصارات أزواجهنّ؟ ثمّ إنّ الحرب تخلّف أيتامًا وأرامل بينهنّ خلال تلك المبارزات الرهيبة التي خان فيها الحظّ لبرهة من الزمن الرومان الذين كان عليهم أن يقاوموا حصارًا وأن ينكفئوا على أنفسهم للدفاع، في حين فتح المكر أبواب المدينة، فدخل العدوّ أسوارها وحتّى الساحة العامّة. فدارت معركة شرسة ودامية بين الأصهار والأحماء؛ المهاجمون يتراجعون ويحتمون في البيوت؛ فيضاف عار التخاذل إلى عار نصرهم السابق الأثيم. إذ ذاك وقد يئس رومولوس من شجاعة جماعته استنجد بجوبيتر لكي يوقفهم عن الهرب وهذا ما أكسبه لقب إسطاطُور (stator) المانع من الهرب؛ ومع ذلك فما كان لتلك المشاهد الدمويّة أن تنتهي لو لم تركع النساء على أقدام آبائهنّ هلِعات يتوسّلنهم إيقاف الغضب الثائر؛ وكان على رومولوس أن يقبل ملك السابينيّين شريكًا له في الحكم هو الذي قد رفض أن يكون شقيقه شريكًا له في الحكم وهما توأمان؟ ولمّا تخلّص من تَاسِيوس الذي أصبح إلهًا أعظم بقي وحده ملكًا (يستند أوغسطينس هنا إلى تاريخ روما لِتيت - ليف). يا لها من عقودٍ زوجيّة، بذورٌ أبديّة، للحروب! معاهدة عائليّة رائعة تجمع بين الزواجات والمجتمع والدِّين! كيف تكون حياة مدينة تحت وصاية هذا العدد الكبير من الآلهة؟ ولكن، كم كان يجب عليّ أن أقول هنا لو لم يكن موضوعي ينقل اهتمامي وأقوالي إلى نقاطٍ أخرى!

١٤

حروب بين ذوي القُربى

ماذا جرى بعد نوما في عهود الملوك الآخرين؟ لقد تحدّوا الألبان فكانت الحرب شؤمًا على المنهزمين وعلى الرومان أيضًا. بيد أنّ الناس كرهوا كثيرًا السلام الطويل في عهد نوما؛ أيُّ أنهار من الدماء لم تجرِ هنا وهناك فاستُنفدت قوى المدينتين! ألب، صنيعة أسكانيا (Ascagne). ألب، أمُّ لروما، أكثر ممّا هي طروادة، صمدت بوجه تُلُّس هُوستِيلِيُوس (Tullus Hostilius) الذي هاجمها، فتبادل الطرفان ضربات قاسية ولمّا تعبا من ذلك التقاتل قرّرا عرض قضيّة الحرب على الإخوة الثلاثة التوائم فقدّمت روما الأوراس الثلاثة وألب الكُورِياس الثلاثة فانهزم اثنان من الإخوة أوراس وقتلهم الإخوة الثلاثة كورياس وانتهت المعركة لصالح روما إذ قتل الأخ الباقي أوراس الكرياس الثلاثة، ولكن بأيّ ثمن! من الستّة، عاد واحدٌ، من الحرب. على مَن وقعت الخسارة وعلى مَن وقع الحداد، على هذه الجهة أو تلك إن لم يكن على ذرّيّة إينيه وأسكانيا أبناء فنوس وأحفاد جوبيتر! أليست هذه الحرب أكثر من حرب داخليّة تحارب فيها المدينةُ البنتُ المدينةَ الأمّ؟ نضيف إلى هذه المبارزة بين التوائم الثلاثة مرحلة رهيبة وأخيرة، حيث كان الشعبان متصادَقين، متجاورَين ومتقاربين؛ إلى أحد أبناء كورياس كانت مخطوبة شقيقة التوأم أوراس؛ لقد رأت على أخيها المنتصر رفات حبيبها فبكت، فعاقب دموعَها ذاك الأخ بالسيف. وحدها تلك المرأة

كانت على شعور إنسانيّ أكثر من سائر الشعب الرومانيّ، تبكي ذاك الذي أخلصتْ له العهد؛ وقد تبكي أخاها الذي قتل الرجل الذي كان قد وعده بشقيقته. أين هي الجريمة إذًا؟ ألا يحبّ الإنسان ما يجعل من أسف، في نفس إينيه التقي، على العدوّ الذي قتله؟ وعلى هذا الشكل فإنّ مرسلُس يذرف دموع الشفقة على مصير البشر وهو يفكّر في عظمة سيراكوز وقدرتها وقد تحطّمت تحت يديه. بحقّكم وباسم الإنسانيّة لن نسرع إلى تجريم امرأة تبكي خطيبها الذي صرعه أخوها؛ إن كان في بكاء الناس على أعدائهم المهزومين مجدٌ لهم. هذه امرأة تبكي حبيبها الذي قتله أخوها، بيد أنّ تلك المعركة الشرسة مع المدينة الأمّ وذلك النصر الذي دفع الطرفان ثمنه أنهارًا من الدماء عينها؛ أجل ذاك ما تغتبط به روما وتفرح! لا يتذرّعنّ أحد هنا بأسماء المجد والنصر الباطلة! حاشا لنا أن نستبق بأحكامنا ذاك الرأي الجنونيّ، بل يجب النظر إلى تلك الجرائم فتوزن، ويُعطى الحكم فيها مجرّدًا؛ أنتم تحدّثوننا عن طروادة الزانية فحدّثونا إذًا عن ألب المجرمة؛ لا مثيل لهما ولا شبه بينهما. ينبغي تُلُّس أن يوقِظ ما في النفوس من شجاعة ويبعث الحماسة في نفوس المحاربين الذين يجهلون النصر؛ وهو أمرٌ حملهم على ارتكاب ذلك الإثم الفظيع. إثمُ حربٍ داخليّة اجتماعيّة بين أولاد وأبيهم! تلك هي الرغبة الأثيمة التي يفضحها سلُستس دون التوقّف عليها عندما يذكّر بكلام وجيز بقديم الزمان «حيث كانت حياة الناس لا تعرف الطمع ويكتفي كلّ واحد بما له. بيد أنّه يردف قائلًا: منذ وجود سيروس في آسيا أخذ الأثينيّون واللّاسِيدِيمُونيُّون (Lacédémoniens) في بلاد الإغريق يسيطرون على المدن

والشعوب بدافع شهوة السيطرة يقيسون العظمة بمساحة الأمبراطوريّة...» (سلُستس اتلينا ٢، ٢). المؤرِّخ يتابع: أمّا أنا فأسمح لنفسي بالتوقّف عند تلك الكلمات؛ إنّ شهوة التسلّط عند الجنس البشريّ هي ينبوع ما يعيش من مآسٍ تسحقه وتقلبه رأسًا على عقب. إنّ روما التي انتصرت عليها شهوة التسلّط تفاخر بانتصارها على آلب وتسمّي تلك الجريمة الفاضحة مجدًا لها وعظمة. إنّ الكتاب المقدّس يقول: «المنافق يفتخر بشهوات نفسه ويستهين بالربّ» (مزمور ١٠/ ٣). علينا أن نمزّق الحجب الخدّاعة ونمحو الألوان الوهميّة لكي نُخضع الأمور لامتحان صادق. لا تقولوا لي: ذاك بطل حارب فلانًا وهزمه لأنّ السياف يعرف أيضًا أن يقاتل وينتصر، ولمهنته الشرسة ثمن من المجد؛ على أنّي أرى من الأفضل للإنسان أن يعاقَب كجبان من أن تُعلَن قيمته من خلال تلك المآثر. أجل، إذا رأينا سيافين ينزلون إلى عرين الأسود ويتأهّبون للتذابح بين والد وابنه مثلًا، مَن ذا الذي يقبل ذاك المشهد؟ ومَن ذا الذي لا يشيح بوجهه عن ذاك المشهد الشنيع؟ وعليه فكيف يمكن أن تكون المبارزة مجيدة بين مدينتين، بين الأمّ والبنت؟ سوف يقال هنا: الموضوع يختلف. صحيح هنا ليس العرين الذي يجري فيه دم سيافين بل هو حقل واسع جرت فيه المعركة حيث زرع شعبان جثثهما؛ وليست حدود المعارك معروفة بحدود المسرح، بل يحدّها العالم بأسره. فالأحياء منهم والخلف وحيثما ينقل الخبر. الكلّ يحضر ذلك المشهد الأثيم على أنّ أولئك الآلهة الأوصياء على الإمبراطوريّة تجرّدوا من عاطفتهم عندما حضروا المعارك كمشاهدين لما يجري على المسرح إنّ كورياس الثلاثة القتلى حصلوا بفضل

حيادهم على ضحيّة ثالثة من الجهة الأخرى وجمع سيف الأخوة شقيقة آل أوراس إلى أخويها لئلّا تعتبر روما المنتصرة أنّ لها قتيلًا أقلّ من سواها! وها هي ثمار المعركة تظهر؛ آلب تخرب؛ آلب، الملاذ الثالث لآلهة طروادة المهاجرين من إليون التي سقطت بين يدي الإغريق ومن لافِينيُون (Lavinion) حيث الملك لاتِينيُوس يستقبل إنيه، ذاك البطل الغريب الهارب؛ وقد خرجوا من آلب وفقًا لعادتهم؛ آلب أيضًا خربت «وهم أيضًا هربوا وقد تخلّوا عن معابدهم وهياكلهم أولئك الآلهة حماة الإمبراطوريّة» (فرجيل، إنييد ٢: ٣٥١)؛ تلك هي المرّة الثالثة التي فيها يهربون وفيها تعهد روماإليهم. لم يرضوا عن ألب حيث أصبح آموليوس (Amulius) ملكًا بعد أن طرد أخاه، وارتضوا روما حيث رومولوس قتل أخاه ليملك وحده. بل يقال: جرى نقل الشعب كلّه إلى روما لتكون المدينتان مدينة واحدة قبل أن يُقضى نهائيًا على آلب. وهل مدينة إسكانيا المسكن الثالث لآلهة إليون كانت أقلّ حظًّا من تلك المدينة الأمّ التي هدمتها ابنتها؛ وكم سفكت دماء من هذه الجهة؛ وتلك أوصلت هذين الشعبين إلى هذه المجموعة من الحطام! هل لي أن أروي بالتفصيل أخبار تلك الحروب التي جرت مرارًا وتكرارًا في عهد سائر الملوك؟ لقد كانت حروبًا انتهت بما يشبه النصر؛ ثمّ عادت فاشتعلت مرّة أخرى؛ جرت فيها مذابح رهيبة فكانت تارة سلمًا بين الأصهار والأحماء وطورًا تتكرّر بين ذريتهم. يا له من برهان عن الكوارث قاطع؛ ما استطاع ملك واحد منهم أن يغلق أبواب الحرب؛ ولا استطاع أيضًا أن يملك بسلام في رعاية هذا العدد الكبير من الآلهة.

١٥

اسطورة روموليوس

ولكن كيف كانت نهاية أولئك الملوك أنفسهم؟ من الواجب الاختيار، في ما يختصّ بروموليوس، بين القصّة الخرافيّة المتملّقة التي ترفعه إلى السماء وأخبار المؤرّخين الذين يدّعون أنّ الشيوخ بعد أن ملّوا قسوته، قطّعوه إربًا إربًا، وأغروا شخصًا يدعى جوليوس بروكُولوس، ليعلن عن أنّ روموليوس قد ظهر له وأمر الشعب الرومانيّ بلسانه بأن يكرمه كإله. آنذاك كان الشعب ثائرًا ضدّ مجلس الشيوخ غير أنّ تلك الحيلة قد نجحت في تهدئته وضبطه؛ وفي تلك الأثناء جرى كسوف الشمس فعزا معظم الناس ذاك الحدث إلى ما يتمتّع به روموليوس من فضل، لجهلهم حركات الأجرام السماويّة غير المتوقّعة. ولكنّ حداد الشمس ذاك يفترض القتل الذي حصل. ألم يكن هذا الحجاب على نورها، إشارةً إلى ما حدث حقًّا عندما صلب اليهود الأثمة ربّنا يسوع؟ لقد حدث ذلك الكسوف ضدّ نواميس الطبيعة العاديّة يوم الفصح، واليهود يحتفلون به لدى اكتمال القمر على أنّ كسوف الشمس عادةً لا يحدث إلّا عند نقصان القمر. ويشهد شيشرون، بما فيه الكفاية، أنّ ما توصّل إليه روموليوس من عزّة هو رأي؛ وليس واقعًا؛ إذ يضع مديح الرجل على لسان سيبيون في كتابه **الجمهوريّة** قائلًا: «خلف روموليوس عن نفسه فكرة سامية وقد اختفى في كسوف للشمس مفاجئ فظنّ الناس بأنّه قد اتّخذ مكانًا بين الآلهة؛ وتلك شهرة لا يتمتّع بها إلّا مَن كان ذا فضل غير

عاديّ» (شيشرون، **الجمهوريّة** ٢: ١/١٧). أمّا بشأن العبارة «اختفى بسرعة» فهذا يجب أن يفهم بمعنى عنف العاصفة؛ أو سرّ الاغتيال؛ لأنّ كتّابًا كثيرين يضيفون إلى الكسوف، العاصفة المفاجئة، التي سهّلت الجريمة التي أودت بحياة روموليوس. ألا يقول شيشرون في الكتب عينها بشأن تلُّس أُوسْتِيلِيُوس ثالث ملك بعد روموليوس وقد ضربته الصاعقة: ما ظنّ الناس بأنّ تلك الميتة جعلته في مصاف الآلهة وهو تكريم خصّ به الشعب الرومانيّ بوجه عامّ روموليوس وما أراد أن يحطّ من قيمته بتوجيهه، بتلك السهولة، إلى شخص آخر. ثمّ يقول في إحدى خطبه الحماسيّة بكلّ صراحة: «لقد رفعنا إلى مصاف الآلهة روموليوس مؤسّس هذه المدينة بما لنا من سلطان ومجد وعطف عليه؛ لا لأنّه هو هكذا؛ بل إعلانًا عن خدماته واعترافًا بأفضاله. وأخيرًا ألا نقرأ في حوار هُورْتِنسِيُوس بشأن كسوفات الشمس النظاميّة ما يلي: «لكي ينشر الظلمات ذاتها التي غطّت الأرض لدى وفاة روموليوس وقد حدثت مع الكسوف؟» وهنا بصفته فيلسوفًا، لا راثيًا، لا يخشى أن يقول إنّ روموليوس مات ميتة بشريّة.

أخبار وأساطير

إذا استثنينا نومابُومْبِيلِيُوس وأَنكُوس مارْسِيُوس اللذين ماتا بمرض فأيّ ملك سواهما لم يمت ميتة مأساويّة؟ إنّ تلُّس هوستيليوس الذي انتصر على ألب وهدمها احترق بالصاعقة مع أهل بيته وتَرْكُوِينُوس القديم قتله أبناء سلفه وسُرفيوس توليوس اغتاله صهره تركوينوس الأعظم الذي خلفه؛ وأمام منظر اغتيال الولد لأبيه، وهو أفضل حاكم، لم ينسحب الآلهة من معابدهم

ولا تخلّوا عن هياكلهم، هم الذين خرجوا من طروادة كما قيل وسلّموها إلى الإغريق الثائرين لشدّة غضبهم من بارس الزاني! ماذا أقول؟ لقد قتل تركوينوس أباه فخلفه على العرش؛ وملك ذلك النذل المجرم تحت نظر الآلهة؛ بكلّ كبرياء، يمكنه أن يحصي معاركه وانتصاراته؛ لقد بنى الكابيتول بما سلبه على مرأى من الآلهة وما انسحبوا؛ بل حلّوه من إثمه بحضورهم، وقبلوا بأن يملك زعيمهم جوبيتر ويرئس في ذاك الهيكل الذي بنته يدٌ قتلت أباها! هل كان تَركوينوس بريئًا عندما بنى الكابيتول؟ وهل كان ذلك فقط منذ أن طردته جرائمه من روما؟ بيد أنّ هذا السلطان الملوكيّ الذي أتاح له بناء مدينة الإمبراطوريّة لم يصل إليه إلّا من خلال ذلك الجرم البالغ السفالة؛ وإذا كان الرومان قد نفَوه فيما بعد وأبعدوه عن المدينة فما تسبّب له بذلك ليس ما فعل من جرم، بل إهانة لوكريس وجرم ولده الذي لم يُعرف به لأنّه حدث في غيابه يوم كان يحاصر مدينة أرْدِيه (Ardée) ويحارب ويقاتل في سبيل الشعب الرومانيّ. ماذا فعل لو عرف بجريمة ابنه؟ لا نعلم؛ غير أنّ الشعب انتزع منه القيادة وأمر جنوده بالتخلّي عنه دون محاكمته: قبل أن يصل، دخل الجيش روما، وأُوصدت الأبواب بوجه الملك. أمّا هو، وقد سحق روما بقوّة جيرانه في حرب دامية، اضطُرّ إلى التخلّي عن مملكته بعدما تركه أولئك الذين كان يعتمد عليهم؛ يقال إنّه انسحب من المدينة وعاش أربع عشرة سنة في تُوسْكُولُوم (Tusculum) وهي مدينة مجاورة لروما، منقطعًا عن الناس في هدوء تامّ؛ وفيها شاخ مع زوجته، منهيًا حياته كما أراد، على وجه أفضل من آخرة حميه الذي ضحّى به صهره وابنته التي اتّهمها التاريخ بالتواطؤ؛ مع أنّ

الرومان لم يسمّوا تاركوينوس هذا فظًّا وقاتلًا؛ بل سمّوه العظيم. هؤلاء قاوموا البذخ الملوكيّ، لكنّهم عاشوا نوعًا آخر من الكبرياء ما كان ليتحمّل كبرياءهم لأنّ دم أفضل أمرائهم محتقر لديهم، فنصبوا عليهم ملكًا، الصهر الذي سفك هذا الدم! وأتساءل متعجّبًا هل جزاء تلك الجريمة لم يكن في حدّ ذاته أفظع من الجريمة عينها؟ ما تخلّى الآلهة عن معابدهم ولا تركوا هياكلهم اللهمّ إلّا إذا كان عذرهم أن يبقوا في روما، لا لحمايتها بل لمعاقبتها عن طريق الانتصارات الكاذبة والحروب الرهيبة. تلك كانت حياة الرومان في عهد الملوك وفي زمن ازدهار الجمهوريّة، الذي امتدّ على مدى مائتين وثلاث وأربعين سنة إلى أن نُفي تَركوينوس العظيم؛ في تلك الأثناء حاز الرومان انتصارات عدّة دفعوا ثمنها دمًا غزيرًا وكوارث عدّة، واتّسعت إمبراطوريّتهم على مسافة عشرين ميلًا خارج روما وهي مساحة لا تقارن بمساحة أصغر مدينة من جِتُولِي (Gétulie) الإفريقيّة.

١٦

تقاتل في سبيل السلطة

نضيف إلى هذه المرحلة تلك التي يزعم سلّستس أنّ الاعتدال والمساواة فيها هما من الحقّ العامّ. وما دام كان على الشعب أن يخاف تركوينوس وأن يتحمّل أعباء حرب مع إتروريا (L'Étrurie) وما دام الإتروسك (Étrusques) حلفاء لتاركوينوس العامل على استعادة السلطة، بقيت روما تحت رحمة حرب رهيبة، كما أنّ المؤرّخ يبيّن لنا أنّ الاعتدال والمساواة في إدارة الجمهوريّة كانا

نتيجة خوف لا توحي به العدالة. في تلك الحقبة القصيرة جدًّا كانت السنة التي أنشئ فيها القناصل بعد طرد الملكيّة سنة شؤم وخراب! ما استطاع القضاة فيها أن يكملوا سنتهم الأولى فإذا بجُونِيُوس بْرِيتُوس (Junius Britus) يخلع زميله تاركوينوس كُولاتِينُوس ويطرده من روما؛ بيد أنّه لم يلبث أن سقط في معركة قاتَلَ فيها ثمّ قُتل، ليموت مغمورًا بدماء أبنائه وإخوة زوجته؛ وقد عرف أنّهم يعملون لإعادة تاركوينوس. فيا لها من قسوةٍ يذكرها بالثناء ويكرهها بالإنسانيّة حيث يقول: «باسم الحرّيّة المقدّسة يقتل ذاك الوالد أبناءه الداعين إلى حروب جديدة»، ثمّ يهتف قائلًا: «يا قليل الحظّ، أيًّا يكن حكم أبناء إخوتنا ومهما يكن إعجاب الخلف ومديحه، فشقيّ هو الوالد الذي يقتل أولاده!» وكأنّي به يعزّيه فيقول: «لقد انتصرت محبّة الوطن وشهوة المجد التي لا حدّ لها». إنّ بروتوس هذا السيّئ الحظّ قاتل بنيه قد ضربه العدوّ الذي ضربه بواسطة ابن تَاركوينوس الذي لم يعش بعده؛ وبالعكس إذ ترك بعده حيًّا تَاركوينوس العظيم فلا ينتقم من سوء الطالع هذا لبراءة كولاتينوس المواطن الممتاز الذي طُرد على مثال الظالم بعد نفي الظالم نفسه؛ على أنّه يقال إنّ بروتوس هو أيضًا من نسل التاركوينيّين؛ وكان هذا الشبه بالاسم سببًا لهلاك كُولاتينوس. ولِمَ لم يُرغموه على التخلّي عن اسمه دون وطنه؟ لو سمّوه كولاتينوس لكان ذلك اسمًا بالناقص، لكنّهم تركوا له ما يمكن أن يخسره بلا ضرر: جرّدوا قنصلًا من رتبته وأفقدوا روما مواطنًا صالحًا؛ هل يعتبر ذاك الإجحاف بحقّ الجمهوريّة غير النافع لها عنوان مجد لبروتوس؟ وهل يقال هنا أيضًا إنّ محبّة الوطن والشهوة إلى المجد قد انتصرتا؟ بيد أنّه، بعد طرد

الظالم المستبدّ، وإذ يرفع الشعب إلى القنصليّة مع بروتوس تركوينوس كولاتينوس زوج لوكريس، أليس من العدل أن يهتمّ الإنسان بحياة المواطن أكثر منه باسمه؟ وما أشدّ ظلم بُروتوس لنفسه ولزميله عندما يستطيع أن ينزع عنه اسمه إن أزعجه فيجرّده من كرامته ومواطنيّته! تلك هي الجرائم وشرور الزمن الذي كان فيه الاعتدال والاستقامة يشرفان على حكم الجمهوريّة! حلّ لوكراتيوس محلّ بروتوس فمات مريضًا قبل نهاية السنة. خلف فاليريوس كولاتين ورقي هوراسيوس إلى مركز شغر، إثر وفاة لوكراسيوس، فأنهيا سنة الشؤم والقتل التي تعدّ خمسة قناصل وتدشّن، تحت أسوأ طالع، إقامة سلطة القناصل.

١٧

أخذ الخوف يتضاءل من دون أن تهدأ الحرب؛ غير أنّ العواصف بدأت تخفّ على الأفق وانقضى الزمن الذي كان يعيش فيه الإنسان تحت شرعة الاستقامة والاعتدال العامّة، وتلاه زمن يصفه سلُّستس بوجيز الكلام قائلًا: «وفيما بعد سوف يرهق الأشراف الشعب بنير العبوديّة ويتصرّفون كملوكٍ بحياة المواطن وشخصه فيطردونه من حقله ويستأثرون بالسلطة كالأرباب المستبدّين. إذ ذاك ضاق الشعب ذرعًا بذاك الاستئثار المتمادي؛ ونشبت حرب طال أمدُها فناء تحت ثقل الضرائب والخدمة العسكريّة وانكفأ بسلاحه إلى جبال أفونتان والمقدس. آنذاك حصل على ممثّلين له وعلى وضمانات أخرى شرعيّة وجاءت الحرب الإفريقيّة الثانية فوضعت حدًّا لتلك النزاعات والمعارك»

(سلُستس، **تاريخ** ١١ : ١). ولكن، لِمَ أتوقّف طويلًا عن الكتابة وعن قرّائي؟ خلال تلك الحقبة الطويلة وعلى مدى عدّة سنوات حتّى الحرب الثانية ضدّ قرطاجة قد أوجز سلُستس كلّ معاناة الجمهوريّة. حرب في الخارج، وفي الداخل نزاعات وخلافات واضطراب مستمرّ. وعلى هذا النحو فإنّ تلك الانتصارات لم تكن بالنسبة إلى رومة أفراحًا مرتكزة على الازدهار، ولكنّ تعازي باطلة عن البؤس وطعم خداع لعبقريّتها القلقة دفعا بها إلى مصائب عقيمة. أرجو أن تكون كلماتنا مقبولة لدى الرومان الصالحين والحكماء الذين ليسوا بحاجة لا إلى هذا الرأي ولا إلى تلك الصلاة لأنّهم بكلّ تأكيد لا ولن يستاءوا. وفي الواقع هل نقول شيئًا أقوى ممّا قاله كتّابهم ونحن دونهم فصاحة ووقتًا حرًّا؟ أوَلم يقرؤوا كتابهم ويفرضوهم على أولادهم. أمّا الذين يغضبون فهل يدعوني أقول ما جاء في سلُستس: «تقوم اضطرابات ونزاعات وأخيرًا حروب داخليّة؛ قلّة من رجال قديرين جمعت حولها معظم الآخرين، وتحت شعار خدمة مجلس الشيوخ أو الشعب، تطمح إلى التسلّط. ولم يعد اسم المواطن الصالح أو العاطل متعلّقًا في خضمّ الفساد الشامل بذاك الخير أو الشرّ الذي قام به تجاه الجمهوريّة، لكنّ أغنى الناس وأقدرهم على الأذية، شرط أن يدافع عن الدولة القائمة، يُعتبر مواطنًا صالحًا». (سلّستس **تاريخ** ١ : ١٢). إذا كان هؤلاء المؤرّخون يعتبرون أنّه من حقّ الحرّيّة النبيلة أن تعلن عن مساوئ وطنهم الذي لا يفتأون يعظّمونه في مكان آخر لكونهم لا يعرفون ذلك الوطن الآخر الأصحّ والذي لا يقبل فيه سوى مواطنين إلى الأبد، فما هو واجبنا نحن الذين لنا حرّيّة تتمتّع بملء القدرة

والثقة، برجاء لنا في الله، عندما ينسب الوثنيّون إلى المسيح الكوارث الحاضرة ليجعلوا الضعف والجهل غريبين عن المدينة الوحيدة حيث تنتظرنا الحياة والسعادة الأبديّة! هل نقول مرّة أخرى في آلهتهم مزيدًا ممّا يقوله فيهم كتّابهم وبه يفاخرون من فظائع؟ منها نستقي كلامنا وقد يصعب علينا أن نسرد المقاطع المتشابهة التي تحضرنا؛ أين هم الآلهة الذين يظنّهم الناس حاضرين لتأمين السعادة الحقيرة والكاذبة في هذا العالم، في حين يئنّ الرومان تحت ثقل بلايا عديدة، على أنّهم ما قصّروا قطّ عن تكريم آلهتهم؟ أين كانوا عندما هلك فاليريوس وهو يلاحق العبيد وشُذّاذ الآفاق في الكابيتول وطردهم منه؟ أكان من الأسهل على فاليريوس إذًا أن يهبّ إلى نجدة الهيكل من أن تسرع تلك الطغمة الإلهيّة بقيادة مليكها العظيم والصالح إلى مساعدة محرّر هياكل جوبيتر؟ أين كانوا وقد هدأوا إلى السكينة بعد متاعب داخليّة فلم يسرعوا إلى نجدة روما التي اجتاحها الجوع والطاعون، في حين كانت تترقّب عودة نوّابها الذين بعثت بهم إلى أثينا ليأخذوا عنها قوانينها؟ أين كانوا وقد ضرب الشعب مجاعة رهيبة فأوجَدَ مديرًا للأنُون (Annone) ويوم اتُّهم سْبُورِيُوس مالِيُوس (Spurius melius) بالسعي إلى المُلك وهو يوزّع القمح على الشعب، المائت جوعًا، وبملاحقة المدير الجديد فحوكم أمام الديكتاتور كونتيوس وقتله سرفيليوس قائد الخيّالة وسط حشد أعظم كاد يجرّ المدينة إلى الخراب؟ أين كانوا والشعب يقع ضحيّة عدوى رهيبة ويعاني آفة لا يجد لها دواء فيُقيم للآلهة، الذين لا نفع ولا فائدة منهم، وليمة وتكريمًا، لا مثيل لهما؟ في الهياكل هيّأوا لهم أسرة فاتّخذ الاحتفال

المكرّس أو بالأحرى المنتهك للقدسيّات اسمه من تلك الوليمة. أين كانوا، والجيش الرومانيّ ينتظر العون من فوريوس كاميلُّسْ الذي تنكّر له وطنه بعد عشر سنوات من الانكسارات الدامية تحت أسوار فايس (Veies)(*)؟ أين كانوا بينما الغول يحتلّون روما وينهبونها ويحرقونها ويملأونها قتلى؟ أين كانوا والطاعون التاريخيّ يحصد الناس بضراوة، ومنهم فوريوس كاميلُّس الشهير المحامي عن الجمهوريّة، الناكرة الجميل، ضدّ الغول؛ والمنتقم لها منهم؟ وبينما كان الطاعون يُعمل منجله في رقاب الناس أدخلوا إليها نوعًا آخر من الطاعون أشدّ فتكًا في النفوس عنيتُ به الألعاب المسرحيّة. أين كانوا وقد ظهرت آفة أخرى وهي كناية عن سموم بثّتها سيّدات رومانيّات كثيرات من خلال سلوكهنّ العاطل؟ وعندما حوصر الجيش الرومانيّ مع اثنين من قناصله فاضطرّ إلى عقد معاهدة ذلّ وهوان، وأخذ العدوّ السامْني ستمائة خيّال رومانيّ رهائن وجرّدهم من أسلحتهم ومن رتبهم وثيابهم ومرّوا تحت النير شبه عراة (سنة ٣٢١ قبل المسيح). وأين كانوا عندما تفشّى وباء معدٍ وانصبّت من السماء نار في الوقت عينه على المعسكر الرومانيّ ووقعت فيه ضحايا كثيرة وهائلة واستسلمت روما إلى الإله أسكولاب الذي استقدمته من إبيدور؟ وذلك لأنّ الفوضى التي كانت تعيشها آنذاك شبيبة جوبيتر العظيم المقيم في الكابيتول لم تسمح لها بأن تدرس الطبّ! أين كانوا يوم تحالف الغول مع جميع أعداء روما من لوكانيّين وبرتيوسيّين وسمنائيّين وأتروسك وقتلوا سفراءها وسحقوا جيشها؟ فيا له من يوم مشؤوم يموت فيه حاكمها وسبعة من زعمائها وثلاثة عشر

(*) مدينة محصّنة للأتروسك تغلّبَ عليها الرومان بصعوبة.

ألف جنديّ! بعد اضطرابات شرسة وطويلة الأمد حصل طلاق بين الشعب وحكّامه أقام عليه حاكمًا دِكْتاتورًا وكأنّه يمرّ في أخطر مرحلة من تاريخه فأعاد الدكتتور هُورْتَنْسِيوس الشعب إلى الطاعة وقضى حاكمًا، على غير عادة، إنّ أسكولاب أساء بحضوره إلى سمعة الآلهة؛ آنذاك نشبت حروب كثيرة ومن كلّ الجهات وبحكم الحاجة إلى الجنود دُعي العمّال إلى خدمة العلم وهم كناية عن مواطنين بؤساء جدًّا ما تعوّدوا الحرب بل التناسل. فاستنجد سكّان تارانت بملك الإغريق بيروس الذي كانت شهرته قد طبّقت الخافقين وأصبح عدوّ الرومان وإذ استشار أبولون ليعرف هل ينجح في الحرب أم لا، كان جوابه على الكثير من الذكاء والغموض، مبيّنًا أنّ الإله مهما صار لا ينقصه شيء لأن يكون عرّافًا فقال: «لك أقول يا بُفِيرُوس، إنّك تستطيع أن تنتصر على الرومان». ذاك كان جوابه. وعلى هذا النحو، سواء تغلّب الرومان على بَفيروس أو هذا على الرومان، يستطيع النبيّ أن ينتظر الحدث بكلّ تأكيد. يا لها من مذبحة رهيبة خاضها الطرفان في لقائهما الأوّل، انتصر في بدايتها بفيروس وكان باستطاعته أن يعلن لمصلحته عصمة أبولون من الخطأ لو لم ينتصر الرومان في النهاية! وبينما كانت الحرب تحصد كلّ شيء فتك بالنساء الحبالى مرضٌ غريب فمُتْنَ قبل التخلّص من ثمار أحشائهنّ؛ ولا شكّ أنّ أسكولاب تذرّع قائلًا إنّه ليس قابلة قانونيّة بل طبيب؛ ومات بالمرض حيوانات كثيرة حتّى كاد يُقضى على النوع؛ ومَن ذا الذي لا يذكر ذلك الشتاء حيث تكدّست الثلوج فيه عاليًا بشكل لا يصدّق وغطّت الساحة العامّة على مدى أربعين يومًا وعرقل الجليد مجرى نهر التيبر! لو أنّه حدث في أيّامنا ماذا كان

قال فيه أعداؤنا؟ وتلك العدوى التي طالت وتوالت وأبادت الكثيرين واجتاحت البلاد في السنة التالية بقوّة؟ وعبثًا لجأ الناس تحت نظر أسكولاب إلى الكتب السيبيليّة (sybillins) وفيها نوع من الأجوبة الإلهيّة، بحسب قول شيشرون، التي يؤمن الناس بالتفسيرات التي تعطى لها وإن تكن من التكهّنات المشكوك في صحّتها؛ أمّا جوابهم فكان أنّ الذي تسبّب بتلك الضربات هو تدنيس الأماكن المقدّسة على أيدي عدد كبير من المواطنين، فخلص بهذا الجواب أسكولاب وقتيًّا من اللوم على إهماله وكسله. ولكن كيف توصّل مواطنون إلى أن يحتلّوا بسهولة مآوي مكرّسة لو لم تقفر تدريجًا، بعد أن شهدت، لصلوات لا فائدة منها، وأصبحت مطلوبة بجسارة، لقيام حاجات الناس اليوميّة؟ اليوم يطلبونها ويرمّمونها بسرعة ليضعوا حدًّا للشرّ؛ ولكن سرعان ما تدخل في عالم النسيان بسبب إهمال الدولة لها والتعدّيات عليها؛ وإلّا فهل نثني على فرُّون العالم لأنّه يعرض، في كتابه عن المباني المكرّسة، للكثير من الأبنية المجهولة؟ أجل، لم يكن ذلك علاجًا ناجعًا للطاعون، بل اعتذار لبق عن عجز الآلهة.

١٨

أهوال الحرب فتكت بالبشر والحجر

طوال الحرب ضدّ قرطاجة، وبينما كان النصر يتأرجح بين هاتين الجمهوريّتين، في نزاع رهيب قائم بين شعبين، من أقوى شعوب العالم، كم من ممالك صغيرة سُحقت ومدن زاهية مزدهرة خربت وأخرى أبيدت، واجتيحت مسافات شاسعة من

الولايات والإمبراطوريّات! كم من فترات دمويّة عرفت النصر والهزيمة! كم من أناس هلكوا: جنود يموتون في القتال وشعوب يُذبحون وليس مَن يدافع عنهم! كم من أساطيل تحطّمت في البحر إثر معارك أو عواصف بحريّة وغرقت في اليمّ! إنّ الحديث عن تلك الكوارث أو التذكير بها يعني كتابة تاريخ جديد. آنذاك لجأت روما المرتاعة إلى اتّخاذ أدوية باطلة وعلاجات سخيفة من كتب العرّافين وعادت إلى الاحتفال بالأعياد القديمة التي كانت تقام مرّة في السنة، وقد أغفلَتْها، في أيّام السعد، كما أنّ أحبارها استعادوا الألعاب الجهنّميّة وقد ألغيت في أيّام الهناء. وعندما يجدّدون تلك الأعياد، أليست عيدًا جهنّميًّا يتجدّد على أيدي أولئك الأشقياء الذين يحتفلون بتلك الأعياد الشيطانيّة في حروب مشؤومة بالنسبة إلى المنتصرين والمنهزمين ويولمون للشياطين ولائم فاخرة إشباعًا لنهمهم؟ وأيّ شيء يدعو إلى الأسف في الحرب الإفريقيّة الأولى أكثر من تلك الهزيمة التي سقط فيها راغولوس أسيرًا، وهو العظيم الذي كان حتّى ذاك التاريخ منتصرًا على القرطاجيّين وكان باستطاعته أن ينهي الحرب لو لم يفرض على قرطاجة المنهوكة شروطًا قاسية جدًّا إشباعًا لعطشه اللامحدود إلى المجد؛ إذا لم يخجل الآلهة لنفي ذلك البطل بسرعة وأسره المذلّ وأمانته لقسَمه وقتله بوحشيّة، فهذا يعني حقًّا أنّهم من نحاس، ولا دمَ في قلوبهم! بيد أنّ روما لا تنقصها الكوارث من الداخل؛ فيضان التيبر غير العاديّ يغمر الأقسام السفلى من المدينة؛ وما لم تجرفه المياه خرب تحتها بسبب طول مدّتها؛ وتلا الفيضان حريقٌ هائل التهمت نيرانه أعالي المباني في الساحة العامّة حتّى هيكل فستا (vesta) حيث

قضي على العذارى قضاء مشؤومًا أن يقدّمن لحياتها طعامًا أبديًّا؛ وفي تلك الساعة اشتدّت النيران وخافت العذارى جدًّا وعجزن عن أن يُخلّصن من النار الإلهة المشؤومة بعد أن التُهمت ثلاث مدن كانت تؤدي لها فروض العبادة ونسي الحبر متللوس (Metellus) أن يخلّص نفسه من النار فاندفع إلى الصنم وخلصه من دون أن ينجو من اللهيب الذي لم يتعرّف إليه؛ ذاك إله لم يقوَ على الهرب من النار من دون مساعدة الإنسان فكان الإنسان أكثر عونًا للإله من الآلهة لأنفسهم؛ وما داموا عاجزين عن دفع النيران عنهم فكيف يمكنهم أن يحموا من النار والماء هذه المدينة الموكولة إليهم؟ في الواقع، الحادث يبرهن عن عجزهم. أجل، قد لا نقدّم اعتراضات من هذا النوع إلى أخصامنا إن أقاموا أصنامهم رموزًا للأشياء الأبديّة ولا كموزّعين للخيور الزمنيّة وقالوا لنا إنّهم لا يزالون عرضة للحوادث التي تقع لكلّ ما هو جسديّ ومنظور، ولا يؤثّر ذلك في الغاية التي أقيموا من أجلها ويبقى ممكنًا إصلاحهم وإعادتهم إلى وظيفتهم. ولكن يا للعمى الغريب العجيب الذي يحمل الناس على الاعتقاد بأنّ أصنامًا تهلك تستطيع أن تضمن لمدينة ديمومةً فوق هذه الأرض وسعادةً باقية مدى الزمن! وما دام لا يمكنها حاضرةً أن تمنع خرابًا ما ولا شدّة تحلّ، فمن العيب الإعلان عن شيء لا يمكن الدفاع عنه!

١٩

نتائج الحرب الإفريقية الثانية

أمّا الحرب الإفريقيّة الثانية والكوارث التي حلّت بهذين الشعبين المتحاربين فوق أرض المعركة الواسعة فالتذكير بها يطول جدًّا استنادًا إلى آراء المؤرّخين الذين يبكون على روما ولا يدوّنون مآثرها لأنّ النصر أشبه بالهزيمة. خرج هَنِّيبَعْل من قلب إسبانيا واجتاز جبال البِيرِينِه وبلاد الغُول: بدأ مسيرته في جبال الألب وتضخّمت قوّاته في مسيرة هكذا طويلة فاجتاح وأخضع وانطلق كالنهر الجارف في المضايق الجبليّة الإيطاليّة. فيا لها من حرب! ويا لها من أنهار دماء! ويا لها من هزائم عاشها الرومان! كم من مدن خانت وكم من مدن سقطت فنُهِبت! يا للشؤم! كم مرّة تمجّد هنيبعل بفقدان روما لهنائها! وماذا أقول في نهار كانّ (Cannes) الرهيب حيث ارتوى هنيبعل من دماء أعدائه النبلاء، ويقال إنّه أوقف المذبحة! ومن ساحة المعركة بعث إلى قرطاجة بثلاثة مكاييل من الخواتم الذهبيّة ليعرّف الناس مَن حصد من كرام الرومان؛ وتقاس إذ ذاك المعركة بالنوعيّة ولا بالعدد؛ أمّا المجموعة الأخرى من الضحايا فقد كانت ضخمة جدًّا بعد أن تنقّل الموت بين صفوفها حتّى ليصعب التكهّن عن أعدادها؛ واحتاجت روما إلى جنود فاستدعت من السجون المحكومين وحرّرتهم، والعبيد وعتقتهم، فكانوا لها جيشًا جديدًا تعبّئه وليسوا قوّة مساندة. وكان هؤلاء المحرّرون بحاجة إلى السلاح فَجرّدوا منه المعابد وكأنّي بروما تقول للآلهة: تخلّوا عن هذه الأسلحة

التي احتفظتم بها طويلًا بلا فائدة؛ لقد كانت بلا جدوى في أيديكم الإلهيّة، لربّما أدّت بعض الخدمات في أيدي عبيدنا. لم تعد خزينة الدولة تكفي أجور الجيش فساندتها ثروات الأفراد حتّى أعضاء مجلس الشيوخ وذوو المراتب وعامّة الشعب لم يحتفظوا لأنفسهم بقطعة ذهبيّة واحدة ما عدا الخاتم والبراءة وهي شارات حقيرة للكرامة. مَن ذا الذي يستطيع أن يهدّئ من غضب الأئمة لو وصلوا في وقتنا الحاضر إلى هذه الحالة البالغة السوء، هم الذين يسخون بحماسة على مهرّجين يقدّمون لهم تسليات لا جدوى منها أكثر ممّا جاد به الأقدمون لجيوش تحارب في سبيل خلاص الجمهورية النهائي؟

٢٠

عجز الآلهة عن خلاص المدينة

هل من مصيبة أقسى وأدعى إلى الشفقة من خراب ساغُونْتْ إذا قيست بالمصائب التي خلّفتها الحرب الإفريقيّة الثانية؟ إنّ تلك المدينة الإسبانيّة هلكت حفاظًا على أمانتها للشعب الرومانيّ الذي تفانت في سبيله؛ نقَضَ هنيبعل معاهدته وحاصر ساغونت بقوّة لكي يستفزّ الرومان للحرب؛ ولمّا علمت روما بالخبر بعثت إليه بمندوبين عنها يطلبون منه رفع الحصار. غير أنّه ردّهم باحتقار، فراحوا إلى قرطاجة ينقلون شكواهم من خرق المعاهدة، ثمّ عادوا إلى روما خائبين. وخلال ذلك الحصار الذي طال ثمانية أو تسعة أشهر، خربت المدينة المقرّبة جدًّا إلى إسبانيا كما إلى الجمهوريّة. مَن ذا الذي يطالع تلك القصّة أو

يرويها مرّة أخرى ولا يستولي عليه الرعب الشديد؟ على أنّ الأمر يهمّ جدًّا موضوعي. في البداية ضربها الجوع فقيل إنّ الأهالي كانوا يأكلون جثث الموتى؛ ولما استنفدها البؤس أقامت محرقة كبرى تذابح مواطنوها، وتدافعوا إليها مع عائلاتهم، وسط اللهيب، هربًا من الوقوع أسرى بين يدَي هنيبعل. ولماذا بقي الآلهة هنا غائبين عن الساحة، وهم وحوشُ التهتّك والفجور، العطاش إلى روائح الذبائح، الغيارى على تضليل الناس بظلمات أكاذيبهم؟ ولِمَ تخلّوا عن مساعدة تلك الحليفة الأمينة للشعب الرومانيّ؟ كيف لم يخلّصوا مدينة تهلك حفاظًا على قسَمها؟ أليسوا وسطاء تحالفها مع روما؟ حوصرت حصارًا شديدًا لأنّها حفظت العهد والقسم وخرّبها إنسان شرّير. صحيح أنّ الآلهة تدخّلوا بعد يوم من وصول هنيبعل إلى أسوار روما فروّعوه بالعواصف والرعود وأبعدوه عنها. أمّا الآن فلِمَ لا يظهرون؟ أجل؛ أتجاسر فأقول: قد يكون من الأشرف لهم أن يثيروا العواصف خدمة لحلفاء روما الذين حرموا كلّ عون وسقطوا ضحيّة أمانتهم على أن يثيروها في سبيل الرومان المدافعين عن مصلحتهم الخاصّة، ضدّ هنيبعل، المتمتّعين بقوّة لا بأس بها. لو أنّهم دافعوا حقًّا عن حرّيّة روما وعظمتها لكانوا وفّروا على ساغونت ذاك العار إلى الأبد. أليس من الجنون الاعتقاد بأنّ الآلهة نجّوا روما من أيدي هنيبعل، في حين أنّهم عجزوا عن خلاص صديقة روما الأمينة وهي تموت في سبيلها؟ لو كانت ساغونت مسيحيّة واحتملت ذلك كلّه في سبيل الإنجيل الذي آمنت به وحبًّا لذاك الإيمان، من دون أن تقدّم ذاتها للسيف والنار لقبلت أن تخرب كلّيًّا وتحمّلت بالرجاء عينه فيما لو آمنت

بالسيد المسيح لما كان رجاؤها بسعادة هاربة، بل بسعادة لا حدود لها أبديّة. أمّا هؤلاء الآلهة الذين يعبدون ويخدمهم الناس لكي يحموهم ويؤمّنوا لهم سعادة سريعة العطب وفانية، فكيف يمكن الدفاع عنهم وتبرئتهم من خراب ساغونت إلّا بالطريقة عينها التي بها يتبرّأون من قتل رَغُولُوس العظيم؟ الفرق بين الاثنين وحيد: من جهة، إنسان واحد يموت ومن جهة أخرى مدينة بأسرها تقع ضحيّة الحفاظ على إيمانها؛ إنّها الأمانة تعيد الواحد إلى قرطاجة وتربط الآخر بمصير روما؛ فهل هي الأمانة التي تثير غضب الآلهة؟ أم إنّه صحيح أنّ مدنًا بأسرها تخرب، وليس الأفراد فقط يهلكون بالرغم من رضى الآلهة وتعاطفهم؟ القرار ضروريّ؛ إن كانت الأمانة للعهد تثير غضب الآلهة فعليهم أن يبحثوا عن عباد لهم كذبة. أمّا إذا كانت حمايتهم لا توفّر الضمانة لا للأفراد ولا للمدن لتقيهم الكارثة الأخيرة وشرّ العذاب، فكلّ إكرام يقدّم إليهم لا يوفّر لهم حتّى السعادة الزمنيّة. وعليه فليتوقّف غضب الذين يؤرّخون بدء مصائبهم باليوم الذي ألغيت فيه أعيادهم لأنّ حضور الآلهة وعطفهم أعجز من أن يبعد عنهم سوء الطالع والشكاوى التي ترتفع اليوم فضلًا عن عجزهم التامّ عن تخليص رغولوس من العذاب وساغونت من الخراب التامّ.

٢١

فساد الأخلاق اشد فتكًا بالمدنيّة من الحرب

فيما أفكّر بما أضع من حدود لنفسي أوجز في الكلام. يؤكّد سَلُستُس في كتابه: (**تاريخ** ١: ١١) أنّ القوانين والوحدة عند

الرومان كانت مرعيّة ما بين الحرب الأولى والثانية ضدّ قرطاجة؛ وفي ذلك الزمن أيضًا، المعروف بوحدة الرأي والحياة المنزّهة عن العيب، حرّر شيبيون روما وإيطاليا وأنهى بمجد عظيم الحرب الإفريقيّة الثانية التي حملت في ثناياها الكثير من الرعب والخوف والتشاؤم، فانتصر على هنيبعل وقرطاجة؛ وهو البطل الذي يظهر من خلال حياته كلّها منذ مطلع شبابه متعبّدًا للآلهة، عائشًا في هياكلهم، نراه أخيرًا ينصاع لاتّهامات أعدائه؛ وإذ يتخلّى عن المدينة التي حرّرها وخلّصها بفضلٍ منه ويُنهي بعد ذلك النصر الخالد، أيّامه الأخيرة في لِيتِرْن (Literne) غير مبالٍ بروما حتّى إنّه أبى عليها وعلى نكرانها لجميله شرف الاحتضان لرفاته. وللحال تغلّب الوالي مَنْلِيُوس (Manlius) على الشعب الغول الإغريقيّ ولحق به إلى روما للمرّة الأولى الترف الأسيويّ أشدّ الأعداء فتكًا؛ ويقال إنّ الناس رأوا للمرّة الأولى أسرّة من نحاس وسجّادًا ثمينًا؛ للمرّة الأولى دخلت مغنّيات إلى الولائم ومعهنّ كلّ أنواع الفسق والفجور؛ غير أنّي لا أتكلّم الآن إلّا عن الشرور التي ذهب الرجال ضحيّتها من دون أصحابها. ولهذا فإنّ المثل الذي أعطاه شيبيون وهو يموت بعيدًا عن هذا الوطن الذي خلّصه ليتركه لأعدائه أكثر ملاءمة لموضوعي. ما كان أشدّ عقوق الآلهة وقد حمى لهم معابدهم من هنيبعل، والإنسان لا يخدمهم إلّا حبًّا لمصلحة زمنيّة! ولكن بما أنّ سَلُستس يقول إنّ الفضيلة مرعيّة في روما، ظننت أنّ واجبي يقضي عليّ بأن أقول إنّ سلّستس لا يمتدح تلك الحقبة الزمنيّة إلّا بالنسبة إلى الأجيال المتعاقبة التي حملت النزاعات والفساد. لأنّ قانون فوكونيا الذي منع الإرث عن المرأة، وإن تكن ابنة وحيدة، يُعمل به ما بين

الحرب الثانية والثالثة الأفريقيّة. وهل من قانون أشدّ ظلمًا منه؟ على أنّ المساوئ التي عرفتها روما ما بين هاتين الحربين كانت أخفّ وطأة. لقد انسحقت جيوشها بالحروب غير أنّها كانت تجد تعزية لها في ما تُحرزه من انتصارات فتوقّفت النزاعات الداخليّة على أنّها بعد الحرب الأخيرة ضدّ قرطاجة، وقد هزم شيبيون الفتى عدوّة روما واكتسب بدوره لقب الأفريقيّ، أخذت روما تغرق في الفساد نتيجة النصر والأمان وهو الذي رزحت تحت شروره؛ لقد كان سقوط قرطاجة السريع أشدّ فتكًا بروما من صمودها الطويل. ومنذ ذلك الوقت حتّى مجيء أغسطس الذي سلب الرومان حرّيّتهم تثبيتًا للاستبداد الملكيّ، وهي حرّيّة عديمة المجد كانت على حدّ قولهم وباء وشَغَبًا وانحطاطًا وفسادًا فإنّ أغسطس الذي عمل، على ما يبدو، على إنهاض الجمهوريّة من كبوتها وتجديدها، قد شهد طوال عهده نكسات كثيرة لأسباب عدّة تلطّخت بها الجيوش الرومانيّة! هل أتكلّم عن معاهدة نُومَنْس الشائنة؟ وأيم الحقّ، إنّ الفراخ المكرّسة طارت من أقفاصها وهذه علامة شؤم بالنسبة إلى القنصل مَنسِينُوس. وكأنّ تلك المدينة الصغيرة التي أرهبت الجمهوريّة على مدى سنوات طويلة وأبقت جيشها في حالة انهزام ما هاجمها الرؤساء الآخرون إلّا بعد التهديد!

٢٢

أمرُّ على ذلك كلّه من دون تعليق؛ ولكن هل يمكنني أن أسكت عن أمر مِيثْرِيدات الذي قضى بإبادة مواطنين رومان كثيرين كانوا لا

يزالون بحكم أشغالهم في آسيا؟ إنّه لمشهد يستدعي الشفقة! للحال، وحيثما وجد رومانيّ، في الحقل، على الطريق في المدينة، في البيوت والدساكر، على الساحات العامّة، في المعابد، في السرير، وعلى المائدة، كان يُقتل بلا شفقة! أصغوا إلى صراخهم وهم يموتون؛ انظروا إلى دموع المشاهدين ولربّما أيضًا إلى دموع القتلة؛ إنّها لضرورة قاسية لضيوف لا لأنّهم شهود فقط، بل المنفّذون لتلك المذابح البيتيّة! يتخلّون فجأة عن كلّ وجه إنسانيّ محبّ، تنفيذًا، وسط السلم، لذاك العمل العدائيّ الشرس؛ الجلّادون والضحايا على السواء يخترق نفوسهم السيف الذي يضرب أجساد الرومان؛ وهل احتقر هؤلاء المنكودو الحظّ أخبار العرّافين أيضًا؟ ألم يكن لهم آلهة معروفون في الداخل والخارج ليستشيروهم قبل ذاك السفر الذي لا عودة منه؟ هل أهملوا ذاك الواجب؟ ولِمَ التشكّي اليوم من المسيحيّة؟ يحتقر الرومان تلك التنبّؤات منذ زمن بعيد. هل استشاروا آلهتهم؟ ليقولوا لنا أيّ فائدة جنوها من كلّ تلك الخرافات، ما دام القانون، القانون البشريّ، قد سمح بها ورعاها؟

٢٣

وأخيرًا علينا أن نتذكّر بإيجاز، ما أمكن، تلك الشرور التي تدعو إلى الأسف الشديد لكونها داخليّة: نزاعات مدنيّة تفتك بشكل فظيع بكلّ مدينة؛ لم تعد مناوشات، بل حروب حقيقيّة تجري فيها دماء، لا تتوقّف فيها الأحزاب عن تبادل الشتائم والتهم على المنابر، بل تتصادم بقوّة السلاح؛ حروب بين

العبيد، بين المواطنين في المجتمع، يراق فيها الدم الرومانيّ بغزارة! لقد اجتاحوا إيطاليا وعملوا منها صحراء قبل أن يثور اتّحاد لاتِيُوم ضدّ روما؛ جميع الحيوانات الداجنة من كلاب وخيول وحمير وثيران أصبحت فجأة كاسرة ونسيت ما ألفته في البيوت فخرجت من اسطبلاتها تعدو حرّة تتجنّب الاقتراب من أصحابها حتّى إذا أرادوا أن يطاردوها تعرّضوا للموت أو لخطر كبير، أيّ شرّ لم ينبئ به خبر عرّاف؟ لو أنّه حصل في أيّامنا الحاضرة لرأينا الوثنيّين أشدّ تكالبًا ضدّنا من الحيوانات على أصحابها.

٢٤

بدأت الحروب في الداخل مع الغراك (جماعة تيباريوس وكايُوس) بسبب القوانين الزراعيّة التي تدعو إلى توزيع الأراضي على الشعب التي يملكها النبلاء، بغير حقّ؛ فكان ذاك التدبير الجريء محوًا لسوء التصرّف القديم العهد، وتجربةً خطيرة جدًّا، ومن أشدّها سوءًا على الجمهوريّة، كما برهنت عنه الأحداث؛ لقد سارت جماهير غفيرة في جنازة رئيس الغراك (الممثّل للجماعة التي قاومت القوانين الإصلاحيّة الزراعيّة) كما جرى الشيء ذاته في جنازة أخيه بعد مدّة وجيزة؛ لم يعد القانون ولا السلطة تعاقب بالموت بل الثوّار حاملو السلاح يقتلون، على السواء، النبلاء وعامّة الشعب وقُتِلَ كذلك الفتى الغراكيّ. إنّ القنصل ل. أُوبْتِيمِيُوس الذي قاتل في روما الزعيم الشعبيّ وقضى عليه وعلى أصدقائه في مذبحة رهيبة تابع ملاحقة سائر أفراد

الحزب قضائيًّا ويقال إنّ ثلاثة آلاف رجل ذُبحوا! إستنادًا إلى تلك الأخبار، يمكن التكهّن عن عدد القتلى الهائل الذين ذهبوا في تلك المعمعة وبخاصّة عندما يمعن سيف العدالة قتلًا برقاب ضحاياه. لقد باع قاتل غْراكُوس رأس ضحيّته من القنصل بما يعادل ثقله ذهبًا؛ ولقد تمّ هذا الاتّفاق قبل المجزرة التي ذهب أيضًا فيها القنصليّ م. فُلافِيُوس مع أولاده.

٢٥

إنّه لعبقريّ ذاك القرار الصادر عن مجلس الشيوخ والقاضي بتشييد هيكل الوفاق فوق الأرض التي جرت عليها تلك المعركة الدمويّة التي سقط فيها عدد كبير من المواطنين من كلّ الفئات ليكون شاهدًا حيًّا دائمًا على ما لقيه الشعب الغراك من عذاب يبقى في ذاكرة الخطباء؛ بيد أنّ تكريسه لإلهة الوفاق Concorde يُعتبر استهزاء بالآلهة. لو كانت حاضرة لوفّرت على روما ذاك التمزّق والخراب؛ أمّا وقد غابت عن قلوب المواطنين، فقد استوجبت أن يغلق عليها في سجن. وفي الواقع لو أرادوا أن يخلّدوا ذكرى تلك المآسي، لِمَ لا يقيمون هيكلًا لإلهة الخلاف (Discorde)؟ وهل من العدل أن يكون الوفاق إلهًا ولا يكون الخلاف؟ هذه إلهة شرّ، وتلك إلهة خير، استنادًا إلى ما اقترحه لابِيون، ولا شكّ حول شكل الهيكل الذي قدّمته روما إلى إلهة الحمّى (Fièvre) كما إلى إلهة الصحّة (Santé): المنطق يفرض واحدًا للخلاف وآخر للوفاق. وعليه فخطر جسيم يهدّد الرومان بالعيش تحت غضب إلهة هكذا بغيضة؛ وذاك يعني أنّهم نسوا أنّ

غضبها هو الذي تسبّب بخراب طروادة؛ أليست هي التي أثا
نقاش التفّاحة الذهبيّة المشؤوم، لكونها لم تُدعَ إلى وليمة الآ
وهذا ما جعل الأُولَمْب ينقسم على ذاته فانتصرت فينوس وخ
طروادة. لقد غضبت لأنّ روما لم تبنِ لها هيكلًا كسائر الآ
وانتقمت منها، فنشرت فوق أرضها القلاقل والاضطرابات
ثائرها، إذ رأت فوق أرض المعركة بالذات هيكلًا يقام إك
لعدوّتها! يغضب علينا العلماء والحكماء عندما نسخر من
الترهات العالميّة، على أنّ عبدة الآلهة الصالحين أو الأشرار
يستطيعون التنصّل من مشكلة إلهة الوفاق وإلهة الخلاف بإه
عبادتهما وتفضيل إلهة الحمّى والحرب عليهما، ولهما في ر
هياكل قديمة جدًّا أو أنّ إلهة الوفاق التي انسحبت تركتهما
أيدي إلهة الخلاف فجرّهم غضبها إلى الدرك الأسفل
الحروب الداخليّة؟

٢٦

يا له من حاجز عجيب يمنع النزاعات عن هذا الهيكل المب
على اسم إلهة الوفاق (Concorde) والشاهد على عذاب الغرا
وقد اعتبروا أنّ من واجبهم تقديمه باستمرار إلى الآلهة! وما
جنوا منه؟ إنّ ما تلاه من مآسٍ زاد عمّا يعبّر عنه، ويبرهن، بـ
فيه الكفاية، إذ إنّ الخطباء بدلًا من أن يتجنّبوا التشبّه بهم، عملو
على التفوّق عليهم فالزعيم ساتُورْنيمُس والوالي سِرْفِيلِيُوس ث
دُرُوسُس أشعلوا خلافات دمويّة أوصلت إلى حروب داخليّة
إيطاليا التي شملها الخراب والحداد تصبح صحراء مروّعة تعاقبت

عليها حروب العبيد والحروب الداخليّة. يا لها من معارك سال فيها الدم الرومانيّ أنهارًا! حتّى قيل إنّ شعوب إيطاليا بأسرهم أصبحوا تحت حكم البرابرة. قبضة من عبيد وما يقرب من سبعين سيافًا أشعلوا حرب العبيد؛ ولكنّهم ازدادوا شراسة، بازدياد عددهم، فهزموا عدّة قادة رومان، واجتاحوا عدّة مدن ومناطق! ولا يكاد المؤرّخون يسجّلون ما يجري من فظائع وامتدّت حرب العبيد إلى مقدونيا ومنها إلى صَقَلِّية فالشاطئ بأسره. مَن ذا يروي لتلك الأعمال اللصوصيّة التي أدّت إلى حرب طاحنة؟ ومَن ذا يرفع بهذه الأخبار إلى مستوى الأحداث؟

٢٧

مارِيُوس المغمور بالدم الرومانيّ الذي ينبعث منه دخان مقتل أعدائه ينهزم ويهرب هو أيضًا فتتنفّس روما الصعداء، لبرهة من الزمن؛ بيد أنّه ما عتّم أن رجع إليها مع سِنًّا؛ ولكي يستعمل كلمات شيشرون فإنّه يطفئ مشاعل الجمهوريّة بقتل المشاهير من مواطنيه فيثأر سلا من ذلك النصر الفظيع! يا للانتقام! سبحت روما في بحر من دمائه! إنّه لانتصار قد يكون أكثر شؤمًا من عدم معاقبة الجرائم التي تلاحقها: لقد قال لُوكَايْن: «العلاج يتجاوز كلّ قياس؛ واليد التي تعمل تلاحق المرض عن كثب. المجرمون هلكوا، إذ لم يبق سوى المجرمين فانفلتت الأحقاد وتسارع الأخذ بالثأر متحرّرًا من كلّ قانون.

في أثناء هذه الحرب غطّت الجثث أرض المدينة ما عدا المواطنين الذين سقطوا في المعركة فالشوارع والساحات

والأسواق والمسارح والمعابد اكتظّت بها حتّى صعب على الإنسان أن يعرف إن كان الظافرون قد عملوا بلا شفقة قبل المعركة أم بعدها، بقصد الانتصار، أم لأنّهم انتصروا؟ وعندما رجع ماريوس من المنفى، كم قتيل وقع في الجهتين! رأس الوالي أُوْكْتافِيُوس معروض على المنصّة؛ قيصر وفِيمِبْرِيا مذبوحان في البيت؛ كُراسُوس وابنه قتيلان، الواحد مقابل الآخر؛ بابِيُوس ونُومِيتْرِيُوس يموتان سِحلًا؛ وأمعاؤهما مبعثرة هنا وهناك! كاتُولُوس تناول السمّ هربًا من أيدي أعدائه ومارُولا كاهن جوبيتر يفتح شرايينه ويقدّم دمه قربانًا للإله ويَقتُلُ للحال أمام أعين ماريوس كلّ الذين لم يستطيعوا أن يسلّموا عليه باليد وهم يحيُّونه.

٢٨

تفاقم الشرّ

ولمّا انتصر سِلّا بدوره، ثأر لتلك الفظاعات. صحيح أنّ الحرب انتهت، لكنّ الأحقاد ظلّت قائمة؛ وثمن النصر غالٍ جدًّا؛ وبات لا يرحم في زمن السلم أيضًا وأضاف ماريوس الفتى وكَربُون إلى الماضي فظاعات جديدة؛ وأمام التهديد بعدوة سِلّا يئسًا من النصر والنجاة، فراحا يقتلان، من دون حساب، أعداءهما حتّى محازبيهما؛ ولم يكتفيا بأن ينشرا الموت في المدينة كلّها، بل حاصرا مجلس الشيوخ وأخرجا الشيوخ من المجلس كما من سجن وقتلاهم بحدّ السيف. وفي الهيكل الذي يكنّ له الرومان كلّ احترام، قتل الحبر مُوسُوس شِيفُولا على أقدام مذبح فِستا التي يعانقها؛ وأطفأ تقريبًا بدمه النار التي كانت

تسهر عليها العذارى باستمرار؛ بيد أنّ سِلّا دخل منتصرًا وأخذ يقتل سبعة آلاف رجل منزوعي السلاح في مزرعة عموميّة. هنا لا مجال للحرب بل للسلم؛ ولم يعد للسيف من محلّ بل كلمة واحدة تقتل وكلّ محازب لِسِلّا يقتل مَن يشاء حتّى أصبح من المستحيل إحصاء القتلى. وأخيرًا نصحوا سلا بالإبقاء على بعض أعدائه لكي يبقى للمنتصرين أناس يحكمونهم؛ حينئذ أوقف كلّ إذن بالقتل الذي كان يعمل السيف في رقاب الناس بوحشيّة؛ ورُفعت لوحة أمام انذهال الجميع تحمل أسماء ألفَي فارس وشيخ حُكم عليهم بالقتل أو بالنفي. إنّه لمؤسف جدًّا ومحزن الاطّلاع على هذا العدد الكبير من الضحايا؛ غير أنّ توقّف المجزرة أدخل بعض العزاء إلى القلوب. ويخفّ الحزن على هذا العدد الكبير من الضحايا أمام فرح الخلاص من شرٍّ على الذات؛ على أنّ تلك الأنانيّة الوحشيّة لا تزال تبدي التأثّر من عذابات لم يسمع أحد بمثيل لها في العالم. هلك بها الكثيرون، بينهم واحد تمزّقت يداه بلا سكّين؛ ويداه فقط! رجال سلخوا إنسانًا آخر بوحشيّة تفوق وحشيّة حيوانات رموا إليها بجثّة! وآخر قلعوا عينيه وقطّعوا أعضاءه، الواحد تلو الآخر، ليعيش تلك العذابات؛ أو بالأحرى ليموت بها! كم من مدينة شهيرة بيعت بالمزاد العلنيّ كما تُباع إحدى المزارع! ومدينة أخرى حُكم عليها بالموت كما يُحكم على مجرم؛ ذاك ما حدث في زمن السلم، لا لتقرير النصر بل لتأكيده عن طريق الإرهاب؛ السلم والحرب يتسابقان على الشراسة فينتصر السلام؛ الحرب تضرب رجالًا مسلّحين، أمّا السلم فينتزع منهم سلاحهم ليقتلهم. الحرب جرح بجرح؛ أمّا السلم فلم يسمح للذين نجوا من الحرب بأن يدفعوا عنهم حدّ الخنجر.

هل ما يشبه شراسة غرباء وبرابرة، انتصارُ مواطنين على إخوان لهم في المواطنيّة؟ وهل تحمّلت روما شرورًا أشدّ وأرهب ممّا تحمّلت؟ أيّ هو أشدّ وأدهى؟ أدخول الغول إليها قديمًا واجتياح الغوط لها حديثًا أم التسلُّط الوحشيّ الذي قام به ماريوس وسِلّا وكثير من الرؤساء أعضاء الجمهوريّة المشاهير المتكالبين على أجسادهم؟ صحيح أنّ الغول ذبحوا كلّ الشيوخ الذين وجدوهم في روما، ما عدا الكابيتول الذي استطاعت قلعته أن تدافع عن نفسها؛ غير أنّهم وعدوا المدافعين عنه بأن يَفْدُوا بالمال كلّ مَن لم يستطع السيف أن يصل إليه إلّا أنّه كان سيقضي على مهل من جرّاء الحصار. وبالعكس فإنّ الغوط قد عفوا عن كثيرين؛ ومن المستغرب أن يكونوا قد ضربوا واحدًا منهم. أمّا سِلاّ، وبينما كان ماريوس لا يزال حيًّا، فقد استولى على الكابيتول الذي حافظ عليه الغول ومِن داخله أمر بالمذبحة؛ وإذ كان ماريوس هاربًا، على أن يعود أكثر شراسة، وأشدّ عطشًا إلى الدم، راح سلّا من الكابيتول يشرّع بقرار من المجلس أعمال القتل والمصادرة؛ وللحال، خلال غيابه، لم يبقَ شيء محرّمًا على محازبيه ما داموا لم يسامحوا مُوسِيُوس ذاته المواطن والشيخ والحبر الذي يغمر بقبلة تعيسة الهيكل الذي فيه تستريح مصائر روما؟ وحفاظًا على السكوت عن كثير من المقتلات، نقول إنّ تلك اللوحة الأخيرة التي وضعها سِلّا قد ضحّت بعدد من الشيوخ أكبر من ذاك الذي استطاع اليوم الغوط أن يسلبوهم أموالهم.

أن يجعل الوثنيّون مسيحنا مسؤولًا عن الكوارث الجديدة التي تحلّ بهم اليوم ولا يعزون إلى آلهتهم ما حلّ بهم في القديم فتلك لعمري ذروة الوقاحة والجنون والفجور والهذيان! لقد كانت تلك الحروب الداخليّة باعتراف مؤرّخيهم أشدّ شراسة من سائر حروبهم مع الخارج حتّى إنّها أنهكت الجمهوريّة وخرّبتها، وقد جرت قبل المسيح بزمن طويل. إنّ أسبابًا مشؤومة تربط بين حروب سِلّا وماريوس وحروب سَرتُورِيُوس وكاتيلينا: الواحد يُبعد إلى المنفى مَن هيّأه سِلّا ويأتي بالنقاشات العنيفة ما بين لِيبِدُس وكاتُولُوس؛ الواحد يريد أن يلغي ما فعله الدكتتور والآخر يريد أن يبقي عليها؛ ثمّ يصير انتقال دمويّ إلى التنافس بين قيصر وبُومْبِيوس؛ هذا مناصر لِسِلّا يتساوى معه بالقوّة إن لم يكن أقوى منه؛ والقيصر قلق من سلطة يشتهيها ويحملها إلى الأعلى بعد هزيمة خصمه وموته؛ ثمّ يأتي قيصر آخر يحمل اسم أغسطس فيولد في عهده المسيح. وظهر أغسطس نفسه في عدّة حروب داخليّة هلك فيها رجال مشاهير منهم شيشرون الذي كان يتكلّم بفصاحة عن الفنّ في إدارة الدولة؛ إنّ الذي انتصر على بومبيوس وهو (C. César) قيصر مارس النصر بشفقة وحافظ على كرامة أعدائه وعلى حياتهم؛ ولكن بعد زمن يسير ادّعى أشرافٌ بأنّه يطمح إلى الملك وطعنوه بخنجر في مجلس الشيوخ تحت شعار تقديمه فدية عن الحرّيّة العامّة. بعد موته برز رجل آخر، وحشُ رذيلةٍ وفساد يختلف كلّيًّا عنه، واسمه أنطوان توّاق إلى الجَور والاستبداد فقام ضدّه سيشرون يحاول الدفاع عن هذه الحرّيّة؛

غير أنّ قيصرًا آخر ظهر وهو فتى ذو طموح ويأمل الخير؛ وهو ابن بالتبنّي لِيُولِيُوس ويدعى منذ ذلك الحين أغسطس وشجّع شيشرون هذه السلطة الناشئة، ويرجع بعد أن قضى على سيطرة أنطوان أن يستعيد للوطن حرّيّته؛ فيا للعمى وقلّة الفطنة! إنّ الذي كان يعتمد على تأييده وترقيته سلّم أنطوان، عربونًا لمصالحته، رأس شيشرون بالذات واحتفظ لنفسه بتلك الحرّيّة التي بذل الخطيب الشهير في سبيلها الكثير من فصاحته.

٣١

عليهم أن يتّهموا آلهتهم بتلك المصائب الكثيرة بدلًا من أن ينكروا على المسيح ما أفاض عليهم من خيرات! أما كانوا يرون في زمن الكوارث الدخان يتصاعد فوق مذابح الأصنام؟ أما كان يفوح منها بخور الجزيرة العربيّة وعطر الأزهار الجديدة؟ يا للأبّهة المتجلّية على الأحبار وفي المعابد! ذبائح وألعاب وهيجان تعصّبيّ؛ ماذا نقص في عبادة الآلهة؟ ومع ذلك كان دم المواطنين يسيل بغزارة تحت سيوف المواطنين على أقدام المذابح. وعلى أقدام تلك المذابح لن يذهب شيشرون يطلب ملجأ قد طلبه منهم، عبثًا، موسيوس؛ على أنّ هؤلاء المجدّفين الحقيرين على الدين المسيحيّ ألم يلوذوا بالأماكن الموضوعة تحت رعاية المسيح؟ ماذا أقول؟ ألم يأخذهم البرابرة إليها ليضمنوا حياتهم؟ أجل، إنّي أؤكّد ذلك وأحكّم كلّ إنسان حرّ بعيدًا عن كلّ تحيّز وأؤكّد أيضًا أنّه لو قُيِّض للجنس البشريّ أن يقبل العقيدة المسيحيّة قبل الحروب الإفريقيّة وقبل حدوث هذه الكوارث

الرهيبة التي ضحقت آنذاك إفريقيا وأوروبّا، لما بقي واحد من هؤلاء المجدّفين الكفرة إلّا وردّها إلى المسيحيّة! مَن ذا يستطيع أن يصمد أمام صراخهم لو أنّ الإنجيل انتشر قبل تلك الكوارث التي حلّت بروما: اجتياحات الغول وفيضان نهر التيبر والحرائق والمصائب الطاغية! والحروب الداخليّة؟ أمّا الضربات الأخرى التي تفوق كلّ تصوّر حتّى وكأنّها من الخوارق، لو أنّها صارت في أيّامنا، على مَن تقع جريرتها إن لم يكن على المسيحيّين؟ أنا لا أتكلّم عن الأشياء التي تدعو إلى العجب أكثر منها إلى الأذى وفي الواقع أن تتكلّم ثيران وأن تتلفّظ أجنّة في الأحشاء ببعض كلمات وأن تطير حيّات وأن تتحوّل نساء من جنس إلى جنس لعمري تلك أحداث صحيحة أو كاذبة جاءت لا على ألسنة الشعراء بل على ألسنة المؤرّخين وهي تذهل الناس ولا تؤذيهم؛ ولكن أن تمطر السماء ترابًا وطبشورًا وحجارة، حجارة حقيقيّة ولا بردًا، فتلك حوادث لا شرّ أشدّ منها؛ ونقرأ أنّ جبل إتْنا يتقيّأ النيران بغضب على الشاطئ حتّى إنّ البحر المحرق كلّس صخوره وذوّب أطلاء السفن؛ إنّه لشيء رهيب ومذهل. ويقال إنّ ثورة البركان هذا غطّت صَقَلْيا بأسرها بكثافة من الرماد طمرت البيوت في كاتان فانهارت تحت ثقلها فتأثّر الرومان ممّا حلّ بها وقدّموا لها ضريبة السنة؛ كما نقرأ أيضًا أنّ جحافل من الجراد هائلة انقضت على إفريقيا بعد أن أصبحت ولاية رومانيّة فالتهمت الورق والثمر ثمّ ارتفعت بشكل غيوم كثيفة وارتمت في البحر فماتت فيه ثمّ لفظها البحر على الشاطئ ففسد الجوّ ونتج عن ذلك وباء فظيع حصد كما قيل ثمانمائة ألف رجل وأكثر حتّى إنّ الثلاثين ألف جنديّ الذين كانوا في أُوتيكا (Utique) قد هلكوا، ما عدا عشرة

منهم. ألا يلقي جنونٌ كالذي يطاردنا وينتظر جوابًا منّا مسؤوليّة تلك الأحداث على الديانة المسيحيّة، لو أنّها رأت في عصرها مثيلًا لها؟ على أنّهم لا يلقون بتبعتها على آلهتهم، ولكي يبعدوا عنهم بلايا خفيفة إذا قيست بالماضية، نراهم يستنجدون بطقوس عجزت عن حماية أجدادهم!

الكتاب الرابع

مقدّمة

عظمة روما وضعف آلهتها

لا تستند عظمة روما إلى آلهتها لأنّهم أضعف من أن يحفظوا للمدن عظمتها وهناءها. وكلّ مملكة تخلو من العدالة، ولا تقيم لها وزنًا، تصبح مجموعةً من زمر اللصوص؛ في هذا الكتاب يسخر أوغسطينس من كلّ إلهٍ رومانيٍّ، أكبيرًا عُدَّ أم صغيرًا، حيث يُعطى كلّ واحد منهم نوعًا من النشاط الإنسانيّ أو الطبيعيّ تنحصر مهمّته بالسهر عليه أو في تحريكه، كما تُسمّى كلّ هبة من مواهب الله إلهًا؛ وتاليًا لا يخجلون من إهانة صاحب تلك الهبات الأوحد! أمّا المشاهير من الرومان أمثال فَرُّون وشيشرون اللذين لا يتجاسران على انتقاد التقاليد الرومانيّة الباطلة، ويستبقيان الطقوس الدينيّة الفارغة والوهميّة؛ وإن اقتربا جدًّا من تكوين فكرة قريبة جدًّا عن الله، روح الكون، يظلّان أسيرَيْ تلك العادات، بدون أن يتحرّرا منها أو يحرّرا شعبهما منها. ثمّ إنّ أوغسطينس يسخر من الآلهة الصغار والكبار الذين يغذّون ما بينهم من خلافات حول مناصب يحتلّونها ومهمّات سخيفة تُناط بهم؛ كما يوجّه نقدًا لاذعًا إلى وثنيّة محرَّمة تسير بخطى سريعة

إلى الانحلال أمام أناس يؤيّدونها ويُغطُّون ضلالها بحجاب من الصمت المدقع، مع علمهم الضمنيّ ببطلانها. ويُنهي الكتاب بإعلان موقف شيشرون الفيلسوف وفرّون المؤرّخ من الخرافة والدين؛ ثمّ يتوقّف لمحةً عند تاريخ الشعب اليهوديّ الذي ما كان بحاجة إلى أمثال أولئك الآلهة لكي يتحرّر، بل انضوى تحت رعاية الإله الواحد، بعيدًا عن كلّ طقس دينيّ وعبادة وذبيحة باطلة، معتمدًا كتبًا رعاها الأنبياء وسجّلت علاقتَه الحميمة بالله الواحد مدى التاريخ.

١

في بداية كلامي عن المدينة الإلهيّة، اعتقدتُ بأنّه يجب عليّ أن أردّ، قبل كلّ شيء، على أعدائها الحمقى المشدودين بأفكارهم ورغباتهم إلى الأفراح، وهو تحذير يوجّهه الله إليهم رحمة بهم؛ وليس اقتصاصًا لعدله من الموجّهين اللوم إلى الدين المسيحيّ، دين الخلاص الوحيد. ومنهم عدد كبير جهلة يدّعون العلم والمعرفة ويغذّون حقد الشعب علينا، إذ يبيّنون لهم زورًا أنّ شرورَ عصرنا الفظيعة لم تكن معروفة في الأجيال السالفة؛ إنّهم يخفون ما لديهم من علم بالأمور، ليغطُّوا شكاواهم بعدالةٍ ظاهريّة ويؤكّدون ما يعرفونه خطأً؛ وقد كان من الواجب أن يبرهنوا من خلال الكتب التي يذكر فيها أصحابها الأزمنة الماضية أنّ الأمر مخالف كلّيًّا لتفكيرهم، وأنّ الآلهة الكذبة الذين كانوا في الماضي يُعبدون علنًا، وفي الحاضر سرًّا، ليسوا سوى أرواح شرّيرة وشياطين خبثاء حتّى إنّهم يجدون متعة في جرائمهم الحقيقيّة أو الافتراضيّة؛ وقد أمروا بتمثيلها احتفاليًّا في أعيادهم لكي يبقى الضعف البشريّ أسير عادة إجراميّة جرّه إليها المثال الإلهيّ بما له من سلطان. وفي هذا المجال لا تستند براهيننا إلى فرضيّة بسيطة بل إلى ذكريات حديثة من جهة وقد رأيناهم يحتفلون بأعياد آلهتهم السفلة بالعربدة والصخب، ومن جهة أخرى إلى ما طالعناه في كتبهم الوثنيّة التي تنقل إلى الخَلَف العار المرعيّ في تكريم الآلهة. وعلى هذا النحو فإنّ فرّون العالِم، وبما لديه من سلطة، يميّز في حديثه بين الأمور البشريّة والأمور الإلهيّة ويصنّف كلًّا منها في رتبته، وفقًا لأهمّيّته، فلا

يضع ألعاب المسرح بين الأشياء البشريّة بل بين الإلهيّة؛ وهي ألعاب يجب على كلّ مدينة تُجلُّ الفضيلة أن تمحوها من المؤسّسات البشريّة؛ ولا يتصرّف فرّون تلقائيًا بهذا الشكل بل لكونه ولد في روما، فقد وجدها هكذا مرتبة. وعليه فكما عرضتُ في نهاية كتابي الأوّل، بوجيز الكلام، موضوع الكتاب، انطلقتُ به في الثاني والثالث وتَسهُلُ الآن معرفة ما ينتظرُ منّي القارئ الآن.

٢

كوارث عالميّة اجتاحت الكون

لقد وعدت بأن أدحض، بالقليل من الكلام، مزاعمَ الذين يلقون بمسؤوليّة الكوارث التي ضربت الجمهوريّة، بما فيها مدينة روما، والولايات الخاضعة لها، على ديانتنا، قبل أن تحرم عليها الذبائح؛ وهي شرور قد ينسبونها حتمًا إلينا، لو أنّ ديانتنا نشرت أضواءها وشجبت آنذاك الاحتفالات الوثنيّة النجسة؛ ذاك هو الموضوع الذي درسته، بما فيه الكفاية، في الكتابين الثاني والثالث: أحدهما تطرّق إلى شرور النفس وهي بالأحرى الشرور الحقيقيّة والأفظع؛ والآخر تطرّق إلى شرور الجسد وهي خارجيّة يتحمّلها الصالحون أيضًا؛ وحدها يخشاها الناس الأشرار القليلو العقل في حين يقبلون، بصبر وطيبة خاطر، ما يجعلهم أشرارًا. ماذا قلت عن روما ومملكتها؟ هل تبسّطتُ في درس ما جرى حتّى عهد أغسطس قيصر؟ ماذا يجري لو أنّي أذكر وأصف مآسي الحرب، إضافة إلى المصائب التي عانى منها الناس، من دون

أن يكونوا عنها مسؤولين؛ وإنّها لأحداث مشؤومة يوجزها أبُولايُوس (Apulée) في كتابه **العالم** حيث يقول: كلّ ما في الأرض ثورات وتقلّبات وانحطاط. وهنا أستعمل كلامه الشخصيّ القائل: على إثر هزّات أرضيّة هائلة انفتحت هوات سحيقة وابتلعت مدنًا بسكّانها؛ وكم من طوفان غمر مناطق بأسرها؛ كم من قارّات اجتاحتها مياه غريبة فحوّلتها إلى جزر، وأخرى تحوّلت إلى قارّات بعد انحسار البحر عنها؛ ونار من السماء تنتشر في المشرق إثر انفجار غريب وأخرى في الغرب تجتاحها فيضانات هائلة؛ وبركان إتْنا يحطّم فوهته ويُخرج حممه على سفوحه سيولًا من النيران وحرائق رهيبة!» لو أردتُ أن أحصي كلّ ما جرى من أحداث مماثلة ملأتْ كتب التاريخ فكم يلزمني من الوقت لأتمكّن من تعداد المصائب التي حصلت في ذلك الزمان قبل أن يضع اسم المسيح حدًّا لتلك الخرافات الباطلة والمميتة؟ لقد وعدت أيضًا بأن أبين السبب الذي من أجله تنازل وشجّع نموَّ المملكة الرومانيّة، الإله الحقّ، الضابط بيديه ممالك الأرض قاطبة؛ وبدلًا من أن تعمل على تمجيده، كم قد حاربته تلك الآلهة المزعومة بحيلها ومكرها؛ ذاك ما بقي عليّ أن أقوله الآن وبخاصّة عن التقدّم الذي أحرزته المملكة. أمّا في ما يختصّ بالتأثير العاطل الذي ألحقه هؤلاء الشياطين الأشرار المكرّمين كآلهةٍ بالأخلاق، فقد تحدّثت عنه مطوّلًا في الكتاب الثاني، وحتّى الآن ما فاتني أن أشير في المناسبة إلى كلّ التعازي التي أعطيت باسم المسيح إلى الأبرار والأشرار وباسمه يخضع البرابرة أنفسهم؛ لقد أفاض ذاك الإله خيراته على الأبرار والأشرار خلال الحرب الطاحنة، «هو الذي يشرق شمسه على

هؤلاء وأولئك ويمطر غيثه على الصالحين والطالحين» (متى ٥: ٣٥).

٣

لا فضل للآلهة في انتشار الامبراطورية

والآن كيف يتجرّأون على أن ينسبوا الفضل في انتشار الإمبراطوريّة الرومانيّة وبقائها إلى هؤلاء الآلهة الذين يعتبرون تكريمهم من خلال ألعاب شائنة، على أيدي خدمة سافلين، أمرًا شرعيًّا؟ وهل من معنى أو سبب لذلك هناك، عندما يستحيل على الإنسان أن يبيّن أنّ الناس الذين يعيشون أهوال الحرب بين دماء مواطنيهم أو أعدائهم، أسرى الأرهاب الأسود، والميول الوحشيّة، لا يعرفون الهناء؟ أليست غبطتهم كالزجاج؟ يخشى عليها من العطب بقدر ما هي نقيّة. ماذا؟ يفاخرون بعظمة الإمبراطوريّة واتّساعها! ليكن حكمنا أفضل؛ لا ندع أنفسنا ضحيّة مجد باطل وعقيم! لا ندع عقلنا أسير ألفاظ رنّانة وضخمة كمثل كلمات شعوب وممالك وولايات؛ بل لنتصوّر رجلين، كلًّا منهما هو كحرف في خطاب؛ كلًّا منهما هو، نوعًا ما، عنصر في المدينة مهما امتدّت سلطتها. لنفترض أنّ واحدًا منهما فقير أو بالأحرى ينتمي إلى طبقة وضيعة؛ والآخر يعيش في بحبوحة، ولكن يتآكله الهمّ، بلا أمن، ولا راحة، يصعب عليه أن يعيش في جوّ يتقاتل فيه الناس؛ في ذاك الجوّ المثقل بالشقاء يزداد غناه باستمرار كما يزداد همّه وقلقه؛ أمّا الآخر فإنّه يعيش في بساطة؛ يوازن بين حاجاته رما لديه من مال؛ يحبّه أهله وجيرانه

وأصدقاؤه، يملك الخير الحقيقيّ من سلام هادئ وتقوى راسخة ونفس محبّة وصحّة جيّدة وقناعة في العيش وعفّة وراحة ضمير. فمَن ذا الذي يحتاج إلى شيء من المنطق ليختار واحدًا منهما؟ إنّ القاعدة التي يتّخذها الإنسان العاقل للاختيار بين هذين الرجلين هي ذاتها تنطبق على عائلتين وعلى شعبين ومملكتين. إذا صوّبنا ما فينا من آراء واستعملناها بدقّة وانضباط، يسهل علينا أن نعرف أين هو الباطل وأين هي السعادة. وعلى هذا النحو عندما يخدم الإنسان الإله الحقّ ويكرمه بواسطة ذبائح حقيقيّة وأفكار طاهرة فخير له أن يتّسع سلطان الصالحين ويدوم؛ وقد يكون أقلّ بالنسبة إليهم ممّن هم دونهم؛ لأنّ تقواهم وبرّهم، وهما من عطايا الله التي لا تقدّر بثمن، يضمنان لهم الهناء في هذه الحياة والسعادة إلى الأبد؛ لكنّ سلطان الأشرار هو ضرر لهم وأذية؛ لأنّهم يعادون قلوبهم التي يسلمونها إلى الإثم فيلتهمها. أمّا الذين يخضعون لهم فلا يتألّمون إلّا من إثمهم الشخصيّ، لأنّ الويلات التي تحلّ بالأبرار بسبب تسلّط الأشرار لا تُعدّ عقابًا لهم بل تجربة، لأنّ الإنسان الفاضل حرّ وإن يكن مكبّلًا بالحديد؛ والإنسان الشرّير وإن يكن حاكمًا فهو عبد؛ عبد لا لسيّد واحد بل يتعدّد أسياده بتعدّد رذائله؛ عن أولئك الأسياد يقول الكتاب: «الإنسان مستعبد لمَن غلبه» (٢ **بطرس** ٢/ ١٩).

٤

فقدان العدل في بلد يحوّله إلى مملكة لصوص

وفي الواقع، إذا فُقد العدل أصبحت الممالك جماعات كبيرة من اللصوص. وما هي جماعة اللصوص إن لم تكن مملكة صغيرة؟ إنّها مجموعة من البشر تأتمر بأمر إنسان واحد وتعترف بعهد اجتماعيّ ينظّم تقاسم المغانم في ما بينها. إذا كانت المجموعة هذه شرّيرة وجنّدت أعضاء جددًا فيها فكبرت واحتلّت بلادًا وأقامت لها مراكز هامّة واتّخذت مدنًا فأخضعت شعوبًا، تتّخذ علنًا آنذاك لقب مملكة لا يضمن لها الزهد بالجشع بل عدم العقاب. ذاك هو جواب صحيح ولبق أعطاه أحد القراصنة الإسكندر الكبير عندما وقع أسيرًا بين يديه فقال له الملك: «بماذا تفكّر عندما تغير على البحر؟ وعندما تغير على اليابسة؟ أجاب القرصان: «بماذا تفكّر أنت؟ وبما أنّ مركبي سريع العطب سمّوني قرصانًا وأنت بما أنّ لك أسطولًا عظيمًا سمّوك فاتحًا».

٥

لست أتحرّى عن الناس الذين جمعهم رومولوس، إذ لمجرّد أنّه انتشلهم من حياة اللصوصيّة وأعطاهم حقّ المواطنيّة فقد حرّرهم من فكرة المعاناة الطويلة والخوف الذي كان يدفعهم إلى ارتكاب المزيد من الجرائم كما دجّنهم حين ربطهم بمصالح المجتمع البشريّ؛ بيد أنّ ما أريد أن أذكّر به هو حدثٌ سيّئ، أثّر كثيرًا في المملكة الرومانيّة المعروفة بقدرتها فهزّها؛ وهي التي انتصرت

على شعوب عديدة وبعثت الرعب في سائر الشعوب؛ حريق هائل لم ينطفئ إلّا بعد أن هدّد روما بالكارثة الأخيرة حين قامت قبضة من السيّافين الهاربين من ميادين كَمْبانيك وألّفوا جيشًا ضخمًا اجتاح إيطاليا بأسرها تحت إمرة ثلاثة قوّاد. فليقولوا لنا عن الإله الذي تنبّأ لهم بتلك العمليّة الزرّيّة والحقيرة التي تمّ فيها السطو فجأة؟ قوّة أرهبت كلّ القوى وسائر المدائن الرومانيّة! هل تنكر تلك الحقبة القصيرة التي عرفوا فيها الازدهار المساعدة التي أمدّهم بها الآلهة؟ كما لو أنّ حياة الإنسان طويلة. ما من إنسان يملك إلّا بمساعدة إلهيّة؛ لأنّ كلّ إنسان إلى الموت صائر ولا يمكنه أن يعتبر خيرًا فيه وفي كلّ إنسان ما يتلاشى كالبخار. وفي الواقع، ما هم أولئك الخدّام الأوفياء للآلهة، سواء أكانوا معاصرين لرومولوس أم متوفّين قبل مجيئه، من أن تزدهر المملكة الرومانيّة من بعدهم ما دام لم يبق لهم سوى الدفاع عن قضاياهم في الجحيم؛ أن يكون السبب جيّدًا، أم لا، فهذا لا يهمّ القضيّة؛ وأخيرًا أيًّا تكن المدّة التي تعاقبت فيها الأجيال من تاريخ المملكة، يجب الاعتراف بأنّ الإنسان لم يُعطَ سوى أيّام قليلة لينزل، حاملًا أعماله، منحدرات الحياة السريعة؛ وإن وجب اعتبار ما في الحياة، من خيرات قصيرة المدى، نعمةً من الآلهة، فبالتأكيد أيضًا أنّ تحطيم السيافين لقيودهم ثمّ النجاة، فالهرب، إشارة إلى قدرتهم الفاعلة ليجمعوا جيشًا رهيبًا تحت إمرة ثلاثة من رؤسائهم يزعزع بعنف روما العظيمة. وإذ قهروا عدّة قوّاد واستولوا على غنائم كثيرة استسلموا إلى كلّ ملذّة حسّيّة، إشباعًا لشهواتهم؛ وأخيرًا لقد عاشوا أسيادًا حتّى انهزموا نهائيًّا؛ لننتقل إلى أمور أسمى.

٦

إنّ يُسطينُس، مؤرِّخ اليونان اللاتيني، أو بالأحرى مؤلِّف تاريخ الشعوب الغريبة والموجز لكتاب تروغُوس بُومبيُّوس (Trogus Pompée) يبدأ كتابه هكذا: «منذ البدء كانت السلطة بأيدي الملوك الذين يدينون بها إلى الاعتدال الذي أقرّ لهم به رجال الخير بمعزل عن كلّ دسيسة شعبيّة، ولم تكن القوانين تحكم الشعوب بل إرادة الأمراء كانت القانون؛ وكانوا حريصين على حدود مملكتهم، رافضين توسيعها؛ ويرتضي كلّ ملك بما يحدّ وطنه. وكان نِينُوس (Ninos) الملك الأشوريّ أوّل مَن قضى على تلك التقاليد القديمة القائمة على المساواة وعلى النظام الموروث إرواءً لعطشٍ فيه إلى السلطة، فنقل الحرب إلى جيرانه حتّى الحدود الليبيّة وسيطر على شعوب غير قادرة على الدفاع عن نفسها» (يسطينس ١: ١-٥). ويقول يسطينس أيضًا في محلّ آخر: «لقد رسّخ نِينُوس قدمه في فتوحاته وبقي فيها زمنًا طويلًا؛ تغلّب على جيرانه فجنّد منهم قوّات جديدة ساعدته على فتوحات جديدة حتّى أصبح كلّ نصر يُحرزه وسيلة إلى نصر جديد وأخضع شعوب الشرق قاطبة». أيًّا يكن رأي الناس في ما يختصّ بأمانة يسطينس وتُرُوغُوس، فهناك أخبار أقرب إلى الحقيقة تقول إنّهما يفرضان احترامهما في عدّة نقاط؛ غير أنّ الثابت استنادًا إلى شهادة يُجمع عليها المؤرّخون أنّ الملك نينوس نمّى مملكة أشّور بشكل رائع حقبة من الزمن لم تبلغها روما في تاريخها، وبحسب تقرير الخبراء في علم الأزمنة، دام ملكها منذ تأسيسها حتّى انتقال الحكم فيها إلى الماديّين، ألفًا ومائتين وأربعين سنة؛ على

أنّ إعلان الحرب على الجيران بغية الانطلاق في معارك جديدة، سحقًا لشعوب، واجتياحًا لبلدان، لم يُبدِ أيّ دفاع بدافع وحيد من شهوة التسلّط، فذاك لعمري عمل لصوصيّ فظيع.

٧

الآلهة عاجزون عن مساندة الدولة

إن كانت تلك المملكة قد عاشت عظمتها، بغنى عن مساعدة الآلهة، فلِمَ يُردُّ الفضل في بقاء الإمبراطوريّة وعظمتها إلى الآلهة؟ أيًّا يكن السبب في هذه أو تلك فهو، هو عينه، لدى الاثنتين. إن شاءوا أن يكون الآلهة قد ساعدوا الأولى، فمَن هم أولئك الآلهة، لأنّ الشعوب الذين استولى عليهم نينوس كانوا يؤمنون بإله واحد هو نينوس؟ وهل كان للأشوريّين آلهة تخصّهم في دون سواهم مؤهّلين لتنمية الدول ورفع مستواها والحفاظ عليها طويلًا؟ وهل مات أولئك الآلهة حتّى فقد الأشّوريّون قدرتهم؟ وهل يعقل أن يكونوا قد حرموا أجرهم فانتقلوا إلى مكان آخر، طمعًا بأجر أفضل، لدى الماديّين ثمّ إلى الفرس، للسبب عينه، بدعوة من قورش؛ ومملكة الفرس هذه منذ انحسار عهد الإسكندر، السريع الزوال عنها، لا تزال مسيطرة على مناطق شاسعة من المشرق؟ إن كان الأمر هكذا فإمّا أن يكون الآلهة خونة يتخلّون عن أصدقائهم وينتقلون إلى جانب أعدائهم، وذاك ما خجل من صنعه كميل الذي خلّص روما من ألدّ أعدائها ثمّ عاش جحودها له، هي التي من أجلها أحرز النصر؛ ثمّ ما إن نسي الإهانة حتّى راح يخلّصها ثانية من أيدي الغول لكونها وطنًا

له. فالآلهة إمّا أن تنقصهم القدرة اللائقة بهم، ما داموا ينهزمون أمام الفطنة والقوى البشريّة، أو بالعكس يهزمهم في معارك سماويّة آلهة آخرون حيث لكلّ مدينة آلهة يحامون عنها، وتنشأ بينهم عداوات يدافعون فيها عن الحزب الذي يعتنقون مبادئه؟ ولِمَ تعبد دولةٌ آلهةً دون سواهم لا يستطيعون مساعدتها؟ وأخيرًا مهما يكن أمر هؤلاء الآلهة في مرورهم وهروبهم وهجرتهم وانهزامهم من معسكر إلى معسكر، فمن الأكيد الثابت أنّ اسم المسيح لم يكن بعد قد تردّد صداه آنذاك في المناطق، حيث خربت الممالك، وتدمّرت، لأنّه عندما تزول مملكة الأشوريّين بعد ألفٍ ومئتي سنة ونيّف، إذ لو أنّ الدين المسيحيّ قد بشّر منذ ذلك الحين بالملكوت الأبديّ وشجب هياكل النجاسة، ماذا كان قد قال رجال الكذب إلّا هذا القول: إنّ المملكة الصامدة منذ زمن طويل لا تستطيع أن تتّهم بخرابها سوى آلهتها الخونة الذين يُضحّى بهم في سبيل ديانة جديدة. إنّ بطلان تلك الهتافات المرتفعة منذ ذلك الحين هو بمثابة مرآة لأعدائنا، يرون فيها أنّ تذمّراتهم لا تجدي نفعًا حتّى إن بقي فيهم شيء من الحياء. فعار عليهم أن يتذمّروا. ماذا أقول؟ إنّ روما هي حزينة ولم تُدمَّر وهي تمرّ بامتحانٍ عرفت مثيلًا له في تلك الأزمنة قبل مجيء المسيح وخرجت منه سالمة؛ وهل تستسلم اليوم إلى اليأس من النهوض، مجدّدًا؟ مَن يدري إن لم تكن تلك مشيئة الله؟

٨

عفوًا! لنبحث بين الآلهة الذين يعبدهم الرومان عن الآلهة أو

الإله الذين تدين لهم أو له المملكة الرومانيّة بعظمتها وديمومتها، إذ إنّنا لا نستطيع في عمل مجيدٍ وسام كالذي سبق الحديث عنه أن نعيّن دورًا للإلهة كُلُوَاتْشِينا (Cloacina) ولا للإلهة فُولُوبِيا (Volupia) التي تقترض اسمها من اللذّة (Volupté) ولا للإلهة لِيبَنْتِينا (Libentina) المأخوذ اسمها من لفظة الخلاعة ولا للإله فاتيكانوس (Vaticanus) الذي يُشرف على صراخ الأطفال الحديثي الولادة ولا للإلهة كُونِينا (Cunina) التي تحرس أسرّتهم. هل نستطيع أن نذكّر بمطلع قصير من هذا الكتاب بكلّ أسماء الآلهة والإلاهات التي لا تتّسع لها المجلّدات الكبرى حيث يُحكى عن كلّ مهمّة إلهيّة تلبّي كلّ حاجة في الحياة البشريّة؟ لا أحد رأى أنّه يجب عليه أن يعهد برعاية الحقول إلى إله واحد؛ عُهِد بالسهل إلى رُوزِينا (Rusina) وبقمم الجبال إلى جُوغاتِينُوس (Jugatinus) وبالرابيّة إلى كُولّاتينا (Collatina) وبالوادي إلى فالّونِيا (Vallonia). وهل يمكننا أن نكل إلى سِجِتْيا (Ségétia) وحدها أمر الاهتمام بالحصاد؟ الزروع في الأرض موكول أمرها إلى السِيَّا (Séia) وإلى سجتيا القمح النابت وإلى تِيتُولِينا (Titulina) نهاية الحصاد والحِزَم التي تتطلّب رعاية وسهرًا؛ وهل يمكن أن تمتدّ رعاية الإلهة سجتيا منذ أن ينبت القمح حتّى نضوج السنبلة؟ وهذه المجموعة من الآلهة غير كافية لعبّادها المساكين ولهذه النفس البشريّة التي تأبى أن تعانق الإله الحقّ الواحد عناقًا طاهرًا، فترتمي في فجورها مع طغمة الأبالسة! ها هي بُرُوزِرِبِين (Proserpine) تشرف على حزم القمح؛ لعِقَد القصلة إله يُدعى لُودُوتُوس (Lodotus) ولغلاف السنبلة إلهة تُدعى فُولُوتِينا (Volutina) ولنهايتها باتُولانا وعندما

تبرز شعيرات السنبلة لها إلهة تُدعى هُوستِيلِينا وعندما تزهر فْلُورا (Flora) وإله لاكْتُورنُوس عندما تبيضّ وإلهة تُدعى ماتُوتا (Matuta) عند النضج وعندما تُقطع من الأرض يُعهد بها إلى الإلهة رُونْسِينا (Ronsina) أتوقّف عن الكلام تعِبًا قبل أن يخجلوا. وحسبنا في هذا الكلام الوجيز أن نبيّن أنّه من الحماقة التأكيد أنّ المملكة الرومانيّة تدين بقيامها وازدهارها وديمومتها إلى آلهة وُجِدوا، قيامًا بوظائف تفصيليّة، بحيث لا يمكن أن يُعهد إلى واحد منهم بجميع تفاصيل وظيفة. وهل يحقّ للإلاهة سجتيا أن تتدخّل في شؤون المملكة طالما يُحرَّم عليها أن تُعنى معًا بشؤون الاقتصاد والأشجار؟ هل تفكّر تونينا بالسلاح ووظائفها مقصورة على سرير الأطفال دون سواه؟ وأي عونٍ يمكن أن يقدّمه الإله لودوتوس في المعارك وسلطانه محصور في عِقَد القصلة ولا يمكن أن يصل إلى السنبلة؟ حسب الإنسان أن يُقيم بوّابًا لبيته؛ إنّه رجل. أمّا المهمّة ذاتها فيلزمها على الأقلّ ثلاثة آلهة. على الباب فُورْكُولُوس (Forculus) وعلى المفاصل كارْدِيا (Cardea) وعلى العتبة لِيمَنتِينُوس (Limentinus). وهل يستطيع فوركولوس أن يحرس معًا الباب والعتبة والمفاصل؟

٩

وظيفة الآلهة الكبار

فيما نترك، لبعض الوقت، على الأقلّ، تلك المجموعة من الآلهة الصغار علينا أن نعمل على معرفة وظيفة أولئك الآلهة الكبار الذين تدين لهم روما بعظمتها وسيطرتها طويلًا على عدّة

شعوب. ذاك ولا شكّ هو عمل جوبيتر الذي جعلوه إله الآلهة والألاهات؛ ويشدّ بذلك صولجانه، وهذا الكابيتول المبنيّ على رابية عالية؛ وله تلك العبارة، المشهورة بصوابها، وإن تكن صادرة عن أحد الشعراء: «كلّ شيء طافح بجوبيتر» (فرجيل، أنييد ٣: ١٤) هو الذي يعتبره فرّون مكرّمًا تحت اسم آخر من قبل الذين لا يعبدون سوى الإله الواحد، الذي لا صورة له. إن كان الأمر هكذا فكيف تعامله رومابهذا الشكل السيّئ كما في أيّ مكان فتصنع له تمثالًا؟ لا يرضى فرّون بهذا وإن سلّم بالعادة الوثنيّة التي تجرّ وراءها المدينة الكبيرة؛ على أنّه لا يخشى أن يقول إنّ الأوّلين الذين قدّموا تماثيل لكي يعبدها الشعب ألغوا الخوف ودشّنوا الضلال.

١٠

ولِمَ أُعطيَ جوبيتر امرأةً الإلهةَ جُونُن (junon) وهي في الوقت عينه أختٌ له زوجة؟ ويقال إنّ جوبيتر يسكن الأثير وجونن الهواء؛ ومن هذين العنصرين المتّحدين أحدهما أعلى والآخر أدنى. ولم يعد هنا الإله الذي قيل فيه: «الكلّ مليء بجوبيتر». إن ملأت منه جونن جزءًا فهل يملأ كلاهما هذين العنصرين وأنّهما معًا في كلّ منهما؟ وتاليًا، لِمَ يُخَصُّ الأثير بجوبيتر والهواء بجونن؟ وإذا كانا كافيين، فلِمَ البحر لنبتون والأرض لبلوتن؟ ماذا أقول؟ خوفًا من أن يبقيا دون رفيقتين ضُمّت سَلاسِيا إلى نبتون وبُروزُربين إلى بلوتن؛ ويقال أيضًا كما أنّ جونن تقيم في المنطقة السفلى من السماء أو الهواء فإنّ سلاسيا تسكن المنطقة السفلى من البحر

وبروزربين المنطقة السفلى من الأرض، وعلى هذا النحو فإنّهم يسعون عبثًا إلى أن يخيطوا أساطيرهم؛ لأنّه لو كان الأمر هكذا لما تكلّم حكماؤهم الأقدمون عن أربعة عناصر، بل عن ثلاثة للتوفيق بين الأزواج والعناصر. وبالعكس فإنّهم يؤكّدون بأنّ الأثير يختلف كلّيًا عن الهواء؛ أمّا المياه أكانت فوق أم تحت فهي دومًا مياه. أيًا يكن الاختلاف الذي أوافق عليه فهل تبطل أن تكون مياهًا؟ وبالرغم من كلّ التنوّعات التي يتخيّلها البشر، فهل يمكن أن تكون الأرض السفلى شيئًا آخر؟ ثمّ أين تكون مينرفا إذا كانت هذه العناصر الثلاثة أو الأربعة هي الكون؟ وأين تقيم؟ أيّ محلٍّ تملأه؟ لقد وضعوها في الكابيتول مع هذين الإلهين وإن لم تكن مولودة لهما. إن أعطيت مركزًا لها الجزء الأعلى في الأثير فكيف اخترع الشعراء لها أسطورة الولادة من دماغ جوبيتر؟ ولِمَ لا تكون ملكة الآلهة ما دامت أسمى من جوبيتر؟ أليس الأفضل تقديم الابنة على الوالد؟ ولماذا لم تراعَ هذه العدالة بين جوبيتر وساتورن؟ ألأنّ ساتورن كان مهزومًا؟ وهل تقاتلا؟ حاشا لهم ذلك! وقد يهتف آخر قائلًا: تلك كذبة أسطوريّة. أجل: نتوقّف عن الاعتقاد بالأساطير ونحسن الظنّ بالآلهة؛ لِمَ لا نرفع والد جوبيتر إلى مركزٍ أقلّه مساوٍ، إن لم يكن أعلى؟ يقولون إنّ ساتُورْن يعتبر نفسه على مدى الزمن فيصبح عبّاده تاليًا على مدى الزمن وهذا يعني أنّ ملك الآلهة جوبيتر مولود الزمن. وهل يحطُّ من قدر جوبيتر وجونن القول إنّهما وُلِدا في الزمن؟ وفي الواقع فإن كان أحدهما السماء والآخر الأرض فالسماء والأرض كوّنتا في الزمن وذاك ما يقوله العلماء والحكماء في كتبهم، ولا يستند فيرجيل إلى خزعبلات الشعراء

بل إلى تعاليم الفلاسفة حين يقول: «حينذاك فإنّ الأب القديم، الأثير، نزل إلى حشا زوجته وأفرحها بأمطار خصبة» (فرجيل، **كتاب الجيورجيّات** ٢: ٣٢٥) يعني ذلك حشا تِلُّوس (Tellus) أو الأرض، وهنا أيضًا يريدون أن يروا فرقًا ما؛ يعتقدون بأنّ الأرض شيء وتِلّوس شيء آخر، كذلك تِلُّومُو (Tellumo) شيء آخر؛ ولكلّ من هؤلاء اسمه الخاصّ ووظائفه المتميّزة عن سواها وطقسه ومذابحه الخاصّة؛ يُطلقون أيضًا على الأرض اسم والدة الآلهة وتصبح خزعبلات الشعراء أكثر قبولًا إذا كانت جونن، بحسب تقارير الطقوس الوثنيّة في الوقت عينه، زوجةً وأختًا وأمًا لجوبيتر، كما يريدون أن تكون الأرض سِرِس (Cérès) وأن تكون فِسْتا (Vesta) وإن لم تكن فستا عادةً سوى نار المنازل التي لا تستطيع مدينة أن تستغني عنها. يُكَرّس لخدمتها عذارى لأنّ العذراء والنار هما على السواء عقيمتان: إنّها لأضغاث أحلامٍ باطلة قد ألغاها وأطفأها ذاك الذي وُلِد من عذراء. مَن ذا الذي يقبل بانتساب الطهارة المجيدة إلى النار ولا يخجل من الخلط أحيانًا بين فستا وفنوس، حتّى إذا تشرّفت العذريّة في خادماتها أصبحت خداعًا وحسب؟ وفي الواقع إن كانت فستا فنوس وحسبُ، فهل تستطيع عذارى أن يخدمنه شرعًا ويحافظن على عفافهنّ؟ وهل هناك اثنتان باسم فنوس إحداهما عذراء والأخرى امرأة؟ أو بالأحرى ثلاث: فنوس العذارى أو فستا وفنوس النساء وفنوس البغايا التي كان الفينيقيّون يقدّمون إليها ثمن افتضاحهنّ قبل الزواج؟ أيّة هي من الثلاث زوجة فُولَكاين؟ بالطبع ليست العذراء لأنّ لها رجلًا؛ وحاشا أن نفكّر في البغيّة وهي إهانة لابن جوبيتر مساعد مينرفا! إذن، إنّها فنوس النساء؛ ولكن على

هؤلاء ألّا يقتدين بها في علاقاتها بالإله مارس؛ ويقولون إنّه لأمر يعود أيضًا إلى الأسطورة! وهل من العدل أن يقوموا علينا عندما نتكلّم بهذا الشكل عن الآلهة ولا يثورون على ذواتهم عندما يحضرون بطيبة خاطر تمثيليّات جرائمهم المسرحيّة؟ وممّا لا يُصدَّق، لولا البرهان الأكيد، أن تقام التمثيليّات تكريمًا لهم.

١١

وعليه فمهما قدّموا من أسباب طبيعيّة ومهما طاب لهم أن يقدّموا من حجج تقول عن جوبيتر تارة إنّه روح الكون الذي يملأ هذه الآلة الرحبة المركّبة من أربعة عناصر ويحرّكها، أو إن طاب لهم أن يقولوا من عدد أكبر، ثمّ يعيّن لكلّ من إخوته وأخواته حصّته؛ وطورًا أن يكون الأثير ويتسلّط على جونن أو الهواء الأسفل؛ ثمّ أن يكون السماء بأسرها والهواء أيضًا فيخصب الأرض بأمطاره وزروعه وهي زوجته وأمّه، وليس من عار يلحق بنظام الإلهيّات من جرّاء هذا القول؛ ولئلّا نسافر في الطبيعة بأسرها ليكن أخيرًا ذاك الإله الأوحد على حدّ رأي الكثيرين الذي قال فيه شاعر كبير «الله هو في كلّ الأراضي، في كلّ البحار وفي أعماق السماوات» (فرجيل): في الأثير جوبيتر وفي الهواء جونن وفي الأرض بلوتن وفي عمق الأرض برزربين وفي المنازل فستا وفي كور الحدّادين فُولكاين وفي السماوات الشمس والقمر والكواكب وفي التنبّوات أبولون وفي التجارة مِركُور؛ في البداية جانُوس وفي النهاية تِرميناتُور؛ ساتورن في الزمن ومارس وبِلُّلون في الحرب؛ لِيبِر في ثمار الكرمة وسِيرِيس في الحصاد؛

دِيانا في الغابات ومينرفا في الفنون؛ لتكن كذلك هذه الطغمة من الآلهة الشعبيّين لترئس الطاقات الإنجابيّة عند الرجال؛ ليكن باسم الإلهة لِيبرا عند النساء ودِيسَبِيتِر الذي يضع حدًّا للولادة أو الإلهة مِينا التي ترعى الحيض عند النساء أو لُوسِينا شفيعة النساء عند ولادتهن؛ وتحت اسم أُوبيس يغيث المولودين الجدد ويستقبلهم في حشا الأرض، وإذ يفتح أفواههم للصراخ يتّخذ اسم فاتِيكانُوس وعندما يرفعهم من الأرض يأخذ اسم لُوفانا وفي حراسة أسرّتهم يسمّى كُونِينا ولا أحد سواه يعرف مسبقًا مصيرهم؛ وبواسطة الإلاهات يحدّد حظوظهم، وسمّي إله الحظّ؛ الإلهة رُومِينا تقدّم الثدي للأطفال والإلهة پوثينا تقدّم الشراب وأَدُوكا الغذاء؛ وإلهة الرعب بافَنِيا وللرجاء الآتي فانِيلِيا وللذّة فُولُوبيا وللعمل أجينُوريا ولكلّ ما يحفز الإنسان حتّى الغلو سْتِيمُولا ولما يوحي بالجرأة سْتَرانيا ونُومِرْيا تعلّم الحساب والغناء تعلّمه كامِينا والإله الذي يعطي النصائح يسمّى كُونْسُوس والإلهة سِنتِيا مختصّة بالعواطف؛ وجُوفَنْتاس في سبيل الانتقال من عمر الحداثة وفُورْتُون الملتحية تكسو بالوبر ذقن البالغين؛ ذاك إله ذكر وملتح، كان من الأفضل أن يسمّى فُورتُونِيوس أو ملتح بَرباتُوس بسبب لحيته كما نسمّي نُودُوتُوس بسبب عقد القصلة، وكما هي حال الإله جُوغاتِينُوس الذي يجمع بين الأزواج؛ وعندما تحلّ الزوجة الفتيّة زنّارها يدعون الإلهة العذراء؛ أن يكون الإله مُوتُونُوس أو تُوتُونُوس هو ذاته بَريابُوس عند الإغريق؛ وإن كان يستحي من ذلك فليكن كلّ ما قلته وكلّ ما لم أقله لأنّي لم أقرّر أن أقول كلّ شيء؛ وليكن وحده كلّ هؤلاء الآلهة والإلهات؛ أو بحسب فئة من الناس لتكن الآلهة

أعضاء له أو قدرات وفقًا لشعور الذين يعتبرونه بمثابة روح الكون وهو الشعور الأكثر رواجًا لدى العلماء الوثنيّين؛ ليكن لهم ما يريدون وأنا لست أبحث عن الحقيقة في كلّ ذلك بل ما يخسرون لو اختصروا بتعقّل كلّ تلك الطقوس الإلهيّة في عبادة الإله الواحد؟ وفي الواقع ماذا يحتقرون فيه إن عبدوه بكليته؟ وهل يخشون أن تغضب أقسام من لاهوته إن أهمل إكرامها أو صرف النظر عنها وليس أحقّ من أن يكون الحياة الشاملة، روح الكون، أعضاءه أقسامه وقوّاته؟؛ ولكن يجب أن يكون لكلّ قسم حياته الخاصّة متميّزة عن حياة الآخرين، إن استطاع قسم أن يغضب، والآخر أن يستكين؟ وهل يزعم أحدهم أنّ الأقسام مجتمعة، أي كلّ جوبيتر يغضب إذا لم تكن العبادة مؤمَّنة لكلّ قسم بمفرده؟ إنّها لسخافة؛ إذ لا يمكن إهمال قسم إن تكرّم ذاك الذي يجمع الكلّ فيه. وتجنّبًا للدخول في تفاصيل لا تعدُّ ولا تحصى، إذا قلنا عن الكواكب إنّها أجزاء لجوبيتر وأنّها تحيى ولها نفوس عاقلة، وعلى هذا النحو إنّها آلهة دون منازع، فلسنا ندري كم يجب على الإنسان أن يعبد منها، وكم ينقصها من هياكل ومذابح، ما دام العدد القليل منها ينال العبادة والذبائح الخصوصيّة؟ إن اغتاظ الآلهة لعدم تقديم الإكرام اللازم لهم ألا يخاف الإنسان من أن يعيش تحت غضب السماء إذا حصر إكرام الآلهة ببعضهم من دون الكلّ؟ إذا كرّم الإنسان الكواكب كلّها بتكريمه جوبيتر الذي يستوعبها فلِمَ لا يشمل كذلك في هذه العبادة عبادات أخرى متنوّعة؟ إذ ذاك لا يحقّ لأحد أن يتشكّى ما دام الجميع يكرّمون في جوبيتر وحده؛ ولا مجال لاحتقار أحد؛ على أنّ تلك التكريمات المحصورة ببعض الآلهة تعطي

العدد الأكبر منهم الحقّ بأن يغضبوا، وبخاصّة لأنّهم يرون أنفسهم في مقام عالٍ وعظيم، فيفضّل عليهم بُرِيابُوس (Priapus) القبيح المنظر عارضًا عريه الفاجر.

١٢

دحض مزاعم القائلين بأن الكون جزء من الله

ما هو الرأي الآخر؟ ألا يثير كلّ ذكيّ، أو بالأحرى أيّ إنسان كان؟ وفي الواقع هل من حاجة إلى عقل ثاقب؟ حسبُ الإنسان أن يتخلّى عن الجدل ليفهم أنّه إذا كان الله روح العالم والعالم جسد هذا الروح، وينتج عن ذلك حيوان مركّب من نفس وجسد، وأنّ هذا الإله قلب الطبيعة يحتوي الكلّ؛ ومن روحه المبدأ الحيّ لتلك الماكنة الرحبة تتفرّع في كلّ الكائنات الحيّة، وفقًا لأوضاع طبيعتها، الروح والحياة بحيث لا يبقى شيء إلّا وهو جزء من الله. وإن كان الأمر هكذا، فمَن ذا الذي لا يفهم نتيجة الكفر والإلحاد؟ إنّ ما تدوسه رجلك هو جزء من الله؛ وهذا الحيوان المذبوح هو جزء من الله الذي يُذبح؛ لا أريد أن أقول هنا كلّ ما يعرض له العقل لأنّه يستحيل عليّ أن أقوله دونما خجل.

١٣

سوف يقولون إنّ الحيوانات العاقلة، أي البشر مثلًا وحدها، جزء من الله. ومن ثمّ إن كان العالم بأسره هو الله فلست أرى ما يدعو إلى إخراج الحيوانات البكم من بين أجزائه. ولكن هل من

حاجة إلى الرفض؟ أريد أن يكون الإنسان وحده الحيوان العاقل جزءًا من الله؛ فيا له من رأي تعيس! ماذا؟ هل يضرب جزءًا من الله مَن يضرب ولدًا؟ وهل هي أجزاء من الله تلك التي تصبح أثيمة، ضالّة، فاسدة وبغيضة؟ القبول بتلك الأمور المستهجنة يفرض نوعًا من الهذيان! ومن ثمّ فلِمَ يغضب هذا الإله على مَن لا يعبده؟ فليست سوى أجزاء منه تلك التي لا تعبده. شيء واحد يجب أن يقال وهو أنّ للآلهة حياتهم الخاصّة وكلّ منهم يعيش لنفسه ولا أحد بينهم يكون جزءًا من آخر؛ يجب أن يقدّم الإكرام لجميع الذين نستطيع أن نعرفهم ونخدمهم لأنّ معرفة الكلّ أمر مستحيل. وبما أن جوبيتر هو مليكهم، أظنّ أنّ إنشاء الإمبراطوريّة الرومانيّة وازدهارها أمر منوط به، حتّى إذا لم تكن له يد فيها، فإلى أيّ من الآلهة الآخرين نعزو مجد ذلك الإنجاز العظيم، ولكلّ منهم مهمّته الخاصّة منعًا من أن يتدخّل الواحد بشؤون الآخر؟ وعليه فملك الآلهة وحده يؤسّس مملكة البشر وينشرها في الأرض.

١٤

بيد أنّي أسأل: لِمَ لا تكون الإمبراطوريّة إلهًا؟ ولِمَ لا، إن كان النصر إلهًا؟ ولِمَ الحاجة إلى جوبيتر هنا إن كان النصر بجانبنا ويسير دومًا أمام الذين يريد أن ينصرهم؟ تحت رعاية إله النصر وبالرغم من انشغالات جوبيتر ولامبالاته، هل تستطيع الدول أن تتهرّب من نيره؟ وهل من ممالك تستطيع أن تقاومه؟ قد يأنف رجال الخير من أن يروا سيف الظلم ينقضّ فجأة على جيران آمنين ومسالمين، بسطًا

لسلطانه؛ إنّي أؤيّد تلك المواقف وأشيد بها.

١٥

ولكنّي أسأل هل يليق برجال الخير أن يُسرّوا بازدهار مملكتهم الذي يتحقّق من خلال الظلم الذي يمارسه الجيران عليها فيولّد حروبًا عادلة؟ وقد تبقى الدولة ضعيفة إذا التزم جيرانها العدل والسلام وما تركوا مجالًا لها لكي تثأر منهم بقوّة السلاح؛ وقد يكون البشر في حياتهم سعداء لو تجاورت دولهم ولم تكن مزدهرة، وكان في العالم عدّة ممالك كما في المدينة الواحدة عدّة عائلات. وعلى هذا النحو فإنّ تقاتل الأمم وتسلّط الواحدة على الأخرى والتوسّع على حساب الآخر، بنظر الأشرار، سعادة؛ أمّا في نظر الصالحين فهو حاجة أليمة؛ ويزداد الألم عندما يصبح الظالمون أسيادًا على المظلومين؛ ويحقّ للإنسان أن يسمّي النصر العادل سعادةً؛ بيد أنّه لا شكّ في أنّ الهناء في الحياة، إلى جانب جار صالح، أفضل من سعادةٍ تنتج من تحطيم سيف جار شرّير. إذا تمنّى الإنسان أن يكون له مَن يبغضه أو يخافه تحقيقًا للنصر المبتغى، فتلك لعمري رغبة أثيمة. إذا لم يستطع الرومان أن يوسّعوا إمبراطوريّتهم إلّا بالحروب العادلة بعيدًا عن فتوحات توقع الظلمة بالعدوّ، أما حُقّ لهم أيضًا أن يسمّوا ظلم الأجانب لهم إلهةً أيضًا لأنّها ساهمت بقوّة في صنع العظمة الرومانيّة عندما أوحت إلى الغرباء بأن يُعادوا الآخرين زورًا وبهتانًا فأعطوا روما حقّ القيام بحربٍ عادلة أفادت منها لتثبيت سلطتهم. ولِمَ لا يُعتبر الظلم إلهًا أقلّه بالنسبة إلى الغرباء

ما دام الرعب واصفرار الوجه والحمى حقًّا لها أن تصنّف بين الآلهة الرومانيّة؟ بواسطة الظلم الخارجيّ والنصر الذي تسبّب أحدهما بالحرب والآخر بنهاية سعيدة للحرب استطاعت الإمبراطوريّة الرومانيّة أن تكبر وتتّسع من دون أن تعكّر صفو خاطر الإله جوبيتير. وفي الواقع ما هو دوره، عندما تسمّى الخيرات المنسوبة إليه، آلهةً جديرة بالتكريم وإليهم ترفع الأدعية لأنّهم قادرون؟ قد يكون له فضل واحد إن سمّي إمبراطوريّة كما يسمّى الإله الآخر نصرًا؛ أمّا إن كانت الإمبراطوريّة هبة من جوبيتير فلِمَ لا يُنسب النصر إليه أيضًا؟ ولن يكون الأمر بخلاف ذلك إن استعاضوا عن حجر في الكابيتول بالتعرّف إلى مَن هو حقًّا «ملك الملوك وربّ الأرباب».

١٦

ولكن لا أتعجّب بما فيه الكفاية حين أُعطي كلّ شيء وكلّ حركة إلهةً معيّنةً فأدعو الإلهة التي تدفعنا إلى العمل أَجِينُورِيا (Agenoria) والتي تحفزنا إلى المزيد من النشاط سْتِيمُولا (Stimula). أمّا التي تدفعنا إلى الخمول التامّ فتُسمّى مُورْسِيا (Murcia) وتجعل الإنسان رخوًا وجبانًا على حدّ قول بُونْبُونيُوس (Pomponius)، والإلهة التي توحي بالقرار والحزم تُسمّى سْتْرِينِيا (Strenia) ويُقيم الرومان لهؤلاء الآلهة عبادةً عموميّة ويُغفلون الإكرام لإلهة الراحة كُوِيِّيس (Quies) ويبقى هيكلها خارج بوّابة كُولين (Colline) ويرفضون قبولها داخل أسوار مدينة روما. فهل يشهد هذا الموقف على عقلٍ لهم مضطرب، وقلق، أم إنّه برهانٌ

واضح على أنّ مَن يستمرّ في عبادة تلك المجموعة من الآلهة بل من الشياطين لا يمكنه أن يجد الراحة التي يَدعُونا إليها الطبيب الحقيقيّ القائل لنا: «تعلّموا منّي فإنّي وديع ومتواضع، فتجدوا راحةً لنفوسكم». (متّى ١١/٢٩)

١٧

هل يقولون إنّ جوبيتير يُرسل إلهة النصر فتطيعه كما لملك الآلهة وتنعطف إلى مَن يُعيّنهم لها فتنضمّ إلى صفوفهم؟ بوسعه أن يقول حقًّا عن نفسه لا عن جوبيتير هذا الذي أقاموه بطلًا سيّدًا على الآلهة، بل عن سيّد الأجيال الحقيقيّ الذي يرسل لا ذاك النصر الذي لا حياة فيه بل يرسل ملاكه والذي يجعله ينتصر على كلّ مَن شاء وأراد هو الذي يمكن أن تكون مشوراته خفيّةً، ولكن صحيحة. إن كانت الغلبة إلهة فلِمَ لا يجعل من النصر إلهًا ويعطيها إياه زوجًا لها أو أبًا أو ابنًا؟ إنّ آراءهم في الآلهة هي على هذا الشكل، حتّى إذا ما عرض الشعراء أمام سخريتنا أضغاث أحلام تشبه الخزعبلات المضحكة، هتفوا جميعًا يا لها من أضغاث أحلام لا يجوز أن تنسب إلى الآلهة الحقيقيّين؟ ومع ذلك فما سخروا من أنفسهم عندما لم يكتفوا بقراءة تلك الأشياء غير المعقولة في كتب الشعراء بل راحوا يعبدونها في الهياكل. كان عليهم أن يسألوا جوبيتر كلّ شيء؛ وأن يوجّهوا إليه وحده صلواتهم. إن كان الإله، النصر خاضعًا له أرسله حيث يشاء لأنّه لا يجسر أن يخالف إرادته.

١٨

أليست السعادة هي أيضًا إلهة؟ على اسمها بنوا هيكلًا ولها أقاموا مذبحًا وقدّموا إكرامًا خاصًا: أما حُقَّ لها إكرامٌ خاصّ بها وحدها، لأنّها حيثما وُجِدتْ وُجد كلّ خير؟ لكن الناس يعبدون الحظّ كإله؛ وهل هذا صحيح؟ وهل تختلف السعادة عن الحظّ؟ صحيح أنّ الحظّ يمكن أن يكون عاطلًا، غير أنّ السعادة لا يمكنها إلّا أن تكون سعادة وإلّا انتفت قيمتها. هل يستطيع الإنسان أن يعتقد وجود آلهة غير صالحين من بين كلّ آلهة هذا الجنس أو ذاك، إن افترضنا أن لهم جنسًا؟ لا يسمح أفلاطون بذلك ولا أيّ من الفلاسفة أو الحكماء الذين حكموا الشعوب. وعليه فكيف تكون الإلهة الحظّ تارة صالحة، وطورًا شرّيرة؟ إذا كانت شرّيرة فهل تبطل أن تكون إلهة وتتحوّل فجأة إلى شيطان رجيم؟ وكم يجب علينا أن نحصي من الإلهات المثيلات لها؟ يقاس ولا شكّ عدد الناس المحظوظين بعدد الحظوظ الطيّبة؛ ومن جهة أخرى، فمن بينهم عدد كبير يشكو سوء الحظّ الذي وحده قد يكون في الوقت عينه سيّئًا وصالحًا، معاكسًا لهؤلاء ومتجاوبًا مع أولئك؛ بيد أنّ الإلهة الحقيقيّة أليست دومًا صالحة؟ وتاليًا فهي ذاتها السعادة. ولِمَ كثرة الأسماء؟ أجل؛ قد يحمل شيء واحد أسماء مختلفة. لِمَ عدّة معابد وهياكل وطقوس مختلفة؟ فيجيبون بأنّ السعادة هي الإلهة التي تتجاوب مع استحقاقات الناس الفضلاء، في حين يصل الحظّ السعيد، صدفة، من دون النظر إلى ما يتمتّع به الناس من فضل، سواء أكانوا صالحين أم أشرارًا؟ وكيف إذًا يكون صالحًا إن وزّع نِعَمه

من دون تمييز بين الخير والشرّ؟ ولماذا يكرّم في عماه ما دام لا يتوقّف عند مَن يعبده ويتعلّق بمَن يحتقره؟ إن كان خدّامه لا يحظون منه بلفتة كريمة فهذا ينفي كلّ صدفة، ويؤكّد اختيارًا حرًّا ومدروسًا. وعليه فأيّ تحديد نطلق على لفظة «حظّ»؟ وفي الواقع، لِمَ نخدمه ما دام هو صدفة؟ وإن حسُنتْ خدمته لأنّه يميّز خادمه عن سواه، بطل أن يكون حظًّا. وهل يبعث به جوبيتر حيث يشاء؟ إن كان الأمر هكذا، أصبح جوبيتر، المعبود الوحيد المتمتّع بهذا السلطان، يرسل الحظّ حيث شاء؛ والحظّ ينصاع لأوامره أو على الأقلّ يكون إله الأشرار الذين لا يعتمدون أيّ استحقاق لينالوا حظوة السعادة.

١٩

ذاك هو رأيهم في تلك الإلهة المزعومة المسمّاة الحظّ (Fortune) حتّى إنّهم يعتقدون، استنادًا إلى تقليد مرعيّ بدقّة، بأنّ تمثالها الذي كرّسته النساء وسمّينه الحظّ النسائيّ قد تكلّم مرارًا مردّدًا قبوله بهذا التكريم الذي ترفعه إليه النساء. إن كان هذا صحيحًا، فهل هناك ما يدعو إلى العجب؟ وهل يصعب على الأرواح الخبيثة أن تغري الناس إلى هذا الحدّ؟ وإنّ ما يكشف عن خبثهم وفجورهم تلك الكلمات الصادرة عن الإلهة العمياء، لا تلك التي تميّز بين استحقاقات الناس لأنّ الحظّ يحكي والسعادة تلتزم الصمت، لكي يهمل الناس أن يحيوا حياة صالحة ما دام الحظّ يضمن لهم السعادة ولا يحسب للفضيلة حسابًا. وفي الحقيقة إن حكى الحظّ فلِمَ لا يكون حظّ الرجل، لا حظّ

المرأة؟ ربّما يقولون: معجزة اخترعتها النساء ونسبنها إلى ذلك التمثال، ثرثرة نساء وحسب.

٢٠

إنّهم يصنعون أيضًا من الفضيلة إلهة؛ وإن كانت هكذا فلِمَ لا يفضّلونها على سواها؟ أمّا إن لم تكن إلهة بل هبة من الله فلنطلبها ممَّن يستطيع وحده أن يعطيها، إذ ذاك تتلاشى تلك الكثرة من الآلهة. ولكن، لِمَ يُعتبر الإيمان إلهًا؟ ولِمَ بَنَوْا له هيكلًا ومذبحًا؟ ومَن استطاع أن يتعرّف إليه يصبح مسكنه المقدّس. مَن ذا الذي علّمهم الإيمان الذي يكون واجبه الأوّل والأسمى أن يعلّم الناس الإيمان بالإله الحقيقيّ؟ لِمَ لا يكتفون بالفضيلة؟ أليس الإيمان رفيقًا لها؟ ألم يقسموا هم أنفسهم الفضيلة إلى فطنة وبرّ وقوّة وقناعة؟ ثمّ تنقسم تلك الفضائل هي أيضًا إلى فضائل خصوصيّة، فيكون الإيمان، مثلًا، جزءًا من البرّ لتكون له أهمّيّة كبرى وبخاصّة عندنا نحن الذين تعلّمنا أنّ «البارّ يحيا بالإيمان» (روم ١/ ١٧) لكنّي أعجب حقًّا من محبّي تلك الكثرة اللامحدودة من الآلهة حتّى إذا كان الإيمان إلهًا فلماذا أهانوا الآخرين بإغفال ذكرهم؛ وقد كان باستطاعتهم أن يقيموا لهم هياكل ومذابح؟ ولِمَ لم تحظَ القناعة باسم إلهة وقد حظي باسمها رومان كثيرون بمجد ثابت؟ ولِمَ لا تكون القوّة إلهةً أيضًا وهي التي عضدت مُوسِيُوس في وسط اللهيب وألقت كُورْسِيُوس في القعر، حبًّا للوطن، وألهمت دَاسِيُوس الأب والابن معًا أن يضحّيا بنفسيهما في سبيل خلاص الجيش؟ لكنّي لست أناقش الآن هل لهما حقًّا القدرة

على ذلك. لِمَ لا تعطى الفطنة والحكمة لقب شرف؟ وهل تكرم كلّها باسم فضيلة؟ إذ ذاك يستطيع الإنسان أن يعبد إلهًا واحدًا إن اعتقد بأنّ الآلهة ليسوا سوى أجزاء من ذاك الإله الأسمى؛ بيد أنّ الفضيلة تتضمّن الإيمان والعفّة وهما أهلٌ بالتكريم.

٢١

النعم الألهية ليست آلهة بل هبات

لم يصنع الحقّ أولئك الآلهة بل الباطل؛ إنّها هباتٌ إلهيّة وليست آلهة. ولكن إن حصل الإنسان على الفضيلة والسعادة فهل يظلّ بحاجة إلى شيء آخر؟ والإنسان الذي لا يكتفي بهما هل يجد ما يسدّ به حاجته؟ تتضمّن الفضيلة كلّ ما يجب على الإنسان أن يعمله، والسعادة كلّ ما يشتهيه. لو استنجد الإنسان بجوبيتر، حصولًا عليهما، واعتبر أنّ مساحة المملكة ودوامها متعلّقان بالسعادة، فكيف لا يرى أنّ الموضوع هو موضوع هبات إلهيّة، ولا موضوع إلهات؟ وإن اعتبرها إلهات فلِمَ يلجأ إلى ذلك العدد الكبير من الآلهة؟ وإن اعتبرهم الإنسان إلهات فلِمَ اللجوء أيضًا وأيضًا إلى هذا العدد الكبير من الآلهة؟ حتّى إذا تفحصّنا، بدقّة، مهمّات جميع أولئك الآلهة وفق ما تصوّرتهم مخيّلات الناس، نطلب إليهم أن يَدلُّونا على خيرٍ واحد صنعه إله ما، مع إنسان فاضل أو سعيد؟ ماذا يطلب من مركور أو مينرفا أن تعرفه عندما تحتوي الفضيلة كلّ شيء فيها؟ ألم يحدّدها الأقدمون بأنّها فنّ العيش الحسن، العيش وفقًا لما يتطلّبه العقل؟ وهذا ما جعلهم يصدّقون اللفظة اللاتينيّة آرْس (Ars) المشتقّة من

اليونانيّة أريتي (arete)، أي فضيلة، حتّى إذا كانت الفضيلة غير منفصلة عن سائر الطاقات الفكريّة فأيّة حاجة بنا إلى كاسِيُوس، ذاك الإله العجوز الذي يجعل الناس أذكياء جدًّا؟ لربّما كان ذلك هبة من السعادة لأنّ السعادة هي في أصل الولادة الروحيّة؛ وإذا لم يستطع الطفل قبل ولادته أن يحظى بعطف السعادة فهل لها أن ترفض توسّلات الأهل لكي تمنح أبناءهم الذكاء؟ وما حاجة امرأة أصبحت أُمًّا إلى الاستغاثة بلُوسينا عندما تضمن لها السعادةُ الخلاصَ، ولطفلها الذكاء؟ وما الحاجة إلى وضع الأطفال المولودين حديثًا تحت رعاية الإلهة أوبيس (Opis) وإلى الإلهة كُونينا (Cunina) الطفل في مهده وإلى الإلهة رومينا (Rumina) الرضيع من ثدي أمّه وإلى الإله إسْطاطولِينُس (Statulinus) مَن أصبح قادرًا على الوقوف؟ ولِمَ تدعى الإلهة أدِيونا (Adeona) الوصول والإلهة أَبِيونا (Abeona) الذهاب؟ وما الفائدة من التوجّه إلى الإلهة مانْسْ (Mens) حصولًا على روح طيّبة وإلى الإله فُولُمْنُس (Volumnus) والإلهة فُولُمْنا (Volumna) حصولًا على الإرادة الصالحة وإلى إله الأعراس حصولًا على هناء الزواجات وإلى آلهة الحقول حصولًا على وفرة الغلات وإلى مارس وبلّونه حصولًا على النجاح في الحروب وإلى الإلهة فكتُوار (Victoire) حصولًا على النصر وإلى الإله هُونُوريوس (Honorius) حصولًا على الشرف وإلى الإلهة پيكُونيا (Pecunia) حصولًا على المال وإلى الإله إسكولانُس (Aesculanus) وابنه أرجَنْتِينُس (Argentinus) حصولًا على المال من الفضّة والنحاس لأنّهم جعلوا أسكولانس والدًا للأرجنتينس لأنّ النحاس استعمل للمال قبل الفضّة. غير أنّي أعجب لأنّ أرجنتينس لم يلد أورينس

لكون الذهب أصبح رائجًا في ما بعد؛ ولو أنّ هذا الإله كان لفضّلوه على أبيه وعلى جدّه كما يفضّل جوبيتر على ساتورن. وهل كان من الضروريّ عبادة أولئك الآلهة واستشفاعهم حصولًا على خيور النفس والجسد أو الحظّ؟ إنّي لم أسمّ جميع الآلهة ولا الوثنيّون استطاعوا أن يحصروهم بالاسم والعدد وفقًا لما تقتضيه حاجات الحياة البشريّة. أليست الإلهة فرتونا مثلًا كافية للحصول على كلّ شيء؟ وهل من الضروريّ البحث عن إله آخر للحصول على الخير وتجنّب الشرّ؟ وهل من الضروريّ التوسّل إلى الإلهة فِسُّونا (Fessona) تجنّبًا للتعب وللإلهة پِلُونيا (Pellonia) صدًّا للأعداء؟ وإمّا كطبيب إلى أبولون أو إلى أسكولاب في حالات المرض أو كلاهما في حال الخطر؟ وهل من الضروريّ دعوة سْپِينَنْسِيسْ (Spinensis) اقتلاعًا للأشواك من الحقول والإلهة رُوبِيغو (Rubigo) إبعادًا لها عن الحصاد؟ أليس حضور إلاهة السعادة كافيًا منعًا لتلك الآفات وإزالتها؟ وأخيرًا ما دمنا نتكلّم عن هؤلاء الآلهة الإلهات وعليه، فإن كانت السعادة جزاء للفضيلة فليست إلاهة، بل هبة من الله حتّى إذا كانت إلاهة فلِمَ لا نقول إنّها تعطي الفضيلة ما دام الحصول على الفضيلة سعادة كبرى؟

٢٢

ما هي تلك الخدمة الكبيرة التي يفاخر فرّون بتقديمها إلى مواطنيه عندما يخبرهم عن الآلهة الواجب تكريمهم وعن مهمّة كلّ منهم قائلًا: «كما أنّ التعرّف إلى الطبيب بالاسم والنظر إليه لا ينفع شيئًا إذا لم يكن الإنسان يعرف ما هو الطبيب، كذلك

فمن النافل أن نعرف أنّ أسكولاب طبيب إن لم نعرف أنّه يشفي المرضى والسبب الذي من أجله نتوسّل إليه» (الأمور الإلهيّة والبشريّة القديمة). ويستعمل أيضًا تشبيهًا آخر دعمًا لرأيه قائلًا إنّه يستحيل على الإنسان أن يعيش براحة بل أن يحيى، إن لم يعرف ما هو الحدّاد والرسّام والخدمة التي يؤدّيانها لنا ومَن ذا الذي يجب علينا أن نختاره معلّمًا ومرشدًا ومربّيًا؟ ولا شكّ في أنّ معرفتنا بالآلهة ذات منفعة كبيرة لنا ولا سيّما إذا تثبّتنا من طاقات وقدرات كلّ واحد منهم. ويردف فرون قائلًا: «يسهل علينا إذ ذاك أن نعرف الآلهة الواجب اللجوء إليهم طلبًا لمساعدتهم في كلّ ما نحتاج إليه من دون الوقوع في ورطة أولئك المهرّجين الذين يسألون الإله ليبار ماء والحوريّات خمرًا». ذاك علم جليل ونافع! ومَن ذا الذي لا يشكر إنسانًا يدلّ الناس على الحقيقة ويعلّمهم عبادة الإله الواحد الحقّ، ينبوع كلّ الخيرات!.

٢٣

ولكن إذا صحّت كتب الوثنيّين واحتفالاتهم وكانت السعادة إلاهةً فكيف لا تُكرّم إكرامًا خاصًّا بها ما دامت وحدها قادرة على أن تمنح جميع الخيور وتجعل إنسانًا سعيدًا بشكل تامّ؟ ومَن ذا الذي لا يريد أن يكون سعيدًا؟ ولمَ تأخّر لوكُولُوس (Lucullus) بعد المشاهير الكثيرين الذين سبقوه عن التفكير في تشييد هيكل له؟ ولماذا لم يفكّر رومولوس الحريص على تأسيس مدينة سعيدة بأن يُقيم لها، قبل سواها، هياكل فيمتنع عن التوسّل إلى سائر الآلهة ما دام أنّه بمساعدة تلك الإلهة لم يكن بحاجة

إلى شيء آخر؟ لولا إنعاماته عليه لما أصبح كما يُظَنّ ملكًا، وتاليًا، إلهًا؛ ولِمَ يعطي رومولوس الرومان آلهة أمثال Janus, Jupiter, Mars, Picus, Faulus, Tiberinus, Hercule؟ ولماذا يضيف تِيتوس تاسِيوس إلى أولئك الآلهة ساتورن وأوبْس (Ops) الشمس والقمر وفولكاين والنور وسواهم وحتّى الإلهة كُلُواشينا (Cloacina) على حساب إلاهة السعادة؟ ولمَ نوما يدخل آلهة أخرى بدونها؟ ألم يعرف أن يميّزها من بين المجموعة؟ لو أنّ الملك هُوسْتليُوس (Hostilius) تعرّف إلى تلك الإلاهة وكرّمها لما كان فكّر بآلهة جدد كالخوف وشحوب الوجه. إذا حضرت السعادة هربت إلهتا الخوف والشحوب منهزمتين وما استقرّتا مطمئنّتين. لقد كانت الإمبراطوريّة الرومانيّة تمتدّ بسلطانها إلى البعيد وما كان أحد يفكّر في تكريم إلاهة السعادة وهل هذا يعني أنّ سعادتها كانت من دون عظمتها؟ وهل يمكن للسعادة الحقيقيّة في الواقع أن تكون حيث لا وجود للتقوى الحقيقيّة؟ التقوى هي العبادة الصحيحة للإله الحقّ وليست العبادة لتلك الطغمة من الآلهة الكذبة الذين ليسوا إلّا شياطين؛ وعندما أصبحت السعادة في عداد الآلهة نتج عن ذلك كارثة الحروب الداخليّة الكبرى وقد يكون السبب في ذلك غضب الإلاهة، السعادة، لكونها ضُمّت مؤخّرًا إلى أن تشاطر في العبادة بَريابُوس وكلواشينا والخوف وشحوب الوجه والحمّى التي ليست في النهاية آلهة تُعبَد بل جرائم لمَن يعبدونهم؟ وأخيرًا إذا ما ظنّ الناس أنّه يجب عليهم أن يكرّموا إلاهة بهذا القدر من العظمة، إلى جانب هذه المجموعة السافلة، فلمَ لا يقيمون لها مزيدًا من التكريم؟ مَن ذا يقبل بأن لا يكون لها مقام بين الآلهة المدعوّين إلى مجلس

جوبيتر، أو بين الآلهة الذين يسمّون منتخبين؟ أو لِمَ لمْ يكرَّس على اسمها هيكل ذو قيمة من حيث روعة الهندسة وجمال المركز؟ ولِمَ لم يُصنع لها أكثر ممّا لجوبيتر نفسه؟ ومن أين لجوبيتر القدرة إن لم يكن من إلاهة السعادة؟ هذا إذا كان سعيدًا في ملكه؟ أليست السعادة أفضل من القوّة؟ لا شكّ من أنّ كلّ إنسان يريد أن يكون سعيدًا في حين أنّ الإنسان الذي يطمح إلى أن يصير ملكًا يتوق إليه بخوف ورعدة. لنسأل الآلهة أنفسهم بواسطة علم الغيب أو بأيّة واسطة أخرى هل هم يريدون أن يتركوا المجال للسعادة حيث لا تسمح الأمكنة التي أُقيمت فوقها هياكل ومذابح لهم بأن يشاد لها بناءٌ أرحب وأرفع شأنًا؛ لربّما يتخلّى جوبيتر لها عن رابية الكابيتول، وفي الواقع مَن ذا الذي يقاوم السعادة سوى مَن أراد أن يكون شقيًّا؛ وذاك أمر مستحيل؟ كلّا، أطلبوا رأي جوبيتر في هذا الموضوع: لن يعمل كما عمل تجاهه مارْسْ، ترمينُوس وجُوفنَتاس الذين رفضوا أن يستسلموا لسلطانهم وملكهم؛ يخبر التقليد الوثنيّ أنّ تاركوينوس عندما أراد أن يبني الكابيتول، وقد رأى الآلهة الأجانب يحتلّون المقام الأفضل، تأرجح بين الخوف من القيام بشيء ما، رغمًا عنهم، والأمل في النزول عند إرادة معلّمهم وإلهِ هكذا عظيم، فراح يسأل أولئك الآلهة المقيمين حيث سيُقام الكابيتول هل هم يريدون التخلّي عن المكان لجوبيتر. إذ ذاك قبل الجميع بالانسحاب ما عدا الذين سمّيتهم: مارس، ترمينوس وجوفانتاس وظلّوا في الكابيتول تحت شعارات غامضة يكاد لا يدرك حضورهم أكثر الناس علمًا ومعرفة. وبالتأكيد ما كان جوبيتر ليحتقر إلاهة السعادة كما كان يحتقره ترمينوس ومارس وجوفانتاس. بيد أنّ هؤلاء أنفسهم

الذين صمدوا بوجه جوبيتر هل كان بإمكانهم أن يقاوموا إلاهة السعادة التي جعلت جوبيتر ملكًا عليهم؟ أوليست مقاومتهم علامة احتقار؟ لقد فضّلوا أن يظلّوا مجهولين في هيكل السعادة من أن يُرفعوا بدونها فوق هياكل خاصّة. وعلى هذا الشكل فإنّ السعادة المهيمنة من مكانٍ رحب ومرتفع تسمح للمواطنين بأن يرفعوا إليها أدعيةً مشروعة، وإذ ينقادون إلى صوت الطبيعة من جماعة الآلهة الذين لا نفع لهم فيعبدونها وحدها؛ وهي تستجيب أدعيتهم ويطرق هيكلها من دون سواه عدد كبير من طلّاب السعادة. ومَن ذا الذي لا يريد أن يكون سعيدًا؟ وحدها السعادة يبتغيها الإنسان وهي وحدها يطلبها من الآلهة الآخرين. وهل يطلب الإنسان من أيّ إله سوى أن يكون سعيدًا ويحظى بالسعادة؟ وعليه إن استطاعت السعادة أن تكون إلاهةً، وهذا أمرٌ أكيد، ووهبت ذاتها لِمَن يَشاء، فأيّ جنون يدفع الإنسان إلى أن يطلبها من إله آخر سواها، في حين أنّه يستطيع أن يطلبها منها مباشرة؟ على الإنسان أن يكرّمها من دون سائر الآلهة ويبني لها هيكلًا فخمًا أعظم من سائر الهياكل؛ لقد جاء في كتب الرومان الأقدمين أنّهم كانوا يكرّمون إله الصواعق سُومّانُوس (Summanus) أكثر ممّا يكرّمون جوبيتر، ولكن بعد أن أقيم بناء فخم لجوبيتر، اجتذب بعظمته الشعب إليه وتجاهل الجميع اسم سومّانوس في أحاديثهم وكتبهم. إن كانت السعادة هبة من الله ولم تكن إلاهة فابحثوا إذًا عن الله معطيها وتخلّوا عن تلك الطغمة السافلة من الآلهة الكذبة الذين يجذبون إليهم جماهير من البشر بشكل جنونيّ ليقيموا لهم آلهة من هبات الله ولا يخشون أن يهينوا ربّ المواهب بعنادهم المستميت لأنّ مَن يعبد السعادة

ويتّخذها إلاهة يحتقر الله الذي يهب السعادة ولا يستطيع أن يتجنّب سوء الطالع. وهل يقوى شقيٌّ على سدِّ رمقه بكسرة خبزٍ يدور لسانه حولها ويأبى أن يطلب من أخيه أن يشركه في التناول من الخبز الحقيقيّ؟

٢٣

نتوقّف على الأسباب التي يتذرّع بها الوثنيّون حيث يقولون: هل نعتقد بأنّ أسلافنا كانوا عميانًا حتّى إنّهم لم يعرفوا أنّ تلك هبات من الله وليست آلهة؟ أمّا إن أدركوا أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحصل عليها إلّا إذا تكرّم الله بها، عليه، وإذ لم يجدوا للآلهة أسماء، أعطوهم أسماء هباتهم مع بعض التعديل فاشتقّوا اسم الآلهة بلّونة من لفظة بلّون (Bellon) الحرب ولفظة كونينا من (Cunae) (سرير الطفل) ولفظة سِيجِيتيا (Segetia) من Seges (الأرض المزروعة) ولفظة بُومُونا (Pomona) من Poma (تفّاحة) ولفظة بُوبُونا (Bubona) من Boves (الثيران)؛ وأحيانًا اتّخذوا أسماء دون أيّ تعديل فيها فخلطوا بين الاسم والشيء فسمّوا إكوينا (المال) الإلاهة التي تعطي المال وما فكّروا في أنّ المال ذاته هو إله وسمّوا Vertu إلهة الفضيلة وإله الشرف شرفًا وإله النصر نصرًا. وعلى هذا النحو يقولون: إنّنا عندما نسمّي السعادة إلاهة، لا نعني السعادة التي نحظى بها بل الإلاهة التي تمنح السعادة. أجل إنّي لأقبل بكلّ ما يقدّمونه من ذرائع، على أنّي أرى من السهل عليّ بأن أقنع مَن لم تكن القسوة قد سيطرت بالتمام على قلبه.

٢٤

إن كان الضعف البشريّ قد اعترف بأنّ إلهًا واحدًا يستطيع أن يهب السعادة، وفهم هذه الحقيقة أناس كثيرون تعبّدوا لعدّة آلهة، ومن بينهم ملكهم جوبيتر، وإذ جهلوا اسم معطي السعادة، فقد سمّوه باسم الخير الذي اعتبروه عطيّة منه وهذا برهان واضح على اعتقادهم بأن جوبيتر الذي يكرمونه لا يعطي السعادة بل عليهم أن ينتظروها ممّن يجب أن يكرموه تحت ذاك الاسم عينه. إنّي لواثق بأنّهم يُعزون السعادة إلى إلهٍ مجهول؛ ومن الضروريّ أن يبحثوا عنه لكي يعبدوه؛ وحسبهم ذلك؛ وطرد تلك الطغمة الطاغية من الأبالسة ضروريّ؛ ومَن لا يرتضي بهذا الإله لا يرتضي بالخير الذي يعطيه. ماذا أقول؟ ألا يرضى بهذا الإله مَن لا يرضى بعطيّته؟ على مَن يرضى بها أن يعبد الإله الواحد الذي يعطيها؛ وليس الذي يسمّونه جوبيتر؛ ولو أنّهم اعترفوا له بتلك القوّة فهل كانوا يبحثون تحت اسم السعادة عن إله أو إلاهة سواه يكرمونها من أجلها؟ هل يدخلون إهانات دمويّة إلى عبادة جوبيتر فيقولون عنه إنّه زانٍ وخاطف أولادٍ وفاجر؟

٢٦

الخلاص من تلك الألعاب الشيطانيّة بالمسيح يسوع

إنّها لقصص خياليّة من صنع هوميروس تؤنّسن الآلهة على حدّ قول شيشرون، وكان من الأفضل أن تؤلّه البشر؛ وبحقٍّ، شجب ذاك الرومانيّ الشهير الجرائم الإلهيّة ومخترعها. ولكن لِمَ تعطى فوق

المسارح تلك الألعاب التي تحكي تمثيلًا وغناء تلك البذاءات تعظيمًا للآلهة؟ ولِمَ يرفعها العلماء إلى مصاف الأمور الدينيّة؟ ليس عليه أن يندّد باختراعات الشعراء بل بمؤسّسات الأقدمين! وقد يهتفون بدورهم: ماذا عملنا؟ ألم يطالب الآلهة أنفسهم بالألعاب بمثابة إكرام لهم؟ ألم يفرضوها علينا؟ ألم يهدّدوا مَن يعصون أوامرهم بكوارث رهيبة؟ ألم ينتقموا بشدّةٍ لأقلّ إهمال؟ حتّى إذا عوّض الناس عن إهمالهم هدأ غضب الآلهة؛ إليكم هذا الحدث الشاهد لقدرتهم: تيطس لاتينس فلّاح رومانيّ، ربّ عائلة، قيل له في الحلم ليلًا أن يطلب من مجلس الشيوخ إعادة الألعاب إذ إنّ أحد المجرمين الذي كان يساق إلى العذاب في أوّل يوم للاحتفال بها أمام حشد كبير من الناس أعطى صورة حزينة وعكّر صفو تلك الأعياد؛ وبما أنّ ذلك الفلّاح خاف أن ينقل الأمر الذي تلقّاه ليلًا سمع في الليلة التالية صوتًا يأمره بشدّة ولكنّه أبى أن يطيع ففقد ابنه؛ وفي الليلة الثالثة هدّده الصوت بعقاب أشدّ هولًا غير أنّه لم يجرؤ على تنفيذ الأمر فأصيب بمرض رهيب فأشار عليه أصدقاؤه بأن يعرض الأمر على القضاة فحُمِل إلى مجلس الشيوخ على سرير؛ وما إن قصّ حلمه حتّى استعاد عافيته وعاد سيرًا على الأقدام إلى بيته. إرتعد مجلس الشيوخ ممّا جرى فأمر بإعادة الألعاب مع زيادة النفقات أربعة أضعاف». أيّ إنسان سليم العقل لا يرى أنّ هؤلاء التعساء عبيد الشياطين لا نستطيع أن نخلص منهم إلّا بواسطة نعمة يسوع المسيح وحده؛ إنّهم مضطرّون إلى أن يلعبوا تلك الألعاب إكرامًا لآلهة سفلة ولا تحتاج سفالتهم إلى أن يبرهَن عنها أمام عقل سليم! ألا تدعو تلك الألعاب إلى حضور جرائم تلك الآلهة

فتسرع الجماهير إليها تجاوبًا مع تهديدات الآلهة وأمر مجلس الشيوخ؛ فيها يقوم مهرّجون أنذال بتكريم جوبيتر الذي أفسد الطهارة؟ وهل تلك قصّة خياليّة؟ ما كان ليندِّد بها! هل كان يلتذّ بمشهد تلك الجرائم المفترضة؟ يا ليتهم كرّموه من دون أن يرزحوا تحت ثقل سلاسل إبليس! قد تكون الإمبراطوريّة قامت وتقدّمت واستمرّت بفضله! إنّه لأحطّ من آخر رومانيّ يثور على تلك الفظائع! أهو الذي يعطي السعادة؟ عبادته تعيسة جدًّا وغضبه أشدّ تعسًا منها، إن لم يُقدَّم له مثل ذاك الإكرام!

٢٧

يقول بعض المؤلّفين إنّ سِيفُولا (Scevola) يزعم أنّ الآلهة ثلاثة أنواع: نوع أدخله الشعراء ونوع أدخله الفلاسفة وثالث أدخله رؤساء الجمهوريّة؛ فالأوّل نسيج خرافات لا تليق بالآلهة والثاني لا يليق بالدول لأنّه يتضمّن كثيرًا من التوافه حتّى إنّ بعضها مضرّ بالشعوب ولا نتائج كبيرة له؛ ألا يقول الفقهاء: لا يمكن غير المجدي أن يؤذي؟ وعليه فما هي الأسرار التي إذا عرفتها الجماعة تصبح وخيمة العاقبة؟ وهي أنّ هرقل وأسكولاب وكَستُور وبولوكس ليسوا آلهة؛ وفي الواقع وبحسب تقرير العلماء، كانوا بشرًا وتجاوبوا في الموت مع الطبيعة البشريّة؛ ولكن ماذا نقول سوى أنّ المدن لا تملك صور الآلهة الصحيحة وأن ليس للإله الحقيقيّ جنس وعمر وأعضاء جسديّة؟ ذاك هو ما يريد الحبر أن يجهله الناس، لأنّه يعتبره صحيحًا ويفكّر في أنّه من مصلحة الدول أن تخطئ في ما يختصّ بالدين، وذاك هو ما

لا يخشى فرّون أن يقدّمه في كتبه «الأمور الإلهيّة». فيا لها من ديانة رائعة تستضيف الضعيف الذي يسألها الحماية والخلاص! وبدلًا من أن يبحث عن خلاصه في الحقيقة، عليه أن يؤمن بأنّ الأفضل له أن يقع ضحيّة الغشّ! أمّا آلهة الشعراء فلماذا يرفضهم سيفولا (scevola)؟ المؤلّفون أنفسهم لا يخفون السبب، وهو أنّ مخيّلة الشعراء تشوّه صورة الآلهة حتّى إنّهم لا يستحقّون التشبّه بأناس شرفاء، إذ إنّك تجعل من هذا سارقًا ومن ذلك زانيًا وتنسب إليهم أقوالًا وأعمالًا مضحكة ومخجلة؛ آلهات ثلاث يتشاجرن من أجل جائزة الجمال ويقود الانتقام من المنهزمتَين إلى خراب طروادة، وجوبيتر يتحوّل إلى ثور، إلى بطّة ليتمتّع بامرأة؛ الرجل يتزوّج من الإلاهة ساتورن ويفترس أولاده؛ وما من رذيلة غريبة عن الطبيعة الإلهيّة إلّا وتُعزى إلى الآلهة. يا سيفولا الحبر العظيم، ألغِ تلك الألعاب إن استطعتَ وحرّم على الشعوب أن يكرموا الآلهة بهذا الشكل حيث يطيب للإنسان أن يتأمّل بجرائمهم ليقتدي بها ما استطاع؛ وإذا أجابك الشعب: «أيّها الأحبار ألم تُدخلوا هذه الألعاب؟»؛ أطلب إذًا من الآلهة الذين كانوا الأوائل في إنشاء هذه المؤسّسة أن يكفّوا عن المطالبة بتلك التمثيليّات إكرامًا لهم؛ وإن لم يعرض شيء عاطل لائق بجلال الآلهة تزداد فظاعة الإهانة كلّما أعفيت القصّة الخياليّة من العقاب؛ لكنّهم لا يسمعون لك؛ وليسوا سوى أبالسة يعلّمون الفساد ويجدون لذّتهم في حمأة الرذيلة؛ ولا يغتاظون من أن تُنسَب إليهم تلك الأفعال، بل يعتبرون إهانة لهم مميتة إذا أُهمِلت تلك الألعاب في أعيادهم. وأخيرًا أتستجير بجوبيتر منهم لكون ألعاب المسرح تنسب إليه أكبر عدد من الجرائم؟ وبينما يعترفون

به إلهًا يدبّر الكون ويحكمه، تُوجَّه إليه عندما يُسمّونه ملكًا على سائر الآلهة ويؤدّون العبادة له ولها معًا.

٢٨

إنّ أمثال أولئك الآلهة يركنون إلى ذلك التكريم أو يتّهمون به وليسوا مسؤولين عن تمثيل جرائم حقيقيّة بل خياليّة ولا قدرة لهم على توسيع الإمبراطوريّة الرومانيّة والحفاظ عليها. ولو كانت لهم القدرة لاستعملوها لمصلحة الإغريق الذين قدّموا لهم في ذاك المجال المسرحيّ تكريمًا أشدّ إخلاصًا في العبادة؛ وفي الواقع، ألا نراهم يتهرّبون من انتقادات الشعراء اللاذعة التي بها يمزّقون الآلهة؟ ألا يسمحون لهم بأن يشهّروا بالناس ما طاب لهم ذلك؟ وبدلًا من أن يعتبروا الممثّلين الهزليّين سفهاء، يحيطونهم بأجل تكريم. وكما أنّ الرومان قد حصلوا على عملة ذهبيّة دون أن يعرفوا إلهًا يدعى أُورِينُوس (Aurinus) يمكنهم أيضًا أن يستعملوا الفضّة والنحاس دون تكريم أَرجَنتِينُوس وأبيه أَسكُولانُوس؛ وما أمكنهم، بكلّ تأكيد، الوصول إلى الإمبراطوريّة لو لم يشأ الإله الحقّ؛ ولو أنّهم ما عرفوا تلك الآلهة الكذبة أو احتقروها فاكتفوا بالإله الواحد وعبدوه بإيمان صادق وأخلاق عفيفة، لكانت مملكتهم فوق هذه الأرض أكثر سعادة حتّى ولو لم يملكوا على هذه الأرض لكانوا وصلوا إلى ملكوت الأبد.

٢٩

وماذا عن الخبر الرائع، عناد مارس وترمِينُوس وجُوفَنْتاس الذين لم يذعنوا لجوبيتر؟ يقولون إنّها علامة واضحة إلى أنّ شعب مارس لن يتخلّى عن محلّه لآخر، وأنّ الإله ترمينوس يحصّن حدود المملكة لئلّا تسقط، وأنّ الإلاهة جوفنتاس تعزّز جانب الشبيبة الرومانيّة لئلّا تقهر. وكيف يستطيع الإنسان أن يعرف أنّ جوبيتر هو ملك الآلهة وحامي ذمار المملكة عندما يواجهه بذاك الخبر خصم له قويّ يتباهى بعصيان أوامره؟ وعلى هذا الأساس ما الذي نخشاه اليوم؟ ما من أحد يقرّ بأنّ هؤلاء الآلهة الثائرين على جوبيتر انسحبوا من أمام المسيح؛ وبكلّ تأكيد، ومن دون أن يمسّوا بالحدود الرومانيّة، بإمكانهم الانصياع للمسيح والتخلّي له عن مقاماتهم وبخاصّة عن القلوب المؤمنة. ولكن قبل أن يجيء المسيح إنسانًا قبل أن يُكتَبَ شيءٌ ممّا نأخذه عن كتبهم ومنذ ذلك الخبر الذي حصل في عهد الملك تُركُوِينُوس، كم وجّه الجيش الرومانيّ من تهم، وهو منهزم وهارب واتّهم بالكذب الخبر المأخوذ عن مقاومة جوفنتاس لجوبيتر؟ وفي روما ألم تسحق قوى الغول الطاغية ذرّيّة مارس؟ ألم يضيّق سقوط عدّة مدن بيدَي هنيبعل حدود الإمبراطوريّة؟ لقد تلاشت وعود الفأل السعيد ولم يبقَ سوى وقاحة الآلهة الأبالسة أعداء جوبيتر؛ شيء هو عدم التخلّي عن مركز يشغله إله، وشيء آخر هو الدخول إليه مرّة أخرى؛ ومنذئذ يغيّر أَدْرِيانُوس الحدود الرومانيّة في المناطق الشرقيّة فيتخلّى عن ولايات أرمينيا وما بين النهرين وأشُّور إلى مملكة الفرس؛ وإنّ ذاك الإله ترمينوس

الحارس الساهر على الحدود والذي، بما عُرف عنه من عناد وحزم، نشر الخبر السعيد يظهر أنّه يخاف أدريانوس ملك البشر أكثر ممّا يخاف جوبيتر ملك الآلهة. بعد أن استعيدت تلك الولايات تراجع ترمينوس أيضًا؛ وفي أيّامنا الحاضرة ذاك الأمير جُولِيان المستسلم بكليته إلى ما يقوله الوثن يندفع عن جسارة وحماقة ويحرق السفن المحمّلة بالموادّ الغذائيّة لجيشه ويفتح أبواب معسكره أمام الجوع، ثمّ يقع هو نفسه ضحيّة سهمٍ معادٍ؛ وأصبح الجنديّ الذي يتضوّر جوعًا، وقد أذهله موت الإمبراطور واشتدّ عليه الضيق، عاجزًا عن الدفاع. ولولا تنازلات أدريان وتوقيع معاهدة استَبْقَت بعض الشيء، وأعادت رسم حدود المملكة، كما هي اليوم، لما حيي بشر! يا لسخافة الخبر! إنّ هذا الإله ترمينوس الذي أبى الانصياع لجوبيتر خضع لأدريان ولجوليان التعيس. إنّ أكثر الرومان حكمة ومعرفة، ما تركوا الناس يخدعونهم؛ ولكن كيف لهم أن يقاوموا ما تعوّدته روما والتزمته به من عبادة للشياطين عندما يدركون بطلان هذا الإكرام ويعتقدون أنّه يجب عليهم أن يقدّموا للطبيعة الموضوعة تحت إدارة وتدبير الإله الحقيقيّ الإكرام الواجب له وحده «فعَبدوا الخليقة دون الخالق المبارك مدى الدهور» (روم ١/٢٦). وكان على الله الحقّ أن يرسل رسله القدّيسين والأبرار الذين أعطوا القوّة لأن يموتوا في سبيل الدين الصحيح فيبطلوا ضلال قلوب الأحياء؟

٣٠

المسيحية حطّمت الخُرافات

إنّ شيشرون العرّاف يسخر من العرّافين وينتقد الناس الذين ينظّمون حياتهم وتصرّفاتهم استنادًا إلى صوت غراب أو زاغ؛ وأيّة ثقة يستحقّ فيلسوف الأكاديميا هذا الذي لا شيء أكيدٌ لديه؟ في كتابه «طبيعة الآلهة» يترك الكلام لِلُوسِيلِيُوس بلبوس (Lucilius) الذي يعطي الخرافات بعض أسباب طبيعيّة وفلسفيّة ثمّ ينتقد الآراء المستندة إلى الأساطير وتنصيب الأوثان فيقول: «هل ترون الآن كيف أنّ الإنسان انطلق من اكتشافات جيّدة ونافعة في النظام الطبيعيّ إلى تصوّر الآلهة الخياليّين؟ ذاك هو مصدر الآراء الخاطئة والضلال المشؤوم والخرافات المضحكة فيميّز الإنسان الآلهة من خلال ملامحهم وأعمارهم ولباسهم وزينتهم ويحوّل كلّ شيء فيهم من أنساب وزواجات ومصاهرات إلى مستوى الضعف البشريّ؛ فيهم الاضطرابات النفسيّة والشهوات والأحزان والأحقاد؛ وإن صدّقنا الحكايات الخرافيّة كانت لهم أيضًا الحروب والمعارك. ولا ينقسمون فقط إلى جيشين متحاربين كما يقول هوميروس بل يتسلّحون دفاعًا عن أنفسهم من الجبابرة والتيتان. جنون هو القول بتلك الخرافات السخيفة الباطلة والقبول بها». ذاك ما يعترف به ويقرُّه المدافعون عن آلهة الأمم ويراه شيشرون مجرَّدَ خرافة؛ لكنّه ملك الديانة التي، على ما يبدو، تعلّمه استنادًا إلى آراء الفلاسفة الرواقيّين فيقول: «إنّ آباءنا، على مثال الفلاسفة، ميّزوا الدين عن الخرافة؛ والذين

كانوا يقضون أيّامًا كاملة في الصلاة وتقديم الذبائح، بغية أن يخلفهم أولادهم، كانوا يدُعون خرافيّين». (شيشرون: في التأليه) ومَن ذا الذي لا يلحظ كلّ جهوده في سبيل الثناء على ديانة السلف؟ وإذ يخشى أن يغيظ رأي العموم المسبق، يحاول عبثًا أن يفصله عن الخرافة! إن كان الأقدمون قد سمّوا خرافيّين مَن كانوا يقضون أيّامهم في تقديم الذبائح ورفع الصلوات، أليسوا هم أيضًا خرافيّين هؤلاء الذين يقيمون كلّ ما ينتقده من رسوم آلهة وأعمار وزواجات وقرابات لهم؟ بكلّ تأكيد عندما يتّهم الإنسان هذه المؤسّسات بالخرافة، فاللوم ذاته يشمل أيضًا الأسلاف الذين أقاموا تلك الأصنام وعبدوها، كما يشمله هو، بالرغم من جهود أبداها بفصاحته، تحطيمًا لقيد كبّله؛ وعلى ما وزّع في أحاديثه من تهكّمات، دون أن يجرؤ على التلفّظ بكلمة واحدة في الاجتماع الشعبيّ. أمّا نحن المسيحيّين فعلينا أن نشكر الربّ إلهنا، لا أن نشكر السماء والأرض كما يدّعي ذاك الفيلسوف، بل خالق السماء والأرض الذي، بفضل منه، تحطّمت تلك الخرافات التي يكاد بلبوس يتلفّظ ببعض اللوم عليها؛ أجل، تحطّمت بتواضع السيّد المسيح العميق وعظات الرسل وإيمان الشهداء الذين يحيون مع المحبّة وفي سبيلها يموتون؛ وما تحطّمت في القلوب التي تملك فيها تقوى الله بل تحطّمت أيضًا في الهياكل الخرافيّة حيث ألغتها عبادة أبناء الله الحرّة.

ماذا؟ يؤسفني أن يكون فرّون قد وضع ألعاب المسرح بين الأمور الإلهيّة دون أن يتّخذ هذا القرار بذاته، إذ إنّه في الكثير من كتاباته يحثّ الآخرين، بشيء من التقوى، على تكريم الآلهة، ثمّ يعترف في مكان آخر، بأنّه لا يشارك، عن إيمان، في أعياد الآلهة، لكونها من صنع الدولة؛ ولا يخاف أيضًا من أن يعلن بأنّه إن كان له أن يبني المدينة مرّة أخرى فسيختار الآلهة الواجب تكريسهم وأسماءهم، من مبادئ النظام الطبيعيّ. ولكن بما أنّ الأقدمين قد قبلوا القصص عن الآلهة وأسمائهم وألقابهم، فعليه أن يلتزمها بأمانة، وأن يحثّ الشعب في أبحاثه على التزام التقوى واحترام الآلهة؛ من خلال هذا الحديث يكشف صاحبنا، بما له من ذكاء خارق، عن أنّ الصمت وحده يحمي من سخرية العامّة ولن يعلن عن الأشياء التي يحتقرها. قد يظنّ الناس أنّ كلامي هذا يندرج في إطار التكهّنات، لو لم يقل في مقطع آخر، بوضوح، ما يختصّ بالديانات أنّ فيها حقائق لا يصلح لأن يعرفها الشعب وأخطاء يجب أن يتّخذها كحقائق وعلى هذا النحو كان الإغريق يسكتون ويعتّمون على الأسرار وعلى ما يسمّونه التّليت (Teletes). إنّ فرّون يخون هنا ولا شكّ لباقة مَن يدعون الحكمة حاكمي المدن والشعوب وهي لباقة يرتضي بها العقل الخبيث فتجعله فريسة الخدّاعين والمخدوعين وهم عبيد لا يجوز أن ينتظروا خلاصهم إلّا من نعمة الله في سيّدنا يسوع المسيح.

التوجُّه إلى العناية الإلهية السريّة

ويقول أيضًا ذاك الكاتب الذي يتساوى فيه الذكاء والعلم إنّ الذين يفهمون جوهر الله، على ما يبدو له، هم الذين يعتبرونه روحًا يحكم العالم بواسطة الحركة والعقل وإن لم يرتفع إلى مفهوم الحقيقة الصافي لأنّ الله ليس نفسًا بل الخالق لهذه النفس، علمًا بأنّه لو استطاع أن يتحرّر من أحكام العادة لاعترف بعبادة الله الواحد وعلّم أنّ الله يدبر الكون بواسطة العقل والحركة. وبقي الخلاف بيننا حول ما إذا كان الله روحًا أم خالقًا للروح؛ ويقول أيضًا إنّ الرومان الأقدمين، منذ مائة وسبعين سنة ونيّف، عبدوا الآلهة من دون أن يقيموا لها أصنامًا؛ ولو أنّ العبادة استمرّت على ذلك الشكل لكانت أنقى وأصفى. ويقدّم برهانًا من بين براهين كثيرة، دعمًا لتفكيره، مَثَل الأمّة اليهوديّة ليصل، بلا خوف، إلى النتيجة التالية قائلًا: إنّ الأوائل الذين رفعوا الأصنام ألغوا الخوف وزادوا الضلال؛ واقتنع بأنّ سخافة الصنم تقود الإنسان إلى أن يحتقر الآلهة. وبما أنّه يقول إنّهم لم يقيموا الضلال بل زادوا عليه يعني بوضوح أنّ الضلال كان سابقًا للأصنام؛ وعلى هذا النحو، عندما يعترف بأنّ الذين يعتبرون الله روحًا مدبّرًا للعالم فهموا وحدهم طبيعة الله؛ ويعتقد بأنّ الديانة مرعيّة، بشكل أنقى، في غياب الأصنام؛ فمَن ذا الذي لا يعتبره قريبًا من الحقيقة؟ لو كان له بعض القدرة على ضلال متجذّر في العمق لأعلن عن وجود إله واحد يدبّر العالم تجب له العبادة من دون صور؛ وإذ وُجد على

مقربة من الحقيقة واعتبر أنّ طبيعة النفس متغيّرة فقد يعتقد بأنّ الإله الحقّ ذو طبيعة لا تتغيّر؛ وتاليًا هي تخلق النفس ذاتها؛ وهكذا فكلّ ما جاء في كتب العلماء ضدّ تعدّديّة الآلهة الجنونيّة ليست أنوارًا يسعون إلى نشرها تنويرًا للشعب بقدر ما هي اعترافات تدفعهم إليها إرادة العناية الإلهيّة السرّيّة؛ وإذا ما أخذنا عن بعض الكتب شهادات فلكي نقدّمها ضدّ أناس أعموا عيونهم لئلّا يبصروا نير الخبث والرياء الذي تُحرّرنا منه الذبيحة الوحيدة لذلك الدم الثمين وهبة الروح القدس النازل علينا.

٣٣

ويقول فرّون أيضًا في موضوع السلالات الإلهيّة إنّ الشعوب تميل إلى الشعراء أكثر منها إلى الفلاسفة فازدادت ثقة أجداد الرومان الأقدمين بما يسمّى الجنس وتوالد الآلهة وقبلوا بزواجهم، في نظام الأسرار، ولا مجال للبحث عن سبب ذاك الاعتقاد، خارجًا عن دائرة مَن ادّعوا العلم وحصروا درسهم في خداع الشعوب فكانوا في هذا المجال خدّامًا غيارى. ماذا أقول؟ لقد اقتفوا آثار الشياطين الذين لا يتوقون إلّا إلى الغشّ والخداع ولا يستطيعون السيطرة إلّا على مَن يقعون ضحيّة خداعهم؛ وعلى مثالهم، فإنّ زعماء الشعوب الفاسدين يعلّمون أشياء، على أنّها حقيقة، مع معرفتهم ببطلانها فيقيّدونهم، بما لهم من قدرة شيطانيّة، بربط ضيّقة، جدًّا، في المجتمع المدنيّ. فكيف لتلك النفوس الضعيفة والساذجة أن تهرب من رياء الحكّام والشياطين المشترك؟

٣٤

الله هو الأساس في السعادة

وعليه فإنّ إلهنا يصنع السعادة ويوزّعها، الإله الواحد الحقيقيّ، يهب ممالك الأرض الصالحين والأشرار، لا عفوا ولا عشوائيًّا، لأنّه الله وليس الحظّ؛ يهبها بحسب نظام الأشياء والأوقات الذي لا نعرفه، في حين هو يدركه تمامًا فلا يخضع له كالعبد بل يرتّبه كسيّد ومدبّر. أمّا السعادة فإنّه يعطيها للصالحين من دون سواهم. يمكن المرؤوسين أن يحصلوا عليها كما يمكن الملوك أيضًا أن يحصلوا عليها، والعكس صحيح؛ ولن يكون امتلاكها كاملًا إلّا في هذه الحياة حيث لن يبقى مجال لمرؤوسين؛ ولهذا فإنّه يعطي ممالك الأرض الأخيار والأشرار لأنّه لا يريد أن يطلب منه خدّامه في حداثة نفوسهم مكافآت تليق بما يتمنّون؛ ذاك هو سرّ العهد القديم، غلاف الجديد؛ لقد وعد بخيرات الأرض بيد أنّ النفوس الذكيّة التي أصبحت روحيّة كانت تدرك من دون أن تعلن عن أفكارها الأبديّة التي كان الوقت صورة لها، وفي أيّ من نِعَم الله تكمن السعادة الحقيقيّة!

٣٥

ولكي يدرك الناس أنّ الخيرات الزمنيّة الوحيدة التي يتوق إليها الناس، العاجزون عن أن يتصوّروا أفضل منها، هي في يده السميا وحدها، ولا تعلُّق لطغمة الآلهة الكذبة بها، الذين اعتبرت روما عبادتهم واجبة. لقد أراد الله أن يُدخل عددًا ضئيلًا من شعبه إلى

مصر ليتكاثر فيها ثمّ أخرجه من أرض العبوديّة بواسطة أهمّ المعجزات. وليست لوسين التي تتوسّل إليها النساء اليهوديّات من أجل إكثار النسل وإعطاء الذرّيّة المختارة نموًّا عجيبًا، بل الله هو الذي يخلّصهم. يرضعون الحليب بمعزل عن الإلاهة رومينا وينامون في الأسرّة بدون كونينا ويستغنون عن أدُوكا وبُوتينا عندما يأكلون ويشربون فلا يرعى الآلهة الصغار تربيتهم، ولا آلهة الزواج زواجهم؛ ولا يفكّرون في أسرار الاتّحاد الزوجيّ بِرِيابُوس ولا يدْعون نبتون عندما ينفتح البحر لدى مرورهم، ويستدعي أمواجه المنقسمة لكي يبتلع الأعداء في لججه؛ ولا يتخيّلون إلاهة تسمّي مانيا عندما يتساقط المنّ من السماء؛ وإذ يعطشون تفجّر المياه من الصخر لدى ضربه بالعصا ولا يشكرون لا حوريّات الماء ولا اللمفا؛ وليسوا بحاجة إلى أعياد مارس وبللونا الجنونيّة، قيامًا بالحرب؛ وإذا احتاجوا إلى إلهة النصر لينتصروا فليست بنظرهم إلاهة، بل هبة من الله؛ ولهم حصاد بدون سيجيتيا (Segetia) وثيران بدون بُوبونا (Bubona) وعسل بدون مِلُّونا (Mellona) وثمار بدون بُومُنا (Pomona)؛ وكلّ تلك الخيور التي تظنّ روما أنّها من لدن الآلهة الكذبة يمكن الحصول عليها بسهولة من الإله الواحد الحقّ. لو لم يتسبّب فضولهم بإهانته ولو لم تجرّهم خيبة أملهم بالسحر إلى عبادة مذلّة لأصنام وآلهة غرباء ولو لم يطفح كيلهم أخيرًا بذبح المسيح لاستمرّ ملكهم أكثر هناء وإنْ أقلّ انتشارًا. وإن كانوا اليوم قد تشتّتوا تقريبًا في كلّ الأمم وسائر مناطق العالم فبفضل عناية الإله الواحد الحقّ قد صار ذلك. لتُحطّم الأصنام والمذابح والأخشاب المقدّسة في كلّ النواحي ولتهدم الهياكلَ وتحرّم

الذبائح لأنّ كتب هذا الشعب تشهد بذلك وتتنبّأ، منذ زمن بعيد، وإن وجدناها مذكورة في كتبنا، فلا يتّهمننا أحد باختراعها. نحتفظ بما بقي من أفكار لكتاب آخر ونضع حدًّا هنا لما توسّعنا في درسه.

مقدّمة

عظمة روما والإله الواحد الحقّ

إن لم يكن الآلهة الأساس في عظمة روما، فما هو السبب؟ ولِمَ منحَها الإله، الحقّ، هذه الإمبراطوريّة العظيمة؟ ليس ذلك من صنع القدر؛ لأنّ الإيمان بالقدر يلغي كلّ إيمان وصلاة وحرّيّة. يناقش الكاتب مطوّلًا في بداية كتابه الخامس موضوع القدَريّة ذات الشأن الكبير في ذاك الزمان، علمًا بأنّها تنكر كلّيًّا الحرّيّة كما أن أوغسطينس وقع في شراكها قبل اهتدائه إلى المسيحيّة. وفي هذا المجال ينتقد شيشرون الذي ينكر على الله علمه المسبق بالأمور الذي يحتّم عليه نوعًا ما إنكار وجود الله.

بعد أن يبيّن أوغسطينس عجز الآلهة وبطلان القدر على تأمين العظمة لروما فإنّه يعيد ذلك إلى ما تحلّى به الرومان من قِيَم، إذ كانوا يتوقون إلى المجد وإلى الحرّيّة اللذين يتغنّى بهما فرجيل وسلُستس وبينما يعرض لأفضل ما يتصوّره لروما يرى أنّ محبّة المجد تغذّي في الإنسان النشاط وتحفزه إلى التحلّي بالفضيلة؛ وكلّ مَن ينحصر همّه في مدينة الأرض وينتظر المجد يهبه الله مكافأة ما بشكل عظمة بشريّة وسياسيّة.

ومَن ثمّ نراه لا يعطي المجد السياسيّ أيّة أهمّيّة؛ وبينما يمتدح القِيَم ومحبّة الرومان للمجد، يدعو تلاميذ الملكوت السماويّ إلى عدم التوقّف عندها؛ ويربط نجاح الإنسان وفشله، في كلّ مكان وزمان، بسرّ الإرادة الإلهيّة. وينهي كتابه الخامس داعيًا إلى قراءة الإرادة الإلهيّة في الأحداث السياسيّة الأخيرة مشيدًا بالإمبراطورين المسيحيّين قسطنطين وتيودوسيوس، شاجبًا، بشدّة، انتقادات الوثنيّين؛ ويدافع عن القانون الذي يحرم ممارسة العبادات القديمة، متسائلًا هل يمكن تلازُمُ عبادتين متناقضتين. . .

١

السعادة الحقيقية

من الثابت أنّ السعادة تقوم على امتلاك كلّ ما يبتغيه الإنسان؛ وليست إلاهة، بل عطيّة إلهيّة؛ وعلى هذا النحو فالله وحده جدير بأن يعبده الإنسان؛ وهو وحده يستطيع أن يجعله سعيدًا؛ ولو أنّ السعادة كانت الإلهة لاستحقّت منّا كلّ إكرام. واستنادًا إلى هذه المبادئ، لنر كيف أنّ الله، المشرف على كلّ خير، يمكن أن يحصل عليه مَن ليسوا صالحين وغير سعداء، أراد أن يؤمّن لروما سعة سلطان، وعلى زمن طويل، من دون أن تكون مدينةً فيه لتلك الطغمة من الآلهة الكذبة الذين تعبدهم؛ ذاك ما قلناه وسوف نقوله أيضًا في المناسبة. ليست عظمة المملكة، من الصدف، ولا عامل حتميّة، أي من دون سبب، وخارجًا عن نظام العقل، لأنّ الحتميّ هو ما يحدث بمعزل عن إرادة الله وإرادة البشر نتيجة نظام ضروريّ؛ وفي الواقع فإنّ العناية الإلهيّة تنشئ ممالك الأرض؛ والذي يشرّف بها القدر لكونه يسمّي مشيئة الله وقدرته قدرًا يستطيع أن يحتفظ برأيه على أن يغيّر تعبيره. ولِمَ لا يقول أوّلًا ما سوف يقوله تاليًا، عندما يسأل رأيه في القدَر؟ بكلام عاديّ، القدَرُ هو ما تجريه الكواكب من تأثير في الإنسان حال ولادته، أو الحبل به. بعضهم يعتبر هذا التأثير شيئًا مميّزًا وبعضهم الآخر يعتبره متعلّقًا بالإرادة الإلهيّة. ما أبعدنا عن أولئك الحمقى الذين ينسبون إلى الكواكب قدرة التصرّف بأعمالنا وأفراحنا وأحزاننا بمعزل عن الإرادة الإلهيّة! حاشى لنا ذلك نحن معشر الذين اعتنقوا الديانة الصحيحة! ماذا

أقول؟ ما أبعده عن كلّ إنسان يرتبط بدين أيًّا يكن ذاك الدين! وهل يبغي ذاك الرأي سوى إلغاء كلّ طقس دينيّ وكلّ صلاة؟ لكنّنا لا نوجّه هجماتنا إلى أولئك الحمقى؛ بل إلى هؤلاء الذين تؤثّر في أفكار البشر وحظوظهم، علمًا بأنّ هذا التأثير خاضع للإرادة الإلهيّة؛ يعلنون الحرب على المسيحيّة دفاعًا عن آلهة يدَّعونها. أمّا الاعتقاد بأنّ الكواكب تستمدّ القوّة لتعمل على هواها من القوّة السامية، فتلك لعمري إهانة فظيعة جدًّا! هل يأمر محفل سماويّ ومجلس شيوخ متألّق بأمثال تلك الجرائم التي يحكم فيها قضاء بشريّ حتّى إنّ المدينة التي تسمح بمثلها تسير إلى الخراب؟ وإذا أعطيت الكواكب تأثيرًا حتميًّا فأيّ سلطان يبقى لله في الحكم على أعمال البشر، وهو سيّد الكواكب والبشر؟ أمّا إن قالوا إنّ النجوم التي تتسلّم سلطانها من الله لا تتصرّف به تلقائيًّا بل تنفّذ وصاياه في ما تفرضه من نظام ضروريّ، فهل يعني أنّ في الله إرادة أخرى لا يليق على ما يبدو أن تعطى للنجوم؟ إن قالوا إنّ النجوم لا تتسبّب بالأحداث بل تدلّ عليها وأنّ موقفها ليس سوى صوت ينبئ بالمستقبل من دون أن تحقّقه كما يظنّه أناس ذوو معرفة خارقة، فكلام علماء الفلك مختلف، بحيث لا يقولون مثلًا: إنّ مارس في موقع معيّن ينذر بجريمة قتل بل يرتكبها. لنقبل بأنّ كلامهم باطل وبأنّهم يحتاجون إلى الفلاسفة ليتعلّموا الكلام الواجب استعماله في التنبّؤات التي توحي بها إليهم مواقع الكواكب. ولكن لماذا لم يستطيعوا من خلال وجود توأمين وأعمالهما أو حظّهما واهتماماتهما وسائر ظروف حياتهما حتّى الموت لم يستطيعوا أن يبرّروا خلافًا كبيرًا في كلّ ذلك بينهما، في حين أنّ هذا أو ذاك منهما، على توافق أكبر مع

غرباء عنهما؛ وإن يكن الفارق الزمنيّ بينهما في الولادة، غير ذي قيمة، وفي الوقت عينه، تقريبًا تمّ الحبل في حشا أمّهما؟

٢

جاء في كتاب الطبيب الشهير هِيبُوكْرات، بشهادة شيشرون، أنّ شقيقين مرضا معًا فعُلم بأنّهما توأمان من خلال الأحداث المتزامنة لمرضهما الذي كان يتفاقم ويخفّ في الوقت عينه. بيد أنّ الفيلسوف الرواقي بُوزِيدُونِيُوس (Posidonius) وهو عالِم فلكيّ كبير يعزو تلك الأحداث إلى هويّة كوكب يتحرّك على الأفق فيعرّف بولادتهما والحَبَل بهما؛ وعلى هذا النحو فإنّ ما يردّه الطبيب إلى تشابه في الأمزجة يعزوه الفيلسوف الفلكيّ إلى فريق سماويّ؛ وبالتأكيد فإنّ ما يقوله الطبيب أقرب إلى الصدق والحقيقة، إذ إنّ استعداد الوالدين العضويّ خلال الحبل يؤثّر التأثير ذاته في الأولاد وإذ يأخذون نموًّا متوازيًا في حشا الأمّ يحملون في الولادة البنية عينها كما وإنّهم يأكلون من ذات الطعام في البيت الواحد، حيث الهواء والماء والسكن واحد، وسائر الأشياء التي بها يحاطون تترك الأثر الفاعل ذاته، بحسب ما يقول الأطبّاء، سواء أكان حسنًا أم سيّئًا؛ وأخيرًا فالتمارين ذاتها تقيم في ما بينها تجانسًا عضويًّا يؤثّر في التشابه في الأمراض. أمّا أن يعزى هذا التكافؤ في الحالة إلى توافق بين السماء والكواكب خلال الحبل بهما عندما يتمّ الحبل والولادة في الوقت عينه والبلد ذاته وتحت سماء واحدة، هذا العدد الضخم من المخلوقات ذات الطبائع والحظوظ المختلفة، فيا للوقاحة!

ألا نجد توائم تختلف وتتباين وتتصادم نشاطاتهما وتمرّ صحّتهما بتغييرات متنوّعة؟ يبدو لي أنّ هيبوكرات يشرح هذا الموضوع بسهولة فيردّ التباين في العواطف غير السليمة إلى التنوّع في الأطعمة والتمارين وهي ظروف مستقلّة كلّيًا عن الطبع والإرادة؛ وماذا يقول بوزيدونيوس أو أيّ محام آخر للحتميّة السماويّة إذا كان لهم أن يتوقّفوا عن أن يضلّلوا ضعاف النفوس في أمور يجهلونها؟ أمّا ما نتمنّى أن نستنتجه من هذا الفرق الزمنيّ البسيط الذي يفصل بين ولادة توأمين ومن تلك الزاوية السماويّة حيث تتحدّد بدقّة ساعة ولادتهما أو الفرق الزهيد بسبب التنوّع في الإرادة والأفعال والأخلاق والحظّ أو إذا كان كبيرًا في سبيل توافق موضعيّ واضح أو غير واضح، فالفرق الأكبر لا يكون إلّا في ساعة الولادة. وعلى هذا النحو أن يولد الواحد تلو الآخر دون تأخّر وأن تبقى نقطة البرج الطالع للاثنين هي ذاتها فذاك ما أطلبه بحيث لا يستطيع التوائم أن يقدّموه مهما كانوا. أمّا إذا غيَّر البطءُ في الولادة البرج فإنّي أطلب، وهذا مستحيل في التوأمين، التنوّع في الأب والأمّ.

٣

عبثًا يلجأ الإنسان إلى السفسطة المعروفة التي أطلقها نِيجِيدِيُوس (Nigidius) وقد أحرجته تلك الصعوبة فأعطى جوابًا استحقّ عليه لقب خزّافٍ، أدار بكلّ قوّته دولاب خزاف؛ في حين يدور الدولاب بسرعة يضع عليه بأسرع ما يمكن نقطتين من الحبر يخيَّل إلى الناظر أنّهما في المحلّ عينه؛ وعندما تتوقّف

الحركة يجد الإنسان العلامتين على قمّة الدولاب تفصل بينهما مسافة لا بأس بها؛ وعلى هذا النحو يقول، في دورة السماء السريعة هذه، عندما يتعاقب توأمان بسرعة تساوي سرعة يدي، حين تضرب ذاك الدولاب، تبقى دومًا مساحةٌ رحبة في الأرجاء السماويّة؛ ذاك هو سبب كلّ تلك الفروق التي يشار إليها في أخلاقهم وأحداث حياتهم. إنّه لبرهان أوهى من الشرايين التي يحرّكها الدولاب لأنّه إن ظلّت المسافة السماويّة على ما هي عليه بحيث إنّ الكواكب لا تبرّر السبب الذي يجعل أحد التوأمين وريثًا والآخر بلا ميراث؛ فيا لها من جسارة في مراقبة نجوم مَن ليسوا توائم والتنبّؤ لهم عن أحداث، ضمن سرّ عميق لا يدرك، فيختمونهم ساعة ولادتهم؟ وسوف يقولون إنّ تنبّؤاتهم تشمل مساحات أكبر في أبراج مَن ليسوا توائم؛ بيد أنّ المسافات الزهيدة التي يتركها التوائم بينهم، ساعة ولادتهم، تتعلّق بتفاصيل غير ذات شأن، لا يستشار الفلكيّون بشأنها. هل يسألون مثلًا عن الوقت الذي يأخذ فيه الإنسان مكانًا أو طعامًا أو يذهب إلى النزهة إلخ...؟ وهل يجب التوقّف عند تلك الأمور الصبيانيّة عندما نبرهن عن أنّ هذه الاختلافات الرئيسيّة بين التوائم هي اختلافات في الأخلاق والأفعال والحظّ؟

٤

إنّ تقليد آبائنا القديم يشهد على ولادة توأمين تعاقبا عن كثب حتّى إنّ الواحد كان يمسك برجل الآخر (**سفر التكوين** ٢٥/٢٦) ومع ذلك فما أشدّ الفرق بينهما في الحياة والأخلاق والأعمال

ومحبّة والديهما لهما! إنّ المسافة الزمنيّة الفاصلة بين ولادتهما جعلتهما أعداء، على قِصَرِها. وهل يعني هذا أنّ أحدهما كان يمشي في حين يجلس الآخر وإن هذا ينام أو يلزم الصمت في حين يسهر الآخر أو يتكلّم؟ إنّها لتفاصيل دقيقة تفوت مجموعات الكواكب؛ يشار إليها عند الولادة من أجل استشارة علماء الفلك. هذا اتّخذ العبوديّة زوجة له أُولى، في حين لم يعرفها الآخر؛ الواحد كان حبيب أمّه بخلاف الآخر. الواحد خسر أشرف حقّ لأناس ذلك الزمان، في حين ربحه الآخر. وهل أتكلّم عن أولادهما. وعن نسائهما وحياتهما؟ ما أكبر الفرق بينهما!

٥

إذا كانت هذه الفوارق متعلّقة بهنيهات قصيرة تفصل بين ولادة التوائم ولا يمكن الإعلان عنها إلّا بواسطة مجموعة نجومها فلِمَ التكهّن بمثل تلك الأمور لدى رؤية نجوم الآخرين؟ وإن كان الإنسان يتحدّث مسبقًا عن تلك الظروف فلأنّها لا ترتبط بتلك الهنيهات بل بأوقات حقيقيّة من الزمن تلاحَظ وتُقاس؛ فما النفع هنا من دولاب خزاف إن لم يكن لكي يحرّك صلصال قلوب بشريّة ليمنع المنجّمين من الاعتقاد بتكهّناتهم الكاذبة والباطلة؟ وهذان الشقيقان اللذان يخفّ مرضهما أو يزداد في الوقت عينه فيعرف هيبوكرات من خلال ذلك أنّهما توأمان، ألا يدحضان علنًا الضلال الذي يعزو إلى الكواكب حدثًا ناتجًا عن تشابه في الطبع؟ ولِمَ يتألّمان معًا في الوقت عينه ولا يتألّم أحدهما بعد الآخر، تطابقًا مع نظام ولادتهما غير المتزامنة؟ أو إذا كان الفرق في ساعة الولادة

غير ذي شأن فيفسح مجالًا زمنيًّا بين مرضيهما فلِمَ نعطيه أهمّيّة كبرى بالنسبة إلى سائر أحداث الحياة؟ لِمَ استطاعا أن يتزوّجا ويسافرا ويلدا أولادًا في أوقات مختلفة وليس عليهما أن يكونا مريضين معًا؟ لأنّه إن كان زمن الولادة قد أثّر في البرج وتسبّب بتلك المتناقضات فلِمَ لم تستطع المساواة في زمن الحبل أن تستمرّ إلى حادث المرض الوحيد؟ إن ربطنا مصير الصحّة بالحبل والباقي في الولادة فهل يبقى علينا أن نلحظ برج الولادة لنعطي جوابًا حول الصحّة عندما يبوء بالفشل كلّ مسعى لمعرفة ساعة الحبل؟ وإن تنبّأ المرءُ عن الأمراض من دون أن يستشير برج الحبل لأنّ برهة الولادة تشير إليه فكيف له أن يحكي مسبقًا للتوأمين عن زمن ولادتهما عندما يمرض أحدهما ما دام أنّ البرهة الفاصلة بين ولادتهما لا يسعها أن تمنعهما من أن يكونا مريضين في الوقت عينه؟ وإن مرّ في الولادة زمن طويل نوعًا ما فتغيّر كلّ شيء كالأبراج والنجوم والأصول التي تُعزى إليها عمليّة تغيير المصائر فكيف يصير ذلك عندما لا يمكن لزمن الحبل أن يكون مختلفًا؟ إن اجتمع توأمان في الحبل واختلفا في الولادة فلِمَ يقود التعاقبُ في الولادة إلى وحدة مصير في الحياة وفي الموت؟ لأنّه إن لم تمنعهم الوحدة في الحبل من أن يولدا الواحد بعد الآخر فلِمَ تمنعهما الوحدة في الحبل من أن يولدا الواحد بعد الآخر؟ ولِمَ تمنعهما وحدة الولادة من أن يموتا الواحد قبل الآخر؟ إن كانت الوحدة في الحبل تسمح بحوادث متنوّعة في حشا الأمّ، لِمَ لا تسمح الوحدة في الولادة بحظوظ متنوّعة على الأرض؟ وقضاءً على كلّ الأوهام الناتجة عن ذاك الفنّ أو هذا التدجيل، ماذا نقول؟ كائنان يُحبل بهما في الوقت نفسه وفي الهنيهة عينها تحت البرج السماويّ نفسه يكون لهما مصيران

مختلفان، وولدان آخران من والدتين مختلفتين ولدا تحت الأبراج ذاتها ليس لهما مصير مختلف يغيّر لهما ظروف الحياة والموت! فلِم القول إن عُرفتْ ساعة الحبل أعطى المنجّمون أجوبة إلهيّة حقًّا؟ ومن أين لذاك الإنسان الحكيم الذي كما يقال اختار الساعة المناسبة ليكون له من زوجته ابنٌ ذكيٌّ جدًّا؟ لقد أضاف هذه الكلمة خوفًا من أن ينكر الناس عليه التزامن التامّ في الولادة على الرغم من التزامن التامّ في الحبل، رافضًا أن ينسب إلى تشابه في الطبع، ذاك التشابه عينه في المرض، رابطًا صحّة كلّ منهما بربط سماويّة تحت تأثير الكواكب. وعليه فإن كان الحبل قديرًا إلى هذا الحدّ بحيث يقيم مساواة بين المصائر فلا يمكن الولادة أن تغيّر فيها؛ أمّا إن كانت مصائر التوائم تتغيّر لكونهم يولدون في أوقات مختلفة فلِمَ لا نسمّيها متغيّرة فنضع بين ولادتهم فارقًا زمنيًّا؟ وهل يمكن إرادة الأحياء ألّا تغيّر شيئًا في مصائر الولادة ما دام أنّ نظام الولادة يغيّر في مصائر الحبل؟

٦

عندما يتمّ الحبل بالتوائم في الوقت عينه تحت مجموعة الكواكب ذاتها، يكون أحدهما ذكرًا والآخر أنثى؛ إنّي أعرف توأمين مختلفَي الجنس لا يزالان على قيد الحياة وفي عزّ عمرهما؛ يتشابهان حقًّا، ما أمكن ذلك، والجنس مختلف؛ أمّا في ما يختصّ بطريقة حياتهما وعاداتهما، خلا المسافة الضروريّة التي تفصل بين أفعالهما كرجل وامرأة؛ فيا للفرق بينهما! أحدهما زعيم عسكريّ، غائب دومًا؛ والثانية لا تغادر البتّة

وطنها ولا أرضها. والعجيب في أمرهما إذا اعتقد المرء بالحتميّة السماويّة وليس فيها ما يدعو إلى العجب إن تأمّل الإنسان الحرّيّة التي يتمتّع بها والنِعَم الإلهيّة عليه؛ أحدهما متزوّج والأخرى عذراء قدّيسة؛ ذاك ربّ عائلة كبيرة والثانية متبتّلة. ويقال إنّ ذاك من تأثير البرج في حين أظهرتُ، بما فيه الكفاية، بطلانه. إنّ ذاك التأثير، أيًّا كان، غيرُ مقبول، إلّا على صعيد الولادة؛ ولا مجال له في الحبل الناتج طبعًا عن الفعل ذاته. أليس من الطبيعيّ أنّ المرأة التي حبلت بولد لا تستطيع أن تحبل بآخر؟ ينتج عن ذلك حتمًا أنّ الحبل بالتوائم فعل آنيّ. وهل يقولون إنّ مَن يولدون تحت برج واحد يغيّرون في الجنس فيصبح أحدهما ذكرًا والأخرى أنثى؟ وليس من السخافة الكلّيّة القول بأنّ بعض المؤثّرات السماويّة تفعل فعلها في التغيّرات الخارجيّة الجسديّة. فالحركة الشمسيّة تقرّر التغيير في الفصول وبحسب الوجوه التي يتّخذها القمر من مدٍّ وجزر. أضف إلى ذلك حركات المدّ والجزر في الأقيانوس، نرى كائنات حيّة وقنافذ بحريّة وأسماكًا تتكاثر أو تنقرض. أمّا أن ترتبط إرادات النفس بأوضاع الكواكب فهذا ما لا نراه. ماذا أقول؟ أن نربط بها أفعالنا هذا يعني أنّنا مدعوّون إلى البحث عن دوافع، تحريرًا للأجساد من تأثيرها. وهل من شيء جسديّ أكثر من الجنس؟ ومع ذلك تحت مجموعة من الكواكب السماويّة يحبل بتوأمين مختلفَي الجنس. وهل أشدّ حمقًا من القول أو الاعتقاد بأنّ الأصل الواحد لم يستطع أن يعطيهما الجنس ذاته في الحبل وأنّ برج الولادة استطاع أن يضع بينهما المسافة الكاملة التي تفصل بين الزواج والتبتّل المقدّس؟

٧

آه! مَن ذا الذي يقبل بأن يقال إنّ الناس إذا ما اختاروا الأيّام يستطيعون أن يجعلوا لأنفسهم مصيرًا جديدًا؟ إنّ ذاك الرجل لم يولد ليكون له ولد جدير بالإعجاب بل بالازدراء، وهو الذي اختار الوقت للمجامعة ولهذا فقد اختار المصير الذي لم يكن له ومنذئذ بدأت بالنسبة إليه حتميّة لم يكن يعرفها ساعة ولادته. يا لغرابة الجنون! يختار الإنسان يومًا لزواجه ولا شكّ في أنّه يفعل ذلك خوفًا من الوقوع على يوم سيّئ ويتزوّج تحت أسوأ طالع؛ وكيف تصبح آنذاك مصائر الولادة؟ وهل يستطيع الإنسان الذي يختار يومًا أن يغيّر في ما تعدُّه له الكواكب؟ وهل يكون ما يهيّئه له اختياره في حمّى من قوّة غريبة؟ إن كانت التأثيرات السماويّة تطاول الناس دون سواهم فلِم يختار الإنسانُ أيّامًا للزرع وأخرى لينصب الكرمة والأشجار وأيّامًا لترويض الحيوانات وأخرى لإخصاب الفرس والبقر وتكاثر الغنم؟ وهل يقولون إنّ اختيار الأيّام في هذا الموضوع أمر هامّ لأنّ كلّ الأجسام الحيّة والجامدة تقع وفقًا لاختلاف الأوقات تحت تأثير الكواكب؟ ولكن على الإنسان أن يتأمّل في عدد الكائنات التي تولد وتبدأ في الوقت عينه مع أنّ نهايتها تختلف؛ حتّى إنّ ولدًا عاديًّا يفهم من دون صعوبة تلك الملاحظات السخيفة. وهل من إنسان، في الواقع، غريب الأطوار يتجاسر ليقول إنّه ليس لشجرة أو حيوان أو نبتة أو سمكة أو عصفور أو حشرة إلخ... برهة للولادة؟ ومع ذلك، واختبارًا لعلم المنجّمين، غالبًا ما يقدّمون لهم أبراج الحيوانات، فيقوم الكثيرون بينهم بملاحظات دقيقة على

الحيوانات الداجنة ويفضّلون ملاحظات المنجّمين الذين يجيبون بعد اطّلاع بأنّ تلك الأبراج ليست لإنسان بل لحيوان حديث الولادة، ثمّ يقولون عن جنسه هل هو ذو صوف، صالح للعربة أو للحراثة أو لحراسة البيت. كما يؤخذ رأيهم حول مصائر الكلاب وتستصرخ تلك الأجوبة إعجاب الناس؛ وهل يدفع هذا الهذيان بالناس إلى الاعتقاد بأنّ ولادة إنسان توقف خصوبة الطبيعة ومعه تحت المجموعة السماويّة عينها لا مجال لولادة ذبابة؟ لأنّهم لو قبلوا بهذه الحشرة لدفعهم تفكيرهم تدريجًا من إنجاب ذبابة إلى إنجاب جَمَل وفيلة؛ بيد أنّهم لا يلحظون بالرغم من اختيار أيّام للزراعة. فهناك عدد كبير جدًّا من الحبوب تقع وتموت معًا في الأرض ثمّ تنبت وتنمو وتبيض للحصاد معًا، على أنّ بعض تلك السنابل المتساوية في العمر والأصل نوعًا ما تأكله الحشرة والطيور وبعضه يقتلعه الناس. وهل يقولون إنّ مجموعة من النجوم متنوّعة حدّدت المصائر المختلفة لهذه السنابل؟ وهل يخجلون من هذا الاختيار للأيّام ويرفضون أن يكون للعلل السماويّة أيّ تأثير على هذه الأشياء كي يخضعوا لطاقة الكواكب الإنسان دون سواه، الكائن الوحيد فوق هذه الأرض الذي يمتّعه الله بإرادة حرّة؟ إن تأمّلنا في هذا الموضوع وجب علينا أن نؤمن بأنّه إن اجتذب المنجّمون بأجوبتهم الصحيحة إنذهال الناس أحيانًا، فليس ذلك نتيجة علم مزعوم لبرج وهميّ كلّيًّا بل وحي خفي لأرواح خبيثة وحماسة من قبلهم لنشر تلك الآراء الخبيثة والكاذبة في النفوس البشريّة حول الحتميّة السماويّة؟

٨

غموض على درب الحقيقة

أمّا الذين يسمّون قدَرًا ترابط علل الأحداث ونظامها، وليس الوضع الذي تتّخذه الكواكب من كل حبل وولادة ونهاية، فليس لنا أن نناقشهم فيه جدِّيًا ما داموا ينسبون نظام العلل وأسبابها إلى إرادة الله العليّ القدير الذي نعرفه حقًّا، عالمًا بكلّ شيء قبل حدوثه، ومدبّرًا لكلّ شيء، هو الذي يهب الإنسان قواه جميعها وإن لم تكن إرادات الإنسان كلّها صادرة عنه. وعليه فتلك هي مشيئة الله الذي يطال، بسلطان له، لا يقهر، كلّ ما يسمّونه قدَرًا، وفق ما تبرهن عنه أبيات سِينيك (Sénèque) الشعريّة، على ما أظنّ، حيث يقول: «خذني أيّها الآب السامي إن شئت، يا ربّ الأولمب، وأنا مطيع لك من دون تردّد؛ إن رفضت بكيت؛ عليّ أن أرافقك؛ أتحمّل ساخرًا ما يمكنني أن أعمله راضيًا؛ القدر يقود الإرادات ويجرّ المقاومين» (*Ad Lucilium*).

إنّ هذا البيت الأخير من الشعر يسمّي بوضوح قدَرًا ما يسمّيه الشاعر في ما سبق إرادة الآب السامي ويقرّ بأنّه مستعدّ لطاعته حرًّا، لا مرغمًا، وذاك ما يعنيه أيضًا هوميروس في شعره الذي ترجمه شيشرون: «يسير قلب الإنسان يومًا بعد يوم وفق توجيهات أبي الآلهة والبشر».

لا يُعتبر شعور كهذا مرجعيّة يُركن إليها؛ ولكن بما أنّ شيشرون يقول لنا إنّ الفلاسفة الرواقيّين تعوّدوا أن يتّخذوا أشعار هوميروس تركيزًا لقدرة القدر فلم تُعدّ فكرة الشاعر مرجعًا، بل رأي الفلاسفة

الذين يوضحون، من خلال طرح الموضوع على بساط البحث، فكرتهم عن القدر ويسمّونه باسم جوبيتر الإله السامي الذي به يناط ترابط الأقدار.

٩

ينشط شيشرون إلى العمل على دحض آراء هؤلاء الفلاسفة؛ ولا يعتقد بأنّه قادر على ذلك ما لم يقض على العرافة؛ ولهذا نراه ينكر معرفة المستقبل في الله وفي الإنسان. ولا مجال البتّة للتنبّؤ؛ وعلى هذا النحو، إذ ينكر على الله هذا العلم وكلّ نبوءة، وإن تكن أكثر وضوحًا من النهار، نراه يحاول أن يقضي عليها بتحليل عبثيّ استنادًا إلى أجوبة منسوبة إلى الآلهة، يسهل تكذيبها، على أنّه لا ينجح فيها؛ وما دام الموضوع ينحصر في تكهّنات المنجّمين التي تدحض ذاتها فتتلاشى، فالنصر حليفه. بيد أنّ خصومه، هم أيضًا، لا عذر لهم حين يقولون بحتميّة سماويّة وخطأهم أفظع من خطإه، حين ينكر كلّ معرفة للمستقبل لأنّ الاعتراف بالله وعدم الإقرار له بمعرفة المستقبل، جنونٌ فاضح؛ إنّه يشعر بذلك جيّدًا ويسعى إلى تبرير ينتقده الكتاب المقدّس بقوله: «قال الجاهل في قلبه ليس إله» (**مزمور ١٣/ ١**). إنّه لا يتكلّم من تلقاء نفسه، وفيما يدرك ما لهذا الكلام المقيت من مخاطرَ يَكِلُ إلى كُوتا (Cotta) الدفاع عن هذا الرأي ضدّ الرواقيّين في مقالته «طبيعة الآلهة». ويؤيّد بَلبُوس ويعهد إليه بالدفاع عن تعاليم الرواقيّين ضدّ كوتا المنكر لكلّ وجود إلهيّ. لكنّه، في كتبه «في التكهّن»، يهاجم مباشرة علم الغيب، وعلى

ذاك النحو يتابع لئلّا يضطرّ إلى الاعتراف بالقدر والتضحية بالحرّيّة، إذ من المستحيل القبول برجم الغيب ورفض القدر كنتيجة حتميّة ومفروضة. لندع الفلاسفة في لولب تناقضاتهم التي لا مفرّ لهم منها، نحن معشر العارفين الإله الواحد الحقيقيّ السامي، والمعترفين كذلك بإرادته وقدرته السامية وعلمه المسبق للأمور؛ ولا نخشى من أن تصبح إرادتنا غريبة عن أفعالنا لكونه سبق وعرفها هو العليم الذي لا يغلط؛ وذاك الخوف هو الذي دفع بشيشرون إلى محاربة فكرة العلم المسبق وحمل الرواقيّين على إنكار الشموليّة الحتميّة، وإن قبلوا بسلطان القدر. وما الذي يخشاه شيشرون في رجم الغيب ليقضي بخطبه الممقوتة على كلّ قناعة به؟ وهل يخشى من التكهّن عن المستقبلات على حدوثها في النظام المتوقّع ومن أن يدخل حدوثها نظامًا ثابتًا في علم الله في المستقبل؟ وهل يخشى من أن يخلق نظام الأحداث الأكيد نظامًا أكيدًا للعلل؟ (وهل يحدث ما لا تسبقه علّة فاعلة؟). إنّ نظام العلل الأكيد هذا يُخْضِعُ، كما يقول، كلّ ما يحدث للحتميّة؛ ولن يبقى شيء يستطيع الإنسان أن يفعله؛ ولن تعود الإرادة حرّة، حتّى إذا قبلنا بهذا الشيء يُقضى على الحياة البشريّة بكليتها؛ عبثًا تُسَنّ القوانين وعبثًا التأنيب والمديح؛ عبثًا اللوم والتشجيع؛ ولم يَعُدْ من عدل لمكافأة الصالحين ومعاقبة الأشرار. وإبعادًا لهذه النتائج الغريبة، السخيفة والمؤذية للمجتمع البشريّ، فإنّ شيشرون يرفض علم الغيب ويجعل النفس تختار بين هذين الرأيين: إمّا أن يكون بعض الأشياء متعلّقًا بإرادتنا أو القبول بالعلم المسبق. وهذان الرأيان على ما يبدو له، متناقضان. القبول بواحد منهما، بحسب رأيه، ينقض الآخر،

واختيار العلم المسبق ينقض حرّيّة الاختيار؛ واختيار حرّيّة الرأي يقضي على العلم المسبق؛ وعلى هذا الشكل بصفته إنسانًا عالمًا وعاقلًا تصبّ تأمّلاته لمصلحة المجتمع المدنيّ ويقرُّ بحرّيّة الاختيار فيقضي على العلم المسبق ويزعم أنّه يبني الحرّيّة على انتهاك المقدّسات هذا، في حين الفكر الدينيّ الصحيح يختار كليهما ويعترف بكليهما ويضعهما على أسس الإيمان والتقوى. وكيف ذلك؟ يقول شيشرون: إن كان من معرفةٍ مسبقةٍ للمستقبل فالاستنتاجات الحتميّة المُرتبطة بكلّ ما يتبعها تقودنا إلى الاعتراف بأنّه لا شيء يتعلّق بإرادتنا، وإن تعلّق شيء ما بإرادتنا عدنا بالدرجات ذاتها إلى إنكار العلم المسبق. وفي الواقع إن كانت للإرادة حرّيّة الاختيار فلا عمل للقدر وإن لم يكن للقدر من عمل فنظام الأشياء ليس ثابتًا وإن لم يكن ثابتًا فلا مجال له في علم الله المسبق إذ لا حدث دون سبب فعّال. وإن لم يكن نظام الأشياء ثابتًا في علم الله المسبق فلا يمكنها أن تكون وفق ما أُقرّ لها من نظام ويُستنتج في النهاية أنّ ليس في الله علم المستقبل.

معرفة الله لكل شيء قبل أن يكون

ونقول في مواجهة تلك الجسارة الأثيمة إنّ الله يعرف كلّ شيء قبل أن يكون؛ وإرادتنا تعمل ما نعرف وكلّ ما نشعر بأنّنا لا نعمله لأنّنا نريد. أمّا أن يأتي كلّ شيء عن طريق القدر فهذا ما لا نقوله؛ بل بالحريّ نقول ما من شيء يحدث بالقدر لأنّ القدر بمعناه اللفظيّ العاديّ وبصفته يشير إلى مجموعة الكواكب السماويّة المشرفة على الحبل أو الولادة هو اسم باطل كالموضوع الذي يعبّر عنه. أمّا نظام

العلل الذي تسيطر عليه إرادة الله سيطرة تامّة فلسنا نجهله ولسنا نسمّيه قدرًا إلّا إذا أخذناه من لفظة تعني بالعربيّة «حكى»؛ وفي الواقع من المستحيل أن ننكر أنّه ورد في الكتب المقدّسة: «تكلّم الله مرّة وثانية والذي سمعته أنّ العزّة لله. ولك أيّها السيّد الرحمة وأنت تجزي الإنسان بحسب أعماله». (مزمور ٦١: ١٢). عندما كُتب: «الله تكلّم مرّة»، فهذا يعني أنّ كلامه ثابت لا يتغيّر؛ لأنّه يعلم كلّ ما سيكون وما سوف يفعله؛ ولا تغيير في معرفته. وعليه يمكننا أن نشتقّ كلمة فاتُم (fatum) من fari، أي تكلّم، هذا إذا لم تكن اللفظة تعني ما لا نريد أن يميل الناس إليه بقلوبهم؛ وما دام نظام الأشياء ثابتًا في قدرة الله فإرادتنا لا تفقد حرّيّتها لأنّ إرادتنا هي ذاتها في نظام العمل الثابت في الله، المغمور بعلمه المسبق، لأنّ الإرادات البشريّة هي علل الأفعال البشريّة؛ وبالتأكيد فالذي يسيطر بقدرته على كلّ العلل لا يتجاهل إراداتنا التي سبق وعرفها، سببًا لأفعالنا؛ وإذا قبلنا بهذا المبدأ الذي يقول به شيشرون أنْ لا شيء يحدث إلّا إذا سبقته علّة فعّالة فحسبنا أن ندحضه هنا؛ وما نفعه من أن يقول: صحيح أن لا شيء بلا سبب، ولكن ما كلّ شيء محتوم، لأنّ الأسباب منها ما هو مصادفة، أو طبيعيّ، أو إراديّ؛ وحسبنا أن يُعترف بأن لا شيء يحدث إلّا بفعل علّة سابقة لأنّ ما يقال عنه إنّه وليد الصدف فلا ننكر حدوثه؛ بل نقول إنّ أسبابه خفيّة وننسبها إلى إرادة الله الحقّ، أو إلى أرواح، أيًّا تكن؛ والأسباب الطبيعيّة فلسنا نفصلها عن إرادة الله خالق الطبيعة وسيّدها؛ أمّا العلل الإراديّة فهي في الله، في الملائكة وفي البشر أو في الحيوانات، إن كنّا نسمّي إرادة تلك الحركات الغريزيّة التي تدفع بالحيوان

إلى أن يسعى إلى الخير ويتجنّب الشرّ؛ وعندما أقول إرادات الملائكة أعني الملائكة الصالحين أو ملائكة الله والأشرار هم الشياطين كما هي حال إرادات الناس الصالحين والأشرار، فينتج عن كلّ ذلك أن ليس من علل فعّالة لكلّ ما يحدث سوى العلل الإراديّة المنبثقة من هذه الطبيعة التي هي روح حياة؛ لأنّ الهواء أو الريح يسمّى أيضًا روح؛ بيدَ أنّه جسم وليس روح حياة؛ روح الحياة يحيي كلّ شيء؛ إنّه يخلق كلّ جسم وكلّ روح مخلوق؛ إنّه الله بالذات، الروح غير المخلوق. إرادته كلّيّة القدرة؛ يمدّ بعونه الإرادات الصالحة في الأرواح المخلوقة، ويقاضي الشرّيرة ويأمر الجميع؛ يعطي بعضها فاعليّة ويحرم منها بعضها الآخر؛ وبما أنّه خالق كلّ شيء، يعني أنّه يعطي كلّ قدرة من دون أن يخلق فينا الإرادة. الشرّيرة ليست منه لأنّها مخالفة للطبيعة التي لنا منه؛ والأجساد تخضع للإرادة؛ بعضها لإرادتنا، لكلّ ما هو للحيوان أو بالأحرى للبشر، لا للحيوان؛ وبعضها الآخر للملائكة على أنّها جميعًا تحت إرادة الله السامية التي بها تتعلّق كلّ إرادة ومنها تستمدّ القوّة التي يمدّها بها؛ وعلى هذا النحو فإنّ تلك العلّة المطلقة التي تعمل كلّ شيء وليست مخلوقة هي الله. أمّا سائر العلل الأخرى فهي تعمل وهي أيضًا آتية من آخر؛ وفي هذا النظام هي كلّ الأرواح المخلوقة ولا سيّما الأرواح العاقلة. إنّ العلل الطبيعيّة المصنوعة وغير الصانعة لا تصنّف بين العلل الفاعلة؛ لأنّها لا تستطيع سوى ما تعمل منها الإرادات الفكريّة؛ وعليه فكيف لنظام العلل، الثابت في علم الله المسبق، ألا يجعل شيئًا متعلّقًا بإرادتنا، في حين تشغل إرادتنا هذا المقام الرفيع في نظام العلل بالذات؟ لندع شيشرون في خلافه مع مَن

يقولون إنّ نظام العلل حتميٌّ أو يسمّونه بالأحرى قدرًا؛ ذاك رأي رهيب لكونه يستعمل لفظة قدَر في معنى غير مألوف؛ ولكن عندما ينكر على نظام العلل ثباته وعلى الله علمه المسبق يثير فينا خوفًا أكثر ممّا يثير في الرواقيّين: فإمّا أنّه ينكر وجود الله كما فعل في كتابه «طبيعة الآلهة» تحت اسم محاور آخر أو يعترف بوجوده رافضًا له علم المستقبل؛ وماذا يقول سوى ما قاله الأحمق في قلبه: «ليس إله»؟ فالكائن غير العليم بالمستقبل ليس الله؛ وعليه، فإرادتنا لا تتمتّع بالقدرة بقدر ما أراد الله لها ورسم؛ ولهذا فكلّ ما تستطيعه، بكلّ تأكيد تستطيعه، وكلّ ما عليها أن تعمله؛ فبحقّ تعمله؛ لأنّ كلّ ما لها من قدرة وفعل، فمنه استمدَّت كلّ ذلك، لأنّه عليم ومعصوم عن الخطأ؛ ولو كان لي أن أستعمل كلمة قدَر لقلت إنّ قدَر الضعيف إرادة الأقوى الذي يتعلّق به الضعيف؛ ولا أقبل بنظام العلل الذي يسمّيه الرواقيّون قدرًا وقد حوّلوه عن معناه العاديّ فألغى حرّيّة الاختيار في إرادتنا.

١٠

حذار الخوف من تلك الضرورة التي يخشاها الرواقيّون فيسعون إلى التمييز بين العلل، وإلى تحرير بعضها من الضرورة وإخضاع بعضها الآخر لها ويضعون إراداتنا بين العلل المستقلّة لأنّها لو كانت ضروريّة لما كانت حرّة. وفي الواقع، إن كانت هذه الضرورة تعني العلّة التي ليست في مقدورنا وتعمل بحسب ما لها حتّى ضدّنا كما هي ضرورة الموت فإنّ إراداتنا التي تجعل

حياتنا صالحة أو شرّيرة لا تخضع لضرورة مماثلة لأنّنا نفعل أشياء كثيرة، وإذا رفضت فينا الإرادة توقّفنا عن العمل وعمل الإرادة هو التالي: إن أردنا كان العمل وإلّا فلا؛ نحن لا نتمنّى إن لم نرد؛ لنتّخذ الضرورة سببًا يحملنا على أن نقول: «من الضروريّ أن يكون هذا وعلى هذا النحو يكون؛ فما الداعي إذًا إلى الخوف من أن تفقد إرادتنا حرّيّة الاختيار؟» وفي الواقع أنضع تحت حكم الضرورة حياة الله وعلمه المسبق قائلين: «من الضروريّ أن يحيى الله إلى الأبد ويعرف كلّ الأشياء بعلم مسبق؟» وهل نقلّل من قدرته إذا قلنا: «إنّه غير مائت ولا يستطيع أحد أن يغشّه؟» لو كان عرضة لهذا أو ذاك لكان أقلّ قدرة؛ ولكن بما أنّه غير مائت ولا يمكن أن يغشّ سمّي بحقّ القدير. إنّه القديرُ لأنّه يعمل ما يريد ولا يقبل ما لا يريد وإلّا لما كان قدّوسًا وما من شيء يستحيل عليه لأنّه كلّيّ القدرة. وهكذا حين نقول: «من الضروريّ أن نريد بحرّيّتنا» نقول حقيقة، لا شكّ فيها، علمًا بأنّنا لا نُخضع اختيارنا الحرّ إلى الضرورة التي تقضي على حرّيّتنا. إراداتنا ملكٌ لنا؛ وتعمل ما نعمل بإرادتنا، وما لا نعمل؛ لأنّنا نرفض عمله. وعندما يتألّم إنسان، رغما عنه، بإرادة آخرين، وذاك أيضًا بفعل الإرادة وليس بإرادة مَن يتألّم بل بإرادة الله القدير؛ ولو كانت المسألة مسألة إرادة عاجزة عن التأثير فهذا يعني أنّها وجَدتْ عائقًا أمامها في إرادة أقوى قد تكون الإرادة الشخصيّة لهذا الإنسان وإن عجز عن إتمامها وليس عليه أن ينسبها إلى البشر ولا إلى إرادة الملائكة ولا إلى أرواح مخلوقة بل إلى إرادة الله الذي وحده يولي الإرادات القدرة.

فلا يجوز، على هذا الأساس، أن نستنتج أن لا شيء متعلّق

بإرادتنا لأنّ الله استدرك مسبقًا كلّ ما يتعلّق بها مستقبلًا لأنّ ما يعلمه مسبقًا هو ذو قيمة وإن كان لعلمه هدف؛ فهذا لا يمنع من أن يكون شيء ما متعلّقًا بإرادتنا؛ وفي النهاية لسنا محشورين أمام أمرين: إنكار حرّيّة الاختيار حفاظًا على علم الله المسبق أو إنكار علم الله هذا حفاظًا على حرّيّة الاختيار. غير أنّنا نعانق تلك الحقيقتين ونجاهر بهما معًا بقلب مخلص وصادق. أحدهما يعلن عن استقامة الإيمان فينا والآخر عن طهارة أخلاقنا. يعيش الإنسان عيشة سيّئة إذا لم يكن يؤمن بالله كما يجب؛ حاشا لنا أن ننكر، لكي نكون أحرارًا، العلم المسبق لمَن تجعلنا نعمته آنيًا ومستقبلًا أحرارًا! وليس من العبث أن يستدرك الله قوانين وثناء ولومًا وتشجيعًا وأمورًا أخرى كثيرة تعطي الإنسان القوّة التي يشاءها الله؛ فالصلاة تساعد على الحصول على كلّ ما أراد الله أن يهبه بواسطتها؛ ومن العدل أن يكافأ الإنسان على أعماله الصالحة ويعاقَب على خطاياه، فالإنسان لا يخطأ لكون الله يعرف مسبقًا بخطإه والإنسان عندما يخطأ يكون بلا شكّ مسؤولًا عن خطيئته. ويرى الله بعلمه المسبق المعصوم من الخطأ أنّ الإنسان هو الذي يخطأ ولا مجال فيه للقدر ولا للحظّ ولا لأيّ شيء آخر ولو أنّه تمتّع بإرادة قويّة لما خطئ أبدًا علمًا بأنّ إرادته تلك يعرفها الله مسبقًا.

١١

الله هو الخالق كلَّ شيء

إنّ الإله السامي الحقّ، مع كلمته وروحه القدّوس، الثالوث الواحد، الإله الواحد القدير الخالق لكلّ نفس وجسد، ينبوع

السعادة لكلّ مَن هو سعيد حقًّا، وليس عن بطلان؛ هو الله الذي صنع الإنسان، حيوانًا عاقلًا، مركّبًا من نفس وجسد، الذي ما ترك الإثم بلا عقاب، ولا الضعف بلا رحمة، بعد خطيئة الإنسان؛ هو يعطي الصالحين والأشرار الكينونة، مع الحجارة والحياة النباتيّة مع النبات، والحياة الحسّيّة مع البهائم، والحياة العقليّة مع الملائكة دون سواهم. إنّه مبدأ كلّ قاعدة وجمال ونظام وقياس وعدد ووزن وأصل كلّ إيلاد طبيعيّ، أيًا كان نوعه وثمنه؛ أصل بذور الأشكال وشكل البذور وحركة البذور والأشكال. لقد خلق الجسد بما عليه من جمال وقوّة وخصب فرتّب أعضاءه ونسّق في ما بينها، ووهبها القوّة؛ هو الذي وهب النفس، غير العاقلة، الذاكرة والحسّ والقابليّة، ووهب العاقلة العقل والحرّيّة؛ هو الذي يرعى السماء والأرض، الملاك والإنسان ولا يترك شيئًا حتّى التركيبة الداخليّة لأحطّ حشرة وحتّى ريش الطير وأصغر زهرة في الحقول وورقة الشجر دون التناسب والوحدة الضيّقة بين أجزائها؛ فهل يعقل أن يكون قد ترك ممالك البشر ورؤساءهم وخدمهم خارجًا عن سنن عنايته؟

١٢

حبّ الرومان للمجد العالميّ

وأيًا كانت فضائل الرومان حتّى تنازل الله وساعدهم على توسيع مملكتهم، هو الذي يقبض بيده على ممالك الأرض بأسرها؟ لقد بيّنّا في الكتاب السابق عجز الآلهة الذين يكرّمون بألعاب سخيفة، وذلك في مباشرتنا درس هذا الموضوع كما

تكلّمنا في بداية هذا الكتاب عن بطلان القدَر خوفًا من أن تؤثّر عبادة أولئك الآلهة ببعض العقول فتعزو تقدّم الإمبراطوريّة واستمراريّتها إلى قدَر مجهول، بدلًا من أن تعزو الفضل فيها إلى إرادة الله السامي القدير. لقد عبد الرومان الأوّلون الآلهة الكذبة كسائر الأمم وهذا صحيح؛ ولكن شذَّ عنهم الشعب العبرانيّ وحده؛ وإذ قدّموا ضحايا إلى الأبالسة، من دون الله، شهدت لهم المباني على مدى التاريخ لرغبتهم الجامحة وظمإهم إلى المال؛ فاكتفَوا بقليل من الثروة ولكنّهم لم يشبعوا من المجد الذي أحبّوه حبًّا فائقًا فآثروا أن يحيوا من أجله؛ وما تردّدوا عن الموت في سبيله فخنقت هذه الشهوة في قلوبهم سائر الشهوات؛ وكانوا يخجلون من أن يكون وطنهم في العبوديّة كما أنّ المجد يتوق لديهم إلى السيطرة والتسلّط؛ كانوا يطمحون قبل كلّ شيء إلى أن يجعلوا وطنهم حرًّا، ثمّ سيّدًا على الكلّ؛ وإذ ضاقوا ذرعًا بالتسلّط الملكيّ خلقوا سلطة واحدة ورئيسين إلى سُنّة سمّوها قنصلين لا تقلّ كراهيّتهم لهما عن تلك التي للملك أو للسيّد الذي لا يضع إدارة حكيمة ترأف بالناس بل الأبّهة والصلف والاستبداد. ما الذي جرى بعد طرد تركوينوس وإقامة القناصل؟ التاريخ القديم يشهد له تمجيدًا للرومان قائلًا: «روما التي أصبحت سيّدة حرّة راحت تنمو، بسرعة لا توصف، لشدّة ما سيطرت شهوة المجد على القلوب! فالعطش إلى المديح والتوق إلى الشرف، كانا في أصل المآثر الرائعة والبطوليّة بحسب رأي الناس». ويقول أيضًا سلُّستس عن شخصين اشتهرا في عصره هما كاتون والقيصر: «لقد أصيبت الجمهوريّة بالعُقم، في ما يختصّ بالفضائل، غير أنّ هذين الرجلين اللذين كانا معاصرَين لي، هما على جانب كبير

من الفضل وطيب الأخلاق». (سلّستس، **كاتيلينا** ٥٣/٥). فكان لقيصر لقبُ شرفٍ إذ اشتهى سلطانًا واسعًا وجيشًا وحربًا جديدة يلمع نجمه فيها؛ وعلى هذا النحو على مثال بلّون (Bellone). وبينما حرّك سوطه الدامي دفع إلى المعركة بأمم تعيسة وهو ما يصبو إليه عظام الرجال ليتمكّنوا من استعراض قوّتهم. تلك هي العواطف التي يثيرها فيهم شوق جامح إلى المجد والعظمة: إنّه في البداية حبّ الحرّيّة ثمّ التسلّط وأخيرًا شهوة العظمة التي تلد البطولة، وتلك شهادة يؤدّيها لهم شاعرهم الكبير في الأبيات التالية: «طرد تاركوينوس فأمرهم أورْسَنا بأن يستقبلوه؛ وضيّق الحصار على روما، غير أنّ أبناء إينيه (Énée) أسرعوا إلى الموت في سبيل الحرّيّة» (فرجيل، **إنييد** ٦٤٦/٨)، ذاك الشيء الوحيد الذي كانوا يطمحون إليه وهو أن يموتوا كرامًا، أو يعيشوا أحرارًا. أحرار طفحت قلوبهم بحبّ المجد؛ لا تُعَدّ الحرّيّة شيئًا إذا لم تكن مقرونة بالتسلّط؛ إنّهم يتمنّون المستقبل الذي يبشّر به الشاعر بلسان جوبيتر: «إنّ جونون الرهيبة اليوم إلى حدّ كبير، التي أنهكت البحر والأرض والسماء بانتقامها، ستعود إلى قرارات أرقّ وألطف: سوف تدافع معي عن الرومان أسياد العالم وهم القوم اللابسون الحلّة الرومانيّة؛ تلك هي إرادتي. إنّ الأجيال على مداها سوف تأتينا باليوم الذي تُخضع فيه ذرّيّةُ أسّاراكُوس (Assaracus) تحت نيرها فْتِيًا (Phthie) أي مِيسانَ (Mycènes)(*) الشهيرة وتسيطر على أرْغُوس بعد هزيمتها. كلّها وعود وضعها فيرجيل بمثابة تنبّؤات على لسان جوبيتر سوف يرى تحقيقها، مكتملة؛ ولكن بينا أذكّر بهذه الأمور أردت أن أبيّن أنّ

(*) ميسان هي مدينة يونانيّة.

الرومان بعد الحرّيّة كانوا يتوقون، من كلّ قلوبهم، إلى التسلّط الذي يجدون فيه مجدهم. ولهذا فإنّ الشاعر يفضّل على فنون الأمم الغريبة فنّ الحكم والقيادة وإخضاع الشعوب بمثابة العلم الخاص بروما فيقول: «شعوب أخرى يسهل عليها أن تجعل النحاس ليّنًا، سهل العريكة، كما ينفحون الرخام بالروح والحياة ويتمتّعون بمجد الكلمة ويرسم بركارهم المنحنيات السماويّة ويتحدّثون عن ظهور الكواكب. وأنت أيّها الرومانيّ تذكّر أنّه يجب عليك أن تنظّم الشعوب وتقودها؛ ذاك هو علمك فتكون الحَكَم في السلم وتصفح عن المغلوبين وتكبح جماح العظماء» (فرجيل). وقام الرومان بهذه المهمّة بقدر ما تخلّوا عن الملذّات التي تضايق النفس والجسد؛ وابتعدوا عن شهوة تكديس الثروات التي تفسد الأخلاق؛ وكلّها ناتج عن تعرية مواطنين فقراء ممّا يملكون وتقديمه إلى دجّالين سفهاء. وعندما اجتاح الفساد روما وغمرها من كلّ جوانبها، حين كان سَلُستس يكتب وفرجيل ينشد ما كان السعي إلى الأمجاد والعظمة يتّخذ سبلًا شريفة بل سبيل المكر والدسائس؛ ويقول المؤرّخ: «ما كان البخل ليحرق قلوب الناس بل الطمع؛ وهو رذيلة تجاور الفضيلة؛ لقد كانت النفوس النبيلة كالجبانة تسعى، بنهم، إلى المجد والعظمة والسلطان؛ لكنّ هذا يطلبها عن طريق مستقيم وذاك الذي تنقصه الوسائل الشريفة يسعى إليها عن طريق الدسّ والحيلة (سلُستس، **كاتيلينا** ١/٢) فالفضيلة وحدها طريق الكرامة والمجد، الهدف المشترك يصبو إليه الطيّب القلب ونقيضه؛ بيد أنّ الطيّب القلب لا يتّخذ سوى الطريق المستقيم، أي طريق الفضيلة؛ وبواسطتها يسعى إلى تحقيق مبتغاه من سلطان ومجد وكرامة؛ وإنّه لشعورٌ فُطِر عليه

الرومان؛ ولنا شهود على ذلك، تلك الهياكل التي بنَوها، متجاورة، على اسم الفضيلة والكرامة متّخذين آلهة لهم عطايا الله فنستدلّ من خلالها عن الهدف الذي كانوا يقترحونه على الفضيلة؛ وإلى ما كانوا ينسبونها، أي إلى الكرامة. وكانت الفضيلة تهرب من الأشرار على ما بهم من توق إلى الكرامة التي كانوا يسعون إليها بطرق غير مقبولة.

إنّ كلمة سلُستس في كاتون ثناء جميل عليه: «بقدر ما كان يعزف عن المجد كان المجد يلاحقه»، ما دام أنّ المجد الذي تتّقد شوقًا إليه نفوس الرومان ليس سوى الرأي الجيّد للإنسان بالإنسان، فهل هي فضيلة أقوى هذه التي لا يرضيها حكمُ الناس، بل وحده حكم الضمير الداخليّ يرضيها؟ يقول الرسول: «فخرنا هو شهادة ضميرنا» (**٢ كو** ١/ ١٢). ويقول في مكان آخر: «فليختبر كلّ واحد عمله وحينئذ يكون افتخاره من جهة نفسه لا من جهة غيره» (**غل** ٦/ ٤) لأنّ الفخر والكرامة والقوّة التي يشتهيها الإنسان، بكثرة، ويتوق إليها الصالحون، لا تتقدّم على الفضيلة بل تسير وراءها؛ والفضيلة الحقيقيّة هي التي تهدف أوّلًا وآخرًا إلى الخير الذي يفوق كلّ خير؛ وعليه فإنّ الكرامة التي يطلبها كاتون ما كان عليه أن يطلبها؛ وما كان على الجمهوريّة أن تنتظر طلبه لكي تعطيه إيّاها.

التزام الفضيلة سبيلٌ إلى النجاح

بين هذين المعاصرَيْن الشهيرَيْن قيصر وكاتون لا شكّ في أنّ كاتون هو الذي تلامس فضيلته الفضيلة الصحيحة. لنرَ حالة روما وما كانت عليه في الماضي، بحسب رأي كاتون القائل: «لا

تظنّوا أنّ أجدادنا قد جعلوا بقوّة السلاح من الجمهوريّة الصغيرة جمهوريّة كبيرة، لو أنّ الأمر صحيح لكانت اليوم أكثر ازدهارًا. أليس لنا حلفاء ومواطنون أكثر ممّا كان لهم؟ أليس لنا سلاح وخيول أكثر ممّا كان لهم؟ لكنّ هنالك أسبابًا أخرى جعلتهم أقوياء لم يعد لنا مثلها اليوم: في الداخل نشاط وفي الخارج حكم عادل، في المجلس فكر حرّ، ومع الجريمة والشهوات عداوة؛ وبدلًا من تلك الفضائل لنا البذخ والجشع؛ بؤس عامّ وثراء فرديّ. نمتدح الثروة ونعيش البطالة؛ لا فرق بين صالح وشرّير وبدلًا من أن تكافأ الفضيلة هو الطمع الذي يقتنص كلّ شيء. أجل، عندما لا يستشير أحدكم سوى مصالحه وعندما يقبع في بيته أسير اللذّة الشهوانيّة وهنا أسير المال والنعمة فهل نستغرب الهجوم على الجمهوريّة من كلّ حدب وصوب وقد وقعت ضحيّة الخيانة؟». (سلُستس ٥٢/ ١٩). إنّ مَن يسمع هذه الكلمات من كاتون أو من سلُستس قد يظنّ أنّ الرومانيّين الأقدمين بأجمعهم أو على الأقلّ بمعظمهم استحقّوا تلك المدائح؛ وهذا ليس على شيء من الصحّة وإلّا بطل أن تكون شهادة التاريخ صحيحة تلك التي ذكرناها في الكتاب الثاني حيث يقول سلُستس: «إنّ الظلم الذي مارسه المسلّطون تسبّب في الفصل بين مجلس الشيوخ والشعب وسائر الخلافات الداخليّة؛ ولم يكن هكذا منذ البداية، بل منذ طرد الملوك عن عروشهم وما دام الخوف من تركوينوس قائمًا؛ وفي حرب شرسة مع أتْرُوريا ظلّ حكم الاعتدال والمساواة شرعيًّا... وفي ما بعد أراد الحكّام أن يُخضعوا الشعب تحت نير العبوديّة فأقاموا أنفسهم حكّامًا على حياة المواطنين وأشخاصهم فطردوهم من حقولهم

واستبدّوا في كلّ مكان لا يحسبون حسابًا لأحد؛ أمام ذاك العنف المتمادي الذي ثقل على كاهل عامّة الشعب، فضلًا عن حرب تستمرّ سنوات، بكلّ ما تفرض عليه من ضرائب، وما يلزمها من جنود، خرجت عامّة الشعب عن صمتها وانسحبت بسلاحها إلى جبل أفنْتان (Aventin) وإلى الجبل المكرّس (Sacré). إذ ذاك نالت ممثّلين عنها وضمانات قانونيّة أخرى ووضعت الحرب الإفريقيّة الثانية وحدها حدًّا لتلك النزاعات والقلاقل وأعادت الوحدة بين المواطنين، لأنّ الرعب استولى مرّة أخرى على المواطنين، ووحّد الخطرُ صفوفهم؛ آنذاك قام عدد من أفاضل الناس على طريقتهم الخاصّة واستولوا على الأمور الهامّة فهدأت العاصفة وأخذت الدولة تزدهر بفضل حكمتهم وفقًا لما شهد به المؤرّخ حين قال منوّهًا بمآثر الشعب الرومانيّ في أيّام السلم كما في أيّام الحرب، في البحر كما على الأرض، في حروب شنّتها مجموعات قليلة من الجنود ضدّ جيوش جرّارة؛ حروب غذتها موارد ضئيلة، مقابل أخرى، غذاها ملوك أثرياء؛ وتساءل المؤرّخ عن الحافز الذي دفعهم إلى تحمّل الأشياء الكثيرة فاقتنع بعد تأمّل طويل، بأنّ الفضل في ذلك يعود إلى ما تحلّت به قلّة من المواطنين الفضلاء من قوّة ضمّنت انتصار الفقر على الغنى والقلّة في العدد على الكثرة غير أنّه أردف قائلًا: «عندما أفسدت البطالة والبذخ روما قامت الجمهوريّة بدورها تغطّي بعظمتها رذائل حكّامها». (**كاتيلينا** ٥/ ٥٢) إنّ كاتون يوجّه تهانيه إلى ذاك العدد الضئيل الذي بفضله وصل المواطنون إلى المجد والكرامة والقوّة؛ الفضيلة عينها هي أساس هذا التجرّد الذي أغنى الخزينة العامّة وأبقى الميراث في حال الضعف؛ ويوجّه كذلك إلى

الفساد التوبيخ المضادّ فيواجهه بفقر الدولة وغنى الأفراد؛ بعد عهد الممالك الشرقيّة الطويل، أراد الله أن يقيم مملكة الغرب الأخيرة الأشهر بعظمتها وقدرتها؛ ولكي يعاقب جريمة شعوب عديدة تسلّم هذه المملكة أناسٌ سوف يضعون مجدهم، حبًّا للمجد، في مجد وطنهم، مفضّلين خلاص الوطن على خلاصهم الشخصيّ، مترفّعين عن الجشع في نفوسهم، وتقريبًا عن سائر الرذائل بواسطة شيء واحد، هو حبّ العظمة.

١٣

إنّ مَن يعترف بأنّ محبّة المجد عيبٌ يكون ذا إدراك سليم؛ ألا تقول الشاعر هوراس ذاته: «إذا سكرت من حبّ المديح طالع صفاء كتاب الحكمة على ثلاث دفعات تجد فيه علاجًا شافيًا» (هوراس، **رسائل** ١، ١، ٣٦). وفي أبياته الشعريّة الوجدانيّة يحثّ الناس على ضبط شهوة التسلّط قائلًا: «أيّها المنتصر على عقلك الطموح، تبسط ملكك إلى البعيد البعيد حتّى إذا جمعت يبيا وقادِش البعيدة وحدك؛ وحدك تُمسَّكِ كلتيهما وقرطاجة في العبوديّة» (هوراس، **قصائد غنائيّة** ٢، ٩-١٢) على أنّ الذين لم نالوا نعمة الروح القدس ليسيطروا بالإيمان والتقوى ومحبّة الجمال العقليّ على الشهوات المخجلة فإنّ حبّ المجد العالميّ لا يجعلهم قدّيسين، بل يصيّرهم أناسًا في مستوى بشريّ لائق؛ ولهذا يتكلّم شيشرون في كتابه «الجمهوريّة» عن تربية رئيس الدولة فيقول بضرورة تنشئته على حبّ المجد، مذكّرًا بأنّه في أساس كلّ الأعمال البطوليّة التي قام بها الأجداد؛ وبدلًا من أن

يقاوموا ذاك العَيب، خدمةً للجمهوريّة، فكّروا بتقويته وإضرامه؛ ولا يخفي ما به من ميل إلى ذلك السمّ الحادّ الذي يشيد به في كتبه الفلسفيّة بوضوح كلّيّ. وفي الواقع عندما يتكلّم عمّا يجب أن يسعى إليه الإنسان كخير حقيقيّ ونهائيّ، بالنسبة إليه، بعيدًا عن كلّ مجد بشريّ باطل، يقدّم القول المأثور التالي: «الشرف غذاء النشاط البشريّ والمجد يحرّكه ولا شيء يستعيد ما تتخلّى عنه باحتقار» (شيشرون، **توسكولان** ١، ٢، ٤).

١٤

المجد الحقيقي هو الذي يعطيه الله

لا شكّ أنّ مقاومة الشهوة أفضل من الاستسلام لها؛ وبقدر ما يتنقّى الإنسان يقترب من الله بمزيد من الشبه؛ ولا ريب في أنّ استئصالها كلّيًّا، في هذه الحياة، من الإنسان أمر مستحيل؛ وهي لا تزال تجرّب النفوس في مسيرتها إلى الصلاح؛ على أنّ السيطرة عليها واجبة عن طريق التزام البرّ؛ وإذا احتقر العالم الأمور الجيّدة والمقدّسة، كان على المجد البشريّ أن يخجلَ ويتراجع أمام محبّة الحقيقة؛ عندما تتغلّب شهوة المجد في قلب الإنسان على مخافة الله ومحبّته فتلك رذيلة من ألدّ أعداء الإيمان والتقوى؛ حتّى إنّ السيّد قال فيها: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون المجد بعضكم من بعض ولا تقبلون المجد الذي من عند الله وحده» (**يوحنّا** ٥/ ٤٤). وإذ تكلّم الإنجيليّ عن كثيرين يؤمنون بيسوع ويخجلون من الاعتراف به علنًا، قال: «لأنّهم أحبّوا مجد الناس على مجد الله» (**يوحنّا** ١٢/ ٤٣).

وبالعكس فإنّ الرسل القدّيسين الذين يبشّرون باسم يسوع المسيح في أمكنة لم يكن فيها منبوذًا ومحتقرًا جدًّا، وحسب، على حدّ قول شيشرون، بل مضطهدًا، بحقد، يتذكّرون تلك الكلمات التي حفظوها عن المعلّم الصالح طبيب النفوس: «مَن ينكرني قدّام الناس أنكره قدّام أبي الذي في السموات وأمام ملائكة الله» (متّى ١٠/ ٣٣). ما استطاعت اللعنات والإهانات والاضطهادات والأهوال والعذابات القاسية ولا أيّ شيء آخر، أن تمنعهم من أن يحملوا بشرى الخلاص إلى الإنسان، في خضمّ عواصف الكبرياء البشريّة. وعندما نالت أفعالهم وكلماتهم وحياتهم الإلهيّة، في قلب كنيسة المسيح، مجدًا خالدًا؛ وعندما أدخل النصر سلام البرّ إلى قلوبهم، ما اطمأنّوا إليه كأنّهم بلغوا الذروة في الفضيلة، بل ردّوا ذلك المجد إلى الله الذي بنعمة منه وصلوا إلى ما هم عليه؛ وفي تلك البوتقة النقيّة الصافية يضرمون في قلوب أبنائهم الروحيّين حبّ الله الذي يجب أن يحوّلهم هم أنفسهم، لأنّ المعلّم الإلهيّ كان يعلّمهم ألّا يعتبروا المجد البشريّ هدفًا للقداسة قائلًا: «إحترزوا ألّا تصنعوا برّكم قدّام الناس لكي ينظروكم وإلّا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات» (متّى ٦/ ١) ولكن خوفًا من أن يلقي بهم سوء فهمهم لهذه الكلمات في خوف من استرضاء الناس، مبالغ فيه، حتّى إذا احتجبت فضيلتهم عن أعين الناس، ولم تعد ذات فائدة، أخذ يُفقههم في الغاية التي من أجلها يجب أن يظهروا قائلًا: «هكذا فليضئ نوركم قدّام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات». (متّى ٥/ ١٦). والتعبير: «لا تظهروا أمام الناس» يعني أنّ ارتداد الناس إليكم خطأ، لأنّكم لستم بشيء؛

والصحيح هو «لكي يمجّدوا أباكم الذي في السماوات»، حتّى إذا عرفوا الحقيقة صاروا إلى ما أنتم فيه. وإنّها لوصايا اتّبعها الشهداء الذين فاقوا جماعة سكافولا وكورسيوس وداسيوس بعددهم وبحقيقة فضيلتهم وتقواهم الصحيحة، وتلك البطولة التي تعرف أن تقبل الموت وترفض الانتحار. أمّا هؤلاء الناس، مواطنو المدينة الأرضيّة، وقد حصروا اهتمامهم في واجب تأمين الخلاص لوطنهم ولملكه، لا في السماء بل على الأرض، لا في الأبديّة بل في هذه الحياة، في سلالات متدافعة، تموت، اليوم أو غدًا، لا فرق؛ ماذا أحبّوا؟ لقد أحبّوا المجد الذي يعدهم بحياةٍ جديدة في مدائح المعجبين بهم.

١٥

إنّ الله لم يقبلهم مع ملائكته القدّيسين لكي يشتركوا في الحياة الأبديّة في مدينته السماويّة حيث توصل تلك التقوى الصحيحة التي للإله الواحد الحقيقيّ السجود (بحسب التعبير الإغريقيّ)؛ ولو لم يمنحهم المجد الأرضيّ في مملكة واسعة وقديرة لكانت جهودهم النبيلة وقدراتهم التي فتحت السبيل أمامهم إلى ذاك المجد قد بقيت دون مكافأة. ألم يُصدر الله حكمه بهذه الكلمات على أولئك الناس الذين لم يعملوا بعض الخير، على ما يبدو، إلّا لكي يمجّدهم الناس فقال: «الحقّ أقول لكم إنّهم قد قبلوا أجرهم» (متّى ٦/ ٢). صحيح أنّ هؤلاء الرومان قد ضحّوا بثرواتهم وانتصروا على البخل حبًّا للمصلحة العامّة وإغناءً للجمهوريّة؛ وأنّ مجلسهم الشوريّ المتجرّد خلّص، أكثر من

مرّةٍ، الجمهوريّة ورفعوا دفع الجزية للبغاء ولكلّ فوضى تنبّه القوانين عنها. بيد أنّهم لم يسمعوا صوت الحقيقة والفضيلة الظاهريّة، وما تبعوه، إلّا وصولًا إلى المجد والحكم والسلطة؟ وعليه، ألم يكرمهم عدد كبير من الأمم؟ ألم يُخضعوا لهم عددًا كبيرًا من الشعوب؟ ألم يكرّس المجدُ أسماءهم في كتب تاريخ العالم؟ وهل لهم أن يشكوا عدل الإله الحقّ؟ ألم ينالوا جزاءهم؟

١٦

ما أكبر الفرق بين جزاء القدّيسين الذين يتألّمون هنا في سبيل المدينة الإلهيّة، وما أكرهه جزاءً على محبّي هذا العالم. مدينة الله أبديّة؛ لا ولادة فيها؛ إذ ليس فيها موت. هناك سعادة حقيقيّة لا ينقصها شيء؛ ليست إلهة بل عطيّة إلهيّة. منها عربون إيماننا، ما دمنا نعاني في هذا المنفى، توقًا إلى جمال الوطن؛ هنالك لا تشرق الشمس على الأخيار والأشرار لأنّ شمس البرّ تنير فقط الأبرار؛ هنالك لا همَّ ولا قلقَ يساور الإنسان تجميعًا للثروات العامّة على حساب الخاصّة، عندما تكون الحقيقة كنزًا مشتركًا. ألم تُكافأ روما بهذا المُلْكِ العظيم على طاقاتها البشريّة، فضلًا عن المثل العظيم القائم على التنافس بين مواطني المدينة الأبديّة في أثناء طوال مسيرتهم على هذه الأرض فيعرفوا أيّ حبّ يجب عليهم تجاه وطنهم السماويّ حصولًا على الحياة الأبديّة إذا كان مواطنو المدينة الأرضيّة يحبّونها إلى هذا الحدّ في سبيل مجد بشريّ؟

١٧

أمّا في ما يختصّ بهذه الحياة السريعة الزوال والقريبة الأجل، ما همّ الإنسان الصائر إلى الموت أن يعيش تحت هذه السلطة أو تلك شرط ألّا يجرّه القائمون عليها إلى أعمال ظلم وفساد؟ وعندما فرضت روما شرائعها على الأمم المنهزمة أمامها تأثّرت فقط للدم الغزير الذي دفعته ثمنًا للنصر؛ وأن يكون سلطانها مقبولًا دون منازعة، فهذا يفقدها شرف النصر؛ لكنّ النجاح أفضل. وفي الواقع ألا يعيش الرومان أنفسهم تحت القوانين التي يفرضونها على الآخرين؟ ليكن الأمر هكذا؛ ومع احترامنا للإله مارس وللإله بللونه، لنفترض أن لا نصر ولا غالب ولا معركة إن لم يتساوَ إذ ذاك وضع الرومان وسائر الشعوب؟ وبخاصّة، لِمَ لا يعمل الإنسان ما سوف يقنع به العقل والإنسانيّة؟ ولِمَ لا يعطى حقّ المواطنيّة كلُّ أبناء الإمبراطوريّة؟ ولِمَ لا يشمل هذا الامتياز المختصّ بالعدد القليل جميع أبنائها شرط أن يتحمّلوا مسؤوليّة الطبقات المعوزة؟ وتلك الضرائب الغذائيّة، لم لا يجمعها قضاةٌ نزهاء من الشعوب، ذوي الإرادة الصالحة، الذين أصبحوا مواطنين؛ بدلًا من أن يستعملوا العنف والضغط على المنهزمين؟ وهل يضير الأمن العامّ والأخلاق الحسنة والكرامة الاجتماعيّة أن يكون منتصرون ومنهزمون؟ المصلحة الوحيدة التي أراها هي المجد البشريّ الذي يرى فيه القائمون بعدّة معارك، مكافأةً لهم؛ في حين هي مكافأةٌ باطلة، ولا قيمة لها، وهل تُعفى أراضيهم من الضرائب؟ وهل يحقّ لهم، دون سواهم، أن يتعلّموا، ما هو ممنوع على الآخرين؟ ألسنا نجد في الولايات

عددًا كبيرًا من الشيوخ الذين لم يشاهدوا روما؟ دعوا جانبًا المجد الباطل، أليس الناس بأجمعهم متساوين في الإنسانيّة؟ وإذا كان العصر الشرّير يقبل بأن يوجّه التكريم إلى الأقوياء بين الناس، فهل يجوز أن يكون تكريم الإنسان عظيمًا إلى هذا الحدّ، وهو ليس سوى دخان خفيف؟ علينا أن نعرف هنا كيف نفيد من نِعَم الله علينا. كم من إغراءاتٍ منبوذة وتجاربَ يتحمّلها الإنسانُ وشهواتٍ ينتصر عليها في سبيل المجد البشريّ استحقّت جميعها هذه المكافأة للأبطال الذين يتحلّون بتلك المواهب. ليت هذا يساعدنا أقلّه على الخفض من كبريائنا؛ وفي الواقع إن كانت هذه المدينة التي وعدنا أن نملك فيها، يومًا من الأيّام، تبعد عن هذه المدينة الأرضيّة بُعد السماء عن الأرض؛ فالحياة الأبديّة والأفراح الزائلة والمجد الثابت والمدائح الباطلة ومجتمع البشر والملائكة، ضوء القمر والشمس ونور من خلق القمر والشمس، فهل يفاخر مواطنو المدينة الآتية بأنّهم ما عملوا شيئًا في سبيل خيرٍ قد أُنجز، وآلام تحمّلوها سعيًا إلى ذلك الوطن السامي عندما يكون أناس آخرون عانوا كثيرًا وتحمّلوا كثيرًا في سبيل الوطن الأرضيّ الذي حصلوا عليه في الزمن؟ ومن ثمّ فمغفرة الخطايا التي تجمع من كلّ حدب وصوب مواطني المدينة الأبديّة ألا يرمز إليها، بغموض، ذاك المأوى الذي لجأ إليه رومولوس حيث لا عقاب على الجريمة والذي يجتمع فيه المجرمون العديدون الذين سوف يبنون روما؟

١٨

المجد البشري باطل والحقيقي يكمن في رضى الله

وهل من البطولة في شيء، أن يحتقر الإنسان في سبيل الوطن السماويّ والأبديّ، مباهج العالم التي لا يوازيها شيء في السخافة عندما يتجرّأ بروتوس حبًّا للوطن الأرضيّ والزمنيّ على إصدار الحكم على بنيه وهي جرأة حزينة لا يأمر بمثلها الوطن الحقيقيّ؟ لكنّه بالتأكيد لأصعب على الإنسان أن يقضي بالموت على أولاده من أن يحرمهم، حبًّا للسماء، من إرث لم يُجمع ويُحفظ، على ما يبدو، إلّا من أجلهم فيعطى للفقراء؛ وإذا ما فرضه الإيمان والبرّ يتخلّى عنه بسخاء. إنّ سعادتنا وسعادة أولادنا لا تتعلّق أبدًا بتلك الثروات الفانية التي نفقدها في حياتنا أو نتخلّى عنها، ساعة الموت، إلى أيد مجهولة قد تكون عدوّة. الله وحده يجعلنا سعداء، الله وحده رضى الأرواح الحقيقيّ، أمّا بروتوس الذي قتل أبناءه فإنّ الشاعر يشهد على تعاسته وهو يمدحه فيقول: «يخنق هذا الوالد مؤامرات أبنائه بدمائهم ويرسلهم إلى العذاب حبًّا لحرّيّة عزيزة جدًّا. فيا له من شقيّ! أيًّا كان الحكم الصادر عن أسلافنا». ثمّ يردف قائلًا في البيت التالي تعزية عن سوء طالع كهذا: «إنّ حبّ الوطن والرغبة الجامحة في سبيل المجد ينتصران في قلبه». ذلك هو باعث البطولة المزدوج عند الرومان: الحرّيّة وشهوة المجد البشريّ. وعليه فإن كانت حرّيّة الناس، الصائرين غدًا إلى الموت، وهذا المجدَ الذي يعطى البشر أيضًا قد استطاعا أن يحملا والدًا على التضحية بأبنائه، فيا لروعة

الحرّيّة الصحيحة التي تحرّرنا من نير الخطيئة والموت والشيطان فنُلهِمَ لا إلى الباطل الذي يتوق إلى مدائح الناس بل إلى المحبّة التي تشتهي الخلاص، لا من ملك تركوينوس، بل من استبداد الشياطين وزعيمهم، فتدفعنا لا إلى الحكم على أولادنا، بل إلى أن نتبنّى فقراء المسيح بمثابة عائلة لنا! إذا كان مواطن كبير في روما وهو تركواتوس قد أنزل آخر عذاب بابنه لكونه حارب، لا ضدّ الوطن، بل ضدّ إرادة أبيه القائد، وحاسبه على انتصار يجد له عذرًا في حماسة الشبيبة واستفزازات العدوّ، متوجّسًا مزيدًا من الخطر، في تجاوز أوامر السلطة على المجد الذي يجنيه من النصر، ألا يحقّ، بنوع خاصّ، للذين يطيعون شرائع الوطن الخالد أن يمتهنوا الخيرات الأرضيّة، الأقلّ قيمةً، من الأبناء؟ إذا كان كميليوس الذي نفاه حاسدوه قد وقع ضحيّة جحود وطنه بعد أن خلّصه من نير الفائيّين (Véiens) ألدّ أعدائه، وكذلك من الغول، لكونه لم يجد وطنًا يعيش فيه على شيء من المجد؛ وهل له أن يفاخر كمَن قام بتضحية فريدة مَن ألحق به أعداء، من لحم ودم، إهانة شائنة، وبدلًا من أن ينتقل إلى معسكر الهراطقة أو أن يكون هو ذاته بدعة جديدة ينشط بكلّ قواه وغيرة مشكورة ضدّ الضلال وشرّه؛ إذ ما من وطن سواه يستطيع فيه لا أن يكسب احترام الناس بل أن يربح الحياة الأبديّة؟ إذا كان مُوتيُوس (Mutius) قد أخطأ في تصميه على خلاص روما من بُرسِنّا (Porsenna) الذي يضيّق عليها الحصار يبسط فوق نار مشتعلة اليد التي ضربت ضحيّة أخرى ويصرّح للملك بأنّ رومانًا كثيرين على مثاله أقسموا بأن يهلكوه؛ بطولة وتهديد أوقعاه في رعب شديد حملاه من دون تردّد على إلقاء السلاح وعقد السلم

مع روما. مَن منّا يعطي نفسه الحقّ في ملكوت السماوات من خلال تقديم جسده كاملًا فوق محارق المضطهدين، دون التضحية بيده فقط؟ إن دفع كُورْسِيُوس المدجّج بالسلاح حصانه في هوّة سحيقة تجاوبًا مع طلب الآلهة الذين يأمرون الرومان بأن يلقوا فيها أفضل ما يملكون فهؤلاء الذين يدركون تفوّقهم في الرجال والسلاح اعتبروا أنّ الآلهة يطالبون بالتضحية برجل مسلّح؛ وهل يتصوّر أنّه عمل شيئًا من أجل الوطن السماويّ ذاك الذي لم يتسبَّب بأخطاء عدوّ له في الإيمان بل تحمَّلها بعد أن سمع من الربّ وملك هذا الوطن هذا الكلام الداعي إلى المزيد من الثقة القائل: «لا تخافوا ممَّن يقتلون الجسد ولا يستطيعون أن يقتلوا النفس» (متّى ١٠/٢٨). إنّ بني داسيوس الذين يكرّسون ذواتهم ببعض كلمات يضحّون بها لكي يُخمِد دمُهم غضب الآلهة فينجو الجيش الرومانيّ؛ حذارِ أيّها الشهداء القدّيسون من كبرياء تخالج فكركم بأنّكم ما عملتم شيئًا يؤهّلكم للمشاركة في ذاك الوطن حيث السعادة أبديّة وحقيقيّة، عندما تسفكون دمكم حبًّا لإخوة لكم، وحبًّا كذلك لأعداء لكم يسفكونه، آنذاك، أنتم تحاربون بإيمان المحبّة ومحبّة الإيمان. أجل، في أثناء تكريس هيكل جوبيتر وجونن ومينرفا، بينما كان ينتظر أعداؤه منه موقفًا مخالفًا للموقف الذي اتّخذه إذ أخبروه بوفاة ابنه كاذبًا فيضطرّ تحت تأثير الخبر إلى أن ينسحب من الاحتفال متخلّيًا عن المجد إلى زميله، أمر بثبات جأش بأن ترمى الجثّة بدون دفن لشدّة ما خنق فيه حبّ المجد صرخة الأحشاء الأبويّة! إنّ الإنجيل الذي يتّخذ مواطني وطن المستقبل من خضمّ ألف ضلال ويحرّرهم منها هل تراه يسمح للرسول القلق على جنازة أبيه أم يُسمعه الربّ الكلمة

التالية: «إتبعني ودع الموتى تدفن موتاها» (متّى ٨/ ٢٢). إذا كان راغولوس، حفاظًا على أمانته للقسم الذي أدّاه لألدّ أعدائه، ينفي ذاته من روما ليعود إليهم مجيبًا الرومان كما قيل بأنّه لا يستطيع أن يحافظ على كرامة المواطن؛ وإذا كان الثأر الإفريقيّ جعله يكفّر عن المشورة التي أسداها إلى مجلس الشيوخ، فأيّ عذاب لا يستحقّ الاحتقار، حفاظًا على الإيمان بذلك الوطن الطوباويّ الذي يقودنا إليه الإيمان؟ ماذا نقدّم إلى الربّ عن كلّ الخيرات التي أعطاناها فنتحمّل في سبيل الإيمان الذي له علينا، الآلام التي يعرف أن يتحمّلها راغولوس على أيدي أعداء شرسين حفاظًا على قسَمه؟ كيف يجرؤ مسيحيّ أن يفاخر بالفقر الذي اعتنقه، حرًّا، ليسير بسهولة على طرق هذه الحياة حيث الله هو الغنى الحقيقيّ عندما يعرف أنّ فالِرِيُوس يموت قنصلًا في حالة من الفقر اضطرّت الشعب إلى المساهمة في نفقات دفنه؟ وعندما يعرف أنّ سِنسَنَّاتُوس الذي تقتصر ثروته على أربعة فدّادين يتعاطى زراعتها شخصيًّا قد أُخذ من وراء المحراث ليصبح رئيسًا يتمتّع بملء الصلاحيّة وأعلى من قنصل؟ ومع أنّه انتصر فقد ظلّ أمينًا لفقره! وهل يفاخر بفضله مَن لم يستطع العالم أن يجتذبه إليه ويفصله عن شركة الوطن الأبديّ عندما يرى فابْرِيسِيُوس (Fabricius) يقاوم كلّ ما يقدّمه له بيروس من هدايا حتّى وعده بجزء من مملكة أبِير (Epire) لكي يظلّ فقيرًا ومواطنًا رومانيًّا، محتفظًا للجمهوريّة وللوطن، لما هو للشعب وللعامّة، بكلّ كنز وكلّ ثروة؛ ذاك كان فقر الرومان في ذلك العصر حتّى إنّ أحدهم وقد اقتنع بأنّه يملك عشرة مثاقيل من الفضّة كأدوات منزليّة للمطبخ بعد أن كان على دورتين قنصلًا طرده المراقب الماليّ من

مجلس الشيوخ المعروف بمجلس الفقراء. إن كانت تلك هي حال الفقر عند أولئك الرجال الذين أغنوا خزينة الدولة بانتصاراتهم، فماذا يعني موقف الذين يضعون ثرواتهم خدمةً لغاية سامية تجاوبًا مع وصيّة أعمال الرسل القائلة: «ولم يكن أحد يقول عن شيء يملكه إنّه خاصّ به بل كان لهم كلّ شيء مشتركًا فيوزَّع لكلّ واحد على حسب احتياجه» (**أعمال** ٤/ ٣٥)؛ وهل يتباهى المسيحيّون بما يعملون ليكونوا مقبولين في جماعة الملائكة في حين يعمل الوثنيّون مثلهم حفاظًا على المجد الرومانيّ؟ هل كان لتلك الأعمال العظيمة والكثير سِواها، الوارد ذِكرُها في التاريخ الرومانيّ، أن تبلغ هذه الشهرة العالميّة لو لم يصل الازدهار العظيم إلى البعيد البعيد بقدرة الإمبراطوريّة؟ إنّ هذه الإمبراطوريّة الواسعة التي عاشت طويلًا واشتهرت بقدرات عظمائها هي بالنسبة إليهم حقًّا المكافأة التي تتوق إليها بطولتُهم كما هي بالنسبة إلينا أمثولة ضروريّة ودرس مليء بالعِبَر. نخجل حقًّا إذا لم يكن حبُّ مدينة الله الممجَّدة يرفعنا إلى ممارسة الفضيلة الصحيحة في حين مثيلتها توحي بمجد المدينة الأرضيّة إلى الرومان حتّى إذا كنّا حقًّا فضلاء تجنّبنا الكبرياء الفارغة لأنّ الرسول يقول: «إنّ آلام هذه الحياة لا تقاس بالمجد المزمع أن يتجلّى فينا» (روم ٨/ ٨). فالبطولة الرومانيّة استحقّت المجد البشريّ والزمنيّ، وكذلك عندما يرفع العهد الجديد حجاب العهد القديم ويبشّرنا بالحياة الأبديّة والمكافآت التي لا تفنى والمشاركة في المدينة العلويّة، عند ذلك يريد الله، الحقّ الأحد، أن يكون هو المعبود، وليس في سبيل خيور أرضيّة وفانية، توزّعها العناية من دون تمييز على الأخيار والأشرار. إنّ اليهود الذين قتلوا

السيّد المسيح مدعوّون إلى المجد الرومانيّ، وصحيح أيضًا أنّ الذين يسعون إلى ذلك المجد يسيطرون بقواهم على مَن يرفضون معطي المجد الحقيقيّ ويصلبون ربّ المدينة الخالدة إشباعًا لرغباتهم ورذائلهم.

١٩

بالتأكيد يجب أن نميّز بين حبّ المجد وشهوة التسلّط وإن يكن حبّ الواحد منهما غير الموزون يشكّل انعطافًا إلى الآخر؛ على أنّ الذين يتوقون إلى المجد البشريّ بما فيه من حقّ يهمّهم أن يسترضوا القضاة النيّرين لأعمالهم ولوجود صفات أدبيّة يعترف كثيرون بقيمتها، من دون أن يملكوها؛ ومن خلال هذا التوجّه يتوق إلى المجد والسلطة والتسلّط هؤلاء الناس الذين يشهد لهم سلُّستس بأنّهم يسعون إليها على الطريق الصحيح. بيد أنّ الإنسان غير الراغب بالمجد الذي يبعث فيه الخوف من الأحكام الصحيحة يشتهي السلطان والتسلّط، يضحّي بكلّ شيء ويرتكب الجريمة تحقيقًا لرغباته. وعليه يتوق الإنسان إلى المجد، إمّا بالطريق الصحيح، أو بالرياء، متظاهرًا بالصلاح من دون أن يكون صالحًا. ومن حسنات الرجل الفاضل أن يحتقر المجد لأنّ ما يكنّه له من احتقار ظاهر أمام الله وحده، ويخفى على حكم البشر. وفي الواقع مهما عمل إنسان بحضرة أمثاله ليظهر احتقاره للمجد، مع الافتراض بأنّ هذا الموقف ناتجٌ عن حاجته إلى تقدير الناس، وتاليًا إلى مجدٍ أعظم فهل يبقى قادرًا على تبديد الشكوك التي تحوم حول موقفه؟ إنّ الذي ينبذ الأحكام المغالية

في المديح ينبذ كذلك الشكوك غير المستندة إلى الحقيقة؛ أمّا إذا كان رجلًا صالحًا حقًّا فلا يحتقر تحيّة أولئك القضاة المشكّكين الذين يتحدّوْنه. هذا هو البرّ الذي يتمتّع به مَن بنى فضائله على روح الله حتّى المحبّة لأعدائه وإن كانوا حسودين سارقين فإنّه يتمنّى إصلاحهم ليشاطروه لا أفراح الأرض بل أفراح السماء. أمّا الذين يمتدحونه ولا يحترم كثيرًا مدائحهم يبقى عليه أن يأخذ بعين الاعتبار عاطفتهم، رافضًا أن يغشّ مَن يمدحه مخافة أن يغشّ مَن يحبّه. وعلى هذا النحو يسعى بحماسة واندفاع مقدّس إلى تحويل المديح نحو الذي يأتينا منه وحده كلّ ما هو جدير حقًّا بالثناء. أمّا الذي يحتقر المجد ويسعى إلى التسلّط فإنّه يفوق الحيوانات شراسة ووحشيّة بما له من غرائز؛ على هذا النمط درج بعض الرومان فما بالوا بالاحترام وتحرّقوا عطشًا إلى التسلّط؛ فأشار التاريخ إلى أحدهم وهو نيرون الواقف في المرتبة الأولى، أعلى الذرى، التي يمكن للرذيلة أن تصل إليه. ذاك رجل بلغ من الانحلال حدًّا لم يُبقِ محلًّا للرجولة فيه، ولا للخوف منه؛ إنّما بلغ من القسوة حدًّا قضى على كلّ ما يتوهّمه الناس فيه من تخنُّث، لولا معرفتهم به، على أنّ هذه القدرة السامية لا تعطى لأمثال هؤلاء الناس إلّا بعناية من الله العليّ عندما يستحقّ العالم، بنظره، أمثال أولئك الأسياد وكلمة الله واضحة وحكمته صريحة وهي تقول: «بي الملوك يملكون والرؤساء يرأسون» (**أمثال** ٨/ ١٥). ولكي تأخذ هنا، في هذا التعبير، لفظةُ رئيس معناها القديم الذي لا يدلّ على الرئيس الشرّير بل على الإنسان الذي يتقلّد السلطة، حسبما يعنيه فرجيل، في هذا البيت الشعريّ: «إنّه لعربون سلام بالنسبة إليّ أن يلمس

الإنسان يمين الرئيس». يقول الكتاب المقدّس في مكان آخر وبتعبير صريح: «فإنّه يملك الإنسان المنافق من أجل عثرات الشعب» (أيّوب ٣٤/ ٣٠). وعلى هذا النحو، وبقدر ما استطعت، بيّنت بما فيه الكفاية السبب الذي من أجله، أمدّ الله الأحد، إلهُ البرّ والحقّ، الرومانَ بعونٍ منه فرفعوا بناء عظمتهم الفضيل على أخلاقيّة المدينة الأرضيّة؛ لكنّه قد يكون سبب آخر خفيّ وهو ما يعرفه الله أكثر منّا من استحقاقات الجنس البشريّ. ومن الثابت بالنسبة إلى كلّ إنسان تقيّ أنّه لا تقوى حقيقيّة بدون عبادة الله الحقّ؛ وإنّ الفضيلة الأسيرة للمجد البشريّ ليست فضيلة حقيقيّة. وفي هؤلاء الناس الذين لا يرتبطون بالمدينة الأبديّة التي يسمّيها الكتاب المقدّس مدينة الله يفضَّل لمدينة الأرض الخطأ في الفضيلة على غيابها الكلّيّ. أمّا مَن لم تكن تقواهم راسخة، وليست غريبة عن علم إدارة الشعوب، فلا شيء أسعد للإنسانيّة من أن تضع رحمةُ الله بين أيديهم السلطة؛ بيد أنّ أمثال أولئك الناس مهما كانت الصفات التي يتّسمون بها، في هذه الحياة، فبدلًا من أن يتباهَوا بها ينسبونها إلى نعمةٍ من الله أفاضها عليهم، تجاوبًا مع رغباتهم المقدّسة وإيمانهم وصلواتهم؛ إنّهم يعترفون بالبُعد الفاصل بينهم وبين برّ الملائكة التامّ، تلك الطغمة المقدّسة، التي إليها يتوقون. وأيًّا كان الثناء الذي يوجّه إلى الفضيلة الخالية من التقوى الصحيحة فليست سوى خادمة للمجد البشريّ ولا يمكن مقارنتها مع بدايات الأبرار الضعيفة إلّا بصعوبة؛ يضع هؤلاء الأبرار كلّ رجائهم في نعمة إله الحقيقة ورحمته.

إنّ الذين يضعون خير الإنسان الأسمى في الفضيلة عينها تعوّدوا أن يرسموا بالكلمات لوحةً رمزيّة يصوّرون عليها اللذّة جالسة على عرش، وكأنّها ملكة لطيفة ناعمة، وذلك بحرصٍ منهم على أن يعيبوا على أولئك الفلاسفة ادّعاءَهم أنّ لذّة الجسد هي المعيار؛ واللذّة وحدها مطلوبة، بحدّ ذاتها، والفضيلة مرغوب فيها، لأجل اللذّة. الفضائل تخدم اللذّة كزوجات لها، مستدركةً طلباتها، واعية لأوامرها؛ تأمر الفطنة بأن تؤمّن السلام والطمأنينة لملكها بواسطة شرطة ساهرة كما تأمر العدالة بأن تنشر كلّ المواهب الممكنة لكي تُقيم صداقات ضروريّة لحفظ رفاهيّتها الجسديّة حتّى لا يقوم أيّ حقّ منسيّ فيتسلّح ضدّ الشرائع ويؤذي لذّاتها الآمنة المطمئنّة. إن استولى الألم على الجسد دون أن يلقي به في لجّة الموت كان على القوّة (Force) أن تخنق اللذّة سيّدتها وأن تسجنها في عمق النفس فيخفّف ذكر الملذّات الماضية من حدّة الألم الحاضر. على الاعتدال أن ينظّم معيار الأطعمة ويستدرك كلّ غلوٍ يؤذي الصحّة ويعكّر، بحسب مذهب الأبيقوريّين (Epicuriens)، لذّة الإنسان العظمى. تلك هي القوى بكلّ مجدها وجلالها مدعوّة إلى خدمة إحدى صغيرات النساء الوقحة والمتعجرفة. يقول الحكماء لا أسفل ولا أشنع من هذه اللوحة التي لا تتحمّل النظر إليها، عيونُ جماعة الخير؛ وقولهم هذا صحيح. أمّا أنا فإنّي أظنّ أنّه ما من فنّ يقدر أن يفرض رسمًا ممثّلًا للفضائل ذاتها في خدمة المجد البشريّ لأنّ هذا المجد، وكي لا يكون بمظهر امرأة لطيفة، مريضٌ مصاب بالورم

وصحّته ليست سوى الريح. وليست القدرة والفضائل المتعافية حقًّا أن تكون في خدمته. هل تبغي توقّعات الفطنة وقرارات العدالة وطول أناة القوّة وإرشادات الاعتدال إرضاء الناس وخدمة المجد الباطل على مَن يحتقرون آراء الآخرين ازدراءً للمجد ألّا يظنّوا نفوسهم في عصمةٍ من هذه الفوضى فيجدون أنفسهم حكماء، مكتفين بما لديهم من مواهب. أمّا فضيلتهم، إن كان لهم ما يشبه الفضيلة، أفليست، بشكل آخر، خاضعة لحكم الناس عليها؟ أمّا الإنسان التقيّ حقًّا الذي يرفع إلى الله الذي يحبّه إيمانه وآماله فإنّه يرى بشكل أفضل ما لا يرتضيه في نفسه أكثر ممّا قد يرضيه وأقلّ أيضًا ممّا ترضى به الحقيقة؛ وما يرضيه في نفسه يعود الفضل فيه إلى رحمةٍ من الذي يخشى ألا يرضيه، فله الفضل والشكر عمّا أبرأ فيه من قروح؛ ويصلّي إليه متضرّعًا كي يشفيه من القروح الأخرى الباقية.

٢١

الأرض للصالحين والأشرار إمَّا السماء فللصالحين

للإله الحقيقيّ وحده القدرة على التصرّف بالممالك وقاداتها؛ هو الذي يعطي الصالحين، دون سواهم، ملكوت السماوات وملكوت الأرض للصالحين والأشرار، بحسب ما يشاء؛ ولا يقبل بأيّ ظلم؛ وإن كنّا قد قلنا، استنادًا إلى نصائحه الحكيمة، ما توصّلنا إلى أن ندركه منها على أنّ فحص خفايا قلب الإنسان وإخضاع حسنات الشعوب لفحص عادل ودقيق يفوق بكثير طاقاتنا. وعليه فإنّ هذا الإلهَ الواحدَ الحقّ الذي لا يتخلّى بعدله

وعنايته عن الجنس البشريّ وأعطى الرومان المملكة، ساعة شاء وكما شاءه، كبيرًا، وأعطاه الأشوريّين والفرس أيضًا عبّاد إلهَيْن أحدهما إله خير والآخر إله شرّ (كما تشهد كتبهم) من دون أن نتكلّم هنا عن الشعب العبرانيّ الذي لم يعرف سوى الإله الواحد ما دام سيّد نفسه؛ هو الذي أعطى الفرس الحصاد وسائر خيرات الأرض في غياب إله الحصاد وسواه من الآلهة العديدين الذين يعطيهم الرومان مهمّات خاصّة أو يجمعون عدّة آلهة على مهمّة واحدة؛ أقول إنّهم قد أخذوا الملك منه من دون سائر الآلهة الذين تدين روما لهم بعظمتها. هو الذي يعطيه أيضًا البشر، ماريوس والقيصر وأغسطس ونيرون ذاته كما يعطيه الفِسْبازِيان: الأب والابن أطيب ما في الجنس البشريّ ودُوميسِيان الوحش الشرس. وبكلمة واحدة هو الذي يتوّج قسطنطين الملك المسيحيّ وجوليان الجاحد الذي اندفع بحكم سجيته العطشى إلى التسلّط في مسيرة ممقوتة ونجسة فتلاعبت به الآلهة الذين أوحوا إليه بأن يمحضهم ثقة عمياء، أملًا للنصر، فأحرق سفنه المحمّلة مؤنًا لجيشه؛ وإذ تابع في ثورةٍ وهيجانٍ مشروعَه الجنونيّ أصيب بضربة قاتلة فلقي جزاء تهوّره، تاركًا جنوده تحت رحمة الجوع والعدوّ، وما كان لينجو أحد على ما توقّع الإله تِرْمْ (Terme) الذي تكلّمنا عنه سابقًا لو لم تتراجع حدود الإمبراطوريّة الرومانيّة؛ لأنّ الإله تِرْمْ الذي كان قد رفض الخضوع لجوبيتر خضع للضرورة. الله الواحد الحقّ يرتّب الأمور ويدبّرها كما يشاء، فهل هي غير عادلة أسباب سلوكه ذاك لكونها خفيّة؟

٢٢

بصفته الحَكَم الأسمى للحرب نراه يستعمل العدل أو الرحمة فيضرب الجنس البشريّ أو يؤاسيه عندما يطيل مدّة الحرب أو يقصرها. لقد أُنهيت حرب اللصوص والحرب الثالثة الإفريقيّة بسرعة لا تصدّق: إحداها انتهت على يد بُومْبِيُّوس والأخرى على يد شِيبِيون؛ والحرب التي وقعت بين السيافين الهاربين حيث انهزم قنصلان وعدّة قادة وغمرت إيطاليا الدماء والخراب دامت ما يقارب الثلاث سنوات وظهر أعداء إيطاليّون وليسوا غرباء أمثال البِيشِنتِيِّين (Picentins) والمارْسِيِّين (Marces) والبِيلِيِّين (Péligniens) هؤلاء تمرّدوا طلبًا للحرّيّة بعد أن استمرّت عبوديّتهم تحت نير الرومان؛ على أنّ روما أخضعت عدّة دول فهدمت قرطاجة؛ وفي حرب إيطاليا عرف الرومان بشكل مستمرّ الهزيمة فخسروا قنصلين وعدّة أعضاء من مجلس الشيوخ. غير أنّ هذه الضربة لم تستمرّ طويلًا فوضعت السنة الخامسة حدًّا لها. أمّا الحرب الثانية ضدّ قرطاجة، المليئة بالكوارث ضدّ الجمهوريّة، فقد قضت طوال ثماني عشرة سنة على الجيوش الرومانيّة وأفقدتها كلّ أمل بالنصر حيث سقط سبعون ألفًا من الرومان في أثناء معركتين؛ فدامت الحرب الأولى الإفريقيّة ثلاثًا وعشرين سنة واستلزم القضاء على مِيتِرِدات (Mithridate) أربعين سنة. ولا يظنّنّ أحد أنّ التدرّج على الانتصارات كان أقلّ قسوة في الأجيال الأولى حيث للقوّة مكانة التعظيم، فحرب السَمْنِيت (Samnites) استمرّت خمسين سنة انهزم الرومان فيها وأُذلّوا وأُخضعوا بالقوّة؛ وبما أنّهم لا يحبّون المجد في سبيل العدل بل

على ما يبدو يحبّون العدل في سبيل المجد نراهم ينقُضون المعاهدة ويخرقون السلام. إنّي أذكّر بهذه الأحداث لأنّ كثيرين ممّن يجهلون تاريخ الماضي وبعضهم يتظاهر بالجهل، يتّخذون من كلّ حرب تستمرّ طويلًا، سببًا لمهاجمة ديانتنا، بكلّ وقاحة، قائلين: لو لم تكن موجودة، ولو أنّهم احتفظوا بعبادتهم القديمة تلك الطاقة الرومانيّة المتجاوبة مع توجيهات مارس وبلونة لإنهاء الحرب، لكانوا أنهوها اليوم أيضًا. على المثقّفين أن يتذكّروا كم كانت تلك الحروب التي قام بها الرومان الأقدمون طويلة، عرفوا فيها النصر والهزيمة، إضافة إلى الكوارث الدمويّة الرهيبة؛ وليفكّروا في أنّ تلك الضربات هي كالعواصف التي تهيج بحر العالم الطامي وليكتفوا أخيرًا، باعتراف أليم، فيكفّوا عن خداع الجهال وتصويب ألسنتهم القاتلة ضدّ الله تعالى.

٢٣

ولا نراهم يذكّرون بتلك المعجزة الحديثة التي صدرت عن قدرة الله ورحمته، بل بالعكس وبقدر ما يستطيعون يريدون أن يدفنوها لو قُيّض لهم ذلك؛ فينساها الناس أجمعون. أمّا إذا التزمنا الصمت فنكون مثلهم ناكري الجميل إنّ راداغِيز (Rhadagaise) ملك الغوط هاجم روما بجيش جرّار من البربر فاحتلّ مركزًا في نواحيها؛ وفي يوم واحد لم يعرف الرومان فيها لا جريحًا ولا ميتًا، خسر هو فيها، في هزيمة سريعة جدًّا، أكثر من مئة ألف من رجاله ووقع هو وبنوه في الأسر فنال أقسى عقاب على جرائمه؛ لو أنّ هذا الأثيم دخل روما مع هذا

الطوفان من البرابرة فهل يوفّر أحدًا من ساكنيها؟ وهل كان احترم قبور الشهداء؟ في أيّ إنسان كان احترم الله نفسه؟ ولمَن كان قد حفظ الحياة والكرامة؟ وأيّ هتاف كانوا يصعّدونه استنجادًا بآلهتهم؟ فيا لها من احتجاجات مهينة. قدرة راداغيز ونصره ثمن الضحايا اليوميّة التي تسترضي الآلهة الذين تُقيمهم الديانة المسيحيّة ضدّ الرومان! أنظروا جيّدًا عندما كان يقترب من الأمكنة حيث قضت عليه نظرة من العظمة السامية ولدى سماع وقع خطاه من البعيد كانوا يقولون لنا في قرطاجة إنّ الوثنيّين يعتقدون ويعلنون نصرهم عاليًا بأنّ رعاية الآلهة وعطفهم، وقد كان يضحّي لهم كلّ يوم، لن تدعه ينهزم أمام الرومان المنحطّين أخلاقيًّا، الذين ما عادوا يقدّمون ذبائح إلى آلهة روما ولا يسمحون بها. ولم يخرَّ أولئك الأشقياء ساجدين وشاكرين، للرحمة غير المحدودة، لذلك الإله العظيم، الذي بتصميمه على معاقبة جرائم الناس بواسطة هجوم الأبرار عليهم يعرف كيف يسكّن غضبه، برأفة منه، فيؤمّن انتصارًا عجائبيًّا خوفًا من أن ينسب نجاح راداغيز إلى الشياطين آلهته على حساب الضعفاء. ثمّ سمح بأن تسقط روما تحت برابرة آخرين مستبدلين حقّ الحرب القديم باحترام الديانة، فحموا المنهزمين اللاجئين إلى الأماكن المقدّسة، وظهروا باسم المسيح أعداء ألدّاء للشياطين ولمذابح أصنامهم التي كان يضع فيها راداغيز كلّ ثقته وكأنّهم أعلنوا حربًا شرسة، على الآلهة ومذابحهم، أشدّ ضراوة من حربهم على الناس. وعلى هذا النحو فإنّ سيّد الكون وربّه الحقيقيّ يضرب الرومان بعصا رحمته ويبرهن من خلال هزيمة عبيد الشياطين هؤلاء بأنّ طقوسهم ليست ضروريّة لخلاص

المماليك وهذا الأمر يدفع الناس المفطورين، التفكير لا المناقشة، إلى التمسّك والثبات، منتظرين الحياة الأبديّة ولا يتخلّون عن الديانة الحقيقيّة بسبب ما يحلّ بهم من شرور زمنيّة.

٢٤

كيف تكون السعادة الحقيقية؟

أنعتبر سعداء أباطرةً مسيحيّين، إمّا لأنّهم ملكوا طويلًا، أو تركوا في ميتة هادئة ومطمئنّة تاجهم لأولادهم بعدهم، أو لكونهم أخضعوا أعداء الدولة وسيطروا على خصومهم في الداخل، الثائرين ضدّهم. كلّ ذلك من ازدهار وتعزيات يجدونها في حياة الشقاء هذه ويتقاسمونها مع خدّام الشياطين الغرباء عن ملكوت الله الذي يطالب أباطرتنا بأن يقولوا له؛ ولقد حدث هذا برحمة من إلهنا الذي يأبى على المؤمنين أن ينتظروا منه تلك النِعَم وكأنّها خير لهم أسمى. إنّما نسمّي سعداءَ، الرؤساءَ الذين يحكمون بعدلٍ، فلا يتكبّرون، ويذكّرون دومًا بأنّهم بشر إذا ما سكروا من ثناء الناس عليهم، وإكرام يصل بالناس إلى درجة الخنوع؛ يكونون سعداء إذا وضعوا قدرتهم في خدمة الجلال الأسمى ليبسطوا ملكه إلى البعيد؛ يكونون سعداء إن خافوا الله وأحبّوه وكرّموه واختاروا هذا الملكوت، من دون سواه؛ حيث لا يخشون أن يجدوا متساوين؛ يكونون سعداء إذا تباطأوا في العقاب وأسرعوا إلى المغفرة، إذا لم يعاقبوا إلّا خدمة للنظام والسلام العامّ ويترفّعون عن الحقد والانتقام؛ يكونون سعداء لا لكي يضمنوا للجريمة عدم العقاب بل على أمل إصلاح المجرم.

وإذا ما اضطُرّوا أحيانًا إلى استعمال القسوة فعليهم أن يبلسموها بالرأفة والانفتاح وإذا استسلموا إلى شهواتهم سهل عليهم الغلوّ فيها وإذا ما فضّلوا ضبط ميولهم المنحرفة من دون سائر شعوب الأرض وعاشوا هكذا، مستنكفين عن كلّ مجد باطل، مقبلين على محبّة الحياة الأبديّة، وقدّموا عن خطاياهم إلى الله ذبيحة مستمرّة من التواضع والرحمة والسلام. أجل إذ ذاك فالأباطرة المسيحيّون الذي يعيشون على هذا النحو يكونون سعداء منذ هذا العالم بالرجاء وتتحقّق سعادتهم في ما بعد، ساعة يجيء اليوم المرتقب!

٢٥

إنّ الله الكلّي الصلاح، الحريص على تحويل الناس المقتنعين بضرورة خدمته، في سبيل الحياة الأبديّة، عن التفكير بأنّ الحصول على ممالك الأرض وأمجادها لا يتمّ إلّا إذا نال الإنسان رضا الشياطين الذين تظهر مقدرتهم في نجاح الأمور الزمنيّة، يختار قسطنطين ملكًا، فيرفضُ لأولئك الأرواح الشرّيرة العبادةَ الواجبةَ للإله الواحد الحقّ؛ ويغمره الله بنِعَم أكثر ممّا يبتغيه إنسان، ويعطيه القدرة على تأسيس هذه المدينة رفيقة المملكة وابنة روما التي، لا هيكل فيها للشيطان، ولا صنم؛ واستمرّ عهده زمنًا طويلًا ومجيدًا فحكم العالم الرومانيّ ورعاه لوحده فازدهرت مشاريعه وحالفه النصر في حروبه وبخاصّة في القضاء على الظالمين المستبدّين. ومات عن عمرٍ مديد، تاركًا السلطان على المملكة لأبنائه. ومن جهة أخرى فقد استدعى الله إليه جُوفِيان

باكرًا جدًّا قبل جُولِيان وسمح بأن يسقط غْراسِيان بخنجر ظالم مستبدّ أقلّ شقاء من بومبيوس العظيم الذي كان يعبد آلهة روما لئلّا يعتنق أمبراطورُ الدين المسيحيّ حصولًا على رضا قسطنطين ما دام أنّ ذلك لن يصير، إلّا بغية الحصول على الحياة الأبديّة. لم يستطع كاتون أن يثأر لبومبيوس الذي أورثه، نوعًا ما، الحرب الأهليّة في حين انتقم لغراسيان (وهذه تعازي لا ترضى بها النفوس التقيّة)؛ أجل ثأر له تيودوسيوس الذي جعله شريكًا في الحكم، مع أنّ له شقيقًا شابًّا واعتزّ بتلك المشاركة المجيدة، أكثر ممّا لو كانت له مملكة مترامية الأطراف.

٢٦

أمثلة حيّة على الشرفاء السعداء

ولم يرض تيودوسيوس بأن يكون أمينًا للإمبراطور غْراسِيان طوال حياته، بل استقبل بعد موته أخاه الشابّ فالانْتِينِيان وبمحبّة مسيحيّة أخذه تحت رعايته بعد أن طرده عن الإرث الملكيّ مَكْسيم القاتل؛ وخصّ هذا الأمير بعطف أبويّ ذلك الذي، بعد أن حُرم من كلّ مساعدة، يقدّم لمضيفه مناسبة للقيام، بلا مشقّة بجرم، لو لم تُخمد الرحمة السمحاء في نفس تيودوسيوس نار الظمأ إلى الملك. حاشا له ذلك بل أحاط المنفي الكريم الأصل بإكرام يليق به وعزاه بما كان له أعمق الأثر في نفسه. أمّا وقد أسكر النجاح مكسيم وجعله رهيبًا فلم يلجأ تيودوسيوس، في ضيقه إلى ما لا يقبل به الضمير والدين، إلى خادم الله الأمين جان الناسك في صحراء مصر يطلب منه النصح، وقد أعطي

روح النبوءة فبشّره بالنصر الأكيد؛ وعندما انتصر تيودوسيوس على مكسيم الظالم أعطى الفتى فالانتينيان جزءًا من الإمبراطوريّة وأقامه حاكمًا؛ ولكن بعد أن مات هذا الأمير الصغير، بعد زمن قصير، من تسلّمه الحكم، بحادث ما أو ضحيّة خيانة مدبّرة، مشى مكسيم بجيشه ضدّ حاكم مستبدّ آخر اغتصب السلطة هو أوجِينِيوس فقضى على جيش خصمه القويّ بصلاته أكثر منه بسلاحه؛ لأنّه كان مستندًا إلى جوابٍ مدعوم بالنبوءة. أخبرنا جنود قاتلوا إلى جانبه ذاك النهار أنّ ريحًا شديدة عصفت من جهة تيودوسيوس فانطلقت السهام من أيديهم لتنصبّ على العدوّ وسهام العدوّ تعود إليه. وعلى هذا النحو فإنّ الشاعر كُلُودِيان الذي لم يكن محبًّا للمسيح هتف قائلًا في مديح الإمبراطور: «أيّها الأمير يا مَن أحبّه الله كثيرًا، السماء تقاتل معك والرياح تتآمر على العدوّ، وتسرع إلى تلبية صوت أبواقك!» «لقد انتصر بإيمانه ونظرته المستقبليّة وقلب بعض تماثيل جوبيتر المنصوبة في جبال الألب والتي تكرّست ببعض الأدعية على حياته. وفي ذلك الجوّ الحميم المفرح الناتج عن النصر جاء عدّاؤوه يقولون له، ضاحكين، إنّهم يتمنّون لو ضربتهم صواعق الله الذهبيّة، فقدّمها لهم بسخاء ولطف. إنّ أبناء أعدائه ضحايا الحرب الذين يلجأون إلى الكنائس من دون أن يكونوا مسيحيّين ليسوا ضحايا الانتقام بل دفعهم إلى اعتناق الدين المسيحيّ وأحبّهم محبّة مسيحيّة مثلى، لا غبار عليها؛ ما سلبهم خيراتهم بل غمرهم بخيرات جديدة ولا رضي بأن يفتح النصر بابًا يسهل الولوج منه إلى إشعال الأحقاد؛ بل بخلاف سِنّا (Cinna) وماريوس (Marius) وسِلّا (Sylla) وكثيرين سواهم ممّن تابعوا الحرب الداخليّة فإنّه كان يحلم بأن

يرثي لولادتهم؛ ويأبى أن يجعل على المنهزمين نهاية مشؤومة. وفي تلك التجارب التي عرفها حتّى في بداية عهده ما تردّد قطّ في رعاية الكنيسة بواسطة شرائع عادلة ومقدّسة تحميها من هجمات أعدائها، هذه الكنيسة التي لقيت على يد الهرطوقي فالانْسْ (Valens) محرّض الأَرْيوسيين، اضطهادات كثيرة؛ ولقد كان يعتبر شرفًا كبيرًا له أن يكون عضوًا فيها ولا أن يتسلّط على الأرض بأسرها فقلب الأصنام في كلّ مكان متأكّدًا من أنّ ما يحظى به الإنسان من نِعَم زمنيّة ليست متعلّقة بالأبالسة بل بالإله الحقّ. ما كان أروع تواضعه العميق عندما انساق وراء طلبات خاصّة من أفراد حاشيته للانتقام بقسوة من سكّان تَسالونيقيّ (Thessalonique) التي عفا عنها، تجاوبًا مع توسّلات الأساقفة، فوقف على عتبة الكنيسة حيث وجد برًّا وقداسة؛ وقام بفعل توبة دفعت الشعب إلى أن يتوسّل من أجله، باكيًا لرؤيته جلالة الإمبراطور، هكذا ذليلًا؛ فتأثّر لانسحاقه أكثر ممّا خاف منه، غاضبًا، لكونهم أهانوه؛ تلك هي الأعمال الصالحة وسواها من أمثالها التي يطول بنا الكلام في سردها وأخذها الإمبراطور معه؛ من كلّ ذلك المجد وكلّ تلك العظمة البشريّة التي تتلاشى كالبخار الخفيف وحدها الأفعال باقية له؛ والمكافأة عليها هي السعادة الأبديّة التي لا يمنحها الله إلّا للأنفس التقيّة، وكلّ ما دونها من شرف وقيام للحياة الحاضرة وعالم ونور وهواء وأرض وماء وثمار وروح الإنسان وجسد وحواسّ وعقل وحياة، كلّ ذلك يهبه الله للأشرار والأخيار ويوزّع عظمة الممالك بحسب حاجات الأزمنة التي تدبّرها عنايته.

٢٧

يهمّنا الآن أن نجيب الذين اقتنعوا بعدم فاعليّة تلك الطغمة من الآلهة الكذبة للحصول على الخيور الزمنيّة استنادًا إلى أشدّ التجارب وضوحًا وهي غاية الحمقى الوحيدة فيسعون إلى التركيز على أنّ إكرامهم ليس لمصحلة الحياة الحاضرة بل لتلك التي ما بعد الموت؛ فالذين يستمسكون بتلك الأصنام الباطلة من خلال التزاماتهم العالميّة ويشكون من عدم تركهم لثرواتهم الصبيانيّة فأظنّ أنّي قد أعطيتهم الجواب الكافي في الكتب الخمسة الأخيرة. لدى ظهور الكتب الثلاثة الأولى ووصولها بين أيدي عدد كبير من القرّاء علمت بأنّهم يعدّون جوابًا ضدّي، ثمّ علمت بأنّه مكتوب. لكنهم كانوا ينتظرون الوقت المناسب لنشره، من دون أيّ خطر؛ إنّي أدعو المؤلّفين إلى ألّا يتمنّوا ما ترفضه مصلحتهم الحقيقيّة ويتصوّر الإنسان أنّ عدم التزام الصمت جواب، والغلوّ في الثرثرة غرور. وهل هي أقوى من الحقيقة لأنّها لو شاء صاحبها لرفعت صوتها أعلى من الحقيقة؟ عليهم أن يفكّروا مليًّا حتّى إذا تحرّر رأيهم من الهموم، وما كان منحازًا، اعترف بأنّ الردّ على أقوالنا بحجج قويّة أصعب من التهجّم عليها بأقوال ساخرة ومضحكة؛ ليكفّوا عن هذا المزاح وليؤثروا تأنيب العقلاء على مدائح الحمقى؛ لأنّهم إن انتظروا أن يسمح لهم بالطعن بالآخرين ولم يطلبوا الحرّيّة لقول الحقيقة، فالسماء تقيهم نجاح ذلك الإنسان الذي اعتبر نفسه سعيدًا لكونه متمتّعًا بحرّيّة الأذى: «قليلُ الحظّ هذا الذي سُمِح له بأن يعمل السوء»! يقول شيشرون: إن وجد واحد يظنّ بأنّ سعادته تقوم على فعل الشرّ

بحرّيّة فليعد عن ضلاله وسيكون أسعد متى خسر تلك الحرّيّة. ولِمَ لا يمتنع منذ اليوم عن كلّ غرور باطل؟ رغبةٌ في التنوّر صحيحة قد تؤدّي إلى التناقض؛ وجدال بين أصدقاء، موزون وعاقل وصريح، يؤدّي حتمًا إلى جواب مرضٍ يبدّد الشكوك.

الكتاب السادس

مقدمة

يواجه أوغسطينس الوثنيّة في مؤسّساتها وأيديولوجيّتها ويصوّب انتقاداته إليها من خلال الفلاسفة ونظرتهم إلى اللاهوت الذي يقسمونه إلى ثلاثة أقسام: اللاهوت الأسطوريّ أو لاهوت الشعراء والمسرح، واللاهوت الفيزيائيّ أو الطبيعيّ ويعنون به لاهوت الفلاسفة، واللاهوت المدنيّ أو السياسيّ وهو اللاهوت الشعبيّ. ويقضي هذا التقسيم على اللاهوت الرومانيّ الذي أدرك فِرُّون ذاته ضعف ذاك اللاهوت غير أنّه أبى الاعتراف بذاك الضعف علنًا وركّز بنوع خاصّ على اللاهوت الفلسفيّ وتنكّر للاهوت السياسيّ وما كان دفاعه عن اللاهوت المدنيّ إلّا حفاظًا على ماء الوجه تجاه المجتمع الذي إليه ينتمي. ويندفع أوغسطينس ليبرهن عن التناقضات والسفسطات في كلّ أنواع اللاهوت مع العلم بأنّ لاهوت الهيكل ولاهوت المسرح يتساويان من حيث القيمة والنتيجة.

وتجانسًا مع موقف آباء الكنيسة اليونان واللاتين يُظهر نوعًا من الاحترام للفلسفة وينتقد بصراحة ديانة الأقدمين.

١

إنتقاد أوغسطينس مواقف الفلاسفة

حسبي، على ما أظنّ، الحرب التي أعلنتُها في الكتب الخمسة الأولى على مَن يعتقدون بأنّ عبادة الآلهة الكذبة واجبة عليهم في سبيل الحياة الحاضرة وما تحمل من نجاح سريع الزوال؛ وإن كانوا مقتنعين، من خلال الحقيقة المسيحيّة، بأنّ أولئك الآلهة مخلوقات وليسوا الخالق وأنّهم أصنام لأرواح شرّيرة وأبالسة، وأنّ ما يقدّم لهم من إكرام لا يحقّ إلّا للإله الواحد الحقيقيّ؛ ومع ذلك كلّه فلا الكتب الخمسة ولا سواها مهما بلغ عددها تتغلّب على حماقتهم وعنادهم؛ ومَن ذا الذي يجهل ذلك الأمر؟ تعوّد الباطل أن يقاوم الحقّ بعنف؛ وهذا ما يؤكّده هلاك الإنسان أسير تلك الرذيلة الطامية التي تتحدّى كلّ وسائل الفنّ لأنّها مرض وليس على الطبيب من حَرَج إذا لم يكن المريض قابلًا للشفاء. أمّا الذين يقفون، ممّا يقرأون، موقفًا سليمًا، بعيدًا عن كلّ تمسّك عصبيّ بضلالٍ مزمن، فإنّهم يجدون ولا شكّ أنّنا قد وفّينا الموضوع حقّه وأكثر؛ وقد يتّهموننا بالغلوّ لا بالتقصير. إنّ الحاقدين الذين يتّهمون الديانة المسيحيّة بما في الحياة الحاضرة من كوارث ومآسٍ وثورات تجتاح العالم يحملون الجهلة على الإعلان عن حقدهم، والعلماءَ على إخفائه؛ ويؤكّدونه على حساب معارفهم الشخصيّة؛ ويستسلمون إلى الإثم فيسيطر عليهم ويظهر الحقد أمام الأعين المنزّهة عن كلّ هوى، برهانًا ساطعًا على غياب المنطق والاستقامة، ونتيجةً طبيعيّة للخفّة والحماقة

والخبث الدفين. يبقى عليّ الآن وفقًا للخطّ الذي رسمته لنفسي أن أدحض كذب الذي يزعمون أنّه يجب التوجّه إلى الآلهة الذين تنقضهم الديانة المسيحيّة؛ لا من أجل الحياة الحاضرة، بل من أجل الحياة التي تبدأ بعد الموت؛ وأبدأ قولي بما جاء في المزمور: «طوبى للرجل الذي وضع الربّ مُتَوَكَّله ولم يَمِلْ إلى المختالين والمنعطفين إلى الكذب» (مزمور ٣٩/ ٥). يستمع الإنسان بانزعاج في خضمّ هذه السخافات والأعمال الجنونيّة إلى الفلاسفة الذين يتنكّرون لآراء الشعوب وأخطارهم إذ يقيمون أصنامًا ويبنون على مَن يسمّونهم آلهة خالدين أو يقبلون بهم اعتقادات يُستَحى منها؛ ويمزجون أعيادهم الدينيّة بتلك الاعتقادات المعيبة. وبالتالي فإنّني أوافق الذين شهدوا، سرًّا، بعيدًا عن كلّ إعلان حرّ وفي وشوشات خرساء خلال محاضرتهم وشجبوا تلك الصنميّة، ويمكنني أن أناقش، من دون الإله الواحد الحقّ خالق المخلوقات الجسديّة والروحيّة الذي يجب أن يُعبَد في سبيل الحياة الأخرى، تلك التعدّديّة في الآلهة، الذين يدينون بالله وحده بأصلهم حسب رأي أشهر الفلاسفة... أمّا الآلهة الذين تكلّمت عنهم في الكتاب الرابع ولا سيّما الذين أنيطت بهم أحطّ المهمّات وأسفلها فمَن ذا الذي يستطيع أن يقول إنّهم لقادرون على إعطاء الحياة الأبديّة؟ وهؤلاء المعروفون بحدّة ذكائهم وبه يفاخرون؛ وكأنّهم قدّموا للإنسانيّة خدمات جلّى حين علّموها كيف تكون الصلاة إلى الإله تجنّبًا للخطأ الذي يثير السخرية. وكثيرًا ما يحدث في التمثيليّات الهزليّة حيث يطلبون من خادم الآلهة الخالدين حين ترسله الحوريّات ناقلًا إليهم جوابهنّ القائل: «ليس لدينا سوى الماء فاطلب الخمر من

باخوس؟» وهل يكون النصح لهنّ بالقول: «أيّتها الحوريّات إن لم يكن لديكنّ الخمر فأعطينا، على الأقلّ، الحياة الأبديّة؟» يا للغرابة ويا للسخافة! أولا تسمعون ضحكهنّ العالي الساخر؟ وإذا لم يستهزئن بذلك الطالب على مثال الخبثاء ألا يقلن له: «يا شقيّ، هل تظنّ أنّنا قادرات على التصرّف بالحياة ما دُمنا عاجزات عن التصرّف بالكرمة؟ أوليس انتظار الحياة الأبديّة من أولئك الآلهة ضربًا من الجنون والحماقة؟ إنّ نظام الأعمال والمهمّات المنوطة بالآلهة رعاية لهذه الحياة القصيرة والمليئة بالشقاء ضيّق جدًّا وموزّع بدقّة على الآلهة؛ بحيث لا يستطيع الإنسان أن يسأل إلهًا خدمة منوطة بغيره من دون أن يتعرّض لسخريّة كتلك التي تظهر على المسارح. إن أدلى ممثّلٌ على المسرح عن وعي بما يثير السخرية وأمام الجميع فهل يستطيع الناس أن يحتفظوا بجدّيتهم عندما يقول أناس عن جهل وحماقة ما يثير السخرية؟ إلى أيّ من الآلهة أو الإلاهات يلجأ الإنسان ولأيّ من الأسباب يجب أن يتوسّل إليهم؟ وما هي صفات الآلهة الذين أقامتهم المجتمعات البشريّة؟ ذاك ما أعلنته عبقريّة العلماء وتلك هي التعاليم التي تركوها للخلف وما يمكن المرء أن يطلبه من باخوس مثلًا أو الحوريّات أو فُولْكاين (Vulcain) وهكذا ممَّن ذكرتهم في الكتاب الرابع أو لم أذكرهم. إن طلب المرءُ الخمر من سِرِسْ (Céres) والخبز من باخوس والماء من فولكاين والنار من الحوريّات اعتبر طلبه خطأً جسيمًا فكيف يكون طلب الحياة الأبديّة من أولئك الآلهة المساكين؟ إنّه لعمل جنونيّ حقًّا! نتساءل بعد أن عرضنا لسائر صفات الآلهة عمَّن يستطيع منهم أن يهب الناس الملك في هذا العالم؛ وما أبعد الإنسان عن الحقيقة وهو يتصوّر أنّ مملكةً

والخبث الدفين. يبقى عليّ الآن وفقًا للخطّ الذي رسمته لنفسي أن أدحض كذب الذي يزعمون أنّه يجب التوجّه إلى الآلهة الذين تنقضهم الديانة المسيحيّة؛ لا من أجل الحياة الحاضرة، بل من أجل الحياة التي تبدأ بعد الموت؛ وأبدأ قولي بما جاء في المزمور: «طوبى للرجل الذي وضع الرب مُتَوَكّله ولم يَمِلْ إلى المختالين والمنعطفين إلى الكذب» (مزمور ٣٩/ ٥). يستمع الإنسان بانزعاجٍ في خضمّ هذه السخافات والأعمال الجنونيّة إلى الفلاسفة الذين يتنكّرون لآراء الشعوب وأخطارهم إذ يقيمون أصنامًا ويبنون على مَن يسمّونهم آلهة خالدين أو يقبلون بهم اعتقادات يُستَحى منها؛ ويمزجون أعيادهم الدينيّة بتلك الاعتقادات المعيبة. وبالتالي فإنّني أوافق الذين شهدوا، سرًّا، بعيدًا عن كلّ إعلان حرّ وفي وشوشات خرساء خلال محاضرتهم وشجبوا تلك الصنميّة، ويمكنني أن أناقش، من دون الإله الواحد الحقّ خالق المخلوقات الجسديّة والروحيّة الذي يجب أن يُعبَد في سبيل الحياة الأخرى، تلك التعدّديّة في الآلهة، الذين يدينون بالله وحده بأصلهم حسب رأي أشهر الفلاسفة... أمّا الآلهة الذين تكلّمت عنهم في الكتاب الرابع ولا سيّما الذين أنيطت بهم أحطّ المهمّات وأسفلها فمَن ذا الذي يستطيع أن يقول إنّهم لقادرون على إعطاء الحياة الأبديّة؟ وهؤلاء المعروفون بحدّة ذكائهم وبه يفاخرون؛ وكأنّهم قدّموا للإنسانيّة خدمات جلّى حين علّموها كيف تكون الصلاة إلى الإله تجنّبًا للخطأ الذي يثير السخرية. وكثيرًا ما يحدث في التمثيليّات الهزليّة حيث يطلبون من خادم الآلهة الخالدين حين ترسله الحوريّات ناقلًا إليهم جوابهنّ القائل: «ليس لدينا سوى الماء فاطلب الخمر من

باخوس؟» وهل يكون النصح لهنّ بالقول: «أيّتها الحوريّات إن لم يكن لديكنّ الخمر فأعطينا، على الأقلّ، الحياة الأبديّة؟» يا للغرابة ويا للسخافة! أولا تسمعون ضحكهنّ العالي الساخر؟ وإذا لم يستهزئن بذلك الطالب على مثال الخبثاء ألا يقلن له: «يا شقيّ، هل تظنّ أنّنا قادرات على التصرّف بالحياة ما دُمنا عاجزات عن التصرّف بالكرمة؟ أوليس انتظار الحياة الأبديّة من أولئك الآلهة ضربًا من الجنون والحماقة؟ إنّ نظام الأعمال والمهمّات المنوطة بالآلهة رعاية لهذه الحياة القصيرة والمليئة بالشقاء ضيّق جدًّا وموزّع بدقّة على الآلهة؛ بحيث لا يستطيع الإنسان أن يسأل إلهًا خدمة منوطة بغيره من دون أن يتعرّض لسخريّة كتلك التي تظهر على المسارح. إن أدلى ممثّلٌ على المسرح عن وعي بما يثير السخرية وأمام الجميع فهل يستطيع الناس أن يحتفظوا بجدّيتهم عندما يقول أناس عن جهل وحماقة ما يثير السخرية؟ إلى أيّ من الآلهة أو الإلاهات يلجأ الإنسان ولأيّ من الأسباب يجب أن يتوسّل إليهم؟ وما هي صفات الآلهة الذين أقامتهم المجتمعات البشريّة؟ ذاك ما أعلنته عبقريّة العلماء وتلك هي التعاليم التي تركوها للخلف وما يمكن المرء أن يطلبه من باخوس مثلًا أو الحوريّات أو فُولْكاين (Vulcain) وهكذا ممَّن ذكرتهم في الكتاب الرابع أو لم أذكرهم. إن طلب المرءُ الخمر من سِرِسْ (Céres) والخبز من باخوس والماء من فولكاين والنار من الحوريّات اعتبر طلبه خطأً جسيمًا فكيف يكون طلب الحياة الأبديّة من أولئك الآلهة المساكين؟ إنّه لعمل جنونيّ حقًّا! نتساءل بعد أن عرضنا لسائر صفات الآلهة عمَّن يستطيع منهم أن يهب الناس الملك في هذا العالم؛ وما أبعد الإنسان عن الحقيقة وهو يتصوّر أنّ مملكةً

ما في هذا العالم مدينةٌ بوجودها إلى أحد هؤلاء الآلهة الدجّالين الذين لا عدَّ لهم. من الجنون التامّ أن يعتقد الإنسان بأنّ واحدًا من أولئك الآلهة استطاع أو يستطيع أن يمنح الحياة الأبديّة وهي خيرٌ لا مثيل له يسمو على سائر ممالك الأرض. إنّ عَجزَ الآلهة عن إعطاء ممالك الأرض فليسوا أعظم من البشر لكي يتنازلوا عن عليائهم للعناية بهم؛ ومهما احتقر الإنسان الضعيف تلك القمم المتأرجحة فحقارة الآلهة تمنعهم من توزيع تلك التوافه على البشر ورعايتها.

من كان عاجزًا عن إعطاء هذه الحياة شيئًا، فكيف له أن يعطي الحياة الأبدية؟

وكما أظهرت البراهين التي عرضتها في الكتابين الأوّل والثاني أن لا إله ينتسب إلى عامّة الآلهة، أو الخاصة فيها، يستطيع أن يعطي الناس الصائرين إلى الموت قدرة تصير إلى الموت فما أعجزه عن أن يجعل الصائرين إلى الموت خالدين؟ وعليه، وفي حديثي اليوم مع أناس اقتنعوا بضرورة تكريم أولئك الآلهة، لا من أجل هذه الحياة الحاضرة، بل من أجل المقبلة، أسألهم هل يريدون أن يكرموهم فقط من أجل النِعَم الباطلة التي تحملهم على التفكير في أنّهم في إطار ضيّق مرتبط بهم. إذا كان هذا رأيهم فإنّهم متمسّكون بتكريم تلك الصنميّة التي يعتبرونها، ضروريّة لمصالح الحياة الحاضرة؛ وهو رأي دحدضته بكلّ قواي، وبما فيه الكفاية، في الكتب الخمسة السابقة. وعلى هذا الأساس فإن كان عبّاد جُوفَنْتاس (Juventas) يتمتّعون بشباب زاهٍ وكان محتقرو الآلهة مؤهّلين، حقًّا، إلى شيخوخة مبكّرة، وزان الحظّ خدود

خدّامه بذهب ناعم ورفضت إلاهة أن تعطي مَن يحتقرونها لحية تدعو إلى السخرية، حُقَّ لنا آنذاك أن نحصر سلطة كلّ من الإلاهات في إطار الوظيفة التي أُنيطَت بها. وعلى هذا النحو ليس لنا أن نطلب الحياة الأبديّة من الإلاهة جوفنتاس، العاجزة عن أن تعطي جزءًا من لحية أو أن ننتظر خيرًا لما بعد هذه الحياة من الإلاهة بارْبُو (Barbu) التي تعجز عن أن تعطي فوق هذه الأرض عمرًا يزهو فيه الشباب. ومن ثمَّ فإن لم تكن عبادة أولئك الآلهة ضروريّة حصولًا على النِعَم التي تناط بصلاحيّتهم ما دام الذين تعبّدوا لجوفنتاس قد أصيبوا بمرضٍ في شبابهم؛ في حين الذين يحتقرونهم يتمتّعون بشباب نَضِر. وكم من أناس يعبدون هذه الإلاهة ويرفعون الصلوات إليها ولا ينالون منها شيئًا زهيدًا، فيهزأ بهم ويسخر منهم مَن يحتقرون أولئك الآلهة؟ وعليه فما دام تكريم الآلهة، في سبيل خيرات زمنيّة باطلة لا يجدي نفعًا، فكيف يكون نافعًا ومفيدًا للحياة الأبديّة؟ إنّ مَن يبني هياكل للأوثان على جهل الشعوب يعطي كلّ إله مهمّةً هزيلة سخيفة كي لا يبقى واحد من تلك المجموعة من الدجّالين عاطلًا عن العمل.

٢

أهمّيّة فرُّون العلمية

أين نجد خارجًا عن م. فرُّون (M. Varron) أبحاثًا حول هذا الموضوع واكتشافات وخواطر أكثر اطّلاعًا وعلمًا وأمانة ودقّة؟ وبكلمة واحدة هل نجد دراسة أكمل وأقرب إلى الحقيقة؟ صحيح

أنّ أسلوبه أقلّ جاذبيّة، لكنّه غنيّ بالمعرفة والمعاني ويثقّف الإنسان الفضوليّ بما لديه من معرفة بالأمور الزمنيّة التي يسمّيها الآخرون أدبيّة، أشياء وأشياءَ على قدر ما يشدّ شيشرُون الإنسانَ الشغوف بعلم الكلام. وشيشرون ذاته يؤدي له شهادة مجيدة في كتبه الأكاديميّة إذ يروي للقارئ أنّه ناقش الموضوع مع فَرّون فيقول: «حقًّا إنّه لأعلم الناس وأشدّهم ذكاءً» (*Académiques* 1: 9) ولكنّه ليس أفصحهم وأبلغهم؛ وهو لا يجاريهم في هذا المضمار؛ على أنّه أشدّهم ذكاءً، وهو أمر لا شكّ فيه. وفي الكتب عينها يقول، إنّه يجب على الإنسان أن يشكّ في كلّ شيء ثمّ يضيف قائلًا: «لا شكّ في أنّه أعلم الناس». ذاك ما أكّده؛ ويرفض الشكّ الذي يستعمله في مكان آخر، وبينما ينبري للدفاع عن الشكّ الأكاديميّ ينسى أنّه أكاديميّ ويبدأ حديثه مبيّنًا قيمة فَرّون الأدبيّة قائلًا: «نتيه في مدينتنا كمسافرين وغرباء فتمسك بيدنا كتبك وتقودنا إلى منازلنا فنعرف آنذاك هويّتنا ومكان إقامتنا؛ أنت تكشف لنا عن عمر وطننا وتعاقب الأزمنة وحقوق الديانة والكهنوت؛ أنت تعرض علينا النظام الخاصّ والعامّ وحالة الأحياء والأمكنة وتكشف لنا عن أسماء سائر الأشياء الإلهيّة والبشريّة والأجناس والوظائف وعللها». وهكذا فإنّ ذاك الإنسان الواسع الاطّلاع والنادر المثال الذي يقول فيه تُرَنْتِيانُوس (Trentianus) بيتًا من الشعر على جانب كبير من اللطف: «فرّون هو العلم بالذات». فرّون الذي قرأ الكثير بحيث إنّ الإنسان يعجب كيف يكون له متّسع من الوقت للكتابة؛ والذي كتب الكثير بحيث لا يبقى له متّسع من الوقت للقراءة؛ إنّ ذاك الإنسان العظيم، بفكره وعلمه، لو أنّه قاوم تلك الأمور، الأشياء الإلهيّة

المزعومة وهَدَمها، والتي كانت موضوع دراسته؛ ولو أنّه أشار إليها كنتيجة للخرافة، لا تمتّ بصلة إلى الدين، لما وُجد أشياء أكثر منها تستحقّ السخرية والاحتقار والكراهية؛ ولكن بما أنّه يكرم الآلهة ويؤكّد أنّه من الضروريّ تكريمهم، وفقًا لما يعترف به شخصيًّا، يخاف عليهم من الهلاك بسبب عدم اكتراث المواطنين؛ وليس من جرّاء اجتياح غريب كما أنّه يتباهى بانتشالهم من الخراب والاحتفاظ بهم في ذاكرة الخيّرين (*Antiquitatum rerum divinarum*). وهو احتراص أشدّ نفعًا من تضحية مِيتِلُّس (Metellus) أو إينيه (Enée) لكي يخلّص أحدُهم تمثال فِسْتا من حريق هيكلها والآخر لكي يخلّص آلهة المنازل من نيران غليون. أجل هو ذاته فرّون يوجّه إلى الخلف تلك التقاليد المخجلة والمكروهة على السواء لدى العاقل والأحمق؛ لأنّها تناقض الحقيقية! وماذا يجب على الإنسان أن يقول عنه؟ إنّه ثاقب العقل، حادّ الذكاء، بيد أنّ نعمة الروح القدس لم تحرّره؛ يظلّ رازحًا تحت وطأة العادة وشرائع وطنه؛ لكنّ غيرته الحادّة على الدين لا توصله إلى السكوت عن أشياء لا تروقه.

٣

لقد ألّف واحدًا وأربعين كتابًا في الحضارات القديمة، منها خمس وعشرون في الأمور الإنسانيّة، وستّة عشر في الأمور الإلهيّة. أمّا الباقي فقد نظّمه كما يلي: قَسَم المقالة الأولى في الأمور الإنسانيّة إلى أربعة أجزاء؛ يتألّف كلّ جزء من ستّة أقسام: يتناول الأوّل درس الأحداث وأصحابها ومكانها وزمانها

وطبيعتها؛ وعلى هذا النحو فإنّ الستّة الأولى تختصّ بالناس والفئة الثانية بالأمكنة والثالثة بالزمان والأخيرة بالأشياء. الكلّ يتكوّن من أربعة وعشرين كتابًا ولها مقدّمة واحدة عامّة. وما يختصّ بالإلهيّات فإنّه يتبع الترتيب عينه ويحصي الممارسات الدينيّة لأنّ تقادم الناس للآلهة تصير في الزمان والمكان كما نجد أربعة أسفار يتكوّن كلّ منها من ثلاثة؛ ثلاثة للأشخاص وثلاثة للأمكنة وثلاثة للأوقات وثلاثة للاحتفالات؛ وهنا تبرز ملاحظة دقيقة تدلّ على المؤلّفين والمكان والزمان وطبيعة التقادم. ولكن لمَن تُقدَّم تلك التقادم؟ ويطرح عليه ذاك السؤال لأنّه الأكثر فائدة. وعليه فالكتب الثلاثة الأخيرة تتحدّث عن الآلهة؛ وإن هذه التجزئة التي تتكرّر خمس مرّات تعطي خمسة عشر كتابًا؛ ويصل المجموع إلى ستّة عشر لأنّ البداية تتضمّن كتابًا مستقلًّا يختصر المادّة كلّها؛ وأخيرًا، استنادًا إلى تشابه تامّ، فإنّ تلك التجزئة تعرف أيضًا عدّة أقسام. إنّ الكتاب الأوّل من الكتب الثلاثة المختصّة بالبشر يتحدّث عن الأحبار (الملوك) والثاني عن التنجيم والثالث عن الكهنة الخمسة عشر المخوّلين شرح الكتب الدينيّة (Quindecimvirs). الكتب الثلاثة التالية تختصّ بالأمكنة، أحدها بالمذابح الخاصّة والثاني بالهياكل والثالث بالأماكن المكرّسة. الكتب التي تتعلّق بالزمن أي بالاحتفالات العموميّة تصف تدريجًا الأعياد ومدينة الملاهي والألعاب المسرحيّة والثالث يتناول الذبائح العموميّة ثمّ يلي تلك الاحتفالات الدينيّة الأشخاص الذين يؤدّى لهم ذلك الإكرام؛ الكتاب الأوّل من الكتب الثلاثة المختصّة بالأشياء المقدّسة يتناول التكريسات والثاني الذبائح الخاصّة والثالث الذبائح العامّة؛ وبعد هذا التبسّط المطوّل بالاحتفالات الدينيّة الفخمة

يأتي دور الأشخاص المكرّمين لتحكي الكتب الثلاثة الباقية في الأوّل منها عن الآلهة الثابتين وفي الثاني عن غير الثابتين وفي الثالث عن الآلهة المختارين والأسمى؛ وعبثًا يبحث الإنسان في ذلك التنسيق الجميل عن الحياة الأبديّة وعبثًا يرجوها؛ حتّى إنّ الأمل باكتشافها إثمٌ فظيع؛ ذاك ما قلناه وذاك ما سنقوله أيضًا؛ إنّها لحقيقة واضحة لكلّ مَن لا يختبئ عدوّه العنيد في باطنه. لأنّ كلّ ذلك هو من عمل الناس أو من عمل الأبالسة وليس ممَّن يسمّيهم الوثنيّون شياطين صالحين، ولكن لكي نتكلّم بصراحة عن تلك الأرواح الخبيثة والفاسدة التي ينفث حسدها في النفس البشريّة تلك الآراء المغلوطة التي تلقي النفس في الباطل؛ وتقاوم اتّحادها بالحقيقة الأبديّة التي لا تتغيّر؛ إنّه لحقد أثيم يوحي سرًّا بتلك الأضاليل إلى عقول الكفرة، وأحيانًا إلى حواسّهم، ويستعمل ما تيسّر له من حيل ليثبتهم في غيّهم. إنّ فرّون ذاته يصرّح بأنّه يتكلّم قبل كلّ شيء عن الأمور البشريّة وتاليًا عن الإلهيّة لأنّ المجتمعات تسبق المؤسّسات؛ بيد أنّ الديانة الصحيحة لا تنبع من مدينة أرضيّة بل بخلاف ذلك فإنّها تبني مدينة الأرض. وربّ الحياة الأبديّة، الإله الحقّ، هو الذي يوحي بها ويعلّمها لخدّامه الحقيقيّين.

٤

عندما يعترف فرُّون بأنّه تناول في دراسته الأمور البشريّة قبل الإلهيّة فلأنّ هذه هي من ترتيب بشريّ؛ ويفكّر هكذا: الرسّام يسبق اللوحة كما يسبق المهندس البناية وتسبق المدن مؤسّساتها

وطبيعتها؛ وعلى هذا النحو فإنّ الستّة الأولى تختصّ بالناس والفئة الثانية بالأمكنة والثالثة بالزمان والأخيرة بالأشياء. الكلّ يتكوّن من أربعة وعشرين كتابًا ولها مقدّمة واحدة عامّة. وما يختصّ بالإلهيّات فإنّه يتبع الترتيب عينه ويحصي الممارسات الدينيّة لأنّ تقادم الناس للآلهة تصير في الزمان والمكان كما نجد أربعة أسفار يتكوّن كلّ منها من ثلاثة؛ ثلاثة للأشخاص وثلاثة للأمكنة وثلاثة للأوقات وثلاثة للاحتفالات؛ وهنا تبرز ملاحظة دقيقة تدلّ على المؤلّفين والمكان والزمان وطبيعة التقادم. ولكن لمَن تُقدَّم تلك التقادم؟ ويطرح عليه ذاك السؤال لأنّه الأكثر فائدة. وعليه فالكتب الثلاثة الأخيرة تتحدّث عن الآلهة؛ وإن هذه التجزئة التي تتكرّر خمس مرّات تعطي خمسة عشر كتابًا؛ ويصل المجموع إلى ستّة عشر لأنّ البداية تتضمّن كتابًا مستقلًّا يختصر المادّة كلّها؛ وأخيرًا، استنادًا إلى تشابه تامّ، فإنّ تلك التجزئة تعرف أيضًا عدّة أقسام. إنّ الكتاب الأوّل من الكتب الثلاثة المختصّة بالبشر يتحدّث عن الأحبار (الملوك) والثاني عن التنجيم والثالث عن الكهنة الخمسة عشر المخوّلين شرح الكتب الدينيّة (Quindecimvirs). الكتب الثلاثة التالية تختصّ بالأمكنة، أحدها بالمذابح الخاصّة والثاني بالهياكل والثالث بالأماكن المكرّسة. الكتب التي تتعلّق بالزمن أي بالاحتفالات العموميّة تصف تدريجًا الأعياد ومدينة الملاهي والألعاب المسرحيّة والثالث يتناول الذبائح العموميّة ثمّ يلي تلك الاحتفالات الدينيّة الأشخاص الذين يؤدّى لهم ذلك الإكرام؛ الكتاب الأوّل من الكتب الثلاثة المختصّة بالأشياء المقدّسة يتناول التكريسات والثاني الذبائح الخاصّة والثالث الذبائح العامّة؛ وبعد هذا التبسّط المطوّل بالاحتفالات الدينيّة الفخمة

يأتي دور الأشخاص المكرّمين لتحكي الكتب الثلاثة الباقية في الأوّل منها عن الآلهة الثابتين وفي الثاني عن غير الثابتين وفي الثالث عن الآلهة المختارين والأسمى؛ وعبثًا يبحث الإنسان في ذلك التنسيق الجميل عن الحياة الأبديّة وعبثًا يرجوها؛ حتّى إنّ الأمل باكتشافها إثمٌ فظيع؛ ذاك ما قلناه وذاك ما سنقوله أيضًا؛ إنّها لحقيقة واضحة لكلّ مَن لا يختبئ عدوّه العنيد في باطنه. لأنّ كلّ ذلك هو من عمل الناس أو من عمل الأبالسة وليس ممَّن يسمّيهم الوثنيّون شياطين صالحين، ولكن لكي نتكلّم بصراحة عن تلك الأرواح الخبيثة والفاسدة التي ينفث حسدها في النفس البشريّة تلك الآراء المغلوطة التي تلقي النفس في الباطل؛ وتقاوم اتّحادها بالحقيقة الأبديّة التي لا تتغيّر؛ إنّه لحقد أثيم يوحي سرًّا بتلك الأضاليل إلى عقول الكفرة، وأحيانًا إلى حواسّهم، ويستعمل ما تيسّر له من حيل ليثبتهم في غيّهم. إنّ فرّون ذاته يصرّح بأنّه يتكلّم قبل كلّ شيء عن الأمور البشريّة وتاليًا عن الإلهيّة لأنّ المجتمعات تسبق المؤسّسات؛ بيد أنّ الديانة الصحيحة لا تنبع من مدينة أرضيّة بل بخلاف ذلك فإنّها تبني مدينة الأرض. وربّ الحياة الأبديّة، الإله الحقّ، هو الذي يوحي بها ويعلّمها لخدّامه الحقيقيّين.

٤

عندما يعترف فرُّون بأنّه تناول في دراسته الأمور البشريّة قبل الإلهيّة فلأنّ هذه هي من ترتيب بشريّ؛ ويفكّر هكذا: الرسّام يسبق اللوحة كما يسبق المهندس البناية وتسبق المدن مؤسّساتها

ويقول أيضًا إنّه لو تناول في دراسته الطبيعة الإلهيّة بأكملها لكان تكلّم عن الآلهة وكأنّي به لا يدرس سوى جزء من تلك الطبيعة كما لو أنّ جزءًا من الطبيعة الإلهيّة لا يسبق الطبيعة البشريّة. ومع ذلك فهل تسمح له تلك التجزئة الصحيحة في كتبه الثلاثة الأخيرة للآلهة إلى ثابتين وغير ثابتين، ومختارين، أن يحتفظ بالصمت تجاه كلّ طبيعة إلهيّة؟ وماذا يدّعي بقوله إنّه لو تناول درس كلّ طبيعة إلهيّة وبشريّة، في العمق، لكان قد انتهى من درس مسألة الآلهة قبل مسألة البشر؟ وفي النهاية يكتب في الطبيعة أو في طبيعة معيّنة دون أيّة طبيعة إلهيّة؛ في الحالة الأولى تتقدّم الأمور البشريّة، ولا شكّ، على سواها؛ وفي الثانية لماذا تتقدّم؟ ألا يحقّ لجزء من طبيعة إلهيّة أن يفضّل على كلّ الطبيعة البشريّة؟ حتّى إذا ظنّ إنسان أنّ تفضيل جزء من طبيعة إلهيّة على الأمور البشريّة بأكملها هو نوع من المغالاة، ألا يحقّ لها الأفضليّة، أقلّه، في ما يتعلّق بروما، من دون سواها؛ لأنّ ما جاء في تلك الكتب حول الأمور البشريّة لا يتناول البشريّة بأسرها بل المصالح الرومانيّة؟ غير أنّ فرُّون يفاخر، وفقًا للنظام الذي اتّبعه في كتابه، بأنّ هذا الجزء عينه سابق لقسم الأمور الإلهيّة، كما هو الرسّام بالنسبة إلى اللوحة والمهندس بالنسبة إلى البناية وهو اعتراف صريح بأنّ هذه الأشياء الإلهيّة كفنٍّ البناء والرسم هي من صنع الإنسان فينتج عن ذلك أنّه لا يدرس أيّة طبيعة للآلهة. ودون أن يشرح موقفه يترك الأمر للضالعين في الموضوع؛ وفي الواقع نراه يستعمل تعبيرًا يدعو إلى الحذر؛ يعني في المفهوم العادي «شيئًا ما» كما يمكنه أن يعني «لا شيء» لأنّ تعبير «لا شيء» ينفي الكلّ والجزء. أوّلًا يقول مثلًا: «لو كان الأمر متعلّقًا بكامل طبيعة

الآلهة لقضى النظام بالتحدّث عنها قبل الأمور البشريّة؟» وبما أنّ الحقيقة تعلنه من دونه حتّى ولو كان متعلّقًا بجزء من الطبيعة الإلهيّة، كان من الواجب تقديمه على الأمور البشريّة؛ وإن جاءت، بحقّ، في ما بعد فلمْ يعد لها وجود؛ ينتج عن ذلك أنّ فرُّون لا يريد تفضيل البشريّات على الإلهيّات، بل لا يريد تفضيل الخياليّ على الواقعيّ لأنّه حين يدرس المسألة البشريّة يعتمد تاريخ الأحداث التي تمّت؛ وماذا يطلب في ما يختصّ بالمسألة الإلهيّة؟ آراء سخيفة وخياليّة؛ وذاك ما ينقله إلى الناس بتعبير لبق، لا مثيل له، لا من خلال النظام الذي يتبعه فقط بل من خلال الحجّة التي يقيمها أيضًا. ولو أنّه يلزم الصمت، لما كان الإنسان ينسب إليه تلك الفكرة؛ غير أنّ الحجّة التي يقدّمها لا تسمح بأيّ تكهّن آخر كما يبرهن عنه، بصراحة، وهو أنّه لا يفضّل الطبيعة البشريّة على الإلهيّة، بل يفضّل البشر على مؤسّساتهم؛ وعلى هذا النحو فإنّ موضوع مقالته في الإلهيّات ليس حقيقة الطبيعة الجوهريّة بل الكذب صفة الضلال. هو نفسه يقرّ به بشكل أوضح في المقطع الذي أشرت إليه في الكتاب الرابع حيث يقول إنّه قد يتبع مبادئ الطبيعة لو كان يؤسّس مدينة جديدة، ولكن بصفته ابنًا لروما القديمة يستحيل عليه أن يتهرّب من نير العادة.

٥

اللاهوت ثلاثة أنواع

ولماذا يقبل بأنواع ثلاثة من اللاهوت أو علم الآلهة الذي يسمّيه أسطوريًّا، طبيعيًّا، ومدنيًّا؟ وما سبب هذا التمييز؟ إذا

سمح به العرف لترجمنا الأسطوريّ بلفظة «خرافي»، لأنّ التعبير الإغريقيّ «أسطورة» (Mythe) يعني «خرافة» (Fable). أمّا المرادف للفظة طبيعيّ فالعرف يسمح به وفرّون نفسه يستعمل لفظة «مدنيّ» ثمّ يضيف قائلًا: «نسمّي أسطوريًّا لاهوت الشعراء وطبيعيًّا لاهوت الفلاسفة ومدنيًّا لاهوت الشعوب. ويقول أيضًا إنّ الأوّل يقبل الكثير من الأحداث المناهضة لطبيعة الخالدين وكرامتهم؛ إنّه إله يولد، إمّا من الرأس، أو من الفخذ، أو من بعض نقاط من الدم؛ إله زانٍ وإله سارق وهو إله في خدمة الإنسان وينسب الإنسان أخيرًا إلى الآلهة كلّ ما لدى البشر من فوضى؛ وبخاصّة لدى أكثر الناس سفهًا وسفالة». وعليه عندما يتمكّن فرُّون ويجرؤ ويصدّق السلطان من دون عقاب يصرّح بوضوح، ومن دون أيّ التباس، بأيّ ذلّ تشوّه تلك الأساطير الكاذبة طبيعة الله لأنّه لا يتكلّم هنا لا عن اللاهوت الطبيعيّ أو المدنيّ، بل عن اللاهوت الأسطوريّ الذي يظنّ فيه أنه حرّ في توجيه التهمة إليه. والآن ها هوذا يتحدّث عن اللاهوت الطبيعيّ بالشكل التالي قائلًا: «لقد ترك الفلاسفة حول هذا الموضوع مؤلّفات عدّة بحثوا فيها عدد الآلهة ومراكز إقامتهم وجنسهم وطبيعتهم. وما هو مبدأ كيانهم؟ أهي النار كما يفكّر هيراقليت؟ أم الأعداد كما يقول بِيتاغُور؟ أم الذرّات بحسب رأي أبيكُور؟ تلك مسائل تُفضَّل مناقشتها ضمن إطار المدرسة وليس علنًا في الساحة العامّة أو الفُورُوم». لا يجد شيئًا تجب مراقبته في ذاك اللاهوت الأدبيّ، لاهوت الفلاسفة؛ ويكتفي بالتذكير بآرائهم المختلفة التي تلد الكثير من الشيع المتنافرة، على أنّه يبعد ذاك اللاهوت عن الفوروم ويحصره ضمن جدران المدرسة فينتزعه من

بين أيدي الشعب، تاركًا له لاهوت الكذب والخلاعة. يا لآذان الشعوب الطاهرة النقيّة! يا للآذان الرومانيّة النقيّة! إنّ رهافتها لا تستطيع أن تتحمّل خلافات الفلاسفة حول الآلهة الخالدين؛ أمّا أناشيد الشعراء وأهازيج الممثّلين الفاشلين، المسيئة إلى كرامة الآلهة، وتلك الأعمال الخياليّة التي قد لا ينسبها الإنسان إلى أحقر الناس، فمقبولة بفرح؛ ويسرّ بها الآلهة فيهدأ غضبهم؛ ولربّ قائل يقول: علينا أن نميّز بين اللاهوت الأسطوريّ والطبيعيّ واللاهوت المدنيّ؛ ألا يشير فرّون نفسه إلى الفرق بينهما؟ لِنَرَ كيف يشرح اللاهوت المدنيّ؛ يسهل عليّ أن أفهم لماذا يجب فصل اللاهوت الخرافيّ، لأنّه خطأ ومُخجِل وغير لائق. ولكنّ فصل اللاهوت الطبيعيّ عن المدنيّ، أليس هو اعترافًا بأنّ المدنيّ هو أيضًا خطأ؟ وإذا كان في الواقع طبيعيًّا فأيّ خطأ فيه يفرض إقصاءه؟ وإن لم يكن طبيعيًّا فما الصفات التي تفرض الاعتراف به؟ إليكم السبب الذي يحمل فرّون على درس البشريّات قبل الإلهيّات وهو أنّه بدراسته هذه الأخيرة لا يصل إلى طبيعة الآلهة بل إلى المؤسّسات البشريّة؛ لننتقل إلى اللاهوت المدنيّ حيث يقول: «إنّه العلم الضروريّ لجميع سكّان المدن، ولا سيّما الملوك؛ وهو علم موضوعيّ يضع القاعدة التي بموجبها يكرّم الآلهة علنًا والتي ترسم الواجبات التقويّة ونوعيّة الذبائح المفروضة على كلّ مواطن». ثمّ يردف قائلًا: «اللاهوت الأوّل خاصّ بالمسرح والثاني بالعالم والثالث بالمدينة». لأيّ من الثلاثة يعطي الأفضليّة؟ للثانيَ طبعًا؛ لأنّه كما يشهد بذلك، خاصّ بالعالم ولا شيء، بحسب رأي الفلاسفة، أفضل من العالم؛ أمّا الاثنان الآخران الأوّل والأخير، لاهوت المسرح

ولاهوت المدينة، فإنّه يميّز بينهما ويفصلهما، إذ ليس كلّ ما يختصّ حتمًا بالمدينة يختصّ بالعالم. ألا تنساق مدينة وراء آراء خاطئة ومضلّلة، لا أساس لها، لا في هذا العالم، ولا خارجه، فتجاهر بشعائر دينيّة ومعتقدات لا صحّة لها ولا أساس؟ وهل من مسرح خارج المدينة؟ ولِمَ أقامته إن لم يكن للألعاب المسرحيّة؟ وأين تقام، إن لم يكن بين الأشياء الإلهيّة التي يتحدّث عنها فرّون بكثير من الفنّ؟

٦

مناقشة حادّة لآراء فرُّون

إنّك، يا مِرْكُوس فرّون، لأذكى الناس وأعلمهم؛ على أنّك إنسان، ولست إلهًا، ولست إنسانًا رفعه روح الله بالنور والحرّيّة إلى اكتشاف الأمور الإلهيّة والتبشير بها؛ إنّك ترى بوضوح كم يجب التمييز بينها وبين الأمور البشريّة الكاذبة والباطلة؛ ولكنّك تخاف أن تجرح شعور ذوي الآراء الفاسدة والعادات الخرافيّة الشعبيّة، المنافية لطبيعة الآلهة، لأولئك الآلهة أنفسهم كما يتخيّلهم العقل البشريّ الضعيف، في عناصر الكون؛ وذاك ما تعرفه أنت، بدقّة، وتقول علنًا في كتبك. وماذا يعمل عقل الإنسان الثاقب في هذا المجال؟ وهذا العلم المتنوّع والراسخ الذي حصلته هل يساعدك على الخروج من هذا الممرّ الحرج؟ أنت تكرم الآلهة الطبيعيّين وتتعبّد لهياكل الآلهة المدنيّين، بينهم، وتجد فيهم أسطوريّين يريحونك من القلق الذي تعيشه؛ وسواء أشئت ذلك أم أبيت. فإنّ سهام كلامك القاسي، المرّ، تطال

ذينك الإلهين المدنيّين. وفي الواقع ألا تقول إنّ آلهة الأساطير للمسرح والآلهة الطبيعيّين للعالم والمدنيّين للمدينة؟ أليس العالم من صنع الله؟ أليس المسرح والمدينة من صنع البشر؟ وهؤلاء الآلهة الذين نسخر منهم على المسرح أليسوا هم الذين نعبدهم في الهيكل؟ والآلهة الذين نخصُّهم بالألعاب أليسوا هم الذين نذبح لهم الذبائح؟ أليس من الأصحّ والأصدق تقسيم الآلهة إلى آلهة طبيعيّين وآلهة صنعهم البشر، ثمّ الاعتراف بأنّ كلام الشعراء، حول مَن صنعهم البشر، يختلف تمامًا عن كلام الكهنة، وإن جمع بينهم ضلال مشترك، بشكل أخويّ، في تودّد متوازن إلى الأبالسة، أعداء عقيدة الحقيقة، الصائرين إلى الموت؟ إذا تركنا جانبًا هذا اللاهوت الطبيعيّ لنتكلّم عنه بعد برهة، قل لي يا فرّون هل يجب أن نطلب أو ننتظر الحياة الأبديّة من آلهة الشعراء، من آلهة المسرح؟ حاشى لنا! حمانا الله من هذا الجنون والتهتّك! أمن أولئك الآلهة الذين يهوون الفظائع ويطمئنّون إلى تلك المشاهد، نطلب الحياة الأبديّة؟ كلّا! مهما اشتدّ الهذيان وطغى يبقى عاجزًا عن أن يجرَّ صاحبه حتّى ذلك الفساد والانحطاط؛ لا يستطيع اللاهوت الأسطوريّ ولا المدنيّ أن يؤمّنا، لإنسانٍ، الحياة الأبديّة: أحدهما يتخيّل؛ والآخر يساعد الإنسان على أن يتصوّر ما هو مخجلٌ ومعيبٌ في الآلهة؛ الواحد يزرع، والآخر يحصد؛ الواحد يشيع الكذب، والآخر يقبله؛ الواحد يفسد الأمور الإلهيّة بما يفترض فيها من جرائم؛ والآخر يستوعب الجرائم ويتصوّرها في الإلهيّات؛ الواحد يروي شعرًا تخيّلات البشر الأثيمة؛ والآخر يكرّسها للآلهة أعيادًا واحتفالات؛ الواحد يمتدح الفوضى والانحطاط الذي فيه

يعيشون، والآخر يهواها؛ الواحد يكشف عنها أو يخترعها والآخر يشهد لصحّتها، كأنّها حقٌّ؛ ويستأنس بها، وإن تكن مغلوطة. كلّ منهما فاسد ومنبوذ؛ لاهوت المسرح يجاهر بالفجور ولاهوت المدينة يأخذ ثوبه الدنيء ومع ذلك قد ينتظر الإنسان حياة الأبد ممّا يلطّخ هذه الحياة الزمنيّة الزائلة! أليست معاشرة رجال السوء الذين يدخلون في عواطفنا ويجذبوننا إليهم هي التي تفسد حقًّا حياتنا؛ وبالعكس تبقى على صفائها في جماعة الشياطين الذين يكرّمون لأجل جرائمهم الشخصيّة؟ جرائم صحيحة؟ يا لهم من مسوخ! جرائم كاذبة؟ يا لها من طقوس! قد يكون إنسان ما جاهلًا لكلّ ذلك فيصدّق أنّ أناشيد الشعراء وحدها وألعاب المسرح من دون سواها تعلن عن الأعمال غير اللائقة بالجلال الإلهيّ أو تمثّلها؛ أعمال سخيفة ومكروهة؛ والأسرار التي يحتفل بها الكهنة هي بعيدة كلّ البعد عن الفحشاء بخلاف ما يقوم به الممثّلون المشعوذون. لو أنّ الحالة كانت، وفقًا لما يدّعون، فهل يعقل بأن يكرّس إنسان للآلهة ألعابًا هكذا سافلة؟ وهل يمكن إنسانًا أن يتصوّر أنّ الآلهة يطلبون تكريمًا من هذا النوع؟ أمّا إذا كان المسرح يقدّم هذا التكريم الوقح فهذا يعني أنّ الهيكل ليس أنقى. وعلى هذا النحو فإنّ الكاتب الذي استُشهد به، محاولًا التمييز بين اللاهوت المدنيّ والأسطوريّ والطبيعيّ، يصوّره لنا كمزيج من الثلاثة وليس كلاهوت متميّز؛ فيقول إنّ ما يؤلّفه الشعراء هو دون ما يؤمن به الشعوب؛ وما يعلمه الفلاسفة يفوق إدراك عامّة الناس، على أنّه بالرغم من التنافر بين اللاهوتين فقد أخذ الإنسان الكثير منهما لكي يكون الديانة المدنيّة» ثمّ يقول: «في درسي الدين المدنيّ برزت العلاقات

بشكل طبيعيّ مع لاهوت الشعراء ولكن يجب أن يفتح لنا بابًا للاتّصال بالفلاسفة أفضل منه مع الشعراء». على أنّ الإنسان لا يستطيع أن يتنكّر لبعض الميل إلى الشعراء ويقول في محلّ آخر إنّ الشعوب، عندما يتعلّق الأمر بسلالة الآلهة، يميلون إلى الشعراء أكثر ممّا يميلون إلى الفلاسفة فيقول تارة ما يعمل الإنسان وطورًا ما يجب عمله، مضيفًا أنّ الفلاسفة كتبوا للفائدة والشعراء نظّموا للمتعة؛ وتاليًا لا يجوز للشعوب أن يقتدوا بما نظمه الشعراء في جرائم الآلهة التي يأنس بها الشعوب والآلهة على السواء؛ ويقرّ بأنّ الشعراء يكتبون للمتعة وليس للإفادة، ومع ذلك يكتبون ما يطلبه الآلهة وما تقدّمه الشعوب إليهم.

٧

إنّ اللاهوت الخرافيّ، لاهوت المسرح والمشاهد المليء بالأوساخ والأعمال المعيبة يعود إلى اللاهوت المدنيّ؛ حكم إجماعيّ يشجبه ويطرحه خارجًا؛ إنّه جزء من اللاهوت الذي يحق له الإكرام؛ لا يرتبط الواحد بالآخر رغمًا عنه كما يرتبط عضو غريب بالجسم؛ العلاقة ممتازة؛ إنّه الاتّحاد الحميم لعضو طبيعيّ؛ أنظروا تماثيل الآلهة، هل تكذّب الوجه والعمر والجنس والوقفة التي يعطيهم إيّاها الشعراء؟ إن كان لهم جوبيتر، بلحية، ومركور، بلا لحية، فهل جوبيتر ومركور الأحبار هم مختلفون عن تلك التماثيل؟ وهل يظهر بْرِياب (Priape) أقلّ سفاهة لدى المهرّجين منه لدى الكهنة؟ وهل يقدّم الآلهة المكرّسون إلى العبادة بريابا ما يختلف عن ذاك الذي يقدّمه المسرح أضحوكة

أمام الشعب؟ ساتورن العجوز وأبللون المراهق ليسا سوى قناعين لممثّلين فاشلين وليسا تمثالين لإلهين. لماذا فُركُولُوس (Forculus) الحارس للباب (ولِيمَنْتِينُوس) (Limentinus) على العتبة هما ذكران في حين رفيقتهما كَرْدِيا (Cardea) هي أنثى؟ ألا يجد الإنسان في الكتب التي تحكي عن الأمور الإلهيّة تفاصيل يعتبرها الشعراء المحترمون غير لائقة بأناشيدهم؟ وهل تظهر ديانا على المسرح في سلاحها في حين تُرى في المدينة، بلا سلاح، وبشكل فتاة وحسب؟ وهل أبللون هو عازف قيثارة على المسرح وليس كذلك في دِيلْف (Delphes)؟ ذاك شيء مقبول بالنسبة إلى الباقي. إنّ الذين يضعون مرضعة جوبيتر في الكابيتول، ما هو شعورهم تجاهه؟ ألا يُثبتون شهادة إِفِيمِير (Ephémère) التي تؤكّد، بدقّة مؤرّخ، وليس بخفّة عالم ميتولوجيّ، أنّ الآلهة هؤلاء هم بشر يذهبون إلى الموت؟ وعندما يدعى الآلهة الطفيليّون إلى مائدة جوبيتر ألا تحوّل الطقوس الدينيّة إلى نوع من التهريج؟ أن يتجرّأ ممثّل إيمائيّ فيقول إنّ طفيليّين يؤاكلون جوبيتر، فهذا أمر يدعو إلى الهزء والسخرية. ويقول فرّون الشيء نفسه عندما يريد أن يدعو الناس إلى تكريم الآلهة، لا إلى الهزء بهم، في ما ورد في كتبه عن الأمور الإلهيّة دون البشريّة؛ لا، عندما يصف الألعاب المسرحيّة بل عندما يكشف لنا عن حقوق الكابيتول. وتضطرّه أخيرًا قوّة الحقيقة إلى أن يعترف بأنّ الإنسان الذي أعطى الآلهة أشكالًا بشريّة ظنّ أنّهم يستشعرون ما في الإنسان من ملذّات؛ لأنّ الأرواح الشرّيرة تقوم دومًا بدورها وتخدع النفوس البشريّة بتلك الآراء الخبيثة، عن طريق الوهم؛ وعلى هذا النحو فإنّ الرقيب في هيكل هركول، إذ

وجد نفسه، بلا عمل، أخذ يلعب بالكشاتبين؛ بيدٍ يلعب من أجل هركول وبالأخرى يلعب لنفسه حتّى إذا ربح يقيم وليمة من تقادم الهيكل فيحظى، لقاء ذلك، برضى عشيقة؛ أمّا إذا حالف الحظّ هركول فإنّه يتحمّل نفقات استرضاء الإله؛ وإذا انهزم، شخصيًّا، أمام خصمه، أوْلَمَ له ما اتّفق عليه وقدّم إليه لُورَنْتِينا العشيقة الشهيرة لتنام في الهيكل وتحلم بأنّها تجامع هركول الذي يقول لها إنّ الشابّ الذي ستصادفه لدى خروجها من الهيكل يدفع دين هركول؛ وفي الواقع فإنّ أوّل مَن وقع نظرها عليه لدى خروجها شابّ غنيّ جدًّا يدعى تارُوسِيُوس (Tarutius) استبقاها طويلًا لديه، تاركًا لها بعد موته، كلّ ماله؛ ولما حازت هذه الثروة الطائلة وأرادت أن تعترف بجميل السماء عليها ظنّت أنّها تنال حظوة الآلهة، إذا جعلت الشعب الرومانيّ وريثًا لها؛ عند ذاك اختفت عن الأنظار ووُجدتْ وصيّتها التي كرّمها الآلهة بسببها على حدّ قول الناس. إن كان الشعراء يخترعون تلك الروايات ويمثّلها المهرّجون قال الناس بكلّ تأكيد إنّها مرتبطة باللاهوت الأسطوريّ ولا علاقة لها البتّة بجلال اللاهوت المدنيّ. أمّا عندما ينقل كاتب شهير بريشته تلك الأمور المخجلة، لا كما يتخيّلها الشعراء، بل كديانة للشعوب، وليس كأنّها بغاءٌ مسرحيّ بل كاحتفالات تقويّة ومؤسّسات للاهوت المدنيّ وليست للاهوت الأسطوريّ فليس من العبث أن يُظهر المؤرّخون، خفيةً، خجل الآلهة الذي لا حدّ له؛ بل من العبث أن يعطيهم الكهنة في الطقوس الدينيّة حشمة لا يعرفونها. لجونن أسرارها في سامُوس الجزيرة العزيزة عليها جدًّا حيث الاحتفال بزواجها من جوبيتر. لِسِيرِيس (Cérès) أسرارها حيث البحث عن بُرُوزِرْبِين التي

خطفها بْلُوتُن. لِفِينُوس أسرارها حيث البكاء على محبوبها الفتى الجميل أدونيس الذي قضى نحبه تحت أنياب خنزير برّيّ. لوالدة الآلهة أسرارها حيث خصيان «غال» يتحسّرون من سوء حظّهم على حظّ آتيس وهو فتى جميل تحبّه كثيرًا حتّى وقع ضحيّة امرأة حسود. إنّ أخبار المسرح الخرافيّة ليست بمستوى وقاحتها؛ أين الدافع إلى الفصل بين الأعمال الخرافيّة المرتبطة بمسرح اللاهوت المدنيّ الذي يتعلّق كما يدّعون بالمدينة كما يفصل بين الشريف اللائق والخلاعيّ المخجل؟ ماذا؟ أليس لهم أن يوجّهوا الشكر إلى الممثّلين الفاشلين الذين يوفّرون على أعين الناس ما تخفيه دائرة المحراب من مخازٍ؟ وما القول عن تلك الأسرار التي تتم في الظلمات عندما يكون ما يتمّ في وضح النهار على هذا القدر من القباحة؟ وماذا يحدث خفية مع أولئك الناس السفهاء الفاقدي التوازن؟ الوثنيّون يعرفون، لكنَّ الناس أنفسهم، المنحطّون أخلاقيًّا، فهل من سرّ يبقى مكتومًا عنهم؟ عليهم أن يُقنعوا الآخرين، إن استطاعوا، بأنَّ ما يمارسه الناس هو شيء دينيّ؛ ولكن هل يمكنهم أن ينكروا أنّ أولئك الناس مصنّفون بين المقدّسات؟ إنّنا نجهل الأسرار لكنّنا نعرف الأحبار ونعرف أيضًا ما يجري على المسرح حيث لم يظهر بين مجموعة من العاشقات وحش على هذا القدر من الشَبَق، على أنّ أولئك الممثّلين يحملون وصمة العار والدناءة؛ وما من إنسان شريف يستطيع أن يقوم مقامهم. وما هي تاليًا تلك الأسرار التي تقبل الديانة بخدّامٍ لها، لا يقبل بهم تِيمِيل (Thymèle) الجسور الوقح؟

٨

ويقال إنّ لذلك كلّه معنى خفيًّا؛ أسباب طبيعيّة تطلب تفسيرًا كما لو أنّ الموضوع هنا قضيّة بحث عن أسرار الفيزياء لا عن أسرار اللاهوت، عن معرفة الطبيعة من دون الله لأنّه، وإن يكن الإله الحقّ إلهًا بطبيعته وليس من قبيل الرأي فليست كلّ طبيعةٍ الله. وفي الواقع فالإنسان والحيوان والشجرة والحجر له طبيعته ولا واحدة منها هي الله؛ حتّى إذا تعلّمنا من شرح أسرار والدة الآلهة في النهاية أنّها ليست سوى الأرض فهل تبقى بنا حاجة إلى مزيد من البحوث الطويلة والتحرّيات المتباينة؟ وهل من برهان أكثر وضوحًا، دعمًا للرأي القائل بأنّ الآلهة كانوا بشرًا؟ لقد خرجوا من الأرض لكون الأرض أمًا لهم؛ ولكن بحسب اللاهوت الحقيقيّ ليست الأرض أمًا لله، بل من صنع الله؛ ولكن أيًّا يكن التفسير الذي نعطيه لهذه الأسرار ونربطها بالنظام الطبيعيّ فمن الأكيد أنّ عار أولئك الرجال المختّثين هو اغتصاب للطبيعة؛ فوضى وجرائم وسفَهٌ أمام المذابح يخجل منها ومن الاعتراف بها أحطّ الناس قدرًا وسط العذابات! وإذا كانت تلك الأسرار أدعى إلى الخجل من الفضائح التي تعرض على المسرح، ويجدون لها عذرًا وتبريرًا لكونها رموزًا للطبيعة فلِمَ لا تبرّر بالطريقة عينها روايات الشعراء الخياليّة؟ هي أيضًا تتضمّن معنى خفيًّا؛ أليست تخيّلاتهم الأشدّ وحشيّةً وكراهيةً أسطورة؟ ساتورن الذي يأكل أبناءه، يعني، بحسب عدّة مفسّرين، فسحة الزمن التي تستهلك كلّ ما تنتج؛ أو كما يقول فرّون هو البذار الذي يقع على الأرض؛ فإنّه قدر الكمية التي منها خرج، إلى ما هنالك من الشروح المختلفة،

ولسواها من الأساطير؛ ذاك هو اللاهوت الخرافيّ وبالرغم من التفسيرات الذكيّة فقد تدّنت قيمته؛ وأُبعد وأُفرد، لكونه يسيء إلى الآلهة، لا إلى آلهة اللاهوت الطبيعيّ ولاهوت الفلاسفة فقط، بل إلى اللاهوت المدنيّ ولاهوت الدول والمجتمعات. ما هي فكرة هؤلاء الرجال أساطنة العلم الذين كتبوا في تلك الأمور؟ إنّهم متّفقون على أن يرفضوا معًا لاهوت الأسطورة ولاهوت المدينة، ولكنّهم لا يجرؤون على أن يقوموا على هذا وذاك؛ ويكتفون بإعلان نوع من الانتقاد ضدّ الواحد؛ ويشيرون إلى قرابة بينه وبين الآخر، لا من أجل اختيار أحدهما، بل من أجل التلميح إلى رفضهما معًا. وعلى هذا النحو، ودون أن يتعرّض خصوم اللاهوت المدنيّ الخجولون لأيّ خطر، ينفتح الطريق أمام الطيّبين للدخول في اللاهوت الطبيعيّ. وفي الواقع فاللاهوت الخرافيّ والمدنيّ كلاهما خرافيّ وكلاهما مدنيّ: كلاهما خرافيّ إذا نظرنا إلى ما يُخفيان من أكاذيب ومعميّات؛ وكلاهما مدنيّ إذا فكّرنا بألعاب المسرح المرتبطة باللاهوت الخرافيّ ودخولها في أعياد الآلهة المدنيّين والطقوس العلنيّة. وكيف لنا أن نعزو إلى واحد من هؤلاء الآلهة القُدْرَةَ على إعطاء الحياة الأبديّة، وقد ظهروا في تجانس تامّ في تماثيلهم وطقوسهم مع آلهة الأسطورة المنبوذين علنًا؟ يظهر ذلك التجانس في الملامح والسنّ والجنس والاتّحاد والسلالات والمراسيم التكريميّة؛ وكلّ ذلك يساعد على القول بإنّهم كانوا بشرًا، احتفل الناس بأعياد ميلادهم، أو موتهم، وفقًا لما أوحى به شياطين أشرار؛ أو على الأقلّ، تجاوبًا مع أفكار خبيثة لم تدع فرصة سانحة إلّا وانسابت فيها إلى النفوس البشريّة.

٩

مهمّات الآلهة حقيرة وسافلة

وهذه المهمّات الموزّعة بشكل حقير على الآلهة ومن أجلها يدعى الإنسان إلى أن يرفع إليهم صلوات خاصّة؛ والتي تكلّمنا عنها كثيرًا، دون أن نقول كلّ شيء فيها، ألا تفوح منها روائح الممثّلين السخفاء البعيدة كلّ البعد عن جلال الآلهة؟ وماذا يقال عن والد يعطي ابنه مرضعتين إحداهما لتغذيته بالطعام والأخرى بالشراب كما لهذا المركز إلاهتان إدُوكا وبُوتِينا (Educa-Potina)؟ يا له من مجنون! دعوه ينافق في بيته. يريد الرأي العامّ أن يكون اسما لِيبِرْ ولِيبِرا (فينوس) (Liber-Libera) مشتّقين من لفظة خلاص الذي يوفّرانه بعد الاتّحاد واعترافًا بهذا الجميل يقدّم في الهيكل ذاته جنس المذكّر إلى ليبر وجنس الأنثى إلى ليبرا ويقدّمون أيضًا إلى ليبر نبيذًا ونساء إثارة لحواسّه؛ ويحتفل بهذه الخلاعيّات، بشكل مثير، ومهيّج، ويعترف فرّون ذاته بأنّ الهذيان وحده قادر على شرح تلك الأمور الخلاعيّة التي تقوم بها الراقصات والتي شجبها في ما بعد مجلس الشيوخ فحرّمها؛ ولربّما أدرك الناس ما للأرواح الشرّيرة المعتبرة، بمثابة آلهة، من تأثير على النفوس البشريّة؛ بحيث لم تعد المسارح ترى شيئًا مثلها وأخذت تقدّم ألعابًا دون الأعمال المثيرة؛ على أنّ نوعًا منها ظلّ قائمًا خدمة للآلهة الذين يلتذّون بتلك المشاهد. ولكن ماذا يزعم فرّون عندما يقيم فرقًا بين المتديّن والخرافيّ. هذا يخاف الآلهة وذاك يُكرمهم بمثابة آباء؛ ولا يخاف منهم،

كأعداء، لأنّ طيبتهم، لو صدّق قوله، عظيمة بحيث إنّ الصفح لديهم أقلّ كلفة من ضرب إنسان بريء؛ وماذا يدّعي حين يلحظ ثلاثة آلهة لحراسة النساء اللواتي يضعن ولدًا، حماية لهنّ، من هجمات ليليّة قد يقوم بها سِيلْفانُوس ثمّ يمثّل الآلهة الثلاثة ثلاثة رجال يدورون حول البيت ليلًا ويضربون عتبة الباب أوّلًا بالفأس ثمّ بالمدقّة على أن ينظّفوها أخيرًا بالمكنسة؛ إنّها لرموز زراعيّة تمنع الدخول، عن سيلفانوس، لأنّ الحديد يشذّب الأشجار ويقطعها والمدقّة تسحق الحنطة والمكنسة تجمع الحزم كومًا وتتّخذ إلاهات ثلاث من تلك الأعمال الثلاثة المذكورة: إنتِرْسِيدُونا (Intercidona) أخذت اسمها من الشقّ الذي تحدثه الفأس وبِيلُومْنُوس (Pilumnus) من المدقّة و دِفِرّا (Deverra) من المكنسة، آلهة ثلاثة قائمون على حراسة المرأة التي تلد وحمايتها من عنف سِيلْفانُوس (Silvanus)! وعلى هذا النحو لو لم يكن ثلاثة آلهة صالحين مقابل واحد شرّير لكانت مساعدتهم غير نافعة؛ ولو لم يواجهوا نزيل الأحراج الوحشيّ والشرس برموز زراعيّة تناقضه لما كان باستطاعتهم أن يقوَوا عليه. تلك هي براءة أولئك الآلهة وتوافقهم التامّ! إنّهم لآلهة يحمُون المدن أدعى إلى الاستخفاف والسخرية بهم من كلّ مهرّجي المسارح! أن يشرف الإله جُوغاتِينُوس (Jugatinus) على المجامعة فيا لسعادة الزوجين! بيد أنّه يجب استقدام العروس إلى بيت الزوج فيُدعى من أجل ذلك الإله دُومِيدِيكُوس (Domidicus) ولكي تبقى فيه فهذا الأمر منوط بالإله دُومِيسِيوس (Domicius). أمّا مكوثها مع زوجها فأمر متعلّق بالإلهة مانْتُورنا (Manturna)! وما المطلوب أكثر من ذلك؟ بالله، قليلٌ من الحياء البشريّ! أن تعمل شهوة

جسديّة، الباقي، في سرّ العار! ولِمَ تملأ الغرفة الزوجيّة بهذه الطغمة من الآلهة في حين تنسحب منها الحوريّات؟ يملأونها بهؤلاء الآلهة لا لكي يضمن حضورهم العفّة والطهارة؛ كلّا ثمّ كلّا؛ يجتمعون حول فتاة ضعيفة مضطربة جدًّا آنذاك فتتضافر جهودهم لكي يسهلوا عليها خسارة عذريّتها. هناك يتلقى على موعد سابق سُوبِيغُوس (Subigus) وبْرِيما (Prema) وبِرتُونْدا (Pertunda) وفينوس (Vénus) وبرياب (Priape). وماذا؟ إذا كان على الآلهة أن يمدّوا الزوج بمساعدتهم ألا يكفيه إله واحد وإلاهة واحدة؟ ألا تكفي فينوس التي تدعى في ذلك الوقت لأنّه بدونها لا تستطيع امرأة أن تفقد عذريّتها؟ وإذا ما زال للرجال بعض الحشمة التي فقدها الآلهة ألا توحي فكرة حضور هذا العدد الكبير من الآلهة الذكور والإناث المهتمّين بالزواج إلى الزوجين بقدر من الخجل يخفّف الشهوة عند أحدهم ويزيد من المقاومة عند الآخر؟ إن وجدت إلاهة لحلّ الحزام العذريّ وإله للتغلّب وإله للإخضاع فلِمَ تحضر تلك الإلاهة الأخرى؟ عليها أن تخجل وتخرج! على الأقلّ، على الرجل أن يعمل تلقائيًّا ومن العار أن يقوم مقامه في هذا الواجب الذي يعبّر عنه اسم إلاهة معيّنة. ولِمَ القبول بها؟ ألأنّها إلاهة وليست إلهًا؟ لو أنّ الاعتقاد يأتي بإله ذكر باسم بِرتُونْدُوس (Pertundus) أما كان على الزوج أن يطالب من هذا الإله بمساعدة تفوق ما تطالب به المرأة التي تلد من سيلفانوس؟! ولكن ماذا أقول؟ أليس هناك إله ما على كثير من الرجولة على مثال برياب (Priape) القذر؟ ومع ذلك تلك كانت عادة ترعاها ديانة السيّدات الرومانيّات تقضي بأن تجلس الزوجة على ركبتي ذلك المسخ! ثمّ يجتهدون في التمييز

بين اللاهوت المدنيّ واللاهوت الخرافيّ، بين المدينة والمسرح، بين الهيكل والمشهد، بين الأسرار والقصص الشعريّة، كما يميّز بين الحشمة والعهر وبين الحقّ والباطل وبين ما هو رسميّ والتافه وبين ما يجب السعي إليه وما يجب الهروب منه. يا لها من أمور دقيقة تافهة! إنّنا نعرف أفكار الذين لا يَشْكون بأنّ اللاهوت المسرحيّ لا يرتبط بالمدنيّ وأنّ أبيات الشعراء ليست سوى المرآة الصافية والأمينة التي تعبّر عن تقاسيم تلك التي لا يجرؤ أحد على أن يُصدر بحقّها حكمًا. هل هي الصورة المشكوّ منها والتي نشوّهها بحرّيّتنا لكي ينبذ المتدرّبون على نيّات الحكماء السرّيّة في وقت واحد الحقيقة والمرآة؛ مرآة ينظر فيها الآلهة إلى أنفسهم بشغف فيضطرّ كلّ مَن يريد التعرّف إليهم أن يستشير المرآة والحقيقة معًا؟ ولهذا يفرضون على عبادهم بواسطة التهديد والرعب تكريس مفاسد اللاهوت الخرافيّ والاحتفال بأعيادهم وتصنيفها بين الأمور الإلهيّة. وعلى هذا الشكل يظهرون بوضوح أرواحًا شرّيرة وعندما يربطون باللاهوت المدنيّ كما بلاهوت منتقى ومقبول، هذا العضو المختلف، لاهوت المسرح، موضوع الرفض والاحتقار، فإنّهم يريدون بذلك أن يتقاسم اللاهوتان المركّبان من الخلاعة والكذب المأهولان بآلهة من نسج الخيال. أجل، إنّهم يريدون أن يتقاسم اللاهوتان كتب الأحبار وأناشيد الشعراء. وهل من مكان لجزء ما مختلف؟ إنّها لمسألة أخرى. ولكن إذا اكتفيت بتجزئة فِرُّون فأظنّ أنّني أظهرت، بما فيه الكفاية، هويّة اللاهوت المدنيّ والمسرحيّ؛ وبما أنّهما يتجاذبان بالتساوي الوقاحة والكذب والسخافة فما أبعد رجال الدين عن انتظار الحياة الأبديّة منهما! إنّ فرُّون نفسه في تعداده جميع

الآلهة يبدأ بجانوس منذ الحبل بالرجال ويسير به حتّى الشيخوخة والموت وينهي لائحة الآلهة المخلّصة للشخص البشريّ بالإلاهة نُونيا (Naenia)، نشيد جنائزي يردّد في جنازة العجزة ثمّ ينتقل إلى الآلهة المكلّفين بالأشياء التي يستعملها الإنسان كالغذاء والملبس إلخ... وكلّ ما يتعلّق بحاجات حياة الحاضر. ويتكلّم بوضوح عن مهمّات كلّ من هؤلاء الآلهة، عن الصلوات التي يجب أن ترفع إليهم؛ غير أنّه لا يسمّي ولا يعيّن، في تلك اللائحة، إلهًا واحدًا تُستجدى منه الحياة الأبديّة، هذه الحياة التي من أجلها وحدها صرنا مسيحيّين. أيّ سخيف لا يفهم نيّة ذاك العالم عندما يكشف ويشرح باهتمام كلّي اللاهوت مبيّنًا الشبه بينه وبين الأسطورة المخجلة والمستقبحة؛ وعندما يعلم أنّ اللاهوت الخرافيّ جزء من المدنيّ ألا يريد بذلك أن يدخل في عقول الناس اللاهوت الطبيعيّ الذي ينسبه إلى الفلاسفة؟ وعندما يقوم على اللاهوت الخرافيّ، من دون أن يهاجم المدنيّ، فإنّه يكتشف، بلباقةٍ، فساده. ألا يريد أن يقول إنّ احتقار هذا وذاك لا يجوز أن يترك للأذكياء من الناس سوى اختيار اللاهوت الطبيعيّ؟ سوف نتكلّم عن هذا الموضوع في زمان ومكان آخر بشكل أكثر ملاءمة معتمدين على نعمة إله الحقيقة.

١٠

لم يكن فرّون حرًّا في التنديد علنًا باللاهوت المدنيّ الكثير الشبه باللاهوت المسرحيّ الذي يرفضه؛ بيد أنّ سِنِيك (Sénèque) كان حرًّا في ذلك وقد يظنّه بعضهم معاصرًا للرسل؛

وحرّيته تلك كانت أحيانًا جسارة، إن لم تكن تامّة فهي حاضرة في ما يكتب، غائبة عن حياته. وفي الواقع فإنّه يحمل في كتابه عن الخرافة على اللاهوت المدنيّ، بعنف وإسهاب، أكثر ممّا يفعله فرّون ضدّ اللاهوت المسرحيّ والخرافيّ. وإليكم ما يقول في الأصنام: «يقدّس الإنسان آلهة مصنوعين من مادّة حقيرة، لا شعور لها، فيحترمهم كخالدين، مصونين، في حين هم في أشكال بشر وحيوانات وأسماك ويُعطَون أجسادًا لا يميّز فيها الجنس في بعض الأحيان؛ كم يسمّون آلهة أشياء قد تجعل منها نفحة حياة مسوخًا. وبعد أن يوجز آراء بعض الفلاسفة وينتقل إلى التنويه باللاهوت الطبيعيّ، يطرح على ذاته السؤال التالي: «قد يقول لي أحدهم هنا: هل أؤمن بأنّ السماء والأرض آلهة وبأنّ فوق القمر آلهة وتحته آلهة؟ وهل يمكنني القبول بأفلاطون أو ستراتون اللذان يريدان أحدهما إلهًا بلا جسد والآخر إلهًا بلا روح؟» ثمّ يجيب: «هل أنت أكثر ثقة، بما يحلم به تاسيوس ورمولوس وتولوس هوستيليوس؟ تاسيوس يجعل كُلُواتْشِينا (Cloacina) إلاهة ورمولوس يؤلّه بِيكُوس (Picus) وتِيبِرِينُوس (Tiberinus) وهوستيليوس يؤلّه الخوف والشحوب وهي أكره ما يشعر به إنسان: أحدهما شعور في النفس المذعورة، والآخر متعلّق بالحواسّ، وهو لون وليس مرضًا. فهل تؤمن بهؤلاء الآلهة وتضعهم في السماء؟» ويا لها من حرّيّة يتحدّث بها عن فظاظة تلك الأسرار القذرة! ويقول: «هذا بالرجولة وذاك يفتح جراحًا في ذراعيه. وهل يخشى الإنسان غضب الآلهة عندما يسترضيهم بهذا الثمن؟ آه! إن كان هذا ما يطلبون فلا حقّ لهم بأيّ تكريم؛ إنّ العقل القلق الذي يبدو مطرودًا خارج معقله الحميم، يستولي

عليه هذا الغضب العارم، فيدّعي استمالة الآلهة بأعمال ترفضها قساوة الناس. إنّ أولئك المستبدّين العتاة الذين ظلّت مآسيهم محفورة في الذاكرة يمزّقون أعضاء ضحاياهم وما أمروا قطّ تعيسًا بأن يمزّق نفسه. لقد قطعت أعضاء بعضهم إرضاء لملذّات الملوك. وما من عبد يتعدّى على رجولته، إذعانًا لأمر سيّده؛ أمّا في هياكلهم فإنّهم يتنافسون في تعذيب أنفسهم؛ وصلاتهم دماء وجروح؛ لو أنّ النظر إلى ما يعملون ويعانون، مباحٌ لرأى الإنسان أفعالًا مخالفة للشرف والحرّيّة والعقل بحيث يستحيل عليه أن يشكّ بهذيانهم وغضبهم لو كان ذلك الجنون أخفّ وأقلّ. إنّ الضمانة الوحيدة لعقلهم تكمن في كثرة المجانين». أمّا المشاهد التي تُعرض على مسرح الكابيتول، والتي يعرض لها سينيك ويندّد بها فهي تقدّم أناسًا مهرّجين ومجانين. وما القول في ما يقترضون من أسرار مصريّة حيث الاحتفال بأسطورة أوزيريس الذي ضاع ثمّ وُجد مرّة أخرى بالنواح وهتافات الفرح! حزن وفرح يعبّر عنهما هؤلاء الناس بنبرة من الحقيقة، علمًا بأنّهم ما أضاعوا شيئًا ولا وجدوا شيئًا. يهزأ بهم سينيك قائلًا: «لهذا الغضب وقت محدود! فالهذيان مسموح به مرّة في السنة. إصعد إلى الكابيتول تخجل من تلك الفظائع التي يقوم بها الجنون، وكأنّها واجب. هذا إلٰه الآلهة التي تحييه والآخر يعلن لجوبيتر عن الساعة التي هو فيها؛ هذا يخدم كمرافق وذاك كناثر عطور وبحركة من ذراعيه عبثيّة يعبّر واقعيًّا عن مهنته. لجونن ومينرفا مزيّنات يقفن بعيدًا عن التمثال والهيكل ويحرّكن أصابيعهنّ كما لو كنّ يصفّفن بفنّ شعر الإلاهات؛ منهن مَن تدعو الآلهة إلى حضور دعواهنّ ومنهنّ مَن تمسك المرآة؛ الواحد يقدّم

طلبات والآخر يطلعهنّ على أموره. ممثّل عظيم رزح تحت ثقل شيخوخته يمثّل كلّ يوم في الكابيتول كأنّ الآلهة يتذوّقون ممثّلًا يمجّه ذوق الجمهور ويجد أخيرًا هنالك جميع أنواع الحرفيّين يعملون من أجل الآلهة الخالدين. «ويضيف سينيك لاحقًا فيقول: «إن باعوا الألوهة خدمات نافلة، يبقى شرفهم سليمًا؛ بيد أنّ نساء يجلسن في الكابيتول ويعتقدن بأنّ جوبيتر يحبّهنّ دون مراعاة لجونن التي يتأكلها الحسد، على حدّ قول الشعراء، فذاك يدعو إلى الاستهجان». لا يتكلّم فرّون بهذه الحرّيّة ولا يتجاسر في الكلام إلّا عن اللاهوت الشعريّ ويحترم المدنيّ الذي يهدمه سينيك؛ وفي الحقيقة؛ إنّ تلك الهياكل مكروهة أكثر من المسارح؛ من جهة أفعال حقيقيّة ومن جهة أخرى خياليّة؛ وإنّ السلوك الذي يفرضه سينيك على الرجل العاقل في أسرار اللاهوت المدنيّ ليس قبولًا ضميريًّا بل إعلان خارجيّ قائلًا: «يقوم العاقل بتلك الممارسات، عملًا بالقانون، من دون أن يعتقد بأنّها ترضي الآلهة». ثمّ يضيف: «ماذا؟ إنّنا نقيم بين الآلهة اتّحادات أثيمة من إخوة وأخوات! نزوّج مارس وبللونه، فولكان وفينوس، نبتون وسلاسيا ونترك بعضًا دون زواج كما لو أنّهم لم يجدوا قرينًا، على أنّ إلاهات قد فقدن أزواجهنّ كما هي حال بوبولينا وفُولْغورا ورُومِينا ولست أعجب لكونهنّ لم يجدن مَن يطلب أيديهنّ؛ فيا له من لقاء يجمع الآلهة بحكم خرافة قديمة العهد! فإن كنّا نقدّم لهم عبادة ما فهذا تكريم مرتبط بالعادة، ولا بالحقيقة». وعلى هذا النحو فلا الشرائع ولا العادة رسمت شيئًا في اللاهوت المدنيّ إرضاءً للآلهة أو للاعتراف بحقيقتهم؛ غير أنّ ذاك الرجل الذي حرّرته الفلسفة، إلى حدّ ما، أجل، إنّه

ممثّل للشعب الرومانيّ في مجلس الشيوخ. يحترم ما يحتقر؛ ويعمل ما يرفض؛ ويعبد ما يحكم ضدّه. لقد أعطته الفلسفة تلك الأنوار الحيّة التي تبدّد الخرافات والأوهام من دون شرائع المدينة والعادة البشريّة، غير أنّها لم تدفعه إلى المسرح وجعلت منه في الهيكل إنسانًا يحذو حذو الممثّلين السخفاء وصيّرته مجرمًا تتعاظم مسؤوليّته بقدر ما كان الشعب يعتقده صادقًا وهو يقوم بذلك الدور. إنّ الممثّل الهزليّ يسعى في ألعابه إلى تسلية الناس لا إلى خداعهم ولهذا يبقى أخفّ شرًّا.

١١

بين الخرافات التي يشجبها سينيك (Sénèque) في اللاهوت المدنيّ يضع احتفالات اليهود ولا سيّما السبت ويقول إنّ تلك الممارسة غير مفيدة، وأنّ اليوم السابع المحفوظ هو تقريبًا الجزء السابع من الحياة الضائعة في الراحة، وغالبًا ما تتأثّر مصالح ملحّة بتلك البطالة. أمّا المسيحيّون أعداء اليهود المعروفون، فلا يجرؤ أن يتحدّث عنهم لا خيرًا ولا شرًّا فيخاف من أن يمدحهم بما يخالف العادة القديمة في وطنه، أو أن ينتقدهم وقد يكون ذلك مخالفًا لميله الشخصيّ! لكنّه في حديثه عن اليهود يقول: «مع ذلك فإنّ العادة المتّبعة لدى تلك السلالة المجرمة قد تغلّبت على كلّ شيء حتّى إنّ العالم بأسره قد قبل بها تقريبًا فراح المغلوبون يسنّون الشرائع للغالبين». ويتعجّب لأنّه يجهل أسرار التدبير الإلهيّ ثمّ يعبّر عن شعوره تجاه الديانة اليهوديّة فيقول: «أناس منهم يعرفون على الأقلّ دوافع الدين، في حين القسم

الأكبر يتبعها من دون أن يعرف السبب. «وعليه، لماذا أو كيف وضعت السلطة الإلهيّة الأسرار لليهود ثمّ كيف أنّ السلطة ذاتها أخرجتها من يد شعب الله، في الوقت المعيّن، وهو الشعب الذي قد أوحي إليه بالحياة الأبديّة؛ فهذا ما سوف أبيّنه في مكان آخر ضدّ المانويّين وأتبسّط به بشكل أكثر ملاءمة في مجال آخر من هذا الكتاب.

١٢

رأي اوغسطينس النهائي

وعليه فماذا أقول في هذا اللاهوت الثلاثيّ الذي يسمّيه الإغريق أسطوريًّا أو ماديًّا وسياسيًّا ويسمّيه اللاتين خرافيًّا وطبيعيًّا ومدنيًّا؟ ليس من اللاهوت الخرافيّ الذي يهاجمه بكلّ حرّيّة عبدة هذا العدد الكبير من الآلهة الكذبة؛ وليس من المدنيّ الذي هو جزء من اللاهوت الأوّل وصورة طبق الأصل عنه؛ ماذا أقول؟ وأقبح من ذلك، أن تنتظر منه الحياة الأبديّة؛ وإذا وجد القارئ براهين هذا الكتاب غير كافية، فعليه أن يستعين بالاعتبارات التي يجدها موسّعة في الكتب السابقة؛ وبخاصّة في الكتاب الرابع عن الله بالذات، بصفته أصل السعادة. ولأيّ إله إن لم يكن للسعادة يجب على الناس أن يتوجّهوا، بغية الحصول على الحياة الأبديّة، بعبادتهم واحترامهم، إن كانت السعادة إلاهة؟ ولكن بما أنّها ليست إلهة بل عطيّة من الله فلأيّ إله غير إله السعادة يجب أن نكرّس أنفسنا، نحن الذين نتوق بحرارة إلى هذه الحياة الأبديّة، حيث السعادة الحقيقيّة والتامّة؟ كلّا، لا يمكن أن تكون

السعادة هبة إلهٍ من ذوي الطقوس البذيئة، التي لا تضاهيها بذاءة إلّا شراسة غضبهم عندما ينقص أعيادهم قذارة ما؛ إنّهم لأرواح خبيثة وشرّيرة يحكي إثمهم ما بهم من غضب؛ كلّا، بعد كلّ ما قلت، لا يمكن أن يخامر العقول أيّ شكّ؛ وهل يستطيع أن يعطي الحياة الأبديّة لمن ليس قادرًا على إعطاء السعادة؟ إنّنا نسمّي هكذا الحياة التي لا نهاية للسعادة فيها. وفي الواقع، إذا كانت النفس تعيش في تلك العذابات الأبديّة المحفوظة للأرواح الفاسدة فالأجدر بها أن تموت إلى الأبد من أن تحيى تلك الحياة. وهل من موت أشدّ رعبًا وعمقًا من الموت الذي لا يموت أبدًا؟ وطال ما أنّ النفس، المخلوقة لعدم الموت، لا يمكنها البتّة أن تُحرم من كلّ حياة، فأهمّ موت لها هو إبعادها عن الحياة، في العذاب الأبديّ. هو وحده يعطي الحياة، أي الحياة السعيدة إلى الأبد، مَن يعطي السعادة الحقيقيّة؛ على أنّ أولئك الآلهة آلهة اللاهوت المدنيّ العاجزين عن أن يعطوها فلا يجوز أن يُعبدوا من أجل الخيرات الزمنيّة والأرضيّة، كما بيّنّا ذلك في الكتب الخمسة الأولى كما لا يجوز أن يعبدوا في سبيل الحياة الأبديّة التي تبدأ بالموت. هذا ما يثبته الكتاب الأخير بما سبقه من الكتب؛ بيد أنّ عادة قديمة وقويّة ألقت جذورًا عميقة جدًّا، وقد لا يجد قارئٌ ما دوافعنا قادرة على حمل الناس على احتقار اللاهوت المدنيّ ونبذه، فما عليه سوى أن يتّجه إلى الصفحات التالية لهذه، بعون الله.

الكتاب السابع

مقدمة

يتابع الكاتب معركته ضدّ اللاهوت المدنيّ الذي تبنّاه فرّون ويقول إنّ الرهان ليس فكريًّا وحسب؛ لكنّ المقصود هو استئصال الضلال من نفوس البشر الذين أغوتهم الوثنيّة وهذا الأمر يتطلّب جهدًا كبيرًا لكي يطوي صفحة الديانة الرومانيّة وينتزع كلّ فاعليّتها.

ولهذا نراه يستعرض أهمّ آلهة مدافن العظماء، وفقًا لما يتقدّم بهم فرّون، تحت اسم «الآلهة المختارين». ثمّ يعمل بكلام ساخر ولاذع على إظهار سخافتهم، داعيًا إلى التخلّي عنهم، لكونهم دون البشر قيمةً، ولأنّ عبادتهم تضع الكون على طريق التفكّك والانحلال؛ ويحثّ الناس على عبادة الإله الواحد الحقّ مصدر كلّ هبة وضابط الكون بأسره.

ويهدف من خلال تلك الحملة عليهم إلى القضاء على الوثنيّة وإقامة عبادة الله الواحد وتثبيت النفس في الدين الصحيح؛ فلا تعبد الكون، كإله، بل تعتبره مخلوقًا عجيبًا ورائعًا صنعه الله الأحد، وعندما تتنقّى من كلّ وصمة ترتفع إلى الله خالقها وخالق الكون بأسره.

وتظهر في هذا الكتاب قدرة الكاتب على تحليل شخصيّة كلّ إله بمفرده وإظهار صفاته التي لا تستطيع شيئًا؛ في حين تأتي كلّ نعمة من الله يوزّعها على البشر بواسطة كلمته؛ ويعلّمنا ما هي قيمة الإنسان. فالمسيحيّة، بدلًا من أن توجّه الآلهة إلى الكون، توجّه الكون إلى الإله، الواحد، الحقّ، خالقه؛ وتبيّن أنّ الوثنيّة تنقض ذاتها بذاتها.

ومن خلال ذلك يشبه تفكير أوغسطينس سمفونيّة تتكامل أجزاؤها وحركاتها وأنغامها لتأخذ بقلب السامع وعقله.

١

إذا ضاعفت جهدي وازددت غيرة في مقاومة تلك الأراء القديمة والخبيثة، التي تعادي التقوى الحقيقيّة، لكي أقتلعها من عمق النفوس الداكن، حيث ضلال الجنس البشريّ الطويل المدّة يجذّرها في العمق وبقوّة، وذلك، بتعاون قواي الضعيفة مع العون الإلهيّ، ونعمة الإله الحقّ، الذي وحدَه شرَحَهُ؛ وسوف يمنعها خير القريب من أن تجد ما ليست لها فيه مصلحة غير ضروريّ. للموضوع أهمّيّة كبرى ولا سيّما ما هو متعلّق بالتبشير بأنّ الألوهة الحقّ والمقدّسة، التي تمدّ ضعفنا بكلّ ما تطلبه، تأبى أن يكون سعينا واحترامنا يبغيان هذه الحياة الصائرة إلى الموت، الهاربة كالبخار؛ لكنّهما يهدفان إلى الحياة السعيدة التي ليست سوى حياة الأبد. إنّ تلك الألوهة، وأجرؤ على أن أسمّيها الألوهة الميتولوجيّة (وهو تعبير مأخوذ عن اليونانيّة إظهارًا لفكرة الألوهة كما يتصوّرها اليونان تِيوتيس (Théothès)، لا وجود لها في اللاهوت المدنيّ، الذي يتكلّم عنه فرّون بإسهاب في ستّة عشر كتابًا؛ وبتعبير آخر لا يصل الإنسان إلى سعادة الحياة الأبديّة من خلال تلك العبادة والآلهة الذين أقامتهم المدينة؛ والعقول التي لم تقتنع بما جاء في كتابي السادس الذي أنهيته مؤخّرًا فقد لا تحتاج بعد مطالعته إلى شيء، تبديدًا للشكوك، لأنّه قد يتصوّر أناس أنّه يجب أن تُرفع الصلوات إلى أولئك الآلهة الأعلَين والمنتخبين الذين يضمّنهم فرّون كتابه الأخير؛ وقد قلنا فيهم الشيء القليل، حصولًا على السعادة إلى الأبد. ولن أتذرّع هنا بكلام طرطليانس الأقرب إلى اللذع منه

إلى الحقيقة: «إن كان الإنسان يختار الآلهة كما يختار البصل فمَن لا يكون مختارًا فهو منبوذ» (إلى الأمم). كلّا؛ إنّي أرفض هذا الكلام، إذ إنّه واضح أنّ الإنسان يستطيع أن يختار من النخبة ذاتها أشخاصًا تناط بهم مهمّات أعلى وأهمّ كما هي الحال في المعسكر، عندما ينتخب من بين الشبّان المختارين بعضًا منهم للقيام بغارة معيّنة. وعندما تنتخب الكنيسة قادة لها فهذا لا يعني نبذًا للآخرين، ما دام سائر المؤمنين على قدم المساواة من حيث الاختيار؛ وعندما تشاد بناية يتمّ اختيار حجارة الزوايا من دون أن ترفض سائر الحجارة التي لها أيضًا محلّها؛ ويقطف الإنسان عناقيد العنب ليأكلها ولا يكبّ في النفايات ما يعدّ منها للمعصرة، ولا يجوز أن نلحّ في هذا الموضوع لأنّ الشيء واضح. وعلى هذا النحو فإنّ الاختيار الذي يقع على بعض الآلهة لا يعني التنديد بمَن يتكلّم عنهم أو بمَن يعبدهم أو بالآلهة أنفسهم، بل المراد هو التدقيق بهويّتهم والسبب الذي دفع إلى اختيارهم!

٢

إليكم الآلهة المختارين الذين يجمعهم فرّون في كتاب واحد: جانوس، جوبيتر، ساتورن، جنيوس، مركور، أبولون، مارس، فولكاين، نبتون، الشمس، أوركوس، ليبر، تِلّوس، سيريس، جونن، القمر، ديانا، مينرف، فنوس، فستا: إثنان وعشرون ذكرًا وثماني إناث. ولكن لماذا سمّي هؤلاء مختارين؟ ألأنّ وظائفهم في العالم هامّة، أم بسبب شعبيّتهم الواسعة وكرامتهم؟ إن حُقَّ لهم هذا الامتياز بسبب وظائفهم فهل نجدهم يتسابقون مع تلك

الطغمة من الآلهة ذوي الوظائف الدنيا؟ ألا يُشرف جانوس على الحَبَل بالأطفال وهو المصدر الحتميّ لتلك الوظائف الصغرى الموزّعة على الآلهة الصغار؟ والبزرة الإنسانية أليست مرتبطة بساتورن؟ ألا يتعاون ليبر وليبرا كما فينوس ويساعدان الرجل والمرأة في الإنجاب؟ كلّ أولئك الآلهة هم من الآلهة المختارين؛ ولكن تدخل على الخطّ هنا إلاهة هي مينا، التي تشرف على مواعيد النساء، وهي بنت جوبيتر، مع أنّها مجهولة؛ غير أنّ الوظيفة المنوطة بها يضعها فرّون في عهدة جونن ملكة الآلهة المختارين وبصفتها جونن لوسين تمدُّ يَد المساعدة لكنّتها مينا. وهنا يبرز إلهان آخران من أقلّ الآلهة شهرة وهما فِيتِمُنوس وسِنتِينُوس يعطي أحدهما الحياة والآخر الشعور للطفل الذي يُشرف على الولادة ومع أنّهما من مقام منحطّ فإنّهما يعطيان أكثر ممّا يعطي الآلهة الأعلَوْن المختارون إذ إنّه بدون الحياة والشعور يبقى ذاك الحمل في حشا المرأة كومة من الطين والتراب؟!

٣

ما الذي يُنزل ذاك العدد الكبير من الآلهة المختارين إلى تلك الوظائف الدنيا عندما نرى فِيتِمنُوس وسِنتِينُوس الإلهين المنسيين يتسلّمان أعلى الوظائف؟ جانوس إله مختار يدخل البزرة وليبر إله مختار وأيضًا ليبرا وعلى هذا النحو سيريس أو فنوس يسهّلان الإرسال؛ وجونن الإلاهة المختارة تؤمّن المواعيد للنساء إنماءً للثمار؛ وهوذا فيتمنوس وسنتينوس إلهان مجهولان ومنسيّان يقدّمان أحدهما الحياة والآخر الشعور وهي نِعَم تفوق نِعَم الآلهة

الآخرين وإن تكن دون مواهب الذكاء والعقل؛ وبقدر ما تتقدّم الكائنات المتمتّعة بالعقل والفهم على تلك التي حرمت منهما فعاشت في خبل الحواسّ والحياة الحيوانيّة، بقدر ذلك تتقدّم الكائنات الحيّة والحسّاسة على الطبيعة الجامدة والفاقدة الإحساس. وعلى هذا النحو فإنّ فيتمنوس معطي الحياة وسنتينوس معطي الإحساس يتقدّمان في مصافّ الآلهة المختارين على جانوس وساتورن وليبر وليبرا الذين يضبطون سائر حركات تلك البزرة، المادّة الدنيئة، التي لا يمكن الإنسان أن يفكّر فيها قبل أن تأخذ الحياة والإحساس؛ ولا تأتي الهبات المختارة من الآلهة المنتخبين؛ بل لست أدري من أيّ إله مجهول يختفي وراء عظمة الآخرين؛ وسوف يقولون إنّ جانوس يُشرف على كلّ بداية وقد يُنسب إليه كلّ ما يسبق الحبل؛ ساتورن يشرف على كلّ البذور؛ وقد لا يمكن أن يحذف من اختصاصه بذرة الإنسان؛ يشرف ليبر وليبرا على عمليّة الإرسال لكلّ البذور ومن بينها ما ينمّي السلالات البشريّة؛ جونن تشرف على كلّ عمليّة تطهير، على كلّ ولادة؛ وعونها مضمون للنساء، لدى الولادة والخلاص؛ وبماذا نجيب في ما يختصّ بفيتمنوس وسنتينوس؟ هل يمتدّ سلطانهما، حقًّا، على كلّ مَن يتمتّع بالحياة والشعور؟ وإن كانت لهما تلك القدرة فإلى أيّة مرتبة يُرفعان؟ إنّ كلّ ما يولد من الزرع فمن الأرض يولد وفي الأرض؛ بيد أنّ الحياة والشعور، بحسب الرأي العامّ، مرتبطان بآلهة الكواكب. وإذا حصروا سلطان فيتمنوس وسنتينوس على الكائنات التي تعيش في الجسد بواسطة الحواسّ فلِمَ لا يعطي هذا الإله الذي يجعل كلّ شيء حيًّا يشعر، لا يهب كذلك الجسد الحياة والشعور؛ وفي

كلّ ما يصنعه ألا يوفّر هذه العطيّة أيضًا للجنس البشريّ؟ وهل من حاجة إلى فيتمنوس وسنتينوس؟ إن كان مَن بيده القدرة على إعطاء الحياة والشعور، يدبّر على الصعيد العالميّ كلّ شيء ويكلُ إلى الآلهة الصغار كما إلى خدّام، العناية بالكائنات الحيوانيّة، السافلة والبالغة الانحطاط، فَهل يبقى الآلهة المختارون بحاجة ماسّة إلى عبيد، بحيث لا يجدون مَن يحرّرونهم من تلك المهمّات فيضطرّون مع ما هم عليه من النبل والكرامة، إلى مشاركة الآلهة المجهولين فيها؟ جونن، إلاهة مختارة، ملكة الآلهة «أخت جوبيتر وزوجته» هي للأولاد الوضيعة أَنتِرْدُوكا وتشترك في هذا العمل مع إلاهتين غير معروفتين أبيانا وأديونا (Abeana et Adeona!) وهنا تدعى الإلاهة مانْس (Mens) العقل لتعطي الأولاد الذكاء وهي غير مقبولة في طغمة المختارين؛ ومع ذلك هل يمكن الإنسان أن يقبل هديّة أعظم من تلك الهديّة؟ وهل تكرّم جونن بصفتها إيتِرْدُوكا ودُومِيدُوكا (Iterduca et Dumiduca) كما لو كان من مصلحة الإنسان أن يؤخذ إلى نزهة، ويعاد منها، بدون الذكاء؟ بيد أنّ الإلاهة صاحبة هذه العطيّة الثمينة منسيّة لدى مَن شكّل النخبة الإلهيّة! يحقّ لها، بكلّ تأكيد، أن تتقدّم على مينرفا التي تهتمّ بذاكرة الأولاد فضلًا عن سائر ما لها من حقوق. وفي الواقع مَن ذا يشكّ في أفضليّة عقل جيّد على ذاكرة واسعة الاطّلاع؟ ولا يمكن لإنسان ذي عقل مستقيم أن يكون شرّيرًا في حين نرى أناسًا كثيرين أشرارًا يتمتّعون بذاكرة عجيبة ويزدادون شرًّا بقدر ما يختزنون في ذاكرتهم أفكارهم الشرّيرة!. ومع أنّ مينرفا تُعدّ بين الآلهة المختارين تضيع الإلاهة مانْس (Mens) العقلَ في جماعة السافلين. هل أتحدّث أيضًا

وأيضًا عن الفضيلة والسعادة اللتين تحدّثت عنهما في الكتاب السابق؟ لقد جعلوا منهما إلهَين وما وضعوهما بين الآلهة المختارين في حين وضعوا مارس وأركوس صاحب الكثير من الميتات ومستضيفها! وإذ يرى الإنسان الآلهة المختارين يتعاونون مع الآلهة الثانويّين قيامًا بتلك المهامّ كما هي حال مجلس الشيوخ مع الشعب، تاركين لمَن هم دونهم قدرًا الوظائف الأهمّ إذ ذاك يفكّر الإنسان في أنّ كرامة الآلهة ليست متعلّقة بالدور الذي يشغلونه في إدارة الكون بل بالشعبيّة التي لهم! وهوذا فرُون نفسه يقول إنّ آلهة كثيرين كبارًا، صانعي آلهة معروفين، قد سقطوا كما يحدث للناس في ظلام قاتم. وعليه، فإن لم يكن للسعادة أن ترفع المختارين، إلى مصافّ الآلهة، لأنّ الصدفة هي التي ترفع إلى هذا المقام وليس الاستحقاق، فعلى الأقلّ، يجب أن يرفع الحظّ إليه؛ لأنّه كما يقال يوزّع نِعَمه لا كما يريد العقل بل بحسب أهواء القدَر. لقد كان لها أن تتبوّأ مقام الشرف هي التي برهنت عن قدرتها على الآلهة المختارين لكونهم لم يصلوا بسموّ فضيلتهم، ولا بإنعامٍ من سعادة حقّة، نالوا ذلك اللقب، بل وفق ما يقول عبادهم؛ أحرزوه بما للقدر من طاقة وجسارة! ولربّما كان سَلُستُس الفصيح يفكّر في الآلهة أنفسهم بقوله: «أجل، الحظّ هو الذي يسيطر في كلّ شيء، وفق تقلّباته، وليس عن حقّ يعظّم الإنسان أو يبقيه نسيًا منسيًا» (كاتيلينا ٨: ١). ما الذي يجعل فنوس شهيرةً والفضيلة مجهولة عندما تتساويان في الحقوق وتختلفان في الاستحقاق؟ إن تعلّقت الشهرة بما يوحي الإنسان من جاذبيّة فإنّ فنوس مُفضلة على الفضيلة؛ ولكن لماذا تحظى الإلاهة مينرفا بالقبول في حين تظلّ الإلاهة بيكونيا طي

النسيان؟ أليس الجشع جذّابًا للناس أكثر من العلم؟ هل يجد الإنسان، بين مَن يمارسون مهنة، أناسًا يعملون بالمجّان؟ يكاد لا يجد. إذا كان اختيار الآلهة منوطًا بمجموعة من الجهلة فلماذا لا تفضّل الإلهة بكونيا على مينرفا ما دام الكثيرون يعملون لها؟ وإن كان هذا الاختيار منوطًا بعدد قليل من الحكماء لِمَ لا تفضل الفضيلة على فنوس ما دام أنّ العقل يؤيّدها؟ وعلى الأقلّ، إذا كان الحظّ، بحسب شعور الناس الأكثر اعترافًا بتأثيره»، يسيطر في كلّ شيء لا عن حقّ، بل وفق أهوائه، يرفع الإنسان أو يحطّه، وإذا كان له هذا السلطان على الآلهة أنفسهم فيجعلهم بحسب نزواته مشهورين أو طيّ النسيان فمن المؤكّد أنّه يشغل، بين الآلهة المختارين، المركز الأوّل، ما دام يمارس عليهم سلطانًا عاليًا. وهل يجد الحظّ هنا حظًّا مناهضًا له؟ ويكون تاليًا مناقضًا لذاته لئلّا يشاطر الآخرين نبلًا يهبهم إيّاه؟

٤

قد يكون على مَن يتوق إلى المجد والعظمة أن يهنّئ الآلهة المختارين ويحسدهم على حظّهم لو لم يكن واضحًا أنّ هذا الاختيار يُعدّهم للتحقير أكثر ممّا يُعدّهم للتكريم. إنّ الجماعة المنسيّة يحميها خمول ذكرها من الإهانات؛ صحيح أنّنا نضحك إذ نرى عددًا كبيرًا من الآلهة الصغار يتفرّغون للمهمّات التي يوزّعها الناس عليهم، بحسب أهوائهم، بحيث يضاهي عددهم عدد الجباة الثانويّين أو الحرفيّين الفنّيّين في جادة الصاغة، فلا تسمح معاملهم بإخراج أيّ شيء قبل أن يمرّ على مجموعة من

الأيدي، وصولًا إلى الإتقان الذي يمكن لفنّان واحد حاذق أن يضفيه عليه؛ يهدف التنويع في الأيدي العاملة إلى تسهيل العمل بالنسبة إلى كلّ عامل والإسراع فيه؛ إنّ ممارسة فنّ معيّن، في مجمله، يتطلّب جهدًا وزمنًا طويلًا؛ ويكاد لا يجد الإنسان بين الآلهة غير المختارين إلهًا واحدًا تلطّخ بجريمة، في حين لا يجد بين المختارين إلهًا واحدًا لم يتلطّخ بعار. الآلهة الكبار ينزلون إلى وظائف الصغار الدنيئة، في حين لا يرتفع الصغار إلى الكبار في أرجاء الجريمة العالية. أمّا بخصوص جانوس فلست أعرف هل قد نشر شيء ضدّه؛ وقد يكون قد عاش حياة سليمة، بعيدة كلّ البعد عن الجرائم والرذيلة؛ استقبل برحابة صدر ساتورن الهارب وأشركه في مملكته وعلى هذا النحو ارتفعت مدينتان: جانِيكُلُوم وساتُورْنِيا، بيد أنّ المصابين بنهمٍ شديد إلى الفساد، في سبيل آلهتهم، وقد وجدوه أشرف منهم، امتهنوا كرامته بتمثال أقاموه، بلا شكل، فصوّروه بجبهتين أو أربع، كما لو أنّه مزدوج الشخصيّة. أما حُقَّ للفاضل جانوس أن يكون له عدد أقلّ ممّا لأولئك الآلهة الأشرار؟؟

٥

لنستمع أوّلًا إلى الشروح الفيزيائيّة التي يسعى الوثنيّون، من خلالها، إلى إخفاء ضلالهم المخجل، كما تحت غطاء عقيدة راسخة؛ ويشير فرّون إلى تلك الشروح فيقول: «لقد تصوّر الأقدمون تماثيل آلهتهم ومواصفاتهم وزينتهم لكي يرتفع الناس المتدرّبون على أسرار العقيدة إلى رؤية العالم العقلية وأجزائه،

أي إلى الآلهة الحقيقيّين. إنّ الذين صوّروهم، في ملامح الإنسان، يظهرون وكأنّهم ارتبطوا بما يشبه نفس الناس الصائرين إلى الموت، التي تسكن في الجسد البشريّ، مع النفس الخالدة. إذا وضع الإنسان، مثلًا، في المعابد آنية تختصّ بتمييز الآلهة، في معبد باخوس إناء يدلّ من ذاته على محتواه، وعلى هذا النحو، فالتمثال الذي هو بشكل إنسان يمثّل النفس العاقلة شبيهة بجوهرها بالجوهر الإلهيّ والشبيه هو كالوعاء». (فرّون) تلك هي أسرار العقيدة التي أدركها العالِم فرّون وكشفها للعالم! ولكن قل لنا يا أذكى إنسان! عندما تسبُرُ غور الأسرار العميقة هل فقدت العقل الذي ألهمك الكلمات التالية: «المخترعون الأوائل للتماثيل الإلهيّة أبعدوا الخوف وزادوا الضلال لأنّ الرومان القدماء بدون أصنام كانت لهم عبادة أصفى». وبفضل هؤلاء الرومان الأقدمين تَجرَّأوا على التحدّث هكذا ضدّ مَن يخلفونهم؛ ولو أنّهم بدوا أيضًا أصنامًا لكنت خنقت في صمت الخوف هذا الصوت الذي ترفعه الآن ضدّهم؛ وكنت أذعت بمزيد من الفصاحة أسرار الضلال والكذب؛ على أنّ نفسك النيّرة والذكيّة بحاجة إلى التريّث والشفقة! ومع أنّها عالمة فلم تستطع أن تصل إلى الله الذي صنعها من دون أن يكون مخلوقًا معها؛ إنّها خليقة وليست جزءًا من الله الذي ليس روح الكلّ، بل خالق كلّ نفس، النور الوحيد، الذي يضمن للنفس سعادتها، إن لم ترفض النعمة؛ فما هي تلك الأسرار وأي احترام يجب لها؟ سنعرف ذلك ممّا يلي. ومع ذلك فإنّ هذا الإنسان العالِم يعرف روح الكون وأجزاءه، كآلهة حقيقيّين، فينتج عن ذلك لاهوته الطبيعيّ بالذات الذي يعيره أهمّيّة كبيرة لم يستطع أن يرتفع إلى ما بعد

النفس العاقلة. إنّه لموجز جدًّا في ما يتعلّق باللاهوت الطبيعيّ في هذا الكتاب حيث سنرى إن هل يمكن ربطُ اللاهوت المدنيّ بهذا اللاهوت وهو آخر ما حكى عن الآلهة المختارين؛ إذ ذاك هل يبقى من حاجة إلى أن يقاوَم هذا التمييز اللبق بهذا القدر من العناية؟ إن كان هذا التمييز صحيحًا فاللاهوت الطبيعيّ، الذي يروقه كثيرًا، ليس صحيحًا، لأنّه لا يطال سوى النفس ولا يطال الله الحقّ الذي هو خالق النفس. وعلى هذا الأساس فاللاهوت المدنيّ الذي لا يخرج عن الطبيعة الجسديّة، كما تدلّ التأويلات الدقيقة والعلميّة التي لا بدّ من التذكير بها، هو غارق في الضلال والتفاهة.

٦

معاني الكون وشروحها

يقول فرُّون أيضًا في مقدّمة كتابه في اللاهوت الطبيعيّ إنّ الله، نفس الكون، وهو ما يسمّيه الإغريق كوشمُس (Cosmos) وهذا الكون هو الله؛ وكما أنّ الإنسان العاقل المركّب من جسد وروح يدين للروح باسم «عاقل» فالكون يسمّى الله بسبب الروح الذي يحييه؛ وإن يكن جسدًا وروحًا؛ وهذا ما يبدو بمثابة إقرار بوجود إله واحد؛ ولكن بغية إدخال كثيرين، يضيف بأنّ الكون يُقسم قسمين: السماء والأرض؛ السماء تُقسم قسمين: الأثير والهواء؛ والأرض أيضًا تقسم إلى ماء ويابسة؛ الأثير يشغل المنطقة الأولى والهواء الثانية؛ والماء واليبس يشغلان المناطق الأخرى؛ هذه المناطق الأربع ملأى بالأرواح؛ يشغل الأثير والهواء نفوسًا

خالدة ويشغل الماء واليبس نفوسًا تصير إلى الموت؛ وتسكن النفوس الأثيريّة والكواكب والنجوم من آخر حدود دائرة السماء حتّى دائرة القمر؛ آلهة سماويّون يبلغ إليهم الإنسان، لا بالفكر وحسب، بل بالنظر أيضًا؛ بين دائرة القمر والقمم الأخيرة لمنطقة العواصف والأرياح تقيم النفوس الرشيقة (الهوائية) التي يدركها العقل ولا تقع تحت النظر وهي النفوس المسمّاة، بطلة ونوابغ وحماة للمنازل. ذاك هو الموجز الذي يعطيه في مقدّمة اللاهوت الطبيعيّ، فيشعر بمحبّة خاصّة له كما هي حال معظم الفلاسفة؛ وأشعر بواجب القيام، بفحص دقيق له، بعد أن أنهي كلامي عن الآلهة المختارين بنعمة الله ومحبّته.

٧

مَن هو جانوس الذي به يبدأ هذا اللاهوت؟ أسأل مَن هو؟ يقال إنّه الكون. بكلّ تأكيد إنّه لجواب موجز وواضح. ومع ذلك لماذا ينسب إليه أصل الأشياء وتنسب النهاية إلى آخر فيسمّونه تِرمِينُوس (Terminus) أو نهاية الشيء؟ إنّهم يؤكّدون بسبب الأصول والنهايات، وبمعزل عن الأشهر العشرة، التي تبدأ بآذار وتنتهي بكانون الأوّل. فهناك شهران مكرّسان لإلهين: كانون الثاني لجانوس وشباط لِتِرمِينُوس ولهذا يقال أيضًا إنّ الاحتفال بالنهايات يصير في شباط، وهو الوقت الذي يقام فيه عيد التكفير فيعطي الشهر اسمه. ماذا؟ أصل الأشياء يختصّ بالكون، يختصّ بجانوس، بيد أنّ النهاية ليست له ويلزمها إله آخر؟ أليس معروفًا أنّ كلّ ما في الكون ينتهي فيه؟ يا للتناقض الغريب! يعطى إله

نصفًا من قدرة. ويعطى تمثال له وجهًا مزدوجًا! أليست الأسطورة أكثر ذكاء حين تعطي وجهًا للأصول، وآخر للنهايات؟ العمل يقتضي الجمع بين هذين الحدّين؛ إنّ كلّ مَن لا يأخذ بعين الاعتبار بداية عمله، لا يتبيّن حقًّا نهايته؛ وعلى هذا النحو فكلّ تطلّع إلى المستقبل مرتبط حتمًا بالذاكرة التي تختزن الماضي. مَن ينسى ما بدأه لن يعرف كيف ينتهي. إن ظنّ الإنسان أنّ الحياة السعيدة تبدأ في هذا العالم وتكتمل خارجًا عنه يحصر سلطان جانوس في البدايات ولا شكّ في أنّ ترمينوس المفضّل لا يجد ذاته خارج مصافّ الآلهة المختارين فيتقاسم بداية الأشياء الزمنيّة ونهايتها هذان الإلهان. ألا يحقّ لجانوس المزيد من الإكرام لأنّ الفرح يبلغ ذروته عند الانتهاء من العمل؟ كلّ بداية مليئة بالقلق الذي يستمرّ إلى أن تصل المشاريع إلى حدّها حيث يتوق الإنسان بكلّ قواه وأفكاره وأمانيه؛ وما من نصر إلّا بعد اكتمال المشروع.

٨

ننتقل إلى تفسير تمثال جانوس المزدوج الذي أعطي وجهين: إلى الأمام واحد وإلى الوراء آخر؛ وعلى حدّ ما يقولون لأنّ فمنا المفتوح يشبه الكون: الإغريق سمّوا سقف الفم أورانُوس (Ouranos) وبعض الشعراء اللاتين سمّاه سماء (Coelum). لفمنا المفتوح منفذان أحدهما خارجيّ يصل بالأسنان والآخر داخليّ يصل بالعنق؛ ذاك ما وصل إليه الكون بفضل الاسم الإغريقيّ أو الشعريّ لسقف الحلق. وما هي صلته بالنفس وبالحياة الأبديّة؟ أن يكرم إله فقط من أجل اللعاب الذي يدخل

أو يخرج تحت هذه السماء، تحت هذا السقف الذي ينفتح من أجله البابان. وهل من شيء أسخف من أن لا يجد الإنسان في هذا الكون عينه بابين متقابلين يدخلان فيه أو يخرجان منه ما يروقه ثمّ الطلب من فمنا، من حلقومنا المختلف كلّيًّا عن الكون أن يؤلّف له شعارًا تحت ملامح جانوس بسبب الحنك الذي لا شبه البتّة بينه وبين جانوس؟ ومن جهة أخرى عندما يعطى أربع جبهات، استنادًا إلى شكله المزدوج، يؤول على هذا الشكل بالنسبة إلى أربعة أجزاء العالم كما لو أنّ العالم ينظر في كلّ مكان خارجًا عن ذاته كما ينظر جانوس من خلال وجوهه الأربعة. ومن ثمّ، إذا كان جانوس الكون وكان الكون مؤلّفًا من أربعة أجزاء فتمثال جانوس ذو الوجهين خطأ حتّى إذا اعتبرناه صحيحًا بالمعنى الذي يفهم العالم بالشرق والغرب، مع ذلك إذا سمّينا الجزءين الآخرين شمالًا وجنوبًا هل يحقّ لنا أن نقول إنّ العالم مزدوج كما نسمّي جانوس مزدوجًا ذا أربع جبهات؟ لا شكّ في أنّنا لا نستطيع أن نجد في الكون ما يشبه تلك الأقسام الأربعة التي تنفتح عند دخول الأشياء كلّها وخروجها. كما نجد في الفم البشريّ شبهًا بجانوس ذي الجبهتين؛ ولربّما جاءنا نبتون بسمكة لمساعدتنا؛ وهذه السمكة تقدّم بمعزلٍ عن الفم والبلعوم يمينًا وشمالًا فتحة خراشيمها؛ على أنّه ومع كلّ تلك المخارج التي نحاول أن نقدّمها ما من نفس تستطيع أن تتهرّب من الباطل ما لم تصغ إلى كلمة الحياة القائلة: «أنا هو الباب».

٩

مَن هو هذا جوفيس المسمّى جوبيتر؟ إنّه الإله الذي يتعلّق به كلّ ما يحدث في الكون. فيا له من سلطان عظيم يشهد له فيرجل ببيت من الشعر شهير: «سعيد مَن استطاع أن يرتفع إلى معرفة العلل»! ولم يفضّل تاليًا جانوس على هذا الإله؟ فليجبنا ذاك الإنسان العالم الديمقريّ! يقول: «البداية لجانوس والكمال لجوبيتر فضلًا عن السيادة؛ لأنّ الكمال يمحو البداية؛ إن كان أحدهما أوّلًا في الزمن فالآخر أوّل من حيث الأهمّيّة». وما قلنا هو الأصحّ إذا أردنا أن نميّز في الأشياء بين الأصل والذروة في النموّ. الانطلاق في العمل بداية والوصول نهاية؛ الدرس بداية عمل؛ واستيعاب العلم نهاية؛ وعلى هذا النحو، في كلّ شيء، البداية تسبق والنهاية تتوّج؛ لكنّ ذاك خلاف أفرغ من محتواه بين جانوس وترمينوس على أنّ العلل الفعّالة منسوبة إلى جوبيتر من دون النتائج؛ ومن المستحيل أن تسبق النتائج وبدايتها العلل ببرهة من الزمن لأنّ ما يعمل يسبق دومًا ما يحدث. وعليه فإن تكن البدايات مختصّة بجانوس فهل يعني أنّها تسبق العلل المنسوبة إلى جوبيتر؟ كما لا يحدث شيء، هكذا لا يبدأ شيء إلّا إذا سبقته العلّة الفعّالة. أجل هذا الإله الضابط الأسمى للعلل والكائنات وسائر الأحداث الطبيعيّة هل هو جوبيتر الذي تكرّمه الشعوب بالشتائم والمعيبات بحيث تتحمّل خطأً كبيرًا ضدّ القدسيّات إذا رفضت الاعتراف بإله؟ أليس من الأفضل إعطاء اسم جوبيتر لما هو جدير بتلك الإهانات والسفاهات على أن يُفتَرَض وجود شبح يهان بحرّيّة كما افترضوا على حدّ قولهم

حجرًا يمثّل شراسة ساتورن وما صوّروا الإله ذاته يزبد ويرتكب الفحشاء، ويظلّ أسير العيوب، في حين يدير الكون ويحكم الكائنات ويرئس عللها مع أنها تكون الرذيلة العلّة الوحيدة لأعماله؟ وأتساءل، ما هو المركز الذي يمكن إعطاؤه لإله جوبيتر إذا كان جانوس هو الكون؟ ألم يقل لنا المؤلّف الذي استشهدنا به أنّ الآلهة الحقيقيّين هم الكون وأجزاؤه؟ ومن ثمّ يعتقد الوثنيّون أنّ ما ليس ذلك فلا يمكن أن يكون الإله الحقّ. وهل يقولون إنّ جوبيتر هو روح الكون وأنّ جانوس هو جسمه أو، بتعبير آخر، الكون المنظور؟ وعليه فكيف يبقى جانوس إلهًا ما دام يُعرَف أن ليس جسم الكون الله بل روحه وأجزاؤه. ويقول فرّون بوضوح كلّي إنّ الله بنظره هو روح الكون وأنّ الكون ذاته هو الله. وكما أنّ الإنسان العاقل المركّب من جسد وروح مدينٌ بهذا الاسم «العاقل» للروح كذلك يُسمّى الكون الله بسبب الروح الذي يحييه وإن يكن جسدًا وروحًا. وعلى هذا النحو فجسم الكون وحده ليس الله؛ بل إمّا روحه وحدها أو روحه وجسده معًا؛ شرط ألّا يكون الجسد بل الروح الذي يجعله الله. وعليه فإن كان جانوس هو الكون وكان هو الله فهل يحقّ لنا أن نقول إنّ جوبيتر هوجزء من جانوس لكي يستطيع أن يكون الكون؟ أما جرت العادة بأن يُنسَب إليه كلّ شيء؟ الشاعر يقول: «كلّ شيء مليء بجوبيتر» ومن ثمّ فلكي يكون جوبيتر الله وبخاصّة ملك الآلهة عليه أن يكون حتمًا الكون؛ هذا ضروريّ لكي يملك على سائر الآلهة وعلى أجزائه. وبهذا المعنى يستشهد فرّون في كتابٍ خصّ به عبادة الآلهة ببعض أبيات شعريّة من فاليرُوس سُورانُوس (Valerius Soranus) هي التالية: «جوبيتر القدير أبو الملوك

والآلهة وسائر الأشياء، أمُّ الآلهة إله واحد وجميعهم معًا».
ويشرحها فرّون على الشكل التالي: جوبيتر هو ذكر بصفته ينشر الزرع وأنثى بصفته يقبلها؛ كلّ الزروع تأتي منه وتعود إليه ولهذا يسمّيه سورانوس الأب والأمّ ويقول، بالقوّة عينها، إنّه معًا واحد وكلّ لأنّ الكون واحد والكلّ فيه.

١٠

إن كان جانوس هو الكون وإن كان جوبيتر هو الكون وإن كان الكون واحدًا فلِمَ يكون جانوس وجوبيتر إلهين اثنين؟ ولِمَ لكلٍّ منهما معابده وهياكله وأعياده وتماثيله؟ ولربّ قائل يقول، شيءٌ هي قوّة البدايات، وشيء آخر قوّة العلل؛ ولهذا فالواحدة تُسمّى جانوس والأخرى جوبيتر. وماذا؟ إن تمرّس شخص بسلطان مزدوج وكانت له مهنة مزدوجة فهل يرى فيه المرء قاضيَين مثلًا أو حِرَفيَّين. إنّهم يعملون إلهَين من إله واحد مدبّر البدايات والعلل، لأنّ البدايات والعلل شيئان مختلفان! ليتكاثر جوبيتر بتكاثر الأسماء التي يأخذها من قدراته المتنوّعة وهي أسماء نابعة من أشياء كثيرة مختلفة. وإليكم بعضًا منها.

١١

يسمّونه فِكْتُور (Victor)، إنفِيكْتُوس (Invictus)، أُوبِيتُولُوس (Opitulus) إنْبُولْسُور (Impulsor)، سْتاتُور (Stator)، سَنتِيبِيدا (Centipeda)، سُوبِينالِيس (Supinalis)، تِيجِيلُّوس (Tigillus)،

ألْمُوس (Almus)، رُومِينُوس (Ruminus)، إلخ. وكلّها تسميات لإله واحد تُعطى لأسباب وقدرات مختلفة من دون أن يتكاثر الآلهة بتكاثر الأسماء. إنّه يتغلّب على الكلّ ولا شيء يغلبه، يغيث الضعفاء ويقدر أن يسرّع الأمور ويضبطها؛ أن يثبّت ويقلب رأسًا على عقب؛ إنّه رافدة الكون الذي يحتويه ويدعمه؛ إنّه الثدي المتدفّق خيرًا الذي تنهل منه الكائنات الحيّة حياتها؛ وظائفه متفاوتة، منها الكبيرة ومنها الصغيرة؛ والتي على ما يبدو أحيانًا تكتفي بواحد؛ بنظرنا، يقيم بين العلل وبدايات الأشياء (لماذا أرادوا أن يعملوا من الكون إلهَين جوبيتر وجانوس) وثاقًا أوثق من القائم بين مساندة الكون وإعطاء الثدي للحيوانات. ومع ذلك ما اعتقد أحدٌ بضرورة إيجاد إلهَين في سبيل القيام بعمليّتين تختلفان من حيث الأهمّيّة والكرامة؛ واكتُفيَ بجوبيتر وحده تحت اسم تِيجِيلُّوس (Tigillus) ورومينوس (Ruminus). ولن أقول بتفضيل جونن على جوبيتر في تكليفه بإرضاع الحيوانات عندما تكون إلاهة حاضرة لمساعدته وخدمته في هذه المهمّة. وأتصوّر أنّ بعضهم يجيبني بأنّ جونن ليس سوى جوبيتر كما تشهد بذلك أبيات فاليريوس سورانوس: «جوبيتر القدير أبو الملوك والآلهة وكلّ شيء أبو الآلهة وأمّها». ولِمَ يُسمَّى رومينوس، إن ألقينا عليه نظرة، فندرك بأنّه هو أيضًا الملكة رومينا؟ إن بدا لنا غير لائق بجلال الآلهة أن يتقاسم أحدهم العناية بعقد الجذع في سنبلة القمح والآخر بغشاء الحبّات فما أقبحها مهمّة سافلة كالتي تقوم على تقديم الثديين إلى الحيوانات بمساعدة إلهين أحدهما جوبيتر، ذاته الإله الأكبر، يشرك في أعماله، لا رفيقته بل رومينا المجهولة الأصل والتاريخ؛ اللهمّ إلّا إذا كان هو ذاته رومينوس

بعض
نوس للذكور ورومينا للإناث فقد أقول بأنّ جوبيتر لم
ا لو لم يُذكَر في الأبيات السابقة تحت اسم «أب وأمّ»
ألقابه أيضًا لقب بيكونيا إحدى الإلاهات الصغيرات
عنهنّ في الكتاب الرابع. ولكن بما أنّ الجميع رجالًا
المال لِمَ لا يُقال بيكونيا وبيكونيوس كما هي الحال
ومينوس؟ ولِمَ لا؟

١٢

قال
س السبب الذي يدفع إلى هذه التسمية ابتكارًا هامًّا؟
يدعى بيكونيا لأنّه يملك كلّ شيء. يا له من سبب
له! إنّه هو الذي يملك كلّ شيء يلطّخ بهذا الاسم
كر، بيكونيا. ما قيمة تلك الأشياء الباطلة التي
تحت تسمية بيكونيا بالنسبة إلى كنوز السماء
شكّ في أنّ الجشع يفرض هذا الاسم على جوبيتر
ة المال لكونهم لا يهوون إلهًا ما غير معروف بل
م بملك الآلهة بالذات. لو سمّي ثروة (Richesse)
حال على ما هي عليه. شيء هي الثروة، وشيء آخر
أنّ الإنسان العاقل، العادل والفاضل سواء أكان ذا
م يكن لديه شيء منه، يسمّى غنيًّا. وماذا أقول؟ إنّه
التي تجعله قنوعًا بما يكفي حاجات الجسد؛ بيد
بالعكس فقير، لأنّ جشعه لا يشبع. ما هو بالنسبة
ذاك اللاهوت، الذي يحمل فيه ملك الآلهة اسم
ه عليه العاقل أبدًا؟ لو كان هذا التعليم يستطيع أن

يعطي بعض النور لمصلحة الخلاص ولحياة الأبد لما كان من الأسهل أن يسمّى إله الكون السامي «الحكمة» وليس بيكونيا «المال»؟ الحكمة التي تنقّي بمحبّتها القلب من أوساخ الجشع كما من محبّة المال.

١٣

ولِمَ المزيد من الحديث عن جوبيتر هذا إذا كان الآخرون يتحوّلون إليه؟ وماذا يكون من أمر الرأي القائل بتعدّد الآلهة إن كان وحده يحتوي الكواكب كلّها، سواء أنسبوا الألوهة إلى أجزائه، أو إلى طاقاته أم اعتبروا أنّ تلك النفس المنتشرة في كلّ مكان، على حدّ زعمهم، تأخذ أسماءها المتنوّعة من العناصر التي تكوّن هذا العالم المنظور، العمليّات الطبيعيّة المتكاثرة، المعتبرة بمثابة آلهة؟ وفي الواقع مَن يكون ساتورن؟ إنّه، على حدّ قول فرّون، أحد كبار الآلهة الذي يملك على جميع البزور، ولكنّه عندما يفسّر أبيات سورانوس الشعريّة يقول إنّ جوبيتر هو الكون الذي يلقي البذور، خارجًا ثمّ يستقبلها فيه، كلّها؟ إذن، هو الذي يحتفظ بكلّ البذور. ومَن هو جِنْيُوس (Genius)؟ فرّون يقول: إنّه الإله الذي يشرف على كلّ تناسل. وإلى أيّ إله آخر غير الكون الذي يسمّيه الشاعر «جوبيتر، أب وأمّ»؟ وإذ يقول فرّون في مكان آخر إنّ جنيوس هو النفس العاقلة في كلّ إنسان، ولكلّ جنيوس خاصّ به، ثمّ يقول عن نفس الكون الله، ألا يحملنا على التفكير بأنّ نفس الكون أشبه بجانيوس الشامل العالميّ؟ وعليه فهو هذا الذي نسمّيه جوبيتر؛ لأنّه إن كان كلّ

ورومينارومينارومينا

جنيوس، الله، وإن كانت نفس كلّ إنسان هي جنيوس، فنفس كلّ إنسان هي حتمًا الله. إن كان الوثنيّون أنفسهم ينبذون هذا الرأي، لسخافته، فلا يبقى سوى أن يسمّوا بنوع خاصّ جنيوس هذا الإله الذي قيل إنّه روح الكون أي جوبيتر؟

١٤

أمّا مركور ومارس فقد أنيطت بهما رئاسة بعض الأعمال البشريّة وتسلّما مهمّات الكلمة والحرب لعدم التمكّن من ربطهما بقسم من العالم، أو بأيّ عمل إلهيّ في العناصر. إذا كان الأوّل، أي مركور، يتصرّف أيضًا بكلمة الآلهة فإنّ ملك الآلهة ذاته خاضع له لأنّ مركور هو الذي يعطيه الأذن أو القدرة على الكلام؛ وهذا شيء سخيف، حتّى إذا لم يكن لمركور سلطة إلّا على الكلام فهل يعقل أنّ جوبيتر يتنازل فيقدّم الثدي للأطفال؟ وماذا؟ يقدّمه أيضًا للحيوانات (من حيث يأتيه اسم رومينوس)؛ ويبقى، غريبًا عن كلام الإنسان، الهبة التي بها نضمن التفوّق على الحيوانات. وهكذا فإنّ جوبيتر هو ذاته مركور. إذا سمّيت الكلمة مركور كما تشير الصفات المعطاة لهذا الإله (ألا يعني مركور في الواقع مركور) «مَن يركض إلى الوسط؟» والكلمة تركض بين الناس؛ الإغريق يسمّونها هِرْمِس (Hermès) لأنّ الكلمة أو التأويل الذي يعطى لها يقال له هِرمينيّة (Hermeneia) ويعطيها معنى الإشراف على التجارة؛ لأنّ الكلمة هي الواسطة بين البائعين والمشترين؛ والأجنحة التي، على رأسها ورجليها، هي رموز للكلمة التي تطير في الجوّ كما يعني اسم رسول الذي

يعطى لها أنّها الرسول الذي يحمل أفكارنا إن كان مركور الكلمة فلم يعد إلهًا وذلك بحسب ما يعترفون به. وكما أنّهم يقيمون لأنفسهم آلهة ليسوا شياطين فإنّ التوسّلات التي يرفعونها إلى الأرواح النجسة لا تسلّمهم إلى الآلهة بل إلى الشياطين ويستحيل تقديم عنصر ما إلى مارس أو أيّ جزء من الكون لمساندة الطبيعة في عملها يجعلون منه إله الحرب وهو من عمل الناس. ويا له من عمل لا يحسد عليه بشر! لو أنّ السعادة جعلت السلام الدائم يخيّم أيضًا، لما قام مارس بأيّ عمل؛ إذا كان مارس الحرب بالذات كما هو مركور الكلمة، فيا ليت الحرب تكون كما هي الألوهة من وهم الخيال!

١٥

بيد أنّ النجوم التي تحمل أسماء آلهة، هل هي الآلهة ذاتها؟ واحدة منها تسمّى مركور وأخرى مارس ومنها ما يسمّى جوبيتر، علمًا بأنّ جوبيتر يعتبر الكون؛ ومنها ما يسمّى ساتورن وليس له تأثير بسيط، ما دام أنّه يشرف على نموّ البذور. وبينها كوكب أكثر إشعاعًا من سواه ويدعى فنوس؛ ويريدون أن يكون القمر؛ على أنّ خلافًا نشب ما بين جونن وهذا الكوكب المشعّ كما حول التفّاحة الذهبيّة. بعض الناس يعزو كوكب النهار لفنوس وبعضهم الآخر لجونن؛ ولكن كما جرت العادة يتغلّب فينوس لأنّه يجمع حوله معظم الأصوات وقد لا يجد صوتًا واحدًا ضدّه. ومَن ذا الذي لا يهزأ إذ يفكّر بأنّ جوبيتر هو ملك الآلهة بينما ترتفع نجمته شاحبة النور تجاه نجمة فنوس. أليس من الضروريّ أن تكون مشعّة وبهيّة بقدر ما هي قويّة؟ فيجيبون أنّها

تبدو على ذاك الشكل بسبب ارتفاعها وبعدها اللامحدود عن الأرض؛ ولكن، إن كان الإله، بقدرته، رفعها عن الأرض فلماذا يظهر ساتورن أكثر ارتفاعًا من جوبيتر؟ الأسطورة الكاذبة التي جعلت من جوبيتر ملكًا ولم تقدر أن ترفعه حتّى النجوم؛ وهل ينتصر ساتورن، أقلّه من السماء، بعد أن انهزم، في مملكته، وفي الكابيتول؟ ومن جهة أخرى، لماذا يرفضون نجمة لجانوس؟ ألأنّه الكون وكلّ الأشياء فيه؟ جوبيتر هو أيضًا الكون ومع ذلك فله واحدة. هل دخل جانوس في أفضل تركيب وهل تعتبر الوجوه التي تعطى له على الأرض تعويضًا عن النجمة التي تنقصه في السماء؟ وإذا جعلنا مركور ومارس أجزاء من الكون ومن ثمّ آلهة فقط بسبب نجمتيهما (لا ريب من أنّ الكلمة والحرب ليستا جزءين من العالم بل هما أعمال بشريّة) فلِمَ كلّ تلك العلامات السماويّة المركّبة، كلّ واحدة منها من عدّة نجوم، وموضوعة في أعلى الأثير، حيث الحركة المستمرّة تضمن للنجوم مجرى ثابتًا؟ ولِمَ يحرم الجدي والثور والسرطان والعقرب من هياكل وذبائح؟ ولِمَ لا تُقبل إن لم يكن مع النخبة، فعلى الأقلّ، مع مجموعة الآلهة الشعبيّين؟

١٦

يراد لأبولون أن يكون منجّمًا وطبيبًا، ولكي يكون له مكان في الكون يقال عنه إنّه الشمس وعن شقيقته ديانا إنّها القمر ويعهد إليه بحراسة الطرقات؛ أخته عذراء لأنّ الطريق عقيم؛ لكليهما سهام لأنّهما كوكبان يطلقان أشعّتهما من السماء إلى الأرض؛ فالكاين

النار ونبتون الماء؛ ديس أو أركوس، المنطقة السفلى من الكون؛ بيد ليبر وسيريس إدارة شؤون البزور: الذكور لواحد والإناث للأخرى؛ للواحد العنصر السائل وللآخر العنصر اليابس؛ وهذا مرتبط أيضًا بالكون أو بجوبيتر المدعوّ أب وأمّ، لكونه ينثر خارج حشاه ثمّ يستقبل كلّ زرع؛ ويراد أيضًا أن تكون سيريس جدّة الآلهة وهي ليست سوى الأرض كما يريدون أن تكون جونن، ولهذا ينسبون إليها العلل الثانويّة، وإن قيل عن جوبيتر إنّه أبو الآلهة وأمّهم لأنّ جوبيتر هو الكون. ومينرفا التي يجعلونها إلاهة الفنون يسمّونها منطقة الأثير العليا لعدم وجود نجمة يُسكنونها فيها؛ ويقال لها القمر؛ أمّا فستا أفلا تُعتبر كبرى الإلاهات لكونها الأرض وإن جعلوا النار الخفيفة من اختصاصها خدمة للإنسان، لا النار القويّة الشبيهة بنار فولكاين؟ وعلى هذا النحو، فليس جميع الآلهة المختارين سوى الكون؛ بعضهم العالم بأسره على مثال جوبيتر والآخرون أجزاء له على مثال جانيوس الجدّة، الشمس، القمر، أو بالأحرى أبولون وديانا؛ غالبًا ما يكون إله واحد عدّة أشياء وغالبًا أيضًا شيء واحد عدّة آلهة أو بالعكس مثلًا جوبيتر هو الكون والسماء ونجمة معيّنة؛ جونن هي ملكة العلل الثانويّة وهي الهواء والأرض وقد تكون نجمة إذا تغلّبت على فينوس. وكذلك فإنّ مينرفا هي منطقة الأثير العليا ونفسها القمر المركّزة على حدود القمر القصوى. الشيء ذاته يعني آلهة كثيرين: الكون جوبيتر والكون جانوس؛ الأرض جونن إنّها الجدّة وهي أيضًا سيريس.

١٧

تزداد الأساطير التي عرضتُها غموضًا؛ ولا تتّضح من خلال التفسيرات، بل تعلو وتهبط؛ يتلاعب بها الضلال، مدًّا وجزرًا؛ ويفضّل فرّون أن يشكّ في كلّ شيء على أن يؤكّد شيئًا. بعد أن أنهى كتابه الأوّل من كتبه الثلاثة عن الآلهة الثابتين يتحدّث، في بداية الكتاب الثاني، عن الآلهة المشكوك في أمرهم على الشكل التالي: «إن عرضت الآن لآراء أشكّ فيها في ما يختصّ بالآلهة فلا يحمّلنني أحدٌ جريمةً. لسواي إذا أراد أن يُصدر حكمه الإيجابيّ؛ أمّا أنا فلن أنساق إلى الشكّ في ما قلته في كتابي الأوّل؛ ولا أن أصل في ما يبقى عليّ أن أقوله إلى استنتاج أكيد». وعلى هذا النحو ما رضي بالكتابة بخصوص الآلهة المشكوك في أمرهم، ولا أكّد ما كتبه بشأن الآلهة الثابتين. أمّا في الكتاب الثالث بشأن الآلهة المختارين وبينما ينتقل من بعض تأمّلات أوّليّة في اللاهوت الطبيعيّ إلى أباطيل اللاهوت المدنيّ وأكاذيبه، من دون أن تسيّره حقيقة الأشياء، يتوقّف أمام سلطة القدماء ليقول: «أريد أن أتكلّم هنا بشأن آلهة الشعب الرومانيّ، العموميّين والمشهورين الذين بُنيت على اسمهم المعابد ورُفعت التماثيل؛ ولكن بحسب تعبير كزانوفان دي كولوفون (Xénophane de Colophone) سوف أعرض لما أفكّر فيه ولا لما أؤكّده؛ الله وحده يعرف في هذا المجال، أمّا الإنسان فإنّه يعطي الرأي». وعليه سوف يكتب عن أشياء لا تتطلّب فهمًا واضحًا ولا إيمانًا راسخًا؛ لكنّها آراء ومواضيع لا تخلو من الشكّ وكلّها مؤسّسات بشريّة صرفٌ يتحدّث عنها وهو يرتجف.

وفي الواقع إنّه يعلم جيّدًا أنّ الكون موجود وأنّ السماء مزروعة بالكواكب البرّاقة والأرض غنيّة بالبزور؛ ويعتقد، بكلّ تأكيد، أنّ هذه المجموعة الكونيّة والطبيعة بأسرها تسيّرها وتدبّرها قدرةٌ غير منظورة على غاية ما يرام من القوّة؛ ولكنّه هل يستطيع أن يؤكّد أنّ جانوس هو الكون وهل يستطيع أن يكتشف كيف أنّ ساتورن والد جوبيتر يصبح خاضعًا له إلى ما هنالك من أسرار مشابهة؟

١٨

السبب الأقرب إلى الحقيقة المتوفّر هو أنّ الآلهة كانوا بشرًا؛ بالتملّق صاروا آلهة وهو الذي أقام لهم هذه الطقوس والأعياد، بحسب فكر ومزاج وأعمال كلّ واحد منهم ومصيره؛ وإذ دخلت شيئًا فشيئًا في النفوس البشريّة انتشرت بمثابة تقاليد نجسة، في كلّ مكان، تدعمها أكاذيب الشعراء ودهاؤهم ومَغريات الأرواح الخبيثة. وفي الواقع، أن يخشى ولد عاق أن يموت قتلًا بيد والد شرّير فيطرد والده من مملكة يطمع بها فذاك لعمري أقلّ أهمّيّة من التفسير الذي يعطيه حين يزعم فرّون أنّ انتصار جوبيتر على ساتورن ليس سوى الوجود المسبق للعلّة بالنسبة إلى البزور؛ لأنّه لو كان الأمر هكذا لما كان ساتورن سابقًا ولا كان أبًا لجوبيتر. العلّة تسبق دومًا البزور وليست وليدة لها؛ ولكن عندما يدعون انتقاء أساطير باطلة وأعمالًا بشريّة بحتة، إذ يبحثون لهم عن دوافع في النظام الطبيعيّ، فإنّ أولئك البشر الأذكياء يجدون أنفسهم مضطرّين إلى القيام بذاك العنف حتّى إنّ ضلالهم يدفعنا إلى الترثّي لحالهم.

١٩

يقول فرّون: «يُحكى أنّ ساتورن كان يفترس ما يلده لأنّ البذور تعود إلى حيث كانت. أمّا القطعة الترابيّة التي حلّت محلّ جوبيتر فمعناها أنّ الإنسان كان يطمر في التراب بيديه البذور قبل اكتشاف الفلاحة». آنذاك كان ساتورن الأرض وليس البذور لأنّ الأرض، نوعًا ما، تفترس ما تعطيه عندما تعود البذور التي خرجت من جوفها، مرّة ثانية إليها؛ وأيّة علاقة بين الزريعة التي تبتلعها الأرض والبذور التي تطمرها يد الإنسان في التراب؟ ألا تلتهم الحبّة المدفونة في الأرض كسواها؟ ألا تدعو إلى التفكير تلك الزريعة المقدّمة إلى ساتورن أنّ الأرض بعد أن تُزرع فيها البذور تنزع منها كما لو أنّ ما يغطّي الحبّة لم يعد أهلًا لأن يلتهمها؟ والآن نقول إنّ جوبيتر هو البذور وليس علّتها كما قلنا منذ فترة. وهل يجد الإنسان لفظة معقولة في شرح ما هو جنونيّ؟ يقول فرّون: «ساتورن يحمل منجلًا من أجل الزراعة». غير أنّ الزراعة لم تكن معروفة بعد؛ ولهذا يضعونه في الأزمنة الأولى لأنّ الناس الأوائل يعيشون من ثمار الأرض قبل اللجوء إلى الزراعة استنادًا إلى أقوال الكاتب عينه. وهل قبل ساتورن المنجل بدلًا من عصا الملك؟ أمير، بلا عمل، في الأيّام القديمة، هل يصبح تحت حكم ابنه أجيرًا عاملًا؟؛ يضيف فرّون أنّه في بعض البلدان كما في قرطاجة، كانوا يضحّون لا بالأطفال حتّى إنّ الغول كانوا يقدّمون له رجالًا، إذ من بين كلّ البذور الجنس البشريّ هو الأفضل. وهل من حاجة إلى المزيد من الإلحاح على هذه الغباوة الهمجيّة؟ حسبنا أن نلاحظ ونعتبر شيئًا

ثابتًا أنّ تلك الشروح لا تتعلّق أبدًا بالإله الحقيقيّ، الطبيعة الحيّة، اللاجسديّة، غير المتغيّرة التي منها تستمدّ الحياة الأبديّة السعيدة، غير أنّها جميعها محصورة في الأشياء المحسوسة، الخاضعة للوقت، للتغيير وللموت. وفي ما يختصّ بالهجوم الذي ارتكبه ساتورن ضدّ السماء، أبيه، فإنّ فرّون يشرحه هكذا: البذار الإلهيّ لساتورن ولا للسماء؛ بقدر ما يستطيع الإنسان أن يحكم في الموضوع ما من بذار في السماء. ولكن إن كان ساتورن ابن السماء فهو ابن جوبيتر إذ لا شكّ في أنّ جوبيتر هو السماء، وتاليًا، فالآراء التي لا تصدر عن الحقيقة تموت تلقائيًّا، ومن دون أيّ تدخّل خارجيّ؛ ويقول فرّون أيضًا إنّ ساتورن يدعى كُرُونُس (Kronos) وهي لفظة يونانيّة تعني الزمن، إذ بدون الزمن لا إخصاب في البذار؛ ذاك هو ما يقال عن ساتورن إضافة إلى الكثير من الخصوصيّات المتعلّقة بالبذار؛ وإذا كان ساتورن متمتّعًا بهذه القدرة يجب عليه أن يكفي نفسه بنفسه؛ ولِمَ إدخال آلهة آخرين على مثال ليبر وليبرا وسيريس وهي آلهة يستعيد لها فرّون الوظائف المتعلّقة بالبذور بكثير من التفاصيل كما لو أنّه لم يقل شيئًا عن ساتورن؟

٢٠

بين أسرار سيريس نميّز تلك التي لأُولِيزِيس التي يحتفل بها الآثنيّون، بكثير من الأبّهة؛ فلا يقول عنها فرّون إلّا ما يختصّ باكتشاف الحنطة من قبل سيريس وخطف ابنتها بْرُوزِرْبِين بيد بلوتن؛ وفي ذلك يرمز إلى إخصاب البذور، على أنّ هذا

الخصب غاب عن الأرض أيّامًا؛ وإذ بقيت الأرض في الوحدة والعقم تناهى إلى عقول الناس أنّ ابنة سيريس أو الخصب الذي اختطفه بلوتن احتُجز في الجحيم. وأقيم حِدادٌ عامّ على هذه المصيبة إلى أن عاد الخصب مرّة أخرى، وعمّ الفرح بعودة بروزربين؛ ثمّ أقيمت الاحتفالات. ويزيد فرّون على ما جاء سابقًا قائلًا إنّ تلك الأسرار تتضمّن كثيرًا من التقاليد المتعلّقة باكتشاف الحنطة.

٢١

أمّا أسرار لِيبر الذي يجعلونه مشرفًا على البذور السائلة، لا على عصير الثمار حيث للخمر المقام الأوّل بل أيضًا على البذور الحيوانيّة؛ وإنّي لأخجل من التحدّث عن الفساد الطاغي الذي وقعوا فيه لأنّ حديثي يطول؛ ومن الضروريّ أن يطول لأدحض الوقاحة التافهة التي فيها يقعون؛ ومن الطقوس العديدة التي أراني مضطرًّا إلى تجاوزها وهي أنّ بعض الأماكن بإيطاليا تحتفل بأعياد باخوس بعَهَر لا مثيل له؛ بحيث يقام تكريمًا له احتفال خاصّ بالأعضاء الجنسيّة لدى الرجل؛ وإذ لا يُقيم هذا الاحتفال أدنى احترام للسرّ يعرض علنًا أمام الجمهور انتصار الأعمال الشائنة ويعرضون ذاك العضو من دون أيّ خجل أو ذرّة من الحياء العضو فوق عربة تطوف ضواحي المدينة ثمّ تدخل بالطريقة عينها مدينة روما. في مدينة لافينيوم يخصّص شهر كامل لِلِيبر يعرض خلاله أشدّ الدعارات شناعة ويجتاز الوثن الفوروم قبل أن يأوي إلى منزله؛ وكان من الضروريّ أن تتقدّم أشرف أمّ

عائلة لتضع على ذلك الشيء المسخ إكليلًا! كما كان يطلب من امرأة أن تعمل، علنًا، ما كان يحرَّم على امرأة بغي، أن تعمله؛ وذلك بحضور نساء شريفات والغاية منه هي أن تحظى البذور برضى ليبر فيبعد عن الحقول كلّ ما ينجّسها؛ على أنّه بقي ساتورن عاجزًا عن تلبية حاجات البذور فاستسلمت النفس الفاسدة إلى عناق الشياطين القذر ووجدت الفرصة مؤاتية لتعداد آلهتها فتخلّى عنها الإله الحقيقيّ عقابًا لها على زناها المتكرّر والرذائل التي استعبدتها.

٢٢

كانت سلاسيا زوجة نبتون تُعتبر بمثابة المنطقة السفلى لمياه البحر؛ وعليه لِمَ أعطي أيضًا فِينِيليا؟ وهل من سبب سوى ما في النفس من غريزة شرّيرة تكثر من دون حاجة إلى عبادة الشياطين واستشفاعهم؟ وأخيرًا لنعرضنّ المعنى السرّيّ لهذا اللاهوت الجميل، السبب الخفيّ الذي قد يُسقط كلّ رقابة لدينا! «فينيليان، يقول فرّون، هي المياه التي تتكسّر على الشاطئ؛ سلاسيا هي التي تعود إلى قعر البحر». ولِمَ الإلاهتان عندما تكون المياه، هي ذاتها، تروح وترجع؟ في الحقيقة، إنّ تلك الرغبة الجامحة في الإكثار من عدد الآلهة لثورةٌ شبيهةٌ بهيجان الأمواج المرتفعة؛ وإن تكن تلك الموجة التي تروح وتجيء هي ذاتها على أنّها تتذرّع بشيء حقير لتدعو شيطانين إضافيّين فتزداد تشوّهًا تلك النفس التي تروح بلا رجعة! بحقّك يا فرّون، أستحلفك بالله وأنتم أيضًا يا قرّاءَ كتب هؤلاء العلماء، يا مَن تفاخرون بأنّكم

تعلّمتم منها الكثير، بحقّكم، أعطونا شرحًا ملائمًا، إن لم يكن لتلك الطبيعة الأبديّة اللامتغيّرة التي، هي الله الأحد، فعلى الأقلّ يكون موافقًا لروح الكون وأقسامه التي تعتبرونها آلهة حقيقيّة؛ أن تتّخذوا لكم إلهًا من روح الكون نبتون الذي يخترق البحر؛ فذاك ضلال قد يكون مقبولًا. ولكن قل لي إنّ المياه التي تضرب الشاطئ ثمّ تعود إلى البحر أتعمل جزءين من الكون أم جزءين من روح الكون؛ لا معنى في ذلك إلّا للذي فقد الإحساس. ولِمَ صنعوا لكم إلهتين؟ أليس لأنّ حكمة أسلافكم اهتمّت بأن تسلّمكم فريسة لزمرة من الشياطين حليفة التدجيل والأباطيل ولا إلى حراسة عدّة آلهة؟ ولماذا يفقد هذا التفسير سلاسيا الجزء الأسفل من البحر حيث كانت خاضعة لزوجها؟ لأنّكم عندما تخلطون بين مدّ البحر وجزره ترفعونها إلى سطح المياه وإمّا رغبة منها في الانتقام من مزاحمة لها لربّما طردت الزوج الخائن من مناطق البحر العليا!

٢٣

إنّها لأرضٌ واحدةٌ حقًّا تسكنها الحيوانات؛ جرم كبير والجزء الأخير من الكون. ولِمَ يريدونها إلاهة؟ ألأنّها ولود؟ ولم لا يكون الناس آلهة ما داموا يجعلونها مخصبة، لا بالعبادة، بل بالزراعة؟ يقولون لنا إنّ هذا الجزء من روح الكون الذي يدخلها يجعل منها إلاهة كما لو أنّ النفس في الإنسان ليست أكثر وضوحًا هي التي ليست من حيث وجودها موضوع بحث، على أنّ الناس ليسوا آلهة؛ ويا له من خطأ يدعو إلى الشفقة! لمَن دونهم من الآلهة

يسجدون ولهم شرف الانتساب؟ يؤكّد فرّون في كتابه عن الآلهة المنتخبين أنّ النفس الشاملة للطبيعة تتمتّع بثلاث درجات: «في الأولى تدخل كلّ أجزاء الجسم الحيّ ولا تعطي الشعور بل مبدأ الحياة ويقول إنّ هذه القوّة تنساب في العظام والأظافر والشعر وعلى هذا النحو نجد النباتات حولنا تتغذّى وتنمو فيها حياة خاصّة وإن تكن تخلو من الشعور. في الدرجة الثانية النفس حسّاسة وتعطي الإحساس النظر والسمع والشمّ والذوق واللمس. الدرجة الأخيرة هي الفكر حيث يسيطر العقل، وهو امتياز خاصّ بالإنسان وحده، من بين الكائنات الصائرة إلى الموت. وبما أنّه يجعل الإنسان شبيهًا بالله فهذا الجزء من النفس الكونيّة في العالم يدعى الله وفي الإنسان يدعى جانيوس؛ وعلى هذا النحو فإنّ ما نرى من حجارة وأرض في العالم التي لا شعور لها هي بمثابة عظام وأظافر لله. إنّ الشمس والقمر والنجوم التي نشعر بها والتي يشعر بها هي حواسّ له. الأثير فكر له ويمتدّ بتأثيره الواسع حتّى الكواكب ليجعل منها الإلاهة؛ وإنّ ما تعطيه الكواكب الأرض هي الإلاهة تللوس والذي يمرّ من الأرض إلى البحار هو الإله نبتون».

دع هناك يا فرّون ذاك اللاهوت الطبيعيّ المزعوم الذي جئت تطلب فيه الراحة من أتعابك، بعد أن ضللتَ وسلكت طرقًا صعبة، وعدْ إلى اللاهوت المدنيّ فأستبقيك فيه؛ ولي كلمةٌ أقولها لك وهنا يمكنني أن أسأل: هل إنّ الأرض والحجارة التي تشبهها بعظامنا وأظافرنا هي حقًّا مثلها بلا إحساس ولا ذكاء؟ أم هل تعطى الذكاء لأنّها تختصّ بالإنسان العاقل؟ وهل هو أقرب إلى التصديق أن نسمّي الكون والأرض والحجارة آلهة من أن نسمّي

بشرًا عظامنا وأظافرنا؟ إنّه لجدال يجب إنهاؤه مع الفلاسفة؛ حتّى الآن لا أزال أوجّه كلامي إلى السياسيّ لأنّه وإن يكن قد رفع رأسه، بحسب ما يبدو، ويتنفّس هواء حرًّا في اللاهوت الطبيعيّ فمن الممكن أن تكون بعض الأفكار حول كتابه وحوله بالذات قد أوحت إليه بالكلمات السابقة إبعادًا للشكّ في أن يكون الرومان الأقدمون والشعوب الأخرى قد قدّموا لنبتون وتللوس عبادة باطلة. ولكنّي أقول: إن كانت الأرض واحدة فلِمَ لا يعمل هذا الجزءُ من نفس الكون الذي يخترقه إلاهة واحدة باسم تللوس؟ وفي الحقيقة، ماذا يصبح إذ ذاك أركُوس أوديس شقيق جوبيتر ونبتون وزوجته بروزربين وهي، على حدّ الرأي الوارد في الكتاب عينه، الجزء السفليّ من الأرض وليست خصوبتها؟ وهل يقولون إنّ روح الكون باجتيازها المنطقة العلويّة من الأرض تسمّى ديس وفي السفليّ تسمّى بروزربين؟ إذ ذاك ما هو حال تللوس؟ الكلّ الذي كانته ينقسم إلى اثنين، إلى إلهيّتين وهي ذاتها جزء ثالث لا يمكن أن يقال عنه لا ما هو ولا أين هو. غير أنّهم يقولون إنّ أركوس وبروزربين ليسا سوى الإلاهة تللوس. لا وجود لثلاثة آلهة بل واحد أو اثنان فقط؛ ومع ذلك يشار إلى ثلاثة ويعترفون بثلاثة؛ ولثلاثةٍ، المعابدُ والهياكل والتماثيل والكهنة والذبائح وبقدر ما يغتصب الشياطين النفس البغيّة تنتهك القدسيّات. قل لي أيضًا في أيّ جزء من الأرض تنزل روح الكون لتصنع الإله تِلّلومُو؟ خطأ، يجيب فرّون؛ للأرض عينها طاقتان: إحداهما ذكريّة تنتج البزرة والأخرى أنثويّة تقبلها وتغذّيها: من الواحدة تأخذ اسم تللوس ومن الأخرى اسم تللومو. وعليه فلم يضف الكهنة، وفق ما يقول فرّون، علّهما يقدّمان الذبائح للآلهة

الأربعة: تللوس وتللومو، ثمّ ألتُر (Altor) بروزربين؟ لأنّ كلّ مولود، بحسب قوله، يأخذ من الأرض غذاءه. ولم لرازور؟ لأنّ جميع الكائنات تعود إلى الأرض.

٢٤

على تلك الطاقات الأربع، التي تخفيها الأرض، أن تعطيها أربعة أسماء؛ ولا أن تعمل منها أربعة آلهة لجوبيتر ولجونن بالذات تعود هذه الكثرة من الأسماء؛ إله واحد وإلاهة واحدة عدّة طاقات؛ بيد أنّ تعداد الطاقات لا يعني تعداد الآلهة؛ وقد ترفض تلك النساء العاهرات، بدافع من الخجل والندم، تلك المجموعة من العشّاق، الذين طلبوهنّ في زمن السكر والجنون؛ وهكذا فإنّ النفس السفيهة التي اغتصبتها أرواح الشرّ تتعب أحيانًا من العار الذي تعوّدته؛ وتملّ من تكثير آلهتها للاستزادة من أعمال الزنى؛ لأنّ فرّون ذاته، وكأنّه يخجل من جماعة الآلهة تلك، يريد أن يكون تللوس إلاهة واحدة ويقول إنّهم يسمّونها الجِدّة؛ والطبل الذي يعطونه هو رمز للكرة الأرضيّة والدائرات التي يكلّل بها هي المدن والمقاعد التي تحيط به تعبّر عن جموده في قلب الحركة العامّة؛ وشعب الغال القائم على خدمته يدلّ على أنّ الحصول على البذور يستلزم الارتباط بالأرض لأنّ كلّ شيء في حشاها؛ ويقول أيضًا إنّها إذا اضطربت أمامها فلكي تُظهر أنّ الراحة محرّمة على الفلّاح وأنّه يبقى عليه دومًا شيء ليعمله. إنّ صوت الآلات النحاسيّة التي يضرب عليها بيديه تعبّر عن صوت آلة الفلاحة وهي من نحاس لأنّ الزراعة كانت

تستعمل النحاس قبل اكتشاف الحديد، وأنّ الأسد الحرّ المدجّن يعني أنّ الأرض مهما كانت عصيّة وبرّيّة تطوّعها يد الإنسان؛ وأنّ الأسماء والألقاب المتنوّعة للأمّ تلّوس تحمل على الاعتقاد بأنّ الآلهة كثيرون؛ ويفكّر الإنسان في أنّ تلّوس هو أُوبْسْ (Ops) لأنّ الشغل يجعله أحسن ممّا كان؛ وأنّها الأمّ لكونها كثيرة الخصب؛ والجدّة لأنّها تنتج الأغذية وأنّها بروزربين (Proserpine) لأنّ الحنطة تخرج من حشاها؛ وهي فستا لأنّها ترتدي ثوبًا من العشب وعلى هذا النحو، وبكلّ حقّ ترتبط بها عدّة إلاهات». ولو أنّها وحدها إلاهة هي التي في الحقيقة ليست إلاهة لما كان يتصوّر الإنسان فيها عدّة إلاهات. إلاهة واحدة عدّة أسماء؛ أجل، ولكن كم من أسماء لهذا العدد الكبير من الإلاهات؛ يا لها من سخافة! ينقاد فرّون وراء ضلالٍ قديم حتّى إنّه، بعد الرأي الذي عبّر عنه مؤخّرًا، يضطرب ويضيف: «إنّ هذا الرأي الأخير لا يناقض رأي أسلافنا الأقدمين القائلين بوجود عدّة إلاهات». وهل يتّفق هذان الرأيان؟ وهل يمكن أن يقال ببساطة إنّ لإلاهة واحدة عدّة أسماء أو هنالك عدّة إلاهات؟ على أنّه يقول «قد يكون الشيء واحدًا وقد يكون في هذا الشيء الواحد أشياء أخرى كثيرة فيه». إنّي أوافق على أن يكون في إنسانٍ واحد عدّة أشياء؛ فهل هذا يعني عدّة أشخاص؟ عدّة ظروف تلتقي في إلاهة واحدة؛ وهل يعني أنّ فيه عدّة إلاهات؟ إذهبوا واعملوا وقسّموا واجمعوا وكثّروا وامزجوا واخلطوا! تلك هي الأسرار السامية لتلّوس وللجدّة؛ بواسطتهما كلّ شيء يعود إلى بذور قابلة للفساد، إلى تعاطي الزراعة! ذاك هو الهدف والقصد من تلك الآلات الموسيقيّة والطبول والدوران

وحركات التشنّج والآلات النحاسيّة والأسود الرمزيّة؛ وهل في ذلك كلّه وعدٌ بالحياة الأبديّة؟ كيف يستطيع عار أولئك الكهنة الخصيان المكرّسين لخدمة الإلاهة الكبرى أن يدلّ على أنّه يجب أن يستمسك الإنسان بالأرض، حصولًا على الزرع، ما دامت هذه الخدمة عينها تحكم عليهم بالعقم؟ كيف يمكنهم، إذا تمسّكوا بالإلاهة، أن ينالوا بزرًا ليست لهم عندما تحرمهم وظيفتهم ذاتها من بزارٍ لهم؟ هل هذا يعني كشف معنى الأسرار أو نبذها؟ لا أحد يلاحظ ما لخبث الشياطين من تأثير إذ يفرضون عليهم أمثال تلك الهجومات لكونهم لا يجرؤون على تعليل نفوسهم بأشياء كثيرة. لو لم تكن الأرض إلاهة لما عمل الناس على استخراج البذور من حشاها ولما قسوا على نفوسهم ليخسروا إكرامًا لها ما يسألونه من خصوبتها. لو لم تكن الأرض إلاهة لأخصبت تحت يد الإنسان، ولَما أرغمت الإنسان على أن يصبح عقيمًا بشكلٍ شخصيٍّ ومباشر. أن تقوم في أعياد باخوس امرأة شريفة تتوّج ذكوريّتها البشريّة على مرأى من الجماهير ثمّ يحضر زوجها بالذات إن بقي للناس بعض الخفر، ووجهه مغطّى بالعرق والخجل! وأن تقعد الزوجة الجديدة على ركبة بِرْياب (Priape) أثناء الاحتفال بالزواج فإنّ تلك الأمور المعيبة المخجلة ليست سوى تفاهة حقيرة بالنسبة إلى أسرار السفه والكذب التي أفقدت الجنسين حرمتهما بما للشياطين من خبث ودهاء من دون أن تقضي على تلك الأسرار. هنالك خوف على الحظوظ من أذى السحر في البراري، وهنا لا خوف من بتر الأعضاء؛ هنالك انتهاك لحياء الزوجة الفتاة من دون المسّ بخصوبتها وعذريّتها وهنا تُنتَزَع الرجولة: فما من امرأة تُضاف بل رجل ينقص.

٢٥

لا بحث الآن في موضوع أَتِيس (Atys) ولا يسعى فرُّون إلى تفسير الحبّ الذي يحتفل بذكراه الكاهن غال إحياءً للبتر الشنيع الذي عاشه، بيد أنّ علماء الإغريق وحكماءهم يرون فيه أسطورة عجيبة ومقدّسة إذ إنّه، بنظرهم، رمزٌ لجمال الطبيعة الربيعيّ؛ وإذا ما صدّقنا في هذا الموضوع الفيلسوف الشهير بُورْفِير (Porphyre) فأتيس هي صورة الزهور؛ ومصيبتها ترمز إلى سقوط الزهرة قبل أن تثمر؛ وعليه، فليس هذا رجلًا أو ما يكاد أن يكون رجلًا؛ بل العضو الجنسيّ الذي يشبّهونه بالزهرة، هذا العضو الذي يسقط وحده من الرجل الحيّ؛ وماذا أقول؟ ما سقط العضو أبدًا، بل مُزِّقَ من دون أن يُقطَع؛ وخسارة الزهرة هذه تلاها العقم وحسب. وماذا يعني هذا الذي بقي من الإنسان؟ إلى مَن ننسب هذا العنف؟ وما معنى أنّ تلك الجهود الباطلة غير المجدية تبرهن بما فيه الكفاية عن الاعتقاد بما أعلنت عنه الشهرة وما قالته عن رجل صار خصيًّا؟ وهنا يشهد صمت فرُّون عاليًا بما يُضمر من ازدراء الشرح الذي لا يستطيع أكثر الرومان علمًا أن يتجاهله.

٢٦

إن صدّقتُ ذاكرتي أرى أنّ فرُّون لا يتكلّم عن أولئك الرجال المخنّثين، الموقوفين على خدمة الجدّة، الذين يُعدّ تكريسهم هذا إهانة لحياء هذا الجنس وذاك؛ فنراهم حتّى في أيّامنا الحاضرة

في الساحات العامّة وشوارع قرطاجة يمشون باسترخاء، معطّري الشعر، مضمّخي الوجوه يطالبون علنًا بما يسندون به حضورهم الشائن. هنا لا شرح لهذه الحال؛ العقل يخجل والكلام يبطل وتتفوّق الجدّة على جميع الآلهة أولادها من حيث فظاعة الجرم وليس بامتياز الألوهة. يا لها من سفاهة عارمة تفوق بأشواطٍ سفالة جانوس والشناعة الصحيحة هي في عدم التجانس في التماثيل ولكنّ شناعتها في بذاءة أسرارها. هو يملك أعضاء إضافيّة بالصورة وحسب، أمّا هي فإنّها تبتر حقًّا الأعضاء البشريّة. لم يصل جوبيتر بفوضاه وخطايا أقاربه الجنسيّة إلى ذلك الحدّ؛ جوبيتر يغري نساء كثيرات ولا يسيء إلى كرامة السماء إلّا بواسطة غانِيماد (Ganymède) أمّا الجدّة فإنّها تدنّس الأرض وتجدّف على السماء بواسطة مخنّثيها الذين اتّخذوا الرذيلة مهنة؛ وقد يمكننا أن نشبّهها في هذا النوع من الفظاعة في السفاهة بساتورن الذي يقال إنّه بتر عضو والده وقد نفضّله عليها؛ ولكن، في أسرار هذا الإله يتقاتل الناس ولا يتبادلون الإهانات؛ إنّ ذاك الإله قد افترس أبناءه على حدّ قول الشعراء ويفسّره الفلاسفة على هواهم. أمّا الحقيقة التاريخيّة فهي أنّه قد قتلهم كما أنّ أبناء قرطاجة يضحّون له بأولادهم وهذا ما رفضه الرومان غير أنّ جدّة الآلهة تدخل خصيانًا إلى المعابد الرومانيّة فاستمرّت هذه العادة السافلة حتّى ظنّ الناس أنّ تلك الإلاهة كانت تحفظ للناس شجاعتهم بانتزاع رجولتهم. آه! ما قيمة لصوصيّة مركور وسفالة فينوس وسائر أفعال الزنى والفحشاء المتنوّعة التي يقوم بها الآلهة بالنسبة إلى تلك الفظاظة؟ وهنا استشهد الكتب عينها إن لم تكن تعرض الفظائع على المسرح غناء ورقصًا. وفي الواقع ما هي

بالنسبة إلى فساد الجدّة؟ ويقال إنّها لخرافات شعراء؛ ولكن يا للعار! وهل ما يجده الآلهة من ملذّات في تلك المشاهد خرافات؟ أن يعلن الشعر أو المسرح عن تلك الجرائم فتلك لعمري وقاحة الشعراء وسفالة منهم؛ وهذا صحيح. أمّا أن تدخل في عداد الأعياد الإلهيّة واحتفالاتهم بأمر من الآلهة وتهديداتهم، ألا ينسب الجرم إلى الآلهة؟ وعلى هذا النحو ألا يعلنون أنّهم شياطين ويُغرون النفوس المسكينة؟ والخصيان الموقوفون بدمهم على عبادة كبرى الإلاهات يلتزم الشعراء في هذا المجال الصمت بدافع من فظاعة ما يرون؛ هكذا هم أولئك الآلهة المنتخبون الذين يجب على الإنسان أن يتعبّد لهم تأمينًا لسعادته بعد الموت؛ في حين لا يستطيع أن يعيش بكرامة في خدمتهم، منذ الحياة الحاضرة، خاضعًا لنير الخرافات التي لا يمكن عقلًا بشريًا أن يتصوّر ما هو أشدّ عارًا منها ويعيش أسير الأرواح الشرّيرة. «كلّ ذلك متعلّق بالكون»، على حدّ قول فرّون وكان عليه أن يقول إنّ كلّ ذلك متعلّق بالفجور. وهل من شيء في الكون لا يتعلّق بالكون أمّا نحن في ما يختصّ بنا والذي نسعى إليه فإنّما نسعى إلى نفس راسخة في الدين الحقيقيّ لا تتّخذ الكون إلهًا لها بل تنظر إليه بإعجاب، وصولًا إلى الله، بصفته من صنع الله، بعيدًا عن كلّ وصمة دنيويّة، فترتفع نقيّة إلى الله خالق الكون.

٢٧

إنّ شهرة أولئك الآلهة المنتخبين سلّطت الضوء لا على فضائلهم بل على خلاص عارهم من النسيان؛ وهذا ما يدفع إلى

الاعتقاد بأنّهم كانوا بشرًا كما يشهد بذلك الشِعر بالاتّفاق مع التاريخ. ألم يقل فيرجيل «كان ساتورن أوّل الهاربين أمام جوبيتر فنزل من الأولمب وعاش في المنفى»؟ تبسّط في ظروف ذلك الحدث تاريخ إفِمِير (Ephémère) الذي ترجمه إلى اللغة اللاتينيّة إنّيُوس (Ennius)، ولكن بما أنّ هذه النقطة قد أشبعها نقاشًا كتبة الإغريق واللاتين في محاربتهم للخطأ فلن أتوقّف عليها طويلًا. أمّا الدوافع الطبيعيّة التي تقدّم بها رجال علم أذكياء، تحويلًا لهذه الأمور البشريّة إلى أمور إلهيّة، فقد دفعني التأمّل والتعمّق فيها إلى الاعتقاد بأنّ شيئًا ما لا يرتبط بأعمال أرضيّة طبيعيّة وبطبيعة جسديّة متغيّرة، وإن لم تكن مرئيّة إلّا ويكون الإله الحقيقيّ. إذا كانت المسألة مسألة أساطير لا تتنافى مع الديانة فمن المؤسف حقًّا ألّا تكون مفيدة لتعريف الإله الحقيقيّ، على أنّ غياب الممارسات المخجلة والوصايا السفيهة يدعو إلى شيء من التعزية. وعليه ما دام الذنب قائمًا لتكريم النفس والجسد بدل أن يُكرَّم الإله الحقيقيّ الذي وحده يؤمّن سعادة النفس التي يسكن فيها فكم هو عظيم ذنب مَن يؤدّي العبادة بنفسه وجسده فيخسر في الوقت عينه خلاص النفس وكرامة الجسد معًا؟ بكلّ تأكيد إنّ تكريس المعابد والكهنة والذبائح إلى عاملٍ ما طبيعيّ أو روح مخلوق، وإن لم يكن فاسدًا أو شرّيرًا هو شرّ لكون تلك الواجبات مفروضة للإله الواحد الحقّ؛ وهذا لا يعني أنّ الشرّ في الأشياء المستعملة لهذه العبادة بل لأنّها لم تُوضع إلّا لتكريم الذي يجب له الإكرام والعبادة. إن زَعَم الإنسان أنّه يكرّم الإله الحقّ، خالق كلّ نفس وكلّ جسد، فذنبه ليس لعبادته مَن لا يجوز له الإكرام؛ بل لأنّه يعبده بغير الأسلوب الواجب له، أي

بواسطة التماثيل السخيفة وذبائح البشر ووضع الأكاليل على أعضاء مخجلة والجوائز المعطاة لأفعال الزنى وأعمال البتر والقطع الوحشيّة وتكريس رجال مخنّثين والمشاهد الوقحة والسفيهة. والآن أن تكون كلّ تلك الفظائع والمفاسد إكرامًا لا يُرفَع إلى الإله الحقيقيّ، خالق النفس والجسد، بل إلى خليقة أيًّا يكن كمالها أو إلى نفس أو جسد أو إلى نفس وجسد معًا، فذاك لعمري تجديف على الله لأنّها عبادة موجّهة إلى سواه ولا يجوز أن توجَّه إلّا إليه وليس إلى أيّ سواه؛ ومن ثمّ ما هي صفة عبادة الأوثان؟ يا له من مزيج الفظائع والمفاسد؛ وهو شيء معروف؛ قد تكون الغاية من هذه العبادة أقلّ وضوحًا لو لم يؤكّد التاريخ أنّ الآلهة أنفسهم هدّدوا وتوّعدوا فانتزعوا من البشر ذاك التكريم المرفوض. لقد انتفى كلّ شكّ: هي الأرواح الخبيثة والفاسدة التي يستقطبها اللاهوت المدنيّ تحت رموز سخيفة ليسيطر كلّيًا على القلوب المصابة بالخَبَل.

٢٨

يعجز فرُّون بكلّ ما له من علم وذكاء ومنطق عن أن يجعل أولئك الآلهة مرتبطين بالأرض والسماء. جهود باطلة! يفلت هؤلاء الآلهة من بين يديه، ينخطفون ويذهبون وقبل أن يتكلّم عن الإلاهات يقول: «وكما قلت في كتابي الأوّل بشأن الآلهة فإنّهم ينبثقون من مبدأين: السماء والأرض؛ وهكذا انقسموا إلى آلهة سماويّين وآلهة أرضيّين؛ في الكتب السابقة بدأنا بالسماء في حديثنا عن جانوس الذي يعتبره بعضهم السماء وبعضهم الآخر

الكون، وسوف نبدأ بتلّوس مقالتنا عن الإلاهات». هنا ألحظ كلّ التعقيدات عند هذا العقل الكبير فيتمسّك ببعض تشابهات تسمح له بأن ينسب إلى السماء المبدأ الإيجابيّ الفاعل وإلى الأرض المبدأ السلبيّ، فينسب إلى الواحد القدرة الذكريّة وللآخر الطاقة الأنثويّة ولا يرى أنّ الذي يتسبّب بأحداث كثيرة هو ذاته خالق السماء والأرض. وعلى هذا النحو عبَّر، في ما سبق، عن أسرار آلهة سامُوثْراس. وإذ يعد بأن يكشف لجماعته عن أمور مجهولة يلتزم تجاههم كما بالحلف بأن يوجّه إليهم إيحاءات غريبة عجيبة حتّى إذا ما سمعناه فهمنا منه أنّ إشارات كثيرة علّمته أنّ تلك التماثيل الإلهيّة، الواحدة، شعار السماء، وهذه، شعار الأرض، والأخرى ترمز إلى النماذج العامّة التي يسمّيها أفلاطون الأفكار؛ ويريد أن تكون السماء جوبيتر والأرض جونن والأفكار مينرفا. السماء هي المبدأ والأرض هي المادّة والأفكار هي نماذج الأشياء كلّها؛ يعزو أفلاطون إلى الأفكار، هذا ما نمرّ عليه بسرعة، قدرةً على أن تخلق السماء، لا أن تخلق السماء أنموذجًا على شاكلتها. وأكتفي بأن أشير إلى أنّ فرّون في الكتاب عن الآلهة المختارين لم يلحظ فكرة الآلهة الثلاثة حيث وضع إلى حدّ ما كلّ شيء. ألم ينسب مثلًا إلى السماء الآلهة وإلى الأرض الإلاهات ومنهم مينرفا التي سبق ورفعها حتّى السماء؟ ثمّ عن نبتون، الإله الذكَر، ألا يقيم في البحر الذي يرتبط بالأرض لا بالسماء؟ وديس، بلوتن عند الإغريق، شقيق جوبيتر ونبتون أليس هو كذلك إلهًا أرضيًّا يسكن الجزء الأعلى من الأرض، تاركًا لزوجته بروزربين، المناطق السفلى؟ وعليه فماذا يعني هذا التمييز في الآلهة بين أرضيّين وسماويّين؟ أين هي

قوّة تلك الآراء ومنطقها ومعناها وثباتها؟ تللوس مبدأ الإلاهات؛ إنّها الجدّة؛ وأمامها يعربد الرجال المتهتّكون الذين يتلوّون على أنفسهم ويتمزّقون. جانوس هو رأس الآلهة وتللوس رأس الإلاهات. وماذا أقول؟ الضلال يكثّر الأولى والغضب يسيطر على الثانية؛ فيا لها من جهود عبثيّة لربط كلّ ذلك بالكون! وهل ينجحون؟ هل يمكن للنفس التقيّة أن تعبد الكون بدلًا من الإله الحقّ؟ من الواضح أنّ تجربتهم ستكون عاجزة. عليهم أن ينسبوا تلك الخرافات إلى موتى وإلى أرواح شرّيرة فتسقط كلّ صعوبة.

٢٩

الله الواحد الحقيقي هو الضابط للكون وما فيه

وفي الواقع ما أسهل أن ينسب الإنسان إلى الله الحقيقيّ خالق الكون وكلّ نفس وجسد فيه كلّ ما ينسبه ذاك اللاهوت إلى الكون بواسطة الأسباب الطبيعيّة من دون الخوف من الوقوع في ما ينتهك المقدّسات! وإنّي أثبت هذه الحقيقة كما يلي: إنّنا نعبد الله، من دون السماء والأرض، الجزءين اللذين يكوّنان العالم؛ ولا نعبد النفس ولا الأنفس المنتشرة في كلّ الأجساد الحيّة، بل نعبد الله خالق السماء والأرض وكلّ ما فيهما؛ إنّه الخالق لكلّ نفس أيًّا تكن.

نستعرض أعمال الله، الأحد، الحقّ، التي منها صُنع أولئك الآلهة الكثيرون الكذبة، محاولين إضفاء معنًى ما مقبول على أسرارها المرذولة؛ ونعبد هذا الإله الذي يرسم إلى الطبائع أصولها؛ هو خالقها ومبدأها وغاية حركتها ومداها في الزمن؛

فيه مبدأ العلل ومعرفتها وتنظيمها؛ هو الذي أعطى البذور الطاقة ووهب مخلوقات حيّة معروفة: النفسُ العاقلةُ والعقلُ والقدرةُ على الكلام، بحسب ما شاء، وكما شاء أيضًا، وهب العقول القدرة على معرفة الأحداث مسبقًا؛ ويكشف عن المستقبل بواسطة الأنبياء ويشفي بواسطة خدّامه. إنّه الحكَم في الحرب، يحدّ لها بداية واستمراريّة وغاية عندما يرى أنّه من الضروريّ أن يصحّح مسار الجنس البشريّ أو يؤدّبه: إنّه خالق للنار، يضبط قدرتها على الالتهام وبدوزنها وفقًا لحاجة الطبيعة المترامية الأطراف؛ هو الضابط الأعظم لمياه الكون، خالق الشمس أشدّ الكواكب إشعاعًا، ينظّم تأثيرها وحركتها؛ لا يترك الجحيم خارجًا عن سلطانه القدير؛ يهب البذور قوّة تحيي الموادّ الجافّة أو الرطبة وتجعلها صالحة لغذاء الإنسان؛ يعطي الأرض مرتكزها وخصوبتها. ويُكثّر من عطاياها وثمارها على الإنسان والحيوان؛ إنّه العناية التي تأمر العلل الأولى والثانويّة ويرسم للقمر خطّ سيره ويفتح في السماء وعلى الأرض طرقًا تتنقّل عليها الأجرام ويحيي إلى العقل البشريّ الذي خلقه علم الفنون الضروريّة لثبات الطبيعة والحياة ويوحّد ما بين الأجناس لكي تتناسل وتتوالد ويسهّل على المجتمعات البشريّة استعمال النار فتأخذ منها الحرارة والنور: ذاك هو النشاط الكونيّ الذي أراد العالِم العبقريّ فرّون أن يجعله مشتركًا ما بين الآلهة المختارين بموجب تفسيرات فيزيائيّة أخذها عمَّن سبقوه أو افترضها افتراضًا؛ على أنّ ذاك النشاط هو مختصّ بالله الواحد الحقّ ولا ينازعه فيه منازع؛ هو الحاضر في كلّ مكان، غير المرتبط بمكان، الحرّ من كلّ قيد، غير المنظور، الثابت غير المتغيّر، المالئ السماء

والأرض، لا بكيانه اللامحدود بل بحضوره الكلّي القدرة؛ وعلى هذا الأساس يدبّر مخلوقاته تاركًا لها نوعًا من العفويّة في التحرّك والعمل. لا شيء بدونه يكون، على أن لا شيء هو؛ وغالبًا ما يعمل بواسطة ملائكته، ويظلّ مبدأ السعادة لملائكته؛ ولأسباب خاصّة يبعث بملائكته إلى البشر، غير أنّه لا يؤمّن السعادة لبني البشر، بواسطة ملائكته، بل بذاته يؤمّنها. وعلى هذا الأساس ننتظر الحياة الأبديّة من هذا الإله الواحد الحقّ.

٣٠

الله هو الرحيم الغفور

فضلًا عن تلك الخيرات التي يفيضها على الأخيار والأشرار في إدارة الطبيعة التي سبق الكلام عنها فإنّه يعطينا شهادة عظمى على محبّته تختصّ فقط بالصالحين؛ وفي الواقع وإن تكن هذه العطيّة السامية بأن نكون ونحيى ونتأمّل السماء والأرض ونكون عقلاء وأذكياء فنتوصّل إلى معرفته، خالقًا لهذا العدد الكبير من الروائع التي تبقينا عاجزين عن أن نشكره شكرًا واجبًا؛ غير أنّنا إذ نفكّر بهذه الرحمة التي، بدلًا من أن تتركنا نرزح تحت ثقل خطايانا، في ظلماتنا وفي ظلمات عمانا، يرسل كلمته، ابنه الوحيد الذي تنازل ولبس ضعفنا فوُلِد وتألّم ليعلّمنا ما هي قيمة الإنسان في نظر الله ويطهّرنا من جميع خطايانا بهذه الذبيحة الجديدة ويفيض المحبّة في قلوبنا مع روحه القدّوس ليرفعنا فوق كلّ الحواجز ويدخلنا في الراحة الأبديّة، ونتلذّذ بشكل لا يوصف في المشاهدة السعيدة، وهل من قلوب وكلمات كافية لرفع آيات الشكر؟

٣١

منذ بداية الجنس البشريّ بشّر الملائكة المختارين، بواسطة العلامات والإيحاءات المناسبة للزمن، سرّ الحياة الأبديّة ثمّ أقام الشعب العبرانيّ في مجتمع تعبيرًا عن ذاك السرّ؛ وفي ذاك الشعب تمّ ما كان قد أعلن على يد بعض الناس. منهم مَن كان مدرّبًا على التنبّؤات ومنهم الغريب عنها؛ وذلك منذ مجيء المسيح حتّى أيّامنا الحاضرة والمستقبلة، حتّى إنّ ذاك الشعب تشتّت تحت كلّ سماء ليشهد للكتب التي تبيّن وعد الخلاص الأبديّ بالمسيح يسوع؛ على أنّ النبوءات جميعها الحرفيّة وما جاء في الكتب المقدّسة من إرشادات وقواعد أدبيّة للتقوى لم تكن وحدها كافية؛ بل أضيفت إليها الطقوس المكرّسة والكهنوت وتابوت العهد والهيكل والمذابح والأعياد والاحتفالات وكلّها عبادة واجبة لله تسمّى باللغة اليونانيّة لاتُرِيًّا (latrie). أجل كلّ ذلك يرمز ويبشّر مسبقًا بما يختصّ بحياة الأبرار الأبديّة في المسيح يسوع ونعتقد بأنّها قد تمّت ونراها تتمّ أو نرجو أن تكتمل في المستقبل.

٣٢

بتلك الديانة الصحيحة وحدها أقنع آلهة الأمم بأنّهم أرواح شرّيرة وحسب؛ تستفيد من هجرة بعض النفوس البشريّة أو تلبس صورة مخلوقٍ ما فتتوق إلى أن تظهر كآلهة تنتشي كبرياؤهم بما يُكرَّم به الآلهة. وهو كناية عن مزيج من الجرائم والأشياء

الفاسقة، ويغارون من عودة النفوس البشريّة الخلاصيّة إلى إله الحقيقة؛ ويتحرّر الإنسان من ذاك النير القاسي والفاسد عندما يؤمن بالذي يعطيه، ليساعده على النهوض، مثال تواضع، على قياس الكبرياء التي أسقطت الشياطين؛ وإلى هذا العدد ومع سائر الآلهة الذين تكلّمت عنهم طويلًا، فضلًا عن آلهة الأمم الغريبة، يجب أن يضاف أيضًا النخبة الإلهيّة، عنيت بهم مجلس الآلهة الذين لا يدينون بمقامهم الرفيع إلى ما لهم من فضل؛ بل إلى ما اكتسبوا من شعبيّة بسبب جرائمهم، وهم الآلهة الذين يجهد فرّون في أن يربط سرّهم بأحداث طبيعيّة ويبحث عن غطاء لائق يحجب به عيوبهم الكثيرة، من دون أن يجد تفسيرًا ملائمًا أو قريبًا إلى المعقول لأنّ علل تلك الأسرار ليست في ما يظنّه أو في ما يحاول الإقناع به؛ لو أنّها كانت على ما يظنّ أو قريبة ممّا يظنّ، وإن لم تكن مفيدة لعبادة الله الحقّ وللحياة الأبديّة، هدف الديانة الأسمى، فإنّ تلك الشروح المتّخذة من الطبيعة قد تخفّف مع ذلك من هول بعض الممارسات المخجلة التي يبقى معناها مجهولًا. وعلى هذا النحو فإنّ فرّون في سعيه إلى كشف رموز الأساطير المسرحيّة والأسرار المقدّسة ينجح في شجب الهيكل من خلال المسرح أكثر منه في تبرير المسرح بواسطة الهيكل. غير أنّ تلك الجهود تتوق من خلال التفسيرات الطبيعيّة المزعومة إلى التخفيف من القرف الذي تثيره في النفس البشريّة تلك الأمور الكثيرة والمعيبة.

ومع ذلك، بحسب شهادة ذلك الإنسان العالم، فإنّ أسرار ذلك اللاهوت التي كشفت عنها كتب نُوما بُومْبِيلِيُوس (Numa Pompilius) لم تبقَ واعتُبرت غير جديرة بأن تُحفظ للتاريخ؟ ولا بأن يطّلع على قراءتها المتديّنون؛ وإنّي لمستعدّ لأن أفي بالوعد الذي أعطيته في الفصل الثالث من هذا الكتاب. وإليكم ما جاء في كتاب فرّون حول عبادة الآلهة: «رجل ما يدعى تارنسيوس ورث مِلكًا على قدمي جانيكول؛ وإذ مرّ فلّاحه على مقربة من قبر نوما بومبيليوس، استخرج الكتب التي خطّ فيها الأسباب الداعية إلى تلك الأسرار ثمّ نقلت إلى الحاكم الذي ألقى نظرة على صفحاتها الأولى ورأى واجبًا عليه أن يرفعها إلى مجلس الشيوخ. ولما اطّلع كبار المجلس على بعض الأسباب التي دفعت نوما إلى الحفاظ عليها احترم المجلس قرارات الملك القديم لكنّه اتّخذ قرارًا بإحراقها بواسطة الحاكم حفاظًا على مصلحة الديانة». لكلّ إنسان أن يصدّق ما طاب له ذلك كما يسمح لكلّ مَن يدافع بلباقة عن هذا الفساد بهذا القدر من الفظاعة أن يقول هنا كلّ ما يوحي به إليه الحبّ الأحمق للجدال؛ حسبي أن أبدي ملاحظة وهي أنّ ما يوحي به نوما عن علل الأسرار التي وضعها وجب أن يبقى سرًّا على الشعب وعلى مجلس الشيوخ حتّى على الكهنة؛ وأنّ فضولًا ما غير مقبول درّب نوما على أسرار الشياطين المذكورة في الكتاب المهيّأ لتذكيره بها؛ وهي أسرار لا يجرؤ، وإن يكن ملكًا لا يخاف أحدًا، لا على أن يسلّمها أو يمحوها أو يقضي عليها؛ بل يريد ألّا يعرف

بها الناس فيكتشفوا فيها القبائح الغريبة؛ ويتوجّس خفية من غضب الشياطين عليه إذا حذفها ويخفيها في مكان يعتبره آمنًا؛ ولا يشكّ البتّة في مرور المحراث على هذه المسافة القريبة من قبره؛ بيد أنّ مجلس الشيوخ يخشى الحكم على ديانة السلف فيضطرّ إلى احترام ما وضعه نوما على أنّه يمنع طمرها في التراب مرّة أخرى لما فيها من أذى قد يدفع بالفضوليّين إلى البحث عنها باندفاع؛ ولهذا فقد أمر بإحراق ذاك الأثر الضخم من الفساد. وإذ كان يعتقد بأنّ الاحتفال بتلك الأسرار ضروريّ فقد بدا له أنّ الخطأ في معرفة أسبابها أفضل من الاضطراب الذي يصيب الجمهوريّة إذا انكشفت تلك الأسباب.

٣٤

ولجأ نوما إلى التبصير بالماء لأنّ الله لم يرسل إليه لا نبيًّا ولا ملاكًا ليرى في الماء صور الآلهة أو بالأحرى شخصيّة الشياطين، ويتعلّم منهم الأسرار والطقوس الواجب إقرارها؛ وعلى حدّ قول فرّون فإنّ هذا النوع من العرافة الآتي من الفرس قد استعمله نوما كما استعمله في ما بعد الفيلسوف بيتاغور ويقول أيضًا إنّ الإنسان يسأل أيضًا الجحيم بواسطة إراقة الدم وهو ما يسمّيه الإغريق علم الغيب بواسطة الأموات؛ سواء أكان بالماء أم بواسطة الأموات، فهو هو ذاته، ما دام أنّ المقصود معرفة المستقبل: وكيف ذلك؟ هذا شيء يتعلّق بالوثنيّين. أمّا في ما يتعلّق بي، فلا أدّعي بأنّ تلك الفنون التبصيريّة كانت محرّمة شرعًا لدى الشعوب الوثنيّة تحت طائلة العقاب القاسي قبل ميلاد

المخلّص. كلّا أنا لا أؤكّد ذلك لربّما كانت مقبولة، ولكنّي أقول إنّ نوما عرف بتلك الأسرار التي يقيمها من خلال علم خفيّ أبقى أسبابه مجهولة، لشدّة ما كان يخاف ممّا تعلّمه! إنّ مجلس الشيوخ أحرق بالنار الكتب التي تتضمّن تلك الأسرار ومن ثمّ ماذا يفيد فرّون أن يعطي تلك الأسرار، أسبابًا يأخذها عن الطبيعة قد لا تستدعي وحدها أن تُحرَم كتب بومبيليوس أو أن يصدر قرار من مجلس الشيوخ ضدّ الكتاب الذي قدّمه فرّون هديّة إلى القيصر؛ على أنّ الماء الذي كان نوما يستقيه لأعمال التبصير أظهر على حدّ قول فرّون زواجه الأسطوريّ من إلاهة الماء إيجِيريا (Egérie) فنرى أنّ الأحداث الصحيحة تتحوّل إلى أساطير حين تطيّبها الأكاذيب. من خلال التبصير بالماء تدرّب ذاك الملك الفضوليّ على الأسرار التي سجّلها في كتاب الأحبار كما تفهّم الأسباب التي احتفظ بمعرفتها لنفسه؛ وهي معارف ماتت بموته، إن صحّ التعبير، ما دام أنّه اهتمّ كثيرًا بدفنها، بعيدًا عن أنظار الناس، في ظلمات قبره. وبكلّ تأكيد، يجب أن ينكشف فساد الشياطين بما فيه من فظائع، ويظهر الكره من اللاهوت المدنيّ لدى أناس أخذوا الكثير عن طقوسه السفيهة؛ كما كان من الواجب أن يرى أنّ أولئك الآلهة المزعومين ليسوا سوى أناس يصيرون إلى الموت وقد رفعتهم الأمم على مذابحها خطأً ففرح الشياطين بإكرامهم كآلهة، بدلًا من تكريم الأموات؛ وذلك يعود إلى ما كانوا يقومون به من ألاعيب وخزعبلات يستدرجون بها الناس إلى تكريمهم. بيد أنّ عناية خاصّة وخفيّة من الله الحقّ، سمحت بفنّ التبصير بالماء بعد أن اكتسبتهم إليها فأفضَوْا إليها بأسرارهم الحميمة ولم تسمح بدفن تلك الأسرار

عند الموت، بل أمرت بإحراقها. وتنبيهًا للدعاية لها ما استطاعوا لا أن يديروا عنها المحراث الذي نبشها من التراب ولا ريشة فرّون الذي يذكّر بذلك الحدث إذ لا يمكنهم أن يعملوا أكثر ممّا يسمح لهم به. ولم يسمح لهم برّ الله العادل والأصيل بأن يتسلّطوا إلّا على الذين استحقّوا أن يقعوا تحت سهامهم، أو أن يخضعوا لشرّ السيطرة عليهم. ما كان أخبث تلك الأمور الموحى بها، وما كان أبعدها عن عبادة الألوهة الحقّة، وقد رمى بها مجلس الشيوخ في النار، حيث كان أكثرها اندفاعًا وجرأة من بومبيليوس على دفنها! وعلى مَن ينفي كلّ تقوى عن هذه الحياة الدنيا أن يطلب من الأسرار المنبوذة الحياة الأبديّة؛ أمّا الذي ينبذ كلّ علاقة بالأرواح الخبيثة فعليه ألّا يخشى شيئًا من خرافةٍ تكرّمُهُم؛ ويعترف بالديانة الحقيقيّة التي تفضحهم وتتسامى فوقهم.

الكتاب الثامن

مقدمة

نزاع مع الفلاسفة الأفلاطونيّين

يدخل في الكتاب الثامن في حوار مع الأفلاطونيّين الذين يتوقون إلى الخير الأسمى فيعتبرونه متعلّقًا بالجسد أو بالروح أو بكليهما معًا؛ ويكنّ لفلسفتهم كلّ احترام مع أنّه يقاومهم على أكثر من صعيد. لهم فكرة سامية عن الله، قريبة جدًّا من فكرة المسيحيّين عن الله، لكنّهم يظلّون متضامنين مع الوثنيّة فلا يقبلون مثلًا بأن يشارك الله الإنسان ويخالطه ويضعون بين الآلهة والبشر وسطاء وهم كناية عن أرواح تعيش في الهواء، خالدة كالآلهة، لهم أجسام ويشعرون بالشهوة على مثال البشر ويُسمَّون شياطين؛ ولا عجب أن يطلبوا من الناس إقامة طقوس لهم وعبادات خلاعيّة. ويضع الكاتب أسس العلاقة بين الفكر المسيحيّ والفلسفة التي استمرّت على مدى أجيال ولا تزال؛ وبحسب رأي القدّيس بولس، على المسيحيّ أن يكون دومًا حذرًا تجاه الحكمة البشريّة، حكمة الفلاسفة؛ ولكنّه لا يقف من كلّ الفلسفات الموقف الشاجب بالطريقة عينها، ويعترف الكاتب مع بولس بأنّ ما يمكن أن يُعرف عن الله قد توصّل إلى معرفته أولئك الفلاسفة أنفسهم وإن لم يؤدّوا له فعل شكر وعبادة. وهناك مَن يعترف بأنّ

تلك الأرواح التي اخترعها الناس كواسطة بينهم وبين الله سوف تزول وتختفي ولا بدّ للأصنام من أن تسقط بدورها وتزول كما يتنبّأ بذلك الكتاب المقدّس.

١

إعتراف الفلاسفة الأفلاطونيين بوجود إله واحد خالق

يجب عليّ الآن أن أضبط فكري وأقوم بجهد أكبر ممّا أبديته في فحص الأسئلة السابقة والتوسّع فيها؛ ولم يعد الموضوع متعلّقًا باللاهوت الخرافيّ أو المدنيّ، أي لاهوت المسرح أو الدولة؛ هذا يعلن عن جرائم الآلهة، وذاك يعلن عن رغباتهم الأكثر إجرامًا؛ وهي رغبات شياطين وليست رغبات آلهة. بقي عليّ أن أناقش اللاهوت الطبيعيّ مع النخبة، مع فلاسفة كفى باسمهم تعريفًا بمحبّة الحكمة. وعليه فإن كانت الحكمة هي الله، الخالق لكلّ شيء، بحسب ما تعلم السلطة والحقيقة الإلهيّة، فالفيلسوف الحقيقيّ هو الذي يحبّ الله؛ ولكن بما أنّ الحقيقة التي يعبّر عنها هذا الاسم ليست في كلّ إنسان يتباهى بهذا الاسم (إنّ مَن يُدْعي هكذا ليس بذات الفعل مولعًا بالحكمة الحقيقيّة). لهذا يجب اختيار مَن يمكن النقاش معهم، بالشكل اللائق؛ لأنّنا لا نبتغي في هذا الكتاب دحض أحلام الفلاسفة بل الآراء المتعلّقة باللاهوت، علم الألوهة، وليست كلّها بل آراء الفلاسفة الذين يعترفون بوجود الله وتدخّل عنايته في الأمور البشريّة؛ ولا يرون أنّ عبادة الله الواحد السرمديّ غير كافية بعد الموت للحصول على حياة سعيدة ويعتقدون بعبادة ضروريّة لأولئك الآلهة الذين خلقهم وأوجدهم إله واحد؛ ويتفوّق هؤلاء الفلاسفة على فرّون؛ وهم أقرب إلى الحقيقة لأنّه لم يستطع أن يرفع اللاهوت الطبيعيّ إلى ما بعد العالم، أو ما بعد نفس الكون؛ وإنّهم ليعترفون

بوجود إله أعلى من كلّ نفس، خالقٍ، ليس فقط لهذا العالم المنظور الذي غالبًا ما يُدعى السماء والأرض بل خالق أيضًا لكلّ نفس عاقلة وناطقة كالنفس البشريّة التي يجعلها سعيدة من خلال إشراكها بنوره اللاجسديّ واللامتغيّر. وهؤلاء الفلاسفة هم الأفلاطونيّون الذين يحملون اسم معلّمهم الذي لا يجهله أحد مهما تكن معرفته للفلسفة محدودة. أرى واجبًا عليّ أن أقول بضع كلمات ضروريّة بالنسبة إلى المسألة التي نحن بصددها الآن بشأن أفلاطون والذين سبقوه في هذا النوع من الدرس.

٢

إنّ الأدب اليونانيّ المشهورة لغتُه بين لغات الأمم يقدّم مدرستين في الفلسفة: الإيطاليّة التي أخذت اسمها من تلك المنطقة من إيطاليا المسمّاة سابقًا اليونان الكبرى والمدرسة الإيونيّة التي نشأت في المناطق المعروفة حاليًا باسم اليونان. أسّس المدرسة الأولى بيتاغور الساموسي (Pythagore de Samos) الذي كما قيل خلق كلمة فلسفة. إنّ الرجال المتفوّقين على سواهم، نوعًا ما في حياتهم، كانوا يسمّون، قبل مجيئه، حكماء؛ أمّا هو وقد سئل عن مهنته فأجاب بأنّه فيلسوف. محبّ للحكمة، وحليف لها إذ كان يعتقد بأنّ الافتخار بها هو في منتهى الغطرسة. أمّا رئيس المدرسة الإيونيّة فهو تالِسْ دي مِيلات (Thalès Milet) أحد الحكماء السبعة الذي غاص في درس طبيعة الأشياء وركّز شهرته على كتابات في ذلك المجال تاركًا للستّة الآخرين أن يجلّوا في العلوم الأخلاقيّة وأدب الحياة؛

وأعجب الناسَ فيه علمُ الحساب المختصّ بالكواكب الذي وفّر له معرفة الكسوف والخسوف على أنّه يظنّ بأنّ الماء أصلُ ما في الكون من أشياء وعناصر حتّى الكون ذاته وكلّ ما ينتج الكون، هذا العمل الإبداعيّ، الذي إذا تأمّلنا فيه، يبدو لنا رائعًا جدًّا بمعزل عن كلّ عناية إلهيّة؛ وخلفه أنَكْسِيمَنْدر (Anaximandre) أحد تلاميذه من دون أن يتبنّى مبدأه حول طبيعة الأشياء؛ ورفض هو وتالس أن يكون الماء مصدرًا وحيدًا للأشياء؛ بل جعل لكلّ واحد من الأشياء مصدرًا خاصًّا به؛ وأراد أن تكون الأصول غير متناهية تنتج عددًا لا محدودًا من العوالم بكلّ ما تلده؛ ويقول كذلك بموت العوالم وولادتها، مرّة أخرى، تدريجًا، بعد أن تتمّ شروط بقائها ولا يترك محلًّا للعقل الإلهيّ في تطوّرات الكون. لقد علّم أناكْسِيمِن وتركه خليفة له؛ وهذا ينسب العلل العموميّة إلى الهواء اللامحدود ولا ينكر وجود الآلهة بل يتكلّم عنهم، على أنّه يأبى أن يكون الهواء من مخلوقاتهم، بل هم من مخلوقاته. ويعتقد تلميذ له يدعى أَنَكْساغور (Anaxagore) بأنّ روحًا ما إلهيًّا صنع كلّ ما نراه؛ وبأنّ مادّة ما لامتناهية مؤلّفة من ذرّات متشابهة تدخل في تكوين الكائنات، وفقًا لنوع كلّ كائن، وطريقة وجوده، بقوّة العمل الإلهيّ؛ وديوجِين التلميذ الآخر لأناكسيمن يعتقد بأنّ الهواء هو المادّة لكلّ شيء، لكنّه يعطيه علّة إلهيّة لا يستطيع بدونها أن ينتج شيئًا. ويقول أرخلاوس الذي تتلمذ على يد أنكساغور وخلفه بالآراء ذاتها حول الأجزاء الأولى للأشياء معلنًا أنّ عقلًا ما يرعى تكوين تلك الأجزاء وانحلالها ويُنتِج تلك الأحداث المحسوسة وكان سقراط معلّم أفلاطون تلميذا له، وفي سبيل أفلاطون وضعت الخطوط العريضة لهذا الموجز.

٣

سقراط يحوّل الفلسفة إلى إصلاح الأخلاق

عرف سقراط بأنّه أوّل مَن حوّل الفلسفة إلى إصلاح الأخلاق وتنظيمها في حين كانت الجهود قبله منصبّة على البحث عن الحقائق الطبيعيّة؛ وهل كان ذلك، عن قرف من المسائل الغامضة، غير الأكيدة، أن وجّه سقراط تفكيره إلى دراسة إيجابيّة وأكيدة، يفيد منها معظم الفلاسفة الذين التزموا بها في تأمّلاتهم وسهراتهم؟ إنّها، برأيي، لمشكلة يستعصي حلّها. وهل يصدَّق، استنادًا إلى تكهّنات تعمل لمصلحته، بأنّه يأبى على نفوس تنجّستْ بكلّ ما في الأرض من شهوات، أن تتوق إلى الإلهيّات، إلى معرفة العلل الأولى المرتبطة، بنظره، بالإرادة السامية للإله الواحد الحقّ؛ وهي حقائق منوط فهمها بالنفوس النقيّة من دون سواها؟ ويفكّر أيضًا بضرورة العمل دون تلكّؤ على إصلاح أخلاقه لكي يعيد، إلى العقل المتحرّر من ثقل الشهوات الضاغطة، نشاطه الطبيعيّ الذي به يرتفع إلى الحقائق الأبديّة، إلى التأمّل بالنور الروحانيّ وغير المتغيّر حيث لعلل الطبائع المخلوقة كيانٌ ثابتٌ وحيّ؛ وهو نور لا ينكشف إلّا للعقل النقيّ. ومن الأكيد أنّ حماقة الجهلة الذين يدّعون المعرفة كانت موضوع هزء واحتقار من قبل سقراط، وسواءٌ اعترفَ بجهله أم أخفى علمه بالأمور الأخلاقيّة التي تمرّن عليها عقليًّا، فإنّ ما تمتّع به من فنّ جدليّ لذيذ لا يضاهى وما كان لديه من أسلوب ساخر أثار ضدّه عداوات شديدة فلاحقته النميمة وحُكم عليه بالموت؛ غير أنّ

أثينة التي قضت عليه، علنًا، كرّمته بإعلان الحداد العامّ عليه وتحوّل الغضب العامّ ضدّ اللذين اتّهماه فوقع أحدُهما ضحيّة النقمة الشعبيّة ونجا الآخر من العقاب ذاته باختياره المنفى الدائم. وسقراط الذي اشتهر، حيًّا وميتًا، على حدّ سواء، ترك بعده عددًا كبيرًا من الأنصار يتنافسون في التمسّك بقضايا الأخلاق، موضوع الخير الأسمى، الذي بدونه لا يستطيع الإنسان أن يكون سعيدًا. وبما أنّ سقراط في نقاشه يحرّك كلّ الأسئلة، تارة يؤكّد، وطورًا ينفي، دون أن يعبّر البتّة عن رأيه، يختار الآخر ما يريد من آرائه ويضع الخير النهائيّ حيث ما يطيب له، والخير النهائيّ هو الحدّ الذي يجد فيه الإنسان سعادته؛ بيد أنّ محازبي سقراط يختلفون حول الموضوع؛ وهو أمر غير مألوف عند تلاميذ المدرسة عينها: أناس يضعون الخير الأسمى في اللذّة على مثال أَرِيسْتِيب (Aristippe) وآخرون يجعلونه في الفضيلة على مثال أَنْتِيستان (Antisthène) إلى ما هنالك من آراءَ متنوّعة يطول بنا الوقت للتذكير بها.

٤

أفلاطون يجمع بين فلسفة سقراط وبيتاغور

أفلاطون الأثينيّ، المتحدّر من عائلة شريفة، بزّ باكرًا سائر الزملاء بحدّة ذكائه وبلغ ذروة المجد بحقّ؛ وإذ رأى أنّ ما أخذه عن سقراط من دروس، فضلًا عمّا تميّز به من نبوغ، غيرُ كافٍ، إتقانًا للفلسفة، قام بأسفار بعيدة طلبًا للعلم من ينابيعه الأصيلة فنهل من مصر أسرار علمها النادرة؛ واتّصل في إيطاليا، عرين

البيتاغوريّين، بالمشاهير منهم فدرّبوه على مختلف المسائل التي كانت موضوع فلسفة بيتاغور وكان يشدّه إلى سقراط نوع من المحبّة والحنين فيعطيه الكلام في الكثير من كتبه حيث يجمع ما يكتسبه خلال أسفاره إلى عصارة تأمّلاته الشخصيّة؛ ويقدّم ذاك المزيج بالأسلوب الشيّق اللاذع الذي كان سقراط يستعمله في أحاديثه الأدبيّة؛ وحيث أنّ درس الحكمة يُقسم إلى عمليّ ونظريّ فالعمليّ منوطٌ بسيرة الحياة والقواعد الأخلاقيّة، والنظريّ يسعى إلى معرفة العلل والحقيقة المجرّدة؛ ويقال أنّ سقراط امتاز في الأولى، وبيتاغور في الثانية؛ وعليها ركّز قواه العقليّة. أمّا أفلاطون فقد جمع بين الاثنتين؛ فالفلسفة مدينة له بكمالها وبهذا التقسيم الجديد: علم الأخلاق يتعلّق بالعمل وعلم الطبيعة منوط بالنظريّات والمنطق يميّز بين الحقّ والباطل، ومع أنّ المنطق ضروريّ للعمليّ والنظريّ، فإنّ النظريّ يدّعي لذاته دون سواه معرفة الحقيقة؛ ولا نجد في هذا التقسيم ما يناقض توزيع دراسة الحكمة بين العمليّ والنظريّ؛ والآن ما هو شعور أفلاطون بالنسبة إلى تلك الأجزاء الثلاثة وإلى كلّ واحد منها، يعني، أين يضع غاية الأفعال وسبب الكائنات ونور سائر العلل، في العلم أم في الاعتقاد؟ إنّه لموضوعٌ لا يمكننا شرحه باقتضاب ولا تأكيده من دون التعرّض إلى المخاطر. وبما أنّه يتظاهر باتّباع طريقة سقراط الشهيرة معلّمه والمحدّث الأساسيّ له في حواراته وأنّ عادة إخفاء معرفته أو التمويه على رأيه تروقه أيضًا، ماذا يحدث؟ إنّ ما يفكّر به أفلاطون بشأن تلك المسائل الكبرى الخاصّة به يصعب فهمه؛ على أنّني أريد أن أستخرج وأعرض بعض مقاطع هنا من كتبه، سواء تكلّم فيها باسمه أم ذكر ما

سمعه عن الآخرين، مؤيّدة للدين الحقيقيّ الذي نؤمن به وعنه ندافع، أم مضادّة له ومختلفة عنه، حول تعدّد الآلهة أو وحدانيّة اللاهوت وفي ما يتعلّق بتلك الحياة السعيدة حقًّا التي يقودنا الموت إليها؛ وفي الواقع إنّ الذين يفاخرون بأنّهم فهموا في العمق تعليم أفلاطون وجاهروا به بصراحة، وهو سيّد الفلسفة الوثنيّة، لربّما فكّروا بأنّ الله هو علّة الوجود والعقل وبه نظام الأعمال، الموضوع المثلّث لعلم الطبيعة والمنطق والآداب. وإذا خُلق الإنسان ليصل بما امتاز به كيانه إلى الكائن الأمثل، أي إلى الله الأحد الحقّ، الكلّي الصلاح، الذي لا كيان لكائن بدونه، ولا تعليم يفقه ولا قانون ينفع، وجب إذ ذاك على الإنسان أن يطلبه حيث الكلّ أمان؛ ويتأمّله حيث الكلّ يقين؛ ويحبّه حيث الكلّ برّ.

٥

قرابة فلسفة أفلاطون من التعليم المسيحي عن الله

وإذا كان الحكيم، بنظر أفلاطون، مَن يتشبّه بالله ويعرفه ويحبّه فيمتلكه ويسعد حقًّا؛ فهل من حاجة بعد إلى مناقشة التعاليم الأخرى؟ ليس من تعليم يقارب تعليمنا أكثر من تعليم أفلاطون. على اللاهوت الأسطوريّ الذي يمثّل جرائم الآلهة ترفيهًا عن النفوس الأثيمة أن يستسلم إلى أفلاطون وتلاميذه؛ وذاك اللاهوت المدنيّ حيث الأرواح الشرّيرة، التوّاقة باسم الآلهة إلى إغراء الشعوب التي استعبدتها ملذّاتُ الأرض تؤلّه أخطاء البشر وتثيرُ غيرةَ عبّادهم القذرة، تكريمًا لجرائمهم؛ وتجد في مشهد

المتفرّجين العديدين على الجرائم ما يطيب لها؛ وحيث كرامة المعابد تلطّخت بسبب تعاطفها مع أعمال المسرح المعيبة؛ وحيث سفاهة المسرح تصبح شرعيّة إذا ما قورنت بقبائح المعابد. على فرُّون أن يخضع مع كلّ تلك التأويلات التي تربط عبثًا ذاك اللاهوت بالسماء والأرض وبالبذور والعمليّات الطبيعيّة؛ إنّه لتأويل ترفضه الحقيقة لأنّه يستند إلى أساطير وأوهام؛ ولو افترضنا أنّها حقيقيّة فإنّ النفس العاقلة لا يحقّ لها أن تعبد في سبيل إلهها ما هو في النظام الطبيعيّ دونها قدرًا؛ ولا يحقّ لها أن تفضّل على ذاتها، بمثابة آلهة، تلك المخلوقات التي يُؤثرُ الإلهُ الحقّ النفسَ عليها. فليستسلم نُوما بُومبيليوس مع تلك الإيحاءات الخفيّة والحقيقيّة التي دفنَها معه، ثمّ نَبشها المحراث وأحرقها المجلس بالنار؛ ولئلّا نركّز اتّهاماتنا الضاغطة على نوما نذكّر بتلك الرسالة التي بعث بها إسكندر المقدوني إلى أمّه وفيها الأسرار التي باح إليه بها الكاهن المصريّ الأكبر، المدعوّ ليو؛ يخبره فيها أنْ ليس فقط آلهة من درجة سفلى أمثال بيكوس وفون وابنه ورمولوس وحتّى هركول وأسكولاب وليبر بن سيميله والتنداريد وسائر الصائرين إلى الموت المؤلَّهين بل وأيضًا الآلهة الكبار الذين يبقي شيشرون أسماءهم مكتومة ويسمّيهم في كتابه «Les Tusculanes» جوبيتر وجونن وساتورن وفولكاين وفستا وكثيرون سواهم الذين يجد فيهم فرُّون رموزًا طبيعيّة؛ هؤلاء جميعهم ليسوا سوى بشر. على أنّ ذلك الكاهن الأكبر يخشى كشف تلك الأسرار ويرجو الإسكندر بإلحاح أن يأمر بإحراق ما قد كتبه إلى أمّه؛ وعليه فليخضع لاهوت الأسطورة ولاهوت المدينة إلى الأفلاطونيّين وإلى حكماء اعترفوا بالإله الحقّ، سيّد

الكون، ومعلّم الحقيقة، وموزّع السعادة، وليخضع إلى هؤلاء الذين توصّلوا إلى معرفة الإله العظيم أولئك الفلاسفة الذين عقلُهم أسير جسدهم، ولا ينسبون إلى ما في الكون من كائنات سوى مبادئ جسديّة: تالس ينسب كلّ شيء إلى الماء وأنكسيمن إلى الهواء وزينون إلى النار وأبيكور إلى الذرّات وهي حُبَيْباتٌ لا تتجزّأ ولا تقع تحت الحسّ، إلى ما هنالك من الفلاسفة الذين يطول بنا ذكرهم دون جدوى؛ والذين أرادوا أن يجدوا في أجسام، بسيطة أو مركّبة، حيّة أو جامدة، علّة الأشياء ومبدأها؛ وفي الواقع فإنّ كثيرين على مثال البيكوريّين يظنّون أنّ الجماد قد يعطي شيئًا حيًّا؛ وهذه القوّة المنجبة لأشياء حيّة أو جامدة ينسبها آخرون فقط إلى كائنات حيّة ولكن ماديّة؛ والمادّة تلد المادّة كما أنّ الفلاسفة الرواقيّين يظنّون أنّ النار، ذاك الجرم، أحد العناصر الأربعة التي يتكوّن منها الكون المرئيّ يتمتّع بالحياة والحكمة وهو خالق العالم وكلّ ما فيه من كائنات؛ النار، بنظرهم، إله. تلك هي الأفكار الوحيدة التي استطاع هؤلاء الفلاسفة مع أمثالهم أن يفكّروا فيها وقلوبهم مقيّدة بالحواسّ؛ ومع ذلك يتصوّرون ما لا يبصرون، وفيهم صورة الأشياء الخارجيّة التي رأوها سابقًا؛ ولم يعودوا يرونها الآن ويستعيدونها بفكرهم؛ على أنّ ما يبدو بهذا الشكل للفكر ليس جسمًا، بل صورة له، وما يرى في الداخل تلك الصورة الماديّة ليس جسمًا ولا صورة وما يحكم في الداخل على جمال الصورة أو على قباحتها هو حقًّا أسمى من موضوع الحكم؛ إنّه العقل البشريّ وجوهر النفس العاقلة التي ليست ماديّة ما دامت الصورة التي تراها وتبدي حكمها فيها غير ماديّة. وعليه فليست أرضًا ولا ماء ولا هواء

ولا نارًا وليست أحد هذه العناصر الأربعة التي يتكوّن منها هذا العالم المرئيّ. وإذا لم يكن عقلنا جسدًا فكيف يكون الله خالق الأرواح جسدًا؟ على هؤلاء الفلاسفة أن يخضعوا تاليًا للأفلاطونيّين كما لهؤلاء أن يخضعوا لهم أيضًا وهم يخجلون من أن يقولوا إنّ الله جسد؛ ولكنّهم يجعلون له طبيعة من طبيعة نفسنا بالذات. ولا يتأثّرون بقابليّة التبدّل العجيبة التي للنفس والتي يعتبر وصف الله بها جرمًا كبيرًا. وهل يجيبون: الجسد هو الذي يجعل النفس قابلة للتغيير لأنّها من ذاتها غير قابلة للتغيير. ولِمَ لا يقولون إنّها الأجساد التي تجرح الجسم؟ لأنّه من ذاته غيرُ قابل للجرح وفي الواقع لا شيء قادر على أن يغيّر ما ليس قابلًا للتغيير وما يمكن تغييره بواسطة جسم ما لا يقال عنه إنّه غير قابل للتغيير.

٦

إنّ هؤلاء الفلاسفة الذين فاقوا، عن حقّ، مجدًا وشهرةً، سائر الفلاسفة الآخرين، رأوا بوضوح أنّ الله ليس جسمًا وأنّهم يبحثون عن الله خارجًا عن كلّ الأجرام. ورأوا أنّ ما هو قابل للتغيير ليس الإله السامي وأنّهم يبحثون عن الله السامي فوق كلّ نفس وكلّ روح قابل للتغيير؛ ورأوا أنّ الصورة في كلّ ما هو قابل للتغيير والتي بها كلّ كائن أيًّا تكن طبيعته وشكله لا يمكن أن يجيء إلّا في مَن هو كائن في الحقيقة، لأنّ كيانه غير قابل للتغيير؛ وعلى هذا النحو، فإنّ جرم الكون بكامله، هو مجموعة الصور والأشكال والصفات والحركات المنتظمة والعناصر المنسّقة من السماء إلى الأرض؛

فضلًا عن الكائنات المتنوّعة التي فيها؛ أن تكون النفس نباتيّة أو حسّيّة أو حيوانيّة، أن تكون عاقلة كنفس الإنسان أو روحيّة، بالمطلق، كما هي في الملاك، أجل كلّ ذلك لا يمكنه أن يكون إلّا بواسطة كائن بسيط لا يتميّز فيه الكائن عن الحياة ولا العقل عن الحياة ولا السعادة عن العقل؛ كما لو أنّ الكائن فيه يستطيع أن يقوم بدون الحياة والحياة بدون العقل والعقل بدون السعادة. لكنّ الحياة والعقل؛ والسعادة ليست سوى ذات الكائن الواحد. إنّ البساطة غير القابلة للتغيير والتي عرفتهم بأنّ الكلّ يأخذ الكيان منه وأنّه لا يأخذه من آخر. لقد اعتبروا أنّ كلّ كائن هو جسم ونفس، والنفس أفضل من الجسم، وأنّ شكل الجسد محسوس، وشكل النفس قابل لأن يكون معقولًا، وتاليًا يُؤثِرون المعقول على المحسوس. المحسوس هو ما يمكن أن يتناوله الإنسان بالنظر واللمس الجسديّ؛ المفهوم هو ما يخترقه الإنسان بعين العقل، لأنّه ما من جمال جسديّ يقيم في الحال الخارجيّ للجسد، كالصورة أو في حركته كالغناء، لا يقع تحت حكم الروح، وقد يكون عاجزًا عن ذلك لولا أنّ الصورة فيه لم تكن قائمة بشكل ممتاز، بلا مادّة ولا حركة، ولا مساحة زمنيّة أو مكانيّة. ومع ذلك لو لم يكن الشكل ذاته قابلًا للتغيير فما من روح سريع أو بطيء، مثقّف أو أمّيّ، متمرّن أم لا، يستطيع أفضل من آخر أن يحكم على الصور المحسوسة؛ وما من تقدّم يجعله اليوم أحكم منه بالأمس على أنّ ما هو قابل للزيادة أو النقصان هو بدون شكّ قابل للتغيير؛ وأولئك الحكماء المفكّرون والنوابغ الماهرون، هل استنتجوا، بسهولة، أنّ الشكل الممتاز لا يمكنه أن يكون الشكل المقتنع بأن يكون قابلًا للتغيير؟ وإذ

يرون أنّ الأجساد والأرواح موجودة، بشكل أقلّ أو أكثر، حتّى إذا جردت من كلّ شكل، لا يبقى لها وجود، يعترفون بوجود كائن ما يقوم فيه ذاك الشكل الأوّل غير المتغيّر، وتاليًا لا شبيه له البتّة ثمّ يعتقدون، بحقّ، أنّ ذاك الكائن الأسمى، الأصل الذي، صنع كلّ شيء وهو غير مصنوع. وعلى هذا النحو فكلّ ما يمكن أن يعرف عن الله بشكل طبيعيّ قد عرفوه؛ والله كشفه لهم؛ منذ خلق العالم، إنّ عين العقل ترى من خلال مرآة الحقائق المنظورة كمالات الله غير المنظورة وقدرته الأزليّة وألوهيّته». حسبنا ما قلناه في علم الطبيعة أو الفلسفة الطبيعيّة.

٧

أمّا ذاك القسم من العلم الذي يسمّى علم المنطق، فلا نفكّر في أن نشبّه بالأفلاطونيّين، هؤلاء الذين يعزون، إلى الحواسّ، معرفة الحقيقة؛ ويدّعون أنّه يجب أن ننسب إلى تلك القاعدة الخاطئة والخدّاعة كلّ ما نعرف؛ تلك آراء الأبيقوريّين وأمثالهم من الفلاسفة؛ وماذا أقول؟ الرواقيّون أنفسهم المولعون بفنّ الجدليّة يعزونه إلى الحواسّ، وذاك هو، بنظرهم، أصل معاني الروح أو معاني الأشياء التي يشرحونها بالتحديد. ذاك هو المبدأ الذي يعطي قاعدة التعلّم والتعليم؛ غريب هو هذا التصوّر؛ وكيف يوفّقون بينه وبين قولهم المأثور: الحكيم وحده جميل؟ وهل يرون هذا الجمال بالحواس؟ وهل يرون بالعيون اللحميّة بهاء الحكمة وجمالها؟ بيد أنّ هؤلاء الفلاسفة الذين حقّ لهم أن يُفضَّلوا على سواهم عرفوا كيف يميّزون بين ما يكتشفه العقل وما

يتوقّعه الحسّ من دون أن يسلبوا الحواسّ شيئًا من سلطانها ولا أن يعطوها أكثر ممّا لها. أجل لقد اعترفوا بنور الأرواح الذي ينير كلّ شيء، إنّه الله خالق كلّ شيء.

٨

علم الأخلاق سبيل السعادة

يبقى علم الأخلاق (وفي اللغة اليونانيّة L'Ethique) وتُدرس فيه مسألة الخير الأسمى وبه ترتبط كلّ أفعالنا وإليه نسعى؛ حتّى إذا حصلنا عليه سعدنا؛ ولن نعود بحاجة إلى شيء؛ وهو كذلك الهدف المنشود وفي سبيله نعمل جاهدين من دون سواه؛ على أنّ هذا الخير أصل كلّ سعادة، أناس يجعلونه مرتبطًا بالجسد وآخرون بالروح وغيرهم بالروح والجسد معًا. وإذ يرون أنّ الإنسان مركّب من نفس وجسد يظنّون أنّ الواحد أو الآخر أو كليهما معًا، يستطيعان أن يجعلاه سعيدًا، بهذه السعادة التي هي غاية كلّ ما يعمل؛ وبها يتمّ مبتغاه. أمّا الذين أضافوا نوعًا ثالثًا من الخيور المسمّاة خارجيّة، كالشرف والمجد والثروات إلخ.... فلم يرفعوها إلى درجة الخير النهائيّ المنشود لأجل ذاته؛ بل يسعون إليها في سبيل خيرٍ آخر يجعلها خيرًا للصالحين وشرًّا للأشرار. وعلى هذا النحو فإنّ خير الإنسان هذا الذي يربطه بعضهم بالروح وبعضهم الآخر بالجسد وأخيرًا بعضهم يجعله للروح والجسد معًا فكلّهم متّفق على السعي إليه في الإنسان. السعي إليه في الجسد هو سعي إليه في الجزء السفليّ؛ والسعي إليه في الروح هو سعي إليه في الجزء الأعلى؛ أن يطلبه

في الاثنين معًا ففي الإنسان يطلبه؛ وأنّى يفتّش عنه باطلًا يسعى إليه خارجًا عن الإنسان. ثلاثةُ نُظُم للبحث نتج عنها لا ثلاث شيع فلسفيّة فقط، بل عدد كبير من الشيع والآراء، لأنّ الخلافات حول خير الجسد وحول خير الروح أو حول خير الجسد والروح معًا لا تعدّ ولا تحصى. على الجميع أن يقبلوا برأي الفلاسفة القائلين إنّ الإنسان السعيد هو مَن يتمتّع بالله لا كما يتمتّع الإنسان بجسده أو بروحه ولا كما يتمتّع الروح بالجسد أو بذاته أو كما يتمتّع صديق بصديقه بل كما تتمتّع العين بالنور، حتّى إذا كنّا بحاجة إلى مزيد من التوسّع في هذا المجال دعمًا لهذا التشبيه فإنّي لمستعدّ لذلك، بعون الله؛ وحسبنا أن نلاحظ هنا أنّ أفلاطون يضع الخير الأسمى في أن يعيش الإنسان بموجب الفضيلة؛ ويرى أنّ هذه الحياة لا يمكن أن تتحقّق إلّا في الإنسان الذي يعرف الله ويقتدي به؛ وذاك هو الينبوع الوحيد لسعادته؛ ولهذا لا يخاف من أن يقول إنّ الفلسفة تعني محبّة الله ذي الطبيعة الروحيّة؛ وتاليًا فإنّ صديق الحكمة أو الفيلسوف لا يجد السعادة إلّا إذا بدأ يتمتّع بالله. وفي الواقع، وإن لم يكن الإنسان، حتمًا، سعيدًا في سعيه إلى ما يحبّ فهناك كثيرون تعساء لأنّهم يحبّون ما ليس قابلًا للحبّ؛ ويزيدون تعاسة أيضًا لكونهم يتمتّعون به، على أنّه ما من إنسان يسعد إن لم يتمتّع بما يحبّ. إنّ الذين يتمسّكون بما ليس قابلًا للمحبّة لا يجدون أنفسهم سعداء بالمحبّة بل بالتمتّع. وعليه فإنّ الذي يتمتّع بما يحبّ ويحبّ الخير الحقيقيّ والأسمى أليس سعيدًا؟ وإن أنكره أليس فيه ذروة الشقاء؟ إنّ ذاك الخير الأسمى والحقيقيّ هو الله بالذات؛ وهذا ما يقوله أفلاطون كما يريد أيضًا أن يكون في

الفيلسوف حبّ الله؛ لأنّه إن كانت السعادة هي غاية الفلسفة فالتمتّع بالله ومحبّة الله هي السعادة؛ الفلاسفة جميعًا الذين كان شعورهم بأنّ الله الحقّ والسامي هو الخالق ونور العقول وغاية ما يعمل الإنسان، منه أصل الكون وحقيقة التعليم وسعادة الحياة، أن يُدعَوْا أفلاطونيّين أو أن ينتسبوا إلى أيّة شيعة أخرى أيًّا يكن اسمها، أن تكون تلك الآراء المدرسة الإيونيّة على مثال أفلاطون والذين فهموه جيّدًا أو أن يكون بيتاغور وتلاميذه وسواهم ممّن نشروا تلك الآراء في المدارس، أن يعرف هذه الحقائق ويعلّمها حكماء الأمم الغريبة وفلاسفتها في ما بعد الأطلس في ليبيا ومصر والهند وبلاد فارس والكلدان وسيتيا والغول وإسبانيا؛ إنّ هؤلاء الفلاسفة أقول إنّنا نؤثرهم على جميع الآخرين ونعترف بأنّهم قريبون منّا جدًّا.

٩

رأي بولس الرسول بالفلاسفة

لا شكّ في أنّ مسيحيًّا ما يكبّ على درس الكتب المقدّسة قد يجهل اسم الأفلاطونيّين ووجود المدرستين الإيونيّة والإيطاليّة في الأدب اليونانيّ، غير أنّه لا يصمّ أذنيه عن سماع الأمور البشريّة حتّى لا يعرف أنّ الفيلسوف يجاهر بحبّ الحكمة أو بالحكمة عينها؛ على أنّه يحذّر من استناد فلسفتهم على عناصر الكون من دون الارتفاع إلى الله خالق العالم، ويحفظ بأمانة تحذير الرسول: «إحذروا من أن تقعوا في فخاخ الفلسفة التي لا تستند إلّا على عناصر العالم». (٢ كولوسي ٢/٨) علمًا بأنّه لا يشجب

كلّ الفلاسفة لأنّه يسمع ما يقول الرسول في بعضهم: «إنّ ما يمكن أن يعرف عن الله عرفوه لأنّ الله كشفه لهم لأنّه منذ خلق العالم تنظر عين العقل من خلال مرآة الحقائق المنظورة كمالات الله غير المنظورة، قدرته الإلهيّة وألوهيّته». (**رومة** ١/ ١٩) وعندما يتكلّم الرسول إلى الأثينيّين يقول في الله شيئًا هامًّا؛ وقليلون هم الذين سمعوه واستطاعوا أن يفهموه: «فإنّا به نحيا ونحرّك ونوجد، كما قال بعض حكمائكم أيضًا». (**أعمال** ١٧/ ٢٨)؛ لكنّ المسيحيّ يعرف أن يجتنب ضلالهم إذ فيما يعلم الرسول أنّ الله كشف لنور العقل بواسطة حقائقه المنظورة عن كمالاته غير المنظورة يضيف بأنّهم لم يقدّموا لله عبادة صحيحة في حين يقدّمون، إلى أشياء قبيحة، إكرامًا إلهيًّا لا يليق إلّا به من دون سواه: لأنّهم عرفوا الله ولم يمجّدوه ولم يشكروه كإله بل سفهوا في أفكارهم وأظلمت قلوبهم الغبيّة وقد زعموا أنّهم حكماء فصاروا حمقى واستبدلوا مجد الله الذي لا يدركه الفساد بشبه صورة إنسان ذي فساد وطيور وذوات أربع وزحافات إلخ... (روم ١/ ٢١). بهذا الكلام أشار الرسول إلى الرومان والإغريق والمصريّين الذين يتباهون بحكمة باطلة. سوف نناقش هذه المسألة معهم في ما بعد؛ أمّا الحقيقة التي يوافقوننا عليها وهي أنّ الله واحد وخالق، لا جسم له، وفوق كلّ الأجساد؛ لا يعرف الفساد وفوق كلّ النفوس، أصل الإنسان ونوره وخيره؛ إنّ هذه الحقيقة التي اعترفوا بها تضمن لهم، من قبلنا، الأفضليّة على سواهم.

١٠

مناقشة الأفلاطونيين أفضل

إن كان مسيحيّ ما غريبًا عن جوّ الفلاسفة لا يستعمل في نقاشه ألفاظًا يجهلها؛ ولا يعرف أن يعبّر باللفظة اللاتينيّة عن الفلسفة الطبيعيّة أو باللفظة اليونانيّة عن علم الطبيعة (الفيزياء)، وهو القسم من العلم المختصّ بالطبيعة؛ ويقصد بالمنطق أو فنّ التفكير ما تعلّم القاعدة التي توصل إلى الحقيقة؛ ويقصد بعلم الأدب ما يعني تنظيم الأخلاق وطلب الخير الأسمى والهروب من الشرّ؛ وهل هذا يعني أنّه يجهل أنّنا نأخذ من الله الحقّ، الخير الأسمى، الطبيعة التي طبع عليها صورته والتعليم الذي يكشف لنا عن ذاته ويكشف لنا عن ذواتنا والنعمة التي توحّدنا به في سبيل سعادتنا؟ إنّما نفضّل تلاميذ أفلاطون على سائر الفلاسفة الذين وقفوا دروسهم وقواهم العقليّة، بحثًا عن العلل الطبيعيّة والقاعدة والنظم الأخلاقيّة؛ ولكنّ الأفلاطونيّين إذ عرفوا الله اكتشفوا في الوقت عينه المبدأ الذي أسّس الكون والنور الذي يمتّعنا بالحقيقة والينبوع الذي منه ننهل السعادة؛ وسواء أكان الأفلاطونيّون وحدهم قد توصّلوا إلى تلك الفكرة عن الله أم شاركهم فيها فلاسفة آخرون، فشعورهم شعورنا؛ وعليه فإنّي أفضّل أن أناقش معهم لأنّ تعليمهم أشهر من سواه؟ إنّ الإغريق الذين تفوّقوا بلغتهم على سائر لغات الأرض كالوا لهم مدائح رائعة؛ واللاتين الذين تأثّروا بصفائها وشهرتها اعتنقوها من دون سائر اللغات؛ وإذ ترجموها إلى لغتهم زادوها مجدًا وقرّبوها من الشعب.

١١

تقارب أفلاطون في فلسفته مع الإيمان المسيحي

إخوان لنا بالمسيح يتعجّبون حين يعلمون، إمّا بالحديث وإمّا بالمطالعة، أنّ أفلاطون كانت له أفكار عن الله مطابقة لحقيقة ديانتنا؛ وكثيرون ظنّوا أنّه في سفره إلى مصر استمع إلى إرميا النبيّ أو قرأ كتب الأنبياء؛ وأنا بذاتي تكلّمت عن هذا الأمر في كتبي (التعليم المسيحيّ جزء ثان ٢٨-٤٣)؛ غير أنّ البحث العلميّ الأقرب إلى الحقيقة الزمنيّة الذي أجريته برهن لي عن أنّ أفلاطون جاء جيلًا تقريبًا بعد نبوءة إرميا؛ ومنذ وفاته وقد عاش ثمانين عامًا حتّى عهد بطلمايس (Ptolomée) ملك مصر الذي طلب من اليهوديّة كتب الأنبياء فأمر سبعين يهوديًّا ضالعين باليونانيّة أن يفسّروها فوجدوا مسافة زمنيّة تقارب الستّين سنة؛ وهكذا فإنّ أفلاطون لم يستطع أن يرى، لا إرميا الذي قد مات منذ زمن طويل، ولا أن يقرأ الكتب، ولمّا تُنقَلْ إلى اللغة اليونانيّة؛ ولربّما توصّل إلى ذلك، عن شغف منه بالدرس، من خلال اطّلاعه على الكتب، لا عن طريق الترجمة التي لا تصير إلّا بأمر من ملك قدير، بالحسنى أو بالتهديد، بل بواسطة أحاديثه مع مفسّرين لها يهودًا، بفضل ما فطر عليه من ذكاء؛ وما يدعو إلى تبنّي هذا الرأي ما جاء في بداية سفر التكوين: «في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرفّ على وجه المياه». (**تكوين** ١/ ١) وإنّ أفلاطون في كتابه التيمِه (Le Timée) يزعم في حديثه

عن تكوين العالم، هذا العمل الرائع، أنّ الله جمع الأرض والنار معًا. ومن الواضح أنّ النار هنا تعني السماء؛ وهو معنى يتلاءم، إلى حدّ ما، مع كلمة الكتاب المقدّس: «في البدء خلق الله السماء والأرض». ويضيف أفلاطون أنّ الماء والهواء هما الوسيلتان اللتان تربطان بين الطرفين الأكثر تباعدًا الأرض والسماء؛ ومن المرجّح أنّه يشرح هكذا المقطع: «وروح الربّ يرفّ على وجه المياه» مع ما نبديه من توقّف بسيط على المعنى الذي يضفيه الكتاب على عبارة «روح الربّ» إذ إنّ الهواء يعني أيضًا الروح؛ ألا يعتقد يا ترى بأنّ الموضوع هو موضوع العناصر الأربعة؟ يقول في مكان آخر إن الفيلسوف مولع بحبّ الله؛ أوليس الكتاب أيضًا مضطرّمًا بهذا الحبّ؟ وأخيرًا إنّ ما يحملنا على أن نقتنع، إلى حدّ ما، بأنّ الكتب المقدّسة لم تكن مجهولة عند أفلاطون، تلك العلامة الأخيرة، عندما نقل الملاك كلام الله إلى موسى سأله هذا الأخير عن اسم الذي يأمره بالانطلاق إلى خلاص الشعب العبريّ فأجابه: «أنا هو الذي هو؛ وتقول لبني إسرائيل: هو الذي أرسلني إليكم». (**تكوين** ٣/ ١٤) يعني أنّه بالمقارنة مع الذي هو كائن في الحقيقة لأنّه لا يتغيّر فالمخلوقات تتغيّر كما لو لم تكن موجودة. تلك هي قناعة أفلاطون الراسخة وإن كان متمسّكًا حقًّا بنشرها بشكل خاصّ فإنّي أشكّ في وجودها في أيّ كتاب آخر سابق لأفلاطون كما بقراءة شبيهة لها إلّا في الكتاب الذي كُتب فيه: «أنا هو الذي هو»، وتقول لبني اسرائيل: «هو الذي أرسلني إليكم». ولكن حيث أتّخذ تلك الحقائق في الكتب القديمة أو بالأحرى من ذلك النور الذي على حدّ قول الرسول: «لأنّ ما يعلم من الإلهيّات هو واضح فيهم إذ

قد أوضحه الله لهم لأنّ غير منظوراته قد أبصرت منذ خلق العالم بواسطة الحقائق المنظورة أبصرت قدرته الأزليّة وألوهيّته». (رومة ١/١٩) لم يقع اختياري بلا سبب على الأفلاطونيّين من بين جميع الفلاسفة لمناقشة مسألة اللاهوت الطبيعيّ؛ أي إن وجبت عبادة إله واحد أو أكثر في سبيل السعادة ما بعد الحياة الحاضرة. أمّا في سبيل السعادة في الحياة الحاضرة فهل تجب عبادة إله واحد أم أكثر؟ فذاك أمر أشبعته درسًا على ما أظنّ.

١٢

وعليه فقد آثرت الأفلاطونيّين، بصفتهم الفلاسفة الذين كانت لهم، عن الإله الواحد الحقّ، الآراء الأسلم فاكتسبوا بفضل تعليمهم الحكيم الشهرة والمجد، كما اعترف لهم الخلف بهذه الأسبقيّة. إنّ أرسطو، تلميذ أفلاطون، النابغة الواسع الاطّلاع، الذي لم يجار أفلاطون في فصاحته وإن يكن قد جلّى بين الكثيرين، عبثًا أسّس شيعة الفلاسفة المشائين التي اتّخذت اسمها من كونها اعتادت مناقشة المواضيع وهي تمشي؛ وعبثًا جمع خلال حياة معلّمه استنادًا إلى شهرته مستمعين كثيرين؛ وعبثًا بعد موت أفلاطون اجتمع ابن شقيقته سبُوزِيب (Speusippe) وتلميذه العزيز كُزِينوكُرات (Xénocrate) وخلفاه في مدرسته المسمّاة أكاديميا فسمّيا وخلفاءهما أكاديميّين، أشهر فلاسفة عصرنا الذين اتّبعوا أفلاطون يرفضون اسم مشائين واسم أكاديميّين ويمسكون باسم أفلاطونيّين. وأهمّهم بين اليونان أفلوطين وجَمْبِلِيك وبُورْفِير وهنالك أيضًا فيلسوف آخر متضلّع باللغتين اليونانيّة واللاتينيّة

أبُولايُوس الإفريقيّ، غير أنّهم جميعًا بالإضافة إلى خلفائهم وإلى أفلاطون بالذات فكّروا في ضرورة تقديم العبادة إلى عدّة آلهة.

١٣

الخلافات خطيرة

بيننا وبينهم عدّة خلافات خطيرة؛ لكنّي أكتفي بما أشرت إليه آنفًا؛ وهو أمر هامّ لأنّ المشكلة بأسرها منوطة به؛ إنّي أسأل بادئ ذي بدء الأفلاطونيّين أيّ آلهة، بنظرهم، يجب أن نعبد؟ الصالحين أم الأشرار؟ أو الأشرار والصالحين معًا؟ لكنّ شعور أفلاطون معروف: ألا يقول إنّ جميع الآلهة صالحون وليس فيهم واحد شرّير؟ وعليه يجب أن يؤدّى الإكرام للصالحين وهو إكرام الآلهة؛ لأنّهم لو لم يكونوا صالحين لما كانوا آلهة؛ وإن كانت الحال هكذا - وهل يمكننا أن نفكّر في خلاف ذلك بشأن الآلهة كيف يصبح الرأي القائل بوجوب تقديم الذبائح للآلهة الأشرار تهدئة لهم وتداركًا لشرّهم واستجداءً لعون الصالحين بالتضرّع إليهم؟ والأشرار لا وجود لهم. للصالحين وحدهم الإكرام واجب؛ وإذًا فمَن هم هؤلاء الذين يرتضون الألعاب المسرحيّة ويفرضونها من بين الأشياء الإلهيّة والقيام بها في الأعياد الدينيّة؟ عنفهم يدلّ على أنّهم حاضرون؛ غير أنّ عار شهواتهم يدلّ على طبيعتهم الشرّيرة. إنّ أفلاطون يعلن عن رأيه في تلك الألعاب عندما يعلن عن طرد الشعراء من المدينة أصحاب التمثيليّات غير اللائقة بجلال الآلهة الصالحين. مَن هم الآلهة الرافضون رأي أفلاطون الذي يأبى أن تشوّه سمعته بجرائم خياليّة؟ ويطلبون

تمثيل تلك الجرائم في أعيادهم! عندما يأمرون بإقامة الأعياد يؤكّدون شناعة ما يطلبون بذاك العمل الكريه والسافل فيخطفون ابن تِيطُوس لاتِينُوس ويُنزلون به مَرَضًا، قصاصًا له على عصيانه. ولمّا أطاع أعادوا إليه صحّته؛ ولكن أيًّا يكن شرّهم فلا يخشاهم أفلاطون ويتّخذ قرارًا حاسمًا، لا رجوع عنه، وينبذ عن دولة بنيت على الحكمة تسليات الشعراء النجسة التي يرتضي بها آلهة يشاركون في عدّة أمور مخجلة! إنّ لابيون قد رفع أفلاطون كما قلت في الكتاب الثاني إلى مصاف أنصاف الآلة ويزعم أنّ تهدئة غضب الآلهة الأشرار يستلزم ذبائح دمويّة واحتفالات رهيبة وأنّ الصالحين يطلبون ألعابًا وطقوسًا معيّنة تثير الفرح في النفوس. وهل يجرؤ أفلاطون، هذا النصف الإله، أن يحرم أنصاف الآلهة والآلهة أنفسهم تلك المسلّيات لأنّه يعتبرها شائنة!؟؟ وأولئك الآلهة يأخذون على عاتقهم دحض رأي لابيون لأنّ لاتينوس تألّم من شدّة قساوتهم، وليس من المرح في طبعهم. إنّنا نطلب من الأفلاطونيّين هنا أن ينيرونا برأيهم السديد وقد تبنّوا رأي معلّميهم واعتقدوا بأنّ جميع الآلهة هم صالحون وأطهار ومرتبطون بالحكماء بتبادل الفضائل ويشجبون كعمل شائن كلّ رأي مضادّ؛ ويقولون بشرح مستفيض. فلنصغ إليهم بكلّ انتباه.

١٤

آراؤهم متناقضة

ويقولون بوجود ثلاثة أنواع من الكائنات ذوي النفس العاقلة: الآلهة والبشر والشياطين. في المنطقة العليا الآلهة وفي الوسطى

الشياطين وفي السفلى البشر. يسكن الآلهة السماء والبشر الأرض والشياطين الهواء؛ وهذه التراتبيّة في المقام موافقة لتراتبيّة الطبيعة حيث الآلهة أفضل وأسمى بطبيعتهم من البشر والشياطين؛ تحت الآلهة والشياطين البشر؛ وفي الوسط يقيم الشياطين، من دون الآلهة، وفوق البشر الذين يقيمون من دونهم؛ والشياطين يشاركون الآلهة في خلود الجسد ويشاركون البشر في شهوات النفس. ولا عجب، يقول الأفلاطونيّون، أن يجدوا لذّة في خزعبلات الشعراء وسفاهتهم؛ لأنّهم يحسّون بما يحسّ به البشر من عواطف لا يعرفها الآلهة؛ وغريبة عنهم كلّيًا؟ ومن الواضح أنّ أفلاطون عندما يشجب أساطير الشعراء وينبذ الألعاب المسرحيّة فلا يحرّمها على الآلهة الصالحين الطيّبين بل على الشياطين التلذّذ بخرافات الشعراء؛ وذاك هو الرأي الأفلاطونيّ الذي توسّع فيه بوجهٍ خاصّ أبُولايُوس المادوريّ (Apulée de Madaure) الذي ترك في هذا الموضوع كتابه بعنوان «إله سقراط» وفيه يناقش ويشرح فئة الآلهة التي ينتمي إليها الفكر الخاصّ بالفيلسوف، الصديق المحبّ، الذي، كما قيل، كان يبعده عادة عن كلّ عمل ما أمِلَ أن ينجح فيه. إنّ أبولايوس أثبت بوضوح وبشكل قويّ أنّ ذاك ليس إلهًا، بل شيطان، محلّلًا بعناية كلّيّة رأي أفلاطون في سموّ الآلهة وانحطاط البشر واتّخاذ الشياطين منزلة متوسّطة. وإذا كانت الحال على هذا الشكل كيف يجرؤ أفلاطون من خلال نبذه للشعراء أن يحرم من ملذّات المسرح، إن لم يكن الآلهة، الذين يخرجهم عن الاتّصال الدنس بالبشريّة فعلى الأقلّ الشياطين؟؟ ألم يكن كلّ ذلك كي يتعلّم روح الإنسان المثقل بقيود أعضاء الموت هذه، أن يكره الأشياء

الشيطانيّة المخجلة ويحتقر وصاياهم السفيهة ليتبع النور النقيّ الشريف؟ وفي الواقع إن شجبها أفلاطون واستنكرها، بدافع من الكرامة، فهل استطاع الشياطين أن يطلبوها ويفرضوها على الناس بلا عيب ولا خجل؟ ومن ثمّ، فإمّا أن يكون أبولايوس مخدوعًا؛ أو ألا يكون سقراط قد وجد في تلك الطبقة من الأرواح صديقًا، أو أنّ أفلاطون يناقض نفسه تارة بتكريم الشياطين وطورًا بشجب ما يلذّ لهم في دولة تدين بحميد الأخلاق؛ وإمّا ألا يهنأ سقراط بتلك الدالّة الشيطانيّة. وما أشدّ خجل أبولايوس إذ أطلق العنوان «إله سقراط» على تلك المقالة الطويلة والمضنية حول الفرق بين الآلهة والشياطين والتي كان عليه أن يطلق عليها عنوان «شيطان سقراط بدلًا من «إله سقراط» وفضّل أن يكون ذاك التعبير في متن المقالة وليس في العنوان؛ لأنّ نور التعليم المقدّس الذي نزل على البشر يوحي إليهم بخوف شديد من اسم الشياطين بالذات؛ حتّى إنّ كلّ مَن يقع نظره على عنوان «شيطان سقراط» حيث تعظّم طبيعة الآلهة وقبل أن يقرأه لا يصدّق أنّ الكاتب يتمتّع بكامل عقله. وهل يمتدح أبولايوس في الشياطين شيئًا آخر غير رهافة الأجسام وقوّتها؟ أمّا أخلاقهم فحاشى له أن يذكرها بالخير؛ بل يقول فيها السوء الكثير؛ ولا عجب، بعد قراءة ذاك الكتاب، أن يفرضوا التكريس لسفاهات المسرح وقد أرادوا أن يظهروا بمظهر الآلهة، ارتضوا جرائم الآلهة وأظهرت احتفالات أعيادهم المخجلة والبذيئة والفظّة، بوضوح، ما في ميولهم من فوضى؛ وكلّ ذلك يدعو إلى احتقار أعيادهم والتقزّز منها.

١٥

سمّو النفس البشرية

حاشى لنفس تقيّة، حقًّا، وخاضعة للإله الحقيقيّ أن تفكّر بأنّها دون الشياطين، بسبب تفوّقهم الجسديّ؛ وإلّا كان لها أن تعتبر نفسها دون الحيوانات التي تتفوّق علينا برهافة الإحساس وسرعة الحركات وقوّة العضلات! أي إنسان يشبه، بقوّة نظره، النسر والعقاب، وبحاسّة الشمّ، الكلب، وبالسرعة، الأرنب والغزال والعصافير؟ وبالقوّة الأسد والفيل؟ أو يشبه الحيّة بطول العمر وهي كما يقال تتجدّد وتخلع ثوب الشيخوخة مع الثوب الذي تنزعه عنها. وعليه فإن كان العقل والذكاء يرفعاننا فوق جميع هذه الحيوانات، فإنّ حياة شريفة وطاهرة تضمن لنا التفوّق على الشياطين؛ وتعويضًا عن ذلك الامتياز الذي نفحتنا به فإنّ العناية الإلهيّة وهبتهم بعض امتيازات جسديّة؛ وتعلّمنا تاليًا أن نفضّل ذاك الجزء وننمّيه فينا وهو يجعلنا أسمى من الحيوانات ونحتقر ذلك الكمال الجسديّ الذي يتمتّع به الشياطين أيضًا، تعزيزًا للكمال الأدبيّ الذي يجعلنا أسمى من الشياطين؛ وأجسادنا أيضًا ألا يحقّ لها أن تكون خالدة خلودًا يسبقه استحقاقات النفس وليس خلودًا يتبعه العذاب الأبدي؟

أمّا في ما يختصّ بارتفاع مقامهم فالاعتقاد بأنّ الشياطين، سكّان الهواء، أفضل من الإنسان، ساكن الأرض، فيا للسخافة! وإن كان ذاك هو المقياس فالطيور أفضل؛ ولكن، قد يقولون إنّ الطير الذي يتعب من الطيران أو يحتاج إلى غذاء يعود إلى

الأرض طلبًا للراحة والطعام؛ والشياطين بغنى عن هذه الحاجة. وهل يرون أنّ الطير أفضل من الإنسان، والشيطان من الطير؟ يا للحماقة! حذار الاعتقاد بأنّ العنصر الأعلى حيث يقيم الشياطين يعطيهم الحقّ بالإكرام؛ وإن صحّ أنّ طيور الجوّ ليست أفضل منّا نحن سكّان الأرض، بل هي خاضعة لنا لما تمتاز به نفسنا العاقلة، فلا عجب من أن يكون الشياطين أدنى من الإنسان، على ما يتمتّعون به من أجسام هوائيّة وارتفاع الهواء عن الأرض إذ لا وجه للشبه بين يأسهم الأبديّ والرجاء المقدّس الذي للأنفس التقيّة. إنّ النظام والترتيب الذي يقرُّه أفلاطون في العناصر الأربعة إذ يدخل في هذين القطبين المتناقضين حيويّة النار وجمود الأرض، وسطي الماء والهواء، وبقدر ما يكون الهواء فوق الماء والنار فوق الهواء، يكون الماء فوق الأرض؛ وهذا النظام يعلّمنا، بما فيه الكفاية، ألّا نتبع تراتبيّة العناصر في التثمين الأدبيّ للكائنات الحيّة لأنّ أبولايوس نفسه وسائر الآخرين يسمّون الإنسان حيوانًا أرضيًّا أسمى بما لا يحدّ من الحيوانات المائيّة، بالرغم من تفضيل أفلاطون الماء على الأرض؛ وعندما يجب تقييم الكائنات الحيّة، فمن الواضح جدًّا، عدم اعتماد سلّم مُرَقَّم للأجسام، إذ قد يكون في جسم أدنى نفسٌ سُمْيَا وفي جسمٍ أسمى نفسٌ دنيا سافلة.

١٦

إنّ الأفلاطونيّ نفسه في كلامه عن أخلاق الشياطين يزعم أنّ أرواحهم تنقاد إلى كلّ عواصف الشهوات البشريّة؛ فالإهانة تغيظهم

والإكرام والتقدمة تروقهم؛ يهوون التكريم ويرتضون تلك الاحتفالات المتنوّعة حتّى إذا أُلغي شيء منها يغضبون؛ إنّه ينسب، إلى الشياطين، التنبّؤ عن الحظّ وتعبير الأحلام وكلام الآلهة وأيضًا الأعمال السحريّة؛ ثمّ إنّه يحدّد الشياطين بوجيز الكلام فيقول: «حيوانات وَلْهى، لها عقل وجسم يتكوّن من الهواء ووجودها إلى الأبد. «إنّنا نشترك معها في الصفات الثلاث الأولى؛ الرابعة خاصّة بهم والخامسة يشاركون فيها الآلهة؛ ومن بين الثلاث المشتركة بيننا وبينهم اثنتان يشاركون فيها الآلهة؛ ألا يقول أبولايوس إنّ الآلهة أنفسهم هم حيوانات؛ وفي تقسيمه العناصر على الأصناف، ألا يضع، بين الحيوانات الأرضية، الإنسان وكل ما يحيى ويتمتّع بحواسّ فوق الأرض؛ وبين الحيوانات المائيّة السمك وكلّ ما يسبح في المياه ومن حيوانات الهواء الشياطين؟ الآلهة حيوانات سماويّة كما الشياطين من فصيلة الحيوانات؛ وهذا ليس مشتركًا فقط بينهم وبين البشر بل مع الآلهة والحيوانات أيضًا. إنّه لمشترك مع الآلهة والبشر لكونه يتمتّع بنفس عاقلة؛ أمّا الخلود فيشتركون به مع الآلهة فقط؛ ويشاركون البشر في الشهوات: شفافيّة الجسم صفة خاصّة. الانتماء إلى الجنس الحيوانيّ ليس بالنسبة إليهم امتيازًا كبيرًا لأنّ الحيوانات تنتمي إلى هذا الجنس؛ العقل لا يرتفع بهم فوقنا لأنّنا عقلاء. أمّا الخلود إلى الأبد، فهل هو خير، بلا سعادة؟ سعادة في الزمن خير من شقاء إلى الأبد؛ أمّا شهوات النفس فأيّ سموّ فيها؟ ونحن كذلك شهوانيّون؛ وهذا دليل على شقائنا. الجسم الدقيق الشفّاف فماذا نعمل به ما دام أنّ نفسًا ما، أيًّا تكن، أفضل من الأجسام كلّها؟ وعليه فإنّ تكريم الله الذي تؤدّيه النفس

ليس واجبًا عليها تجاه مَن هو أدنى منها؛ لَوْ أنّ أبولايوس عدَّ الحكمة والفضيلة والسعادة منافع مشتركة له مع الآلهة يتمتّع بها إلى الأبد معهم بمثابة آلهة، لكان حظّهم حقًّا موضوع إعجاب وحسد؛ على أنّ عبادتها ليست واجبًا إلّا لله الأحد الذي نعرفه ممجّدًا لهم. ماذا؟ هل تستحقّ حيوانات الجوّ الإكرام الإلهيّ وهي تتمتّع بالعقل لتقدر أن تكون شقيّة والشهوات لتكون في الواقع شقيّة والخلود لتشقى إلى الأبد. غير أنّي أكتفي بالكلام عمّا هو مشترك على حدّ قول أبولايوس، بيننا وبين الشياطين، عنيت بها الشهوات النفسيّة. على أنّ العناصر الأربعة إذا كانت تسكنها الحيوانات الخاصّة بها: النار والهواء للحيوانات التي لا تموت؛ الماء والأرض للحيوانات التي تصير إلى الموت؛ ولِمَ تتحرّك أنفس الشياطين بواسطة عواصف الشهوات؟ لأنّ تلك الاضطرابات الداخليّة ليست سوى ثورات الروح على العقل. ولِمَ تشعر أنفس الشياطين بتلك الثورات التي لا تعرفها الحيوانات؟ وإذا ظهر فيها شيء من ذلك فليست ثورة على العقل لأن لا عقل لها. في النفوس البشريّة، إنّها لجنون وشقاء؛ لأنّنا لم نصل بعد إلى تلك الحكمة المكتملة التي وعدنا بها في آخر الأزمنة عند خروجنا من قيود موتتنا؛ أمّا الآلهة كما يقال المعصومون من تلك الاضطرابات لأنّهم يجمعون بين الخلود والسعادة؛ ويقول الفلاسفة إنّ لهم أرواحًا عاقلة مثلنا إنّما لا تعرف الدنس. ومن ثمّ فإن كان الآلهة لا يعرفون اضطرابات النفس، لكونهم حيوانات طوباويّة، لا يصل إليها أدنى بؤس، إن كانت أيضًا تلك حال الحيوانات لكونها حيوانات لا تتأثّر لا بالسعادة ولا بالشقاء، إذ ذاك يجب أن نستنتج أنّ الشياطين

معرَّضة لتلك الاضطرابات بصفتها حيوانات غريبة عن السعادة ومعدّة للشقاء.

١٧

التناقض بين مواقف الشيطان وما تأمر به الديانة الحقيقيّة

أيّ شذوذ عقليّ أو أيّ جنون يربطنا بسلطان الشياطين، بواسطة قيود دينيّة، في حين تحرّرنا الديانة الحقيقيّة من ذاك الانحراف الخلقيّ الذي يجعلنا أشبه بالشياطين؟ إنّ أبولايوس الذي يكرمهم ويعتبرهم جديرين بما يكرَّم به الآلهة، هو ذاته، يعتبرهم سريعي الغضب، بينما الدين الحقيقيّ يحرم الغضب؛ ماذا أقول؟ إنّه يأمرنا بأن نقاومه. الشياطين يهوَون الهدايا ويقعون في شراكها؛ في حين الديانة الحقيقيّة تأبى أن نبغي المصلحة الخاصّة من خلال عطايانا. يهوى الشياطين كلّ تكريم؛ أمّا الديانة الحقيقيّة فإنّها تطلب منّا ألّا نميل إليها. الشياطين يكرهون أناسًا؛ ويحبّون آخرين؛ لا يدفعهم إلى ذلك الموقف رصانة ورجاحة عقل، بل عاطفة هوجاء في حين تأمرنا الديانة الحقيقيّة بأن نحب أعداءنا. وأخيرًا فإنّ كلّ تلك الاضطرابات القلبيّة وكلّ العذابات النفسيّة وكلّ تلك العواصف التي تضرب نفوس الشياطين وتقلق راحتها، نرى الديانة الحقيقيّة تأمرنا بأن نُسكتها فينا. أيّها الإنسان، هل من سبب لكلّ ذلك سوى الجنون والضلال الذي يُذلّك أمام ذاك الكائن الذي تخجل من أن تتشبّه به! ماذا؟ إنّك لتعبد ذاك الذي تكره أن تتّخذه قدوة لك ومثالًا! أليست الغاية من كلّ دين أن تقتدي بالإله الذي تعبده؟

وعليه، باطلًا يكرمهم أبولايوس ويرفعهم في الهواء بين الأرض والسماء كما يفعل سائر الفلاسفة الذين يشاطرونه آراءه. ما من إله، على حدّ قول أفلاطون، إن كان لنا أن نصدّقه، يختلط بالناس فتحمل الأرواح إلى الآلهة صلوات الناس على أن تعيد إليهم النِعَم التي نالوها، بواسطتهم، من الآلهة. وعلى هذا النحو يبدو أنّ اختلاط الناس بالآلهة، وهؤلاء بالناس، غير لائق، لكنّ اختلاط الشياطين بالناس والآلهة، لكونهم رسل صلاة ونعم، أمرٌ مقبول! وعليه فإنّ الإنسان الصديق الذي لا يتعاطى عمليّات السحر الإجراميّة يتّخذ أولئك الذين يرتضون تلك الجرائم وسطاء بينه وبين الآلهة عندما يظنّ أنّ كراهيته لتلك الجرائم تؤهّله لأن يحظى بعطف الآلهة! فيا لهم من وسطاء هؤلاء الذين يحبّون سفاهات المسارح المنافية للحياء البشريّ، ويهوون أسرار السحر البذيئة التي تأباها البرارة. ماذا؟ إن طلبت البرارة والحياء البشريّ نعمةً من الآلهة أتُبقي طلبهما دون جواب، إن لم يتّخذا شفيعًا لهما أعداءهما!؟ عبثًا يحاول أبولايوس أن يبرّر أساطير الشعراء والمسارح الوقحة. إنّنا نواجه تلك الفظائع بسلطة المعلّم، سلطة أفلاطون، إن تنكّر الشرف البشريّ لنفسه وأحبّ تلك المفاسد، ماذا أقول؟ وقد اعتبرها مقبولة لدى الآلهة؟

ورغبة منّي في القضاء على ما في السحر من عظمة يتباهى بها بعض الناس السيّئي الخلق والحظّ، باسم الشياطين، حسبي أن أستشهد بالنور علانية؛ وفي الواقع إذا كانت المسألة متعلّقة بعمليّات يقوم بها آلهة أهلٌ بالإكرام، فلِمَ كلّ تلك القوانين البشريّة الصارمة؟ وهل المسيحيّون هم الذين وضعوا قوانين ضدّ السحر؟ أليست أبيات الشاعر الكبير شهادة على الشرور التي تلحقها تلك الأعمال بالجنس البشريّ، وفيها يقول: «أستشهد بالآلهة وبك أيّتها الأخت العزيزة وبثمين حياتك وآسف لكوني أتناول بحديثي أسرار السحر القاتمة» (فرجيل، إنييد ٤: ٤٩٢). وفي بيت آخر يقول: «أجل رأيته ينقل الحصاد من حقل إلى حقل» (فيرجيل، *Eglogues* 7). مشيرًا إلى نقل الثروات من أرض إلى أرض أخرى، تحت تأثير التعاليم الخبيثة والكريهة. واللوحات الاثنتا عشرة، وهي أقدم قانون رومانيّ، ألا تُنزِلُ عقابًا قاسيًا، بحسب ما قال شيشرون، بمَن يرتكب ذلك الجرم؟ وهل مثل أبولايوس، نفسه أمام قضاة مسيحيّين لكونه اتّهم بارتكاب ذلك الجرم؟ آه لو أنّه اعتقد ببرارة وقدسيّة تلك الأعمال التي اتّهم بها، وأنّها تتلاءم وما تقوم به القدرة الإلهيّة، لوجب عليه لا أن يعترف بها بل أن يجاهر بها علانية؛ كما وجب عليه أيضًا أن يثور ضدّ قانون يشجب ممارسة ما يحترمه الناس ويعجبون به. وعلى هذا النحو فإمّا أن يقنع قضاته فيمتنعوا عن محاكمته أو أن يظلّوا متمسّكين بقانون ظالم فيطفئوا دفاعاته بدمائه إذ ذاك يقدّم الشياطين الغيارى على شهامته مكافأةً لحياة

...نهم مسيحيّين يضمن لهم الخلاص والمجد في الأبديّة لا ترونهم
...حدون دينهم تجنّبًا لعذاب زمنيّ بل يعترفون علنًا بإيمانهم
...جاهرون به وبه يبشّرون؛ في سبيله يقبلون العذاب، بطيبة
...طر، ويموتون، آمنين، بقداسة؛ وتلك الشرائع التي تدينهم
...سم تخجل منهم فتتغيّر! أمّا ذاك الفيلسوف الأفلاطونيّ فلنا
...خطاب طويل وفصيح؛ حيث يتبرّر من تهمة السحر، بانيًا
...ه على التنصّل من الأعمال التي لا يمكن بريئًا أن يقوم بها.
...الشهرة التي يكتسبها السحرة الذين يظنّهم، جديرين
...جب، فلا تتحقّق إلّا بتعليم الشياطين وتأثيرهم. فلِمَ إذًا،
...ب من الناس أن يكرموهم؟ ولم يُعتبرُ ضروريًّا توسُّطُ مَن
...ب علينا أن نتجنّب أعمالهم لكي يحملوا صلواتنا إلى الآلهة
...ردنا أن تصل صلواتنا إلى الإله الحقيقيّ؟ وإنّي لأسأل ما
...بحسب رأيه، الصلوات البشريّة التي يرفعها الشياطين إلى
...ة الصالحين؟ توسّلات سحريّة؟ بيد أنّ الشياطين يريدون
...؟ صلوات مرضية؟ يريدون وسطاء آخرين. وعليه فإن كان
...يّ الذي يقدّم إلى الآلهة صلواته وتوبته يتّهم نفسه بالسحر
...هو مدين بغفرانه لمَن سهّلوا وقوعه في الجرم، أو دفعوا به
...وماذا! هل يندم الشياطين قبل سواهم، حصولًا على رضى
...ة، لكونهم خدعوهم؟ لم يقل ذلك أحد؛ وهل يجرؤون في
...على المطالبة بإكرام إلهيّ، إن كانوا يسعون من خلال
...إلى أن يكونوا مقبولين؟ من جهة، صَلَفٌ ممقوت، ومن
...خرى، تواضعٌ جديرٌ بالغفران!!

٢٠

ويقال إ... إنّ سببًا قويًّا يفرض وساطة الشياطين بين الناس والآلهة في رسالات ... ت الصلوات والنِعَم. فما هو ذاك السبب؟ وما هي الحاجة إليه؟ السبب ... هو أن لا علاقة مباشرة بين الإنسان وأيّ إله! يا للألوهة النقيّة والقدّوسة! لا علاقة لها بالإنسان الذي يتضرّع، في حين تتّصل بالشيطان المتسلّط! ولا علاقة لها بالإنسان التائب، في حين تتّصل ... بالشيطان الذي يُغري؛ لا علاقة لها بالإنسان الذي يستجديها، ... في حين تتّصل بالشيطان الذي يغتصب الألوهة حقّها! لا علاقة لها ... بالإنسان المستنير بكتب الفلاسفة الذي يطرد الشعراء من ... دولة منظّمة، تنظيمًا حسنًا، ويتعاطى مع الشيطان، ويطلب من ... مجلس الشيوخ والأحبار تمثيليّات مسرحيّة مخزية. إنّ تلك الألوهة ... لا علاقة لها بالإنسان الذيّ يأبى أن تُعزى الجرائم إلى الآلهة؛ ... ثمّ يتّصل بالشيطان ويرتضي تلك الجرائم الخياليّة! لا علاقة لها ... بالإنسان الذي يوجّه عقابًا قانونيًّا عادلًا لجرائم السحرة ويتّصل بالشيطان الذي يعلّم السحر ويمارسه! لا علاقة لها بالإنسان الذي يجتنب أعمال الشيطان، ويتّصل به وينصب فخاخًا للإنسان الضعيف!

٢١

«سخافة ... افة وصفاقة لا بدّ منهما: آلهة السماء الساهرون على أمور البشر قد يجهلون ما يعمله الناس على هذه الأرض لو لم ينبّههم إلى ذلك شياطين ... بين الهواء؛ لأنّ ما يفصل بين السماء والأرض مسافات

تبذل تمجيدًا لأعمالهم. أنظروا شهداءنا؛ عندما يتّهمونهم بذنب ما لكونهم مسيحيّين يضمن لهم الخلاص والمجد في الأبديّة لا ترونهم يجحدون دينهم تجنّبًا لعذاب زمنيّ بل يعترفون علنًا بإيمانهم ويجاهرون به وبه يبشّرون؛ في سبيله يقبلون العذاب، بطيبة خاطر، ويموتون، آمنين، بقداسة؛ وتلك الشرائع التي تدينهم بالاسم تخجل منهم فتتغيّر! أمّا ذاك الفيلسوف الأفلاطونيّ فلنا منه خطاب طويل وفصيح؛ حيث يتبرّر من تهمة السحر، بانيًا برارته على التنصّل من الأعمال التي لا يمكن بريئًا أن يقوم بها. أمّا الشهرة التي يكتسبها السحرة الذين يظنّهم، جديرين بالشجب، فلا تتحقّق إلّا بتعليم الشياطين وتأثيرهم. فلِمَ إذًا، يطلب من الناس أن يكرموهم؟ ولم يُعتبرُ ضروريًّا توسُّطُ مَن يجب علينا أن نتجنّب أعمالهم لكي يحملوا صلواتنا إلى الآلهة إذا أردنا أن تصل صلواتنا إلى الإله الحقيقيّ؟ وإنّي لأسأل ما هي، بحسب رأيه، الصلوات البشريّة التي يرفعها الشياطين إلى الآلهة الصالحين؟ توسّلات سحريّة؟ بيد أنّ الشياطين يريدون غيرها؟ صلوات مرضية؟ يريدون وسطاء آخرين. وعليه فإن كان الخاطئ الذي يقدّم إلى الآلهة صلواته وتوبته يتّهم نفسه بالسحر فهل هو مدين بغفرانه لمَن سهّلوا وقوعه في الجرم، أو دفعوا به إليه؟ وماذا! هل يندم الشياطين قبل سواهم، حصولًا على رضى الخطأة، لكونهم خدعوهم؟ لم يقل ذلك أحد؛ وهل يجرؤون في الواقع على المطالبة بإكرام إلهيّ، إن كانوا يسعون من خلال توبتهم إلى أن يكونوا مقبولين؟ من جهة، صَلَفٌ ممقوت، ومن جهة أخرى، تواضعٌ جديرٌ بالغفران!!

٢٠

ويقال إنّ سببًا قويًّا يفرض وساطة الشياطين بين الناس والآلهة في رسالات الصلوات والنِعَم. فما هو ذاك السبب؟ وما هي الحاجة إليه؟ السبب هو أن لا علاقة مباشرة بين الإنسان وأيّ إله! يا للألوهة النقيّة والقدّوسة! لا علاقة لها بالإنسان الذي يتضرّع، في حين تتّصل بالشيطان المتسلّط! ولا علاقة لها بالإنسان التائب، في حين تتّصل بالشيطان الذي يُغري؛ لا علاقة لها بالإنسان الذي يستجديها، في حين تتّصل بالشيطان الذي يغتصب الألوهة حقّها! لا علاقة لها بالإنسان المستنير بكتب الفلاسفة الذي يطرد الشعراء من دولة منظّمة، تنظيمًا حسنًا، ويتعاطى مع الشيطان، ويطلب من مجلس الشيوخ والأحبار تمثيليّات مسرحيّة مخزية. إنّ تلك الألوهة لا علاقة لها بالإنسان الذيّ يأبى أن تُعزى الجرائم إلى الآلهة؛ ثمّ يتّصل بالشيطان ويرتضي تلك الجرائم الخياليّة! لا علاقة لها بالإنسان الذي يوجّه عقابًا قانونيًّا عادلًا لجرائم السحرة ويتّصل بالشيطان الذي يعلّم السحر ويمارسه! لا علاقة لها بالإنسان الذي يجتنب أعمال الشيطان، ويتّصل به وينصب فخاخًا للإنسان الضعيف!

٢١

«سخافة وصفاقة لا بدّ منهما: آلهة السماء الساهرون على أمور البشر قد يجهلون ما يعمله الناس على هذه الأرض لو لم ينبّههم إلى ذلك شياطين الهواء؛ لأنّ ما يفصل بين السماء والأرض مسافات

وارتفاعات لا حدّ لها، في حين الهواء ملاصق للسماء وللأرض».
يا للحكمة الرائعة! إليكم سرّ تلك الآراء في الآلهة المعروفين بصلاحهم؛ يتصوّرهم الإنسان على اهتمام بالأمور البشريّة، خوفًا من أن يظهروا غير جديرين بما يكرم به الآلهة، فضلًا عن أنّ المسافة القائمة بين العناصر تحجب عنهم معرفة ما يحدث ها هنا، ليجعلوا من وجود الشياطين ضرورة ملحّة، ويعتمدوهم كوسطاء يطلعون الآلهة على أعمال الناس واحتياجاتهم. وإن كان الأمر هكذا فإنّ الشيطان، بحكم قربه الجسديّ، يعرفه الآلهة الصالحون أكثر من معرفتهم بالإنسان من خلال طيبة نفسه. يا لها من ضرورة تدعو إلى الأسف! أو بالأحرى إنّه لضلال سخيف وممقوت يحمي عبثًا الألوهات الباطلة! إن استطاع الآلهة من خلال فكرٍ، حرّ من كلّ قيد جسدي، أن يروا فكرنا فهل يظلّون بحاجة إلى وساطة الشياطين؟ وإن كان الوجه والكلام والحركة وكلّ هذا التعبير الجسديّ الذي للفكر يؤثّر على جسدهم ويتّخذونه وسيلة لفهم إيحاءات الشياطين فإنّ أكاذيب هؤلاء الشياطين قد تفاجئهم أيضًا! وإن استحال على الشيطان أن يغري الألوهة فهل لها أن تتجاهل أعمالنا؟

ولكنّي أسأل هل أخبر الشياطين الآلهة أنّ أفلاطون يشجب تمثيليّات الشعراء التي تعرض على المسارح جرائم الآلهة؟ وهل أخفى الشياطين عن الآلهة ما يجدون من لذّة في تلك الألعاب؟ هل التزموا الصمت وتركوا الآلهة في جهل تامّ لهذا الموضوع؟ أو بالأحرى هل كشفوا معًا حكمة أفلاطون الدينيّة وغبطتهم النجسة؟ أو أخيرًا، هل أخفوا عن الآلهة الحكم الصادر عن أفلاطون ضدّ سلوك الشعراء الإباحيّ، واعترفوا في الوقت عينه

بما فيهم من ميل وجنوح وقح إلى الألعاب التي تنشر مخازي الآلهة؟ وهل كشفوا عنها بلا خجل ولا خوف؟ علينا أن نختار أحد هذه الافتراضات الأربعة؛ وأيًا كان اختيارنا فأيّ رأي سيّئ لا يكون لنا عن أولئك الآلهة الصالحين؟ إن اخترنا الأوّل علينا أن نقول إنّه لم يكن مسموحًا للآلهة الاتّصال بأفلاطون عندما كان يحميهم من الإهانة، في حين كانوا يعيشون مع الشياطين الأثمة الذين يغتبطون لكلّ إهانة تلحق بهم؛ لأنّ الآلهة الصالحين ما كانوا ليعرفوا رجل الخير، المتروك بعيدًا عنهم، إلّا بواسطة الأرواح الشرّيرة الذين لا يعرفونهم بالرغم من تجاورهم لهم. وإن اخترنا الثاني وقلنا إنّ الآلهة يجهلون شريعة أفلاطون الدينيّة وأفراح الشياطين المنتهكة للقدسيّات فما هي المعلومات التي يمكن أن توفّرها للآلهة عن الأمور البشريّة تلك الوساطة الكاذبة عندما تخفي عنهم الشرائع التي وضعها الحكماء الأتقياء ضدّ إباحيّة الأرواح؟ وإن اخترنا الثالث وأجابونا بأنّ الشياطين أعلموا الآلهة بقانون أفلاطون وبخبثهم الخاصّ الذي شجبه ذاك القانون فهل نجد في ذلك رسالة؟ أم إهانة؟ ذاك ما سمعه الآلهة وتعلّموه؛ والشياطين الذين لا يعملون ولا يريدون، سوى ما هو ضدّ جلال الآلهة وتقوى أفلاطون، فإنّهم لا يطردونهم من حضرتهم! ماذا أقول؟ إنّهم يكلون إلى هؤلاء الجيران الأشرار أن يحملوا نِعَمهم بعيدًا إلى ذلك الغريب الفاضل! إنّ سلسلة العناصر هي، تاليًا، رباط لا يمكن حلّه، يقيّدهم بمَن يَنِمُّ عليهم ويفصلهم إلى الأبد عمَّن يدافع عنهم! إنّهم يعرفون كلّ شيء ولكنّهم لا يستطيعون شيئًا ضدّ جاذبيّة الهواء والأرض؛ ولم يبقَ سوى أمر واحد وهو الأسوأ! تمثيليّات الشعراء ومفاسد

المسرحيّات العاهرة؛ كلّ ذلك يكشفه الشياطين أمام الآلهة حتّى هذيان الأفراح وحمّى شهواتهم المضطرمة إلى تلك الألعاب؛ وموقف الفلسفة الشريف الذي تسرّ به إلى أفلاطون ضدّ هذا الموج الطامي من الشرور؛ أجل كلّ ذلك يبقيه الشياطين خفيًا عن الآلهة! ومن خلال هؤلاء الوسطاء يضطرّ الآلهة الصالحون إلى معرفة الفوضى المتمادية في الإجرام وما يعيشه الوسطاء أنفسهم من قلاقل تحطّ من كرامتهم؛ ومن جهة أخرى، فإنّ الخير الذي يصنعه الفلاسفة، الخير الذي يشرّفهم، تبقى معرفته محظورة عليهم!

٢٢

وساطة الشياطين بين الآلهة والناس مرفوضة

وبما أنّه يستحيل التوقّف عند أيّ من هذه الآراء دون أن يكوّن الإنسانُ رأيًا سيّئًا في الآلهة، لذا يجب أن ترفض مزاعم أبولايوس، رفضًا قاطعًا، إضافةً إلى أقوال سائر الفلاسفة الذين يشاطرونه الرأي حول وساطة يقوم بها الشياطين لتبادل الصلوات والنِعَم بين الناس والآلهة. الشياطين أرواح شرّيرة مفطورة على حبّ الأذى، لا تعرف البرّ، منتفخة كِبْرًا وصلفًا، يتأكّلها الحسد وتتقن فنّ الخبث والرياء. صحيح أنّها تقيم في الهواء، عقابًا لها على خيانتها التي لا تعوّض؛ ولمّا طُردت من السماء التصقت ولا تزال بذاك العنصر، كما في سجن شبيهٍ بطبيعتها. وهل استطاعت بسبب فسحة الهواء الممتدّة فوق الأرض والمياه أن تتفوّق على البشر، أدبيًا؟ كلّا؛ لقد تفوّق عليها الناس بشكل لا متناهٍ، لا بفضل الجسد الأرضيّ، بل

بمساعدة الإله الحقيقيّ الذي تجاوب مع قلوبهم التقيّة؛ صحيح أنّ أناسًا غير مؤهّلين للمشاركة في الدين الحقيقيّ، لمّا صاروا عبيدًا أنذالًا بسطوا أيديهم إلى قيود الشياطين وادّعوا الألوهة استنادًا إلى خوارق كاذبة وتنبّؤات باطلة؛ وإذ لم يستطيعوا التغلّب على كفر الذين تأثّروا جدًّا بفسادهم أرادوا أن يكونوا وسطاء لطلبات الأرض ونِعَم السماء؛ غير أنّ أولئك الكفرة المقتنعين بصلاح الآلهة وخبث الشياطين تملّصوا من تقديم الإكرام الواجب للآلهة ولم يجرؤوا على أن يقولوا إنّهم لا يستحقّون الإكرام كيلًا يثيروا غضب الشعوب الخاضعة قسرًا لطقوسهم، عملًا بموجب خرافة قديمة جدًّا.

٢٣

إذا رفَعَ الإنسانُ صُنْعَ يَديه إلى مصافّ الآلهة انحطَّ كثيرًا

إنّ هرمس المصريّ الملقّب بثريسماجِسْتْ (Trismegiste) يفكّر ويكتب عكس ذلك. صحيح أنّ أبولايوس لا يعترف بهم آلهة؛ ولكنّه، عندما يقبل بهم، وسطاء بين البشر والآلهة يجعلهم ضروريّين للناس؛ فإنّه لا يفصل بين طقسهم الدينيّ وعبادة الآلهة. المصريّ يقول: الآلهة نوعان: الإله الأسمى صنع بعضهم والإنسان صنع بعضهم الآخر؛ إن اكتفينا بذاك القول البسيط، حُقّ لنا أن نعتقد بأنّ الموضوع موضوعُ أصنام صنعها الإنسان، بيد أنّ تريسماجست يؤكّد أنّ تلك الأصنام المرئيّة والملموسة تشبه جسم الآلهة وأنّ آلهة تدعى، داخليًّا، لكي تسكن فيه، قادرة على إيقاع الأذى أو على المساهمة في تحقيق

رغبات الذين يقدّمون لها ما يقدّم للآلهة من إكرام. وعلى هذا النحو فإنّ الجمع، بفنّ عجيب، بين تلك الأرواح اللامنظورة ومادّة منظورة وجسديّة، ثمّ استخراج أجسام حيّة من تلك المادّة، هو إلى حدّ ما، على حدّ قول تريسماجيست، خَلْقُ آلهة: إنّه لسلطان عظيم ورائع يعطى للبشر! ولكنّي أريد أن استشهد هنا بأقواله الخاصّة كما نَقِلتْ إلى لغتنا: «ما دمنا نتحدّث عن رُبط المجتمع والميثاق القائمة ما بين الآلهة والبشر، تعلّم، يا أسكولاب، ما هي قدرة الإنسان وامتيازاته، كما هو الربّ والآب، وبكلمة واحدة، الله، هو خالق الآلهة السماويّين، فالإنسان هو الصانع للآلهة الذين يعيشون في المعابد ويرضون بجيرة البشر». (*Asclepius* 23). ويضيف: «وعلى هذا النحو فإنّ البشريّة الأمينة لطبيعتها وأصلها تستمرّ في هذا التمثّل بالألوهة. الآب، الربّ، عمل على مثاله الآلهة الأزليّين وكذلك فإنّ البشريّة صنعت الآلهة على مثال الإنسان. «فيجيبه محدّثه أسكولاب: ألا تتحدّث يا تريسماجست عن التماثيل؟ - أجل يا أسكولاب، أيًّا يكن حذرك ألا ترى هذه التماثيل التي تحيى وتحسّ تعمل هذا العدد من الخوارق؛ تعرف الغيب وتحكي عنه بواسطة الحِيَل السحريّة والمنجّمين والأحلام وتضرّ بالناس بالأمراض ثمّ تشفيهم وتنشر في قلوبهم الفرح والحزن بحسب ما يستحقّون؟ ألا تدري، يا أسكولاب، أنّ مصر هي صورة السماء أو بالأحرى إنّها مرآة لكلّ التحوّلات السماويّة! أجل، لنقل إنّ وطننا هو في الحقيقة هيكل الكون؛ ومع ذلك فكما يحقّ للحكيم أن يستدرك كلّ شيء، فهناك شيء لا يحق لنا أن نجهله؛ وسيأتي يوم ندرك فيه أنّ المصريّين، عبثًا كرّموا الألوهة، بأمانة وإخلاص، وسوف

تبطل احتفالاتهم ويلفّها النسيان». هرمس يتوقّف طويلًا على هذا الموضوع؛ وكأنّي به يتنبّأ عن الزمن الذي سوف تنتزع فيه الديانة المسيحيّة الإنسان من سيطرة الآلهة الذين صنعهم الإنسان، وتعيده إلى الله، خالقه؛ إذ تستقي، من حقيقتها وقداستها، الحرّيّة القادرة على القضاء على أكاذيب الوثنيّة؛ غير أنّ هرمس يحكي في تنبّؤاته بصفته إنسانًا أغوته فخفخة الشياطين؛ ولا يلفظ بوضوح اسم المسيحيّين. وبما أنّه كان يرى اندثار المؤسّسات يرى أن يحتفظ في مصر بمشابهة الإنسان مع الآلهة؛ فإنّ هذه النظرة إلى مستقبل يؤسف له، أضفى على كلماته نبرة من الحزن العميق لأنّه كان ممّن يتكلّم عنهم الرسول قائلًا: «لأنّهم عرفوا الله ولم يمجّدوه ولا شكروه كما ينبغي لله؛ بل تاهوا في آرائهم الباطلة فأظلمت قلوبهم الغبيّة. زعموا أنّهم حكماء، فإذا بهم جهلاء، واستبدلوا مجد الله الخالد بصور تمثّل الإنسان الزائل وطيور وذوات الأربع والزحافات». (روم ١/ ٢١-٢٢). إنّ تريسماجست، في كلامه عن الله الأحد الحقّ، خالق العالم، يستعمل كلامًا مطابقًا للحقيقة. ولست أدري بأيّ قلب غبيٍّ يريد أن يبقى الناس خاضعين دومًا لهؤلاء الآلهة، الذين، بحسب اعترافهم هم من صنع الناس؛ ويأسف لخرابهم المستقبليّ كما لو أنّ أتعس إنسان هو مَن كان أسيرًا لما صنعه شخصيًّا. ماذا أقول؟ إنّ الإنسان عندما يعبد أولئك الآلهة الذين صنعهم يصبح من الأسهل عليه ألّا يكون إنسانًا من أن تصبح تلك الأصنام آلهةً لدى خروجها من يَدَي الإنسان. أجل إنّ الإنسان الذي يفقد المجد والعقل يسقط إلى مستوى الحيوانات قبل أن يرتفع ما صنعه فوق ما صنعه الله وخلقه على مثاله وجعله فوق الإنسان.

وعن حقٍّ، يتخلّى الإنسان عن خالقه عندما يستسلم هو ذاته إلى ما صنعته يداه.

وعلى هذا النحو فإنّ هرمس المصريّ في تأسّفه، مستقبلًا، عن خراب ذاك العدد الكبير من الأباطيل والكفر وانتهاك المقدّسات، لم يكن أقلّ وقاحةً في ألمه، منه جسارةً في علمه؛ لأنّ الروح القدس لم يكن بعد قد أوحى إليه بتلك الأمور كما فعل مع الأنبياء القدّيسين الذين برؤيتهم للمستقبلات كانوا يهتفون بفرح عظيم: «هل يصنع البشر لهم آلهة وهي ليست بآلهة» (إر ١/ ٢٠). وفي محلٍّ آخر يقول بلسان زكريّا: «ويكون في ذلك اليوم، يقول ربُّ الجنود، إنّي أستأصل أسماء الأصنام عن الأرض فلا تذكر من بعد وأزيل الأنبياء أيضًا والروح النجس عن الأرض» (زك ١٣/ ٢). أمّا في ما يختصّ بمصر، فإليكم ما قال النبيّ أشعيا: «تتزلزل أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر في داخلها» (أش ١٩/ ١). ومن بين أولئك الناس الموحى إليهم سيفرح بعضهم ممّا سوف يتحقّق: حنّة وسمعان اللذان عرفا المسيح منذ ولادته وأليصابات التي عرفته بالروح منذ أن حبل به وبطرس الذي أناره الآب هتف قائلًا: «أنت المسيح ابن الله الحيّ» (متّى ١٦/ ١٦). بيد أنّ الأرواح التي كشفت للمصريّ عن زمن فقدان حظوتهم كانت هي ذاتها الأرواح المضطربة القائلة للمسيح في حياته على هذه الأرض: «لماذا أتيت لتعذّبنا قبل الزمان» (متّى ٨/ ٢٩). وتمّ ذلك إمّا لأنّ الحدث الذي كانوا ينتظرونه ظهر لهم فجأةً، إنّما متأخّرًا، وإمّا لأنّ هلاكهم كان بالنسبة إليهم أن يكونوا معروفين ومحتقرين بين الناس. لقد جرى ذلك قبل الزمان، أي قبل يوم الدينونة، الذي فيه سيسلّمون إلى

العذاب الأبديّ مع جميع الناس الذين يسيرون في ركابهم. ذاك هو التعليم الذي تعطيه ديانة ليس لها أن تَغشَّ، ولا أن تُغشّ، بخلاف تامّ مع ذلك الحكيم المزعوم الذي يتقلّب مع كلّ ريح تعليم، ويخلط الحقيقة بالكذب، ويأسف لخراب ديانةٍ في المستقبل، لن يتأخّر عن الاعتراف بأنّها كانت ضلالًا وخداعًا.

٢٤

بعد استطراد طويل عاد إلى ما قاله عن الآلهة الذين صنعهم الناس قائلًا: «كفانا ما قلنا حول هذا الموضوع. لنعد إلى الإنسان وإلى العقل، العطيّة الإلهيّة التي تضمن للإنسان اسم حيوان ناطق؛ وفي الواقع، مهما أذيع، تمجيدًا له، من روائعه التي تفوق كلّ إعجاب، أنّه استطاع أن يخترع ويخلق ألوهة ما، فإنّ الكفر الذي كان يعيشه أجدادنا يتيه في ضلالات أساسيّة حول وجود الآلهة وأوضاعهم، فتركوا عبادة الإله الحقّ وإكرامه؛ وعلى هذا النحو اكتشفوا فنّ صناعة الآلهة؛ ولكي ينشّطوا اختراعهم اقترحوا إقامة ميثاق مع القوّات الطبيعيّة وتمّ الاتّحاد. وإذ عجزوا عن أن يصنعوا نفوسًا استحضروا أرواح الشياطين أو الملائكة ليدخلوها في الرسوم المقدّسة وفي الأسرار الإلهيّة وإعطاء الأصنام القدرة على القيام بالعمل الحسن أو بالأذى. لست أدري هل الشياطين أنفسهم المستحضرون يعترفون بها كما يعترف بها ذاك الرجل. إنّ الكفر الذي كان يعيشه أجدادنا كان تائهًا بين أخطاء جسيمة ومتأصّلة حول وجود الآلهة وأوضاعهم مهملين عبادة الله الحقّ، وما يجب له من إكرام؛ وعلى هذا

النحو وجدوا فنّ خلق آلهة. إنّه لا يقول ببساطة إنّ الضلال قادهم إلى اختراع آلهة ولا يكتفي بأن يسمّيه خطأ بل يسمّيه خطأً متأصّلًا! إنّ هذا الخطأ والضلال واللامبالاة الدينيّة كلّها اختراع هذا الفنّ الذي يصنع آلهة! وهذا هو الفنّ المشؤوم الذي يرجع بأصله إلى الضلال والكفر واللامبالاة؛ وهذه كلّها يأسف الحكيم هرمس لخرابها في الزمن المعيَّن كما لو أنّها ديانة إلهيّة. وفي الحقيقة أليست المشيئة الإلهيّة القديرة هي التي تضطرّه إلى أن يفضح ضلال آبائه القديم كما يرغمه عنف الجحيم على أن يئنّ تحت عذابات الشياطين في المستقبل؟ وأخيرًا إذا كان الضلال والكفر وابتعاد النفس البشريّة عن العبادة والديانة المقدّسة تفنّن في صنع آلهة، فهل من عجبٍ أن تكون كلّ أعمال الفنّ الكريه التي أنجزَتْ كرهًا بالديانة الإلهيّة قد ألغتها الديانة الإلهيّة؟ إنّ الحقّ يشجب الضلال؛ والإيمان يشجب الكفر، والحبّ يشفي من الحقد! لو أنّ هرمس في إعلانه عن اختراع الأقدمين ترك أسبابه مجهولة وانقادوا ببساطة وراء غريزة العدل والتقوى كان علينا أن نفهم أنّ الإنسان، ومن دون أن يبتعد كثيرًا عن الحقيقة، ما كان عليه أن يفكّر بصنع آلهة؛ كلّا ما كان تصوّر ذلك لو لم ينكر دينه وتقواه؛ على أنّنا لو نسبنا ذاك الفنّ في الضلال العميق إلى الحقد والكفر وضياع النفس، غير المؤمنة، وأعداء الحقيقة الوقحين، لربّما كان مقبولًا بعض الشيء. ولكن عندما يتأمّل المرء في قدرة الإنسان على صنع آلهة ويرى، بألم، الزمن الذي فيه سوف يقضى على مصنوعات الإنسان النجسة يقترب تدريجًا؛ أجل، آنذاك، عندما يجاهر علنًا بأصلها الأثيم والكئيب ماذا يبقى علينا أن نقول أو أن نعمل سوى أن نرفع آيات الشكر

الحارّة إلى الربّ إلهنا الذي يلغي تلك العبادة الأثيمة بما يتناقض والدافع إلى إقامتها لأنّ الحقيقة تهدم ما بناه الضلال، والإيمان يقضي على أعمال الكفر، والعودة بقداسة إلى الله، الإله الحقّ، تقضي كلّيًا على العبادة القائمة على الجحود وعلى الكفر بالديانة الحقيقيّة. ولقد حدث ذلك ليس في مصر وحدها حيث الشكوى الوحيدة من أنّ الروح الشيطانيّ كان يوحي إلى هرمس، وفي الأرض بأسرها بحسب ما ورد في كتاب النبوءات المقدّس قائلًا: «رنّموا للربّ ترنيمًا جديدًا ويا جميع الأمم مجّدوا الربّ». (مزمور ٩٥/ ١) وأيضًا هذا هو عنوان المزمور: «بينما كان يبنى البيت بعد الأسر». أجل في كلّ الأرض يبنى بيت الربّ مدينة الله الكنيسة المقدّسة بعد الأسر حيث يئنّ فيأسر الشياطين هؤلاء الناس الذين حرّرهم الإيمان فصاروا اليوم حجارة حيّة في البيت الإلهيّ إذ إنّ الإنسان الذي يصنع أولئك الآلهة كان ملك ما يصنعه؛ وفي عبادته لها أدخل في المجتمع شياطين خبيثة وليست أصنامًا حمقاء. وفي الواقع ما هي هذه الأصنام؟ إنّها أشياء على حدّ قول الكتاب المقدّس «لها عيون ولا تبصر». (مزمور ١١٣/ ٥) وليست سوى أشياء فنّيّة لا تشعر ولا تحسّ! بيد أنّ الأرواح الخبيثة المرتبطة بتلك التماثيل بموجب فنّ مشؤوم وقد ضمّت إلى مجتمعها نفوس عبّادها حوّلتها إلى عبوديّة تعيسة؛ وعليه يقول الرسول: «نعلم إنّ الوثن ليس بشيء ولكن ما يذبح للأوثان إنّما يذبح للشياطين لا، لله وإنّي لا أريد أن تكونوا شركاء للشياطين». (قور ١٠/ ١٩) ومن ثمّ بعد هذا الأسر الذي يبقي فيه شرّ الجحيم الإنسان موثقًا، يرتفع بيت الله على الأرض بأسرها؛ وهذا ما يعطي المزمور عنوانه قائلًا: «رنّموا للربّ

ترنيمًا جديدًا رنّموا للربّ يا جميع الأرض، رنّموا للربّ باركوا اسمه. بشّروا من يوم إلى يوم بخلاصه. حدّثوا في الأمم بمجده في جميع الشعوب بمعجزاته لأنّ الربّ عظيم وكثير الحمد مرهوب فوق جميع الآلهة، لأنّ جميع آلهة الشعوب أصنام والربّ هو صنع السماوات» (مزمور ٩٥: ١-٦). إنّ الذي كان يتوقّع، بحزن، حلول الزمن الذي فيه تُلغى الأصنام ويتهاوى فيه الشياطين من مملكتهم كان يتمنّى بإلهام من الروح الشرّير لو يطول الأسر إلى الأبد؛ والذي كان مفروضًا فيه أن ينتهي على حدّ قول صاحب المزامير ليقوم بيت في كلّ الأرض. ذاك ما كان يبشّر به هرمس باكيًا وما كان يبشّر به النبيّ فرحًا؛ وكما أنّ الروح الذي يعلن عن هذه الأحداث بلسان الأنبياء ينتصر دومًا فقد اضطرّ هرمس ذاته إلى الاعتراف بطريقة عجيبة بأنّ تلك المؤسّسات التي يحزنه أن تخرب في المستقبل ليست صنيعة العقل ولا الإيمان ولا التقوى بل الضلال والكفر والابتعاد عن ديانة الحقّ والكره لها؛ وعندما ينسب هرمس تلك الأصنام التي يسمّيها آلهة إلى أناس لا يجوز لنا أن نتشبّه بهم يبرهن طوعًا أو قسرًا عن موقفٍ رافض لعبادة تلك الأوثان؛ إذ لم يكن من وجه للشبه مع أولئك الأشقياء الذين صنعوها؛ وعليه فإنّه يحرّم عبادتهم على النفوس الحكيمة المؤمنة والمتديّنة؛ ويبيّن أنّ أولئك الذين صنعوا الآلهة عبدوا آلهة مَن ليسوا بآلهة؛ لأنّ كلمة النبيّ القائل حقّ هي: «يصنع البشرُ لهم آلهة وهي ليست بآلهة» (إرميا ١٦/ ٢٠)، في حين يدعو هرمس تلك الصور الدنسة التي صنعتها أيد وسخة آلهةً وقد ربط بينها وبين نزواتهم فنّ غريب، لا نراه يتبنّى على مثال أبولايوس الأفلاطونيّ رأيًا سخيفًا، غير مقبول

بأنّهم يستخدمون وسطاء وشفعاء بين الناس والآلهة وقد خلقهم الإله الواحد؛ يحملون إلى الآلهة صلوات الناس وإلى البشر نِعَم الآلهة إذ إنّه من الحماقة الاعتقاد بأنّ الآلهة الذين صنعهم الإنسان مقبولون عند الله أكثر من الإنسان الذي خلقه الله. مَن هو الإله الذي لا يستطيع الإنسان أن يصنعه إن لم يكن أعمى، كافرًا ومبعدًا عن الإله الحقّ؟ وعليه إن كان الشياطين الذين يعبدون في الهياكل مرتبطين بتلك التماثيل بواسطة بشر توصّلوا إلى أن يصنعوا آلهة بواسطة ما هم عليه من الكفر والابتعاد عن الدين الحقيقيّ؛ وإن كانوا لا يتوسّطون بين الآلهة والبشر لكونهم غير مؤهّلين لتلك المهمّة، بسبب انحطاطهم الأخلاقيّ، ولأنّ الناس أيًّا كان مستواهم يفضّلون على آلهة من صنع أيديهم ينتج عن كلّ ذلك أنّ قدرتهم قدرة شياطين أعداء، مرهوبون، وأصدقاء أشدّ سوءًا من الأصدقاء لأنّ صداقتهم مكر وخداع. إنّهم لا يتمرّسون بتلك القدرة الحسنة أو السيّئة إلّا إذا سمح عدل الله لهم بها، هذا العدل الذي لا يسبر له غور؛ ودون أن يكونوا وسطاء بين الناس والآلهة مستمدّين سلطانهم على البشر من صداقته للآلهة. وهل يمكنهم أن يصادقوا الآلهة الصالحين الذين نسمّيهم الملائكة القدّيسين، المخلوقات العاقلة، سكّان الأماكن السماويّة عروشًا وسيادات ورئاسات وسلاطين (كولوسي ١/ ١٦) الذين ابتعدوا عنهم، المسافة الفاصلة بين الرذيلة والفضيلة، وبين الإثم والبرّ؟

٢٥

الإرادة الصافية الصادقة ترضي الله

٢٥ - ليس لنا أن نتوق إلى استرضاء الآلهة ورعايتهم أو بالأحرى رعاية الملائكة القدّيسين بواسطة الشياطين بل من خلال إرادة صافية صادقة؛ هكذا، وبهذا التوافق الإراديّ، نقيم معهم ونعيش معهم ومعهم نعبد الله الذي يعبدونه، وإن لم نستطع أن نراهم بعين الجسد؛ وليس الفاصل بيننا وبينهم المسافة، ولكن تفاوت في الإرادة، إنّه ضعفنا وشقاؤنا الذي يقيم بيننا وبينهم مسافة أدبيّة وليس جسدنا، أسير ربط اللحم والمسكن الأرضيّ، بل ميلُ قلبنا إلى مفاسد الأرض وحده يقاوم ذلك اللقاء السعيد. وعندما يتمّ شفاؤنا الباطنيّ ويؤهّلنا لأن نصبح مثلهم فإنّ إيماننا يقرّبنا منهم، هذا إذا آمنّا، تحت رعايتهم، أنّ الذي يجعلهم سعداء سوف يجعلنا يومًا ما شركاء لهم في السعادة التي يتمتّعون بها.

٢٦

عندما يتوقّع ذاك الحكيم المصريّ، بألم، مجيء يوم، تتلاشى فيه، من مصر، المؤسّسات التي ينسبها شخصيًّا إلى الضلال والكفر وكراهية الديانة الإلهيّة تصدر عنه الكلمات الرائعة التالية: «حينذاك سوف تكسو الأموات والقبور هذه الأرض المقدّسة بواسطة الهياكل والمذابح التي لا عَدَّ لها» (من كتاب **أسكليبيوس**، *Asclepius* 24) كما لو أنّ الإنسان يتوقّف عن الموت إذا بقيت الأصنام واقفة؛ أو

كأنّه يجب أن يُعطى الأمواتُ مكانًا آخر غير هذه الأرض؛ كما لو أنّ تعاقب الأيّام والأجيال وتكاثر الجنازات لا يزيد من عدد القبور. إليك سبب الألم الذي شعر به: إنّ ذكريات موتانا سوف تبقى بعد زوال الهياكل؛ بيد أنّ الذين يقرأون، مستقبلًا، هذه الصفحات بروح الحقد والإثم سوف يتصوّرون أنّ الوثنيّين كانوا يعبدون آلهة، في هياكلهم؛ ونحن نعبد أمواتًا في قبورهم! إنّ العمى الذي ضرب أولئك الأثمة هو، والحقّ يُقال، عميق، حتّى إنّهم يصطدمون إلى حدٍّ ما بالجبال ويرفضون أن يروا ما يفقأ عيونهم، ولا يحلمون بأن يروا، بين جميع آلهة الآداب الوثنيّة، إلهًا واحدًا، ما كان إنسانًا، ولا يتأخّرون عن تقديم كلّ إكرام إلهيٍّ لهم؛ وكأنْ ليس لهم شيء ممّا للبشريّة. ألم يلحظ فرّون أنّ الأموات كانوا يُسمَّون بأسماء أرواح الموتى؟ ويبرّر هذه الملاحظة بما كان يُقام من احتفالات ولا سيّما الألعاب التي تُقام بمناسبة الجنازات: برهان واضح للألوهة لأنّ الألعاب ما كانت تُقام إلّا إكرامًا للآلهة. إنّ هرمس ذاته في كتابه، حيث يشكو المستقبل، يقول إنّ هذه الأرض المقدّسة بقيام الهياكل والمعابد التي لا عَدَّ لها سوف تصبح مسكنًا للأموات ومقامًا للقبور؛ أليس ذلك دليلًا على أنّ آلهة مصر ليسوا سوى بشر قد ماتوا؟ إنّه يقول بعد هذا المقطع: «إنّ عدم الإيمان، عند أجدادنا، مصدره عدّة أخطاء جسيمة تدور حول وجود الآلهة وأوضاعهم، إذ أهملوا عبادة الله الحقيقيّ والإكرام الواجب له؛ وعلى هذا النحو فقد وجدوا فنّ صناعة الآلهة؛ وتنشيطًا لاختراعهم اقترحوا على القوى الطبيعيّة تحالفًا ملائمًا بينها وبينهم ثمّ تمّ التحالف؛ ولمّا عجزوا عن أن يخلقوا نفوسًا فقد

استلهموا نفوس الشياطين أو الملائكة وأدخلوها في الصور المقدّسة وفي الأسرار الإلهيّة؛ وأعطَوا الأصنام القدرة على عمل الخير أو على الأذيّة». ويضيف متابعًا الدليل على حديثه قائلًا: «إنّ سلفك يا إسكولاب (Esculape) كان أوّل مَن وجد الطبّ فكان له هيكلٌ على جبل ليبيا، المجاور لشاطئ التماسيح، حيث يرقد منه الإنسان الأرضيّ، أي جسده، ما بقي من شخصه، أو بالأحرى شخصه كاملًا، إن كان الإنسان بكامله شعورًا وحياة يرتفع أفضل ممّا عليه إلى السماء؛ اليوم، لاهوته يفيض على الضعف البشريّ انفراجًا كان يحصل عليه في الماضي من خلال علمه» (إسكولاب ٣٧). أيقول هرمس بوضوح إنّ ميتا يُعبد كإله حيث يدفن؟ وإذ يضيف أنّ ذاك الإنسان الذي عاد إلى السماء يتابع معالجة آلام الناس، ألا يكون في الوقت عينه خادعًا ومخدوعًا؟ كما يقول أيضًا: «إنّ هرمس جدّي ذاته الذي أعطوني اسمه ألا يقيم في المدينة التي تحمل اسمه وهؤلاء الذين تراكضوا إليه من كلّ جهة ألا يجدون فيه محاميًا قديرًا؟» إنّ الذي يسمّيه سلفًا له، هرمس هذا العظيم أو مركور، له، كما يقال، قبر في هِرمُوبُولِيس. كانا رجلين إسكولاب ومركور. الإغريق واللاتين متّفقون على إسكولاب، أمّا في ما يختصّ بمركور فكثيرون يرفضون أن يروا في مَن يسمّيه هرمس جدًّا له إنسانًا. كثيرون حملوا اسم مركور من دون أن يكون مشتركًا، في ما بينهم، سوى الاسم؛ ولا هَم إن اختلف الواحد عن الآخر: وهذا الأخير، كما أقرّ حفيده تريسماجست الشهير جدًّا في وطنه، من إنسان أصبح إلهًا؛ ويقول تريسماجست أيضًا إنّ إيزيس زوجة أوزيريس تصنع خيرًا عندما تكون هادئة كما تصنع شرًّا حين تكون غاضبة. ولكي يبيّن

أنّ الآلهة بأسرهم على هذا الشكل، وقد خرجوا من يد فنّان مشؤوم؛ ولا يختلفون عن أولئك الأبالسة، أرواح الموتى التي يزعم بأنّها اتّحدت بالأصنام بواسطة علم كاذب، وكافر، ونجس، يصنع آلهة لكونه عاجزًا عن أن يخلق أرواحًا ويتحدّث عن غضب أولئك الآلهة كما سبق وتحدّث عن انتقامات إيزيس مضيفًا قوله: «إنّ آلهة الأرض والكون يستسلمون بسهولة إلى الغضب لأنّ الإنسان خلقهم بطبيعتين: من نفس وجسد. النفس هي الشيطان والجسد هو التمثال. من أين للمصريّين أن يسمّوهم حيوانات مقدّسة فتكرّم كلّ مدينة كما يكرّم الآلهة نفوس الذين قدّسوها، طوال حياتهم، فتخضع لقوانينهم وتحمل أسماءهم؟ وماذا تصبح شكوى هرمس التي تدعو إلى الأسف عندما يصرخ قائلًا: «إنّ هذه الأرض المحترمة التي تقدّست من خلال الهياكل والمذابح التي لا عدّ لها سوف تمتلئ بالموتى والقبور». وهو أنّ روح الكفر الذي أوحى إليها بتلك النبوءة مضطرّ إلى الاعتراف بلسانها بأنّ مصر هذه عينها كانت مملوءة بالقبور والموتى الذين تعبدهم بمثابة آلهة. هرمس هو الوسيلة التي من خلالها يتحرّك الشياطين فيضطربون أمام العذابات المستقبليّة التي تنتظرهم في ذكريات الشهداء القدّيسين؛ على مقربة من تلك البنايات الشاهقة يعانون العذاب ويقرّون باسمهم ويخرجون من أجساد البشر التي استولوا عليها.

٢٧

الذبيحة تُقدَّم لله وحده

على أنّه ليس لدينا، إكرامًا للشهداء، هياكلُ وأحبارٌ واحتفالات وذبائح؛ لأنّهم ليسوا آلهة لنا؛ وإلههم إلهنا. صحيح أنّنا نحيي ذكراهم كما نحيي ذكرى خدّامٍ لله جاهدوا حتّى الموت بأجسادهم في سبيل الحقيقة ليذيعوا الديانة الحقيقيّة ويدحضوا الخرافة والكذب؛ وهي عواطف كريمة حبسها الخوف في قلوب الحكماء القدماء؛ ولكن هل من مؤمنٍ واحدٍ سمع في حياته أمام المذبح المقام تمجيدًا لله فوق ذخائر شهيد، كاهنًا يهتف قائلًا: إنّي أقدّم لك هذه الذبيحة، يا بطرس، يا بولس، أو يا قرياقوس؟ إنّ هذه الذبيحة لا تقدّم على قبر الشهداء إلّا لله وحده الذي جعلهم بشرًا وشهداء وأشركهم في السماء بمجد الملائكة القدّيسين؛ وهو يقدّم لكي نشكر الإله الحقّ على انتصاراتهم؛ وإذ نحيي ذكراهم نطلب منه العون ليكون الاحتفال بذكراهم حافزًا لنا إلى التشبّه بهم، وصولًا إلى ما هم عليه من مجد وأكاليل؛ وعلى هذا النحو فإنّ كلّ عمل تقويّ يتمّ فوق قبور الشهداء تكريمٌ لذكراهم؛ وليس ذبيحة تقدَّم إلى أموات كما إلى آلهة؛ وأيضًا فإنّ الذين درجوا على عادة تخلّى عنها مؤمنون نيّرون وأصبحت منسيّة، تقريبًا، يحملون أطعمة إلى قبور القدّيسين ثمّ يصلّون ويعودون بها لكي يقتاتوا بها أو لكي يوزّعوها على الفقراء ويعتبرونها تقدّست بواسطة استحقاقات الشهداء باسم سيّد الشهداء. ولكن مَن ذا يجهل أن لا ذبيحة

تقدّم إلى الشهداء إلّا ذبيحة المسيحيّين الوحيدة.

كلّا، نحن لا نكرّم شهداءنا بما يكرَّم به الله؛ ولسنا نمجّدهم بواسطة جرائم بشريّة، كما يكرّم الوثنيّون آلهتهم؛ وليس لنا ذبائح نقدّمها لهم؛ ولا قدّمنا لهم عبادة سافلة. هل لي أن أتحدّث هنا عن إيزيس زوجة أوزيريس إلاهة المصريّين وأسلافهم وجميعهم ملوك على حدّ قولهم؟ وبينما كانت تذبح لهم، وجدت شعيرًا قد استُحصد فقدّمت بعض سنابل منه إلى الملك زوجها وإلى مركور، كاتم سرّه، فخلطوا بينها وبين سيريس. وأيّ شرّ لم تفعله؟ لندعُ الشعراء ولنسأل ما جاء في الكتب القديمة المقدّسة المتوافقة مع ما كشف عنه الكاهن لِيُو (Leo) وأفضى به الإسكندر إلى والدته أولمبياس. فلنسأل تلك العمارات، إن أردنا، وكان لنا مجال للسؤال، ولنفكّر في الناس الذين صنعوهم آلهة؛ وبأيّ أعمال لهم صنعوا لهم عبادة؟! حذارِ أن نقارن بينهم وبين شهدائنا الذين لا نتّخذهم آلهة؛ وما أقمنا لهم كهنة وذبائح إذ لا يليق ولا يسمح بذلك؛ ولأنّ مَن تعدّى على ما يجب لله، دون سواه، يصبح كافرًا؛ لا نسعى من خلال جرائمهم وفي ألعابهم إلى متعةٍ بها يستأنسون، على مثال أولئك الآلهة الذين تكرّمهم الوثنيّة، بواسطة أعمال قبيحة ونجسة صنعوها في حياتهم، ولطّخوا بها ألوهيّتهم إرضاء للشياطين. كلّا، لم يكن لسقراط إلهٌ كذلك الإله لو أنّ له إلهًا. ولكن لربّما صنع فنّانٌ يتقن صنع الآلهة إلهًا وقدّمه إلى سقراط المترفّع عن تلك الخرافة؛ والغريب عن ذاك الفنّ الأثيم! وماذا أقول؟ كلّا؛ لا يجوز إكرام تلك الأرواح بلوغًا إلى الحياة الأبديّة التي تعقب الموت. وهل يظلّ مرتابًا في ذلك إنسانٌ مهما يكن قليل

الإحساس؟ وهل يجيبون؟ جميع الآلهة صالحون وجميع الشياطين ليسوا أشرارًا؛ علينا أن نكرّم الصالحين بلوغًا إلى الحياة السعيدة وهو رأي أشبعه درسًا في الكتاب التالي.

الكتاب التاسع

مقدمة

ضدّ التمييز بين الملائكة الصالحين والأشرار

«لا دخل لأيّ إله في شؤون الناس»: هكذا يقول أفلاطون. إن كان الأمر هكذا، يتبادر إلى الذهن قول أحدهم أبُولايُوس إنّ مهمّة الشياطين تنحصر في الوساطة بين الناس والآلهة. وهذا ما يرفضه أوغسطينس بوضوح؛ بيد أنّ التمييز الذي يقيمونه بين صالحين وأشرار يجعل للصالحين دورًا ما؛ وهذا أيضًا يرفضه أوغسطينس لكونهم، دون الناس قدرًا، لما تعصف بهم من شهوات.

فضلًا عن ذلك فإنّ الأنتروبولوجيا الأفلاطونيّة غير مقبولة بحدّ ذاتها لكونها لا تقبل المشاركة بين مساكن الآلهة العليا ومسكننا الأرضيّ الحقير؛ ولا تدرك أنّ الإنسان مزيج ممّا يصير إلى الموت وممّا هو عقل؛ ولا يفهمون قضيّة الكلمة الإلهيّ الذي صار إنسانًا كما لا يدركون سرّها وكرامة الإنسان.

لقد قبل أوغسطينس أن يناقش مواقف أبولايوس بغية الولوج إلى قلب الوحي الإلهيّ القائل إنّ الله أظهر نفسه للناس وأنّ لنا في المسيح يسوع وسيطًا متواضعًا وحقيقيًّا كما لا يمكن للألوهة الحقيقيّة أن تتلطّخ بما للجسد.

وتستعمل الكتب المقدّسة لغة رمزيّة واستعارات ليست ببعيدة عن الفكر الأفلاطونيّ المفهوم على حقيقته، ولا سيّما عندما تتكلّم عن آلهة تعني بهم ملائكة يخضعون للإله الحقّ الأحد.

١

لا وسيط بين الآلهة الصالحين والناس الطيّبين

أناس يَرون أنّ بين الآلهة صالحين وأشرارًا؛ وآخرون يرونهم أفضل؛ ولا يجرؤون على أن يقولوا إنّ بينهم أشرارًا؛ على أنّ الفئة الأولى تسمّي أيضًا الشياطين آلهة؛ ونادرًا جدًّا ما تطلق اسم شياطين على الآلهة؛ وعلى هذا النحو فإنّ جوبيتر المعروف بالإله السيّد والمعلّم يُسمَّى، بحسب اعترافهم، من قبل هوميروس، شيطانًا. ومن جهة أخرى، فإنّ الذين يقولون إنّ الآلهة هم حتمًا صالحون، بشكلٍ يفوق كلّ صلاح بشريّ، ينزعجون، بحقّ، من أعمال الشياطين؛ فيصعب عليهم أن ينكروا على آلهة معروفين بأنّهم جميعًا صالحون أو أن ينسبوا إليهم ذلك؛ هؤلاء هم مضطرّون إلى التمييز بين الآلهة والشياطين؛ وكلّ ما ينفرون منه في تلك الأعمال والشهوات القبيحة حيث تنكشف قدرة الأرواح اللامنظورة، ينسبونه إلى الشياطين، لا إلى الآلهة. ولكن بحسب رأيهم لا يتدخّل إله في شأن الإنسان في حين أنّ الشياطين يتوسّطون بين البشر والآلهة فيحملون إلى الآلهة صلوات الناس وإلى البشر نِعَم الآلهة. وذاك هو رأي الأفلاطونيّين الأكثر شهرة بين الفلاسفة؛ ومع هذه النخبة النبيلة أحببت أن أناقش هذا الموضوع: إن كانت عبادة عدّة آلهة مفيدة حصولًا على الحياة السعيدة بعد الموت. ولقد درست في الكتاب السابق هل يستطيع هؤلاء الشياطين أن يجدوا لذّتهم في كلّ ما يكرهه ويشجبه كلّ إنسان عاقل كالفحشاء والنجاسة والجرائم التي تضعها مخيّلة

الشعراء على الشياطين وهي كناية عن هجوم جهنّمي يقوم به السحرة إلخ. . أجل أقول: هل يمكن أن يكون هؤلاء الشياطين، بصفتهم أقرب إلى الآلهة وأكثر مودّة إليهم من سواهم، وسطاء بين الآلهة الصالحين والناس الخيّرين؛ وهذا شيء مستحيل كما برهنت عنه سابقًا.

٢

خطر اللجوء إلى مايسمَّون شياطين صالحين

وعليه، وعملًا بالوعد الذي قمت به في نهاية الكتاب السابق، فإنّي مستعدّ، في هذا الكتاب، لأن أدرس الفرق القائم، لا بين الآلهة الصالحين، كما يدّعي الأفلاطونيّون، ولا بين الآلهة والشياطين؛ والمسافة بينهم وبين الإنسان لامتناهية؛ في حين الآخرون موضوعون كوسطاء بين الناس والآلهة. لكنّي أدرس الفرق، هذا إذا وجد، بين الشياطين أنفسهم. هناك على حدّ قول الكثيرين، شياطين صالحون وشياطين أشرار: وهذا هو رأي جماعة أفلاطون وسواها أيضًا وهذا أمر يجب درسه. ألا يُخشى على إنسان استمسك بالشياطين لكونهم صالحين من أن يتوسّطهم، حصولًا على رضى الآلهة الذين يظنّهم صالحين فيتوق إلى العيش معهم بعد الموت، في حين تُوقعه الأرواح الخبيثة في شراكها؛ وينخدع بحيلها ويبتعد شيئًا فشيئًا عن الإله الحقّ الذي به ومعه وفيه تجد النفس البشريّة العاقلة كلّ سعادتها؟

٣

ما الفرق بين الشياطين الصالحين والأشرار؟ عندما يتكلّم أبولايوس بشكل عامّ ومطوّل عن أجسامهم الهوائيّة لا يقول شيئًا عن قِيَم النفس التي قد يتمتّعون بها لو كانوا صالحين؛ ويلتزم الصمت حول علّة سعادتهم، بيد أنّه لا يستطيع أن يخفي سبب شقائهم ويعترف بأنّ فكرهم حيث يجد العقل حاضرًا بدلًا من أن يلقى في عادة الفضيلة الواثقة حاجزًا منيعًا جدًّا، أمام هجمات الشهوات العمياء، يقع تحت ضربات العواصف التي تهبّ من كلّ جهة فتُعكِّر صفو النفوس الحمقاء. إليك ما يقول أبولايوس شخصيًّا: «تعوّد الشعراء أن يتكلّموا عن مثل تلك الفئة من الشياطين؛ ومن دون أن يبتعدوا كثيرًا عن الحقيقة يتظاهرون بأنّ الآلهة، سواء أكانوا يحمون أو يعادون بعض الناس، يرفعون فئة منهم ويرضون عنها؛ ويسفّهون أخرى ويضطهدونها. في الأمر ما يدعو إلى الشفقة والقرف والحزن والفرح؛ وبكلمة واحدة إنّهم يختبرون كلّ ما يتأثّر به الفكر البشريّ بدافع من أمواج مخيّلتهم المضطربة إلى كلّ ما يعانيه القلب من عذاب، وما يعرفه العقل من عواصف واضطرابات؛ على أنّ تلك الاضطرابات والعواصف تبقى بعيدة عن محلّ إقامة الآلهة الهادئ» (أبولايوس: **إله سقراط**). وهل تترك هذه الكلمات مجالًا للشكّ؟ وهل يتعلّق الموضوع بالمناطق السفلى للنفس؟ أليس هذا هو الفكر، فكر الشياطين، الذي يجعلهم كائناتٍ عاقلة؛ والذي تحرّكه كما البحر الهائج عواصف الشهوات؟ ومَن ذا يجرؤ أن يشبّه هؤلاء الشياطين بالإنسان العاقل الذي تخضعه ظروف الحياة

إلى أمثال تلك الاضطرابات النفسيّة التي لا يخلو منها الضعف البشريّ؛ فيقاومها، بعزم ثابت، ولا يسمح بعمل مخالف لسبيل الحكمة وقواعد العدل؟ إنّ التجانس في الأخلاق، من دون الأجسام، يُدخلهم في جماعة البشر الحمقى والظالمين. ماذا أقول؟ إنّهم لأحطّ من أولئك الناس لأنّ ما انطوت عليه نفوسهم من خبث عتيق يعذّبهم ويُسلِمُ عقولهم إلى عذاب الشهوات؛ ولا يأخذون بأيّ قسم من نفوسهم، بالحقيقة والفضيلة التي هي آخر ما يلجأ إليه الإنسان، هربًا من العواصف.

٤

رأيان يتقاسمان الفلاسفة حول نزوات النفس التي يختلف الإغريق والرومان في تسميتها؛ شيشرون يسمّيها اضطرابات وآخرون يسمّونها عواطف؛ وسواهم مثلًا أبولايوس يسمّيها، تجاوبًا مع التسمية الإغريقيّة، شهوات؛ هذه كلّها أيًا تكن تسميتها لا تخلو منها نفس الحكيم؛ فإنّه يروِّضها ويخضعها للعقل؛ فتعترف بأولويّته ويفرض عليها حدودًا عادلة؛ ذاك هو رأي جماعة أفلاطون وأرسطو تلميذ أفلاطون ومؤسّس مدرسة المشّائين. أمّا سواهم كالرواقيّين مثلًا فإنّهم يحرّمون على الشهوات الدخول إلى نفس الحكيم؛ بيد أنّ شيشرون في مقالته عن غاية الخير والشرور يبرهن عن أنّ الخلاف بين فلاسفة الرواق وتلاميذ أفلاطون وأرسطو، قائم على الألفاظ ولا على الأشياء؛ وتفضُّ ملاحظتُه عقدة الخلاف إذ يقول إنّ الرواقيّين يرفضون إعطاء اسم خير لما هو جسديّ وخارجيّ فيحصرون

الخير الوحيد بالفضيلة القائمة على العيش الحسن الباطنيّ. ومن دون أن يتخلّى الآخرون عن بساطة اللغة العاديّة يسمّون خيورًا تلك المنافع التي لا يعتبرونها ذات أهمّيّة كبرى بفضل تلك الفضيلة وهي ممارسة عاديّة للبرّ؛ وينتج عن ذلك رأي واحد بشأن التعابير الدالّة على الخير أو المنافع؛ ويدقّق الرواقيّون هنا في الألفاظ من دون سواها. أمّا ما يُقال عن الحكيم، إن كان عرضة لنزوات النفس، أو غريبًا عنها، فيبدو لي أنّ الرواقيّين لا يثيرون سوى موضوع الألفاظ. أمّا أنا فإنّي أرى أنّ الرواقيّين والمشّائين يتّفقون حول الموضوع ولا يختلفون، برأيي، إلّا في النبرة اللفظيّة.

وتجنّبًا للدخول في سياق طويل من البراهين أكتفي ببرهان واحد قاطع أرويه باختصار نقلًا عن «كتاب الليالي القديمة» لصاحبه أُولُوجِل Aulu-Gelle وهو كاتب نِحرير شيِّق الأسلوب واسعُ الاطّلاع. في يوم من الأيّام كان على سفر مع أحد الفلاسفة الرواقيّين فاكفهرّت السماء وضربت الأمواجُ السفينة، بعنف، فاضطرب لدى رؤيته الخطر المداهم، واصفرّ، ولم يستطع أن يخفي تأثّره عن رفاقه في السفر؛ ومع أنّهم أصبحوا على قاب قوسين من الموت ظلّوا يراقبون حاله، وما إذا كانت نفس الفيلسوف تتأثّر بالخطر أم لا. ولما هدأت العاصفة وعادت الطمأنينة إليهم واستعادوا الحديث بنشاط وحيويّة توجّه أحدهم، وكان رجلًا غنيًا وشهوانيًا من بلاد آسيا، من الفيلسوف، قائلًا له، ممازحًا، يسأله عن سبب خوفه واضطرابه مع أنّه ظلّ هو أمام الموت المداهم رابط الجأش. إذ ذاك أعطاه الجواب الذي تقدّم به أريستيب أحد تلاميذ سقراط من شخصٍ شبيهٍ به، سخر منه، في ظرف مماثل قائلًا: «وممّا تخاف نفس

أحمق في مثل هذا الوقت؟ وليست هي حال نفس أريستيب». ولما انصرف الأسيويّ لدى سماعه الجواب تقدّم أولوجل من الفيلسوف واستوضحه، بقصد التثقّف، سببَ الخوف الذي اعتراه فردَّ الفيلسوف بسرعة على فضول أولوجل وجدّيته في السؤال وأخذ كتابًا لأبيكتيت يتضمّن نصائح زينون وكريزيب وأراه قرار رؤساء الرواق القائل إنّ تخيّلات النفس المعروفة بالخيالات مستقلّة تمامًا عن إرادتنا وعندما تتسبّب بها ظروف رهيبة لا بدّ من أن تتأثّر بها نفس الحكيم وينتابها حتمًا الرعب أو الحزن الذي يفاجئ العقل والإدراك. إنّ هاجس الشرّ لا يداخل النفس التي لا تقبل بالشيء ولا توافق عليه؛ لأنّ الرضى به وحده منوط بها وبهذا الأمر تختلف نفس العاقل عن نفس الأحمق: هذه تستسلم للشهوات وتوافق عليها؛ وتلك، في خضوعها لحتميّة الألم، تظلّ متمسّكة بقرار ثابت وحقيقيّ بغية التمييز بعقلانيّة بين ما يجب أن تسعى إليه وما يجب أن ترفضه. ذاك هو العرض الأقلّ أناقة، لكنّ الأكثر إيجازًا ولربّما الأشدّ وضوحًا من عرض أولوجل لقرارات الرواقيّين التي يقول إنّه اطّلع عليها في كتاب إبيكتيت.

إن كانت تلك هي الحال فلا فرق، أو بالأحرى فالفرق بسيط بين رأي الرواقيّين ورأي سائر الفلاسفة في شهوات النفس واضطراباتها التي يحظّر عليها في كلّ مكان أن تسيطر على عقل الحكيم؛ ويدّعي الرواقيّون أنّها لأعجزُ من أن تسيطر عليها؛ أي أنّها لا تحجب حكمتها بضلالها ولا تشوّهها بآيّة وصمة على أنّها تأتيه؛ ولا تعكّر صفوه الداخليّ في الظروف المسمّاة منافع أو أضرارًا لئلّا نسمّيها خيرًا وشرًّا. بكلّ تأكيد لو أنّ فيلسوفَ أولوجل لم يكترث بما سوف يحرمه منه الغرق أي الحياة

والجسد الذي خاف عليه من عنف العاصفة، أجل لما كان الخطر ألقاه في ذلك الرعب الذي ظهر واضحًا على محياه. ألم يكن باستطاعته أن يتأثّر ويبقى محتفظًا بهذه الفكرة وهي أنّ الحياة وخلاص الجسد من غضب الأمواج العاتية ليسا من الخيرات التي يعتبر امتلاكها كامتلاك البرّ والصلاح الذي يجعل صاحبه صالحًا؟ أمّا أن تسمّى منافع وليست خيرات فذاك لعمري جدلٌ لفظيّ وليس فيه شيء من الجدّيّة. ولا فرق بين تسميتها خيرات أو منافع إن كان خطر خسارتها المداهم يهدّد على السواء بالخوف والاصفرار تلميذ زينون وتلميذ أرسطو وما دام تباين الأسماء يُخفي القضاء عينه؟ إن لم يكن، أمام الاثنين المدفوعين إلى ارتكاب الجريمة، من مجال للهروب منها، سوى التخلّي عن تلك الخيرات أو المنافع، فلا شكّ في أنّهما يختاران هذا السبيل ويتخلّيان عن الحياة وعن خلاص الجسد حفاظًا على البرّ. النفس التي تركن إلى هذا الشعور تستطيع أن تتحمّل اضطرابات في جزئها السفليّ ولا تسمح بأن تسيطر فيها على جزئها الأسمى، أي على العقل. ماذا أقول؟ إنّها تأمرها وترفضها وتقاومها وتضمن سيطرة الفضيلة عليها. هكذا يصف فرجيل إينيه بقوله: «يبقى عقله ثابتًا لا يتزعزع وتذهب دموعه سدًى» (Enée).

٥

الكتاب المقدّس يعلّم الخضوع لله

لست أجد الآن التوسّع ضروريًّا في تعليم الكتاب المقدّس الذي يتضمّن كلّ ما يلزم بشأن الشهوات؛ الكتاب المقدّس يدعو

العقل إلى الخضوع لله، لتوجيهه ورعايته، ويُخضع الشهوات للعقل لكي يضبطها ويروّضها ويجعلها أسيرة البرّ؛ لا يطلب تعليمنا من النفس المتديّنة هل تغضب أم لا ولكنّه يسألها عن علّة غضبها؛ وإن كانت حزينة يسألها عن سبب حزنها وإن كانت مكتئبة يسألها عن سبب اكتئابها. حتّى إذا خافت سُئلت عن سبب خوفها؛ وفي الواقع، أن يغضب الإنسان على الخاطئ، بقصد إصلاحه ويشارك الحزين حزنه بقصد مؤاساته وأن يخاف لمنجاة أخ في خطر فأيّ لوم عليه في نظر ذي الرأي السليم؟ صحيح أنّ الرواقيّين عادة يشجبون الشفقة؛ ولكن ما أشرف الاستسلام إلى الشفقة على حظّ سيّئ، ولا الترثّي لحظّ سيّئ، أمام خطر الغرق. ألا يُعتبر كلام شيشرون أشرف وأقرب إلى الإنسانيّة والتقى في ثنائه على القيصر قائلًا: «لا أروع ولا أحبّ من الرحمة بين فضائلك» (De oratore). أليست الرحمة حنانًا داخليًّا يدفعنا إلى التخفيف من عذاب الآخر، بكلّ ما لدينا من قوّة؟» على أنّ هذا الشعور الباطنيّ يخدم العقل عندما يكون ما يوحي به من إحسان مطابقًا للبرّ في إغاثة المعوز ومسامحة التائب. لا يتردّد شيشرون الخطيب المفوّه في تسمية فضيلة ما لا يخجل الرواقيّون مِن تصنيفه بين الرذائل؛ ومع ذلك فإنّهم يقبلون بتلك النزوات في نفس الحكيم التي لا يمكن لأيّة رذيلة أن تلطّخها، وفقًا لما يعلمه أبيكتيت الشهير، استنادًا إلى مبادئ زينون وكريزيب. ومن ثمّ يستنتج أنّهم لا يعتبرونها رذائل عندما لا يدع الحكيم أيّ مجال لها للتسلّط على قدرة العقل والنفس؛ وتاليًا لا خلاف حقيقيًّا بين تلاميذ أفلاطون وأرسطو وتلاميذ زينون، بل بحسب قول شيشرون، لا يجوز اللجوء إلى حجج

دقيقة جدًّا تعذّب العقل الغارق في السفسطة لهؤلاء الإغريق الذين يعشقون الجدل على حساب الحقيقة؟ على أنّه من المفيد أن يعرف الإنسان هل تلك الحساسيّة في الشعور بممارسة الخير هي إحدى الشقاوات في وضعنا الحاضر؟ ومن جهة أخرى إن عاقب الملائكة القدّيسون بهدوء مَن سلّمتهم الشريعةُ الإلهيّة إلى عدالتهم وآسوا التعساء ونجّوا من الخطر، أحبّاءَ لهم، من دون أن يسيطر عليهم الخوف فيتأثّروا وإن يكن الكلام العاديّ ينسب إليهم العواطف البشريّة، فهذا لا يعني انقيادًا سهلًا إلى الشهوة بل نوعًا من التجانس في العمل. يقول الكتاب إنّ الله يغضب؛ ومع ذلك فما من شهوة تستطيع أن تعرف إليه سبيلًا؛ وهذا تعبير عن نتيجة الانتقام ولا يعني اضطراب النفس بالشهوة.

٦

لندع جانبًا مسألة الملائكة القدّيسين فنرى كيف أنّ الشياطين الوسطاء بين الآلهة والبشر يسبحون وفق أهوائهم المتأثّرة بحسب آراء الأفلاطونيّين؛ وإذا لم ترتفع تلك الاضطرابات حتّى العقل وتركت له السيطرة فهل يصوّر لنا أبولايوس الشياطين محمولين على أمواج مخيّلتهم الهائجة فوق عذابات القلب وعواصف العقل؟ فيهم العقل، الجزء الأسمى في النفس، حيث الذكاء والفضيلة والحكمة، إن كانوا مؤهّلين لها، يفرض الصمت ويضبط جماح الثورات العمياء؛ أجل إنّه الفكر الذي، وفقًا لما يعترف به الفيلسوف الأفلاطونيّ، يرفرف فوق أوقيانوس الشهوات الهائج؛ وعلى هذا النحو فإنّ فكر الشياطين هو أسير

الأطماع بأسرها وكلّ خوف وغضب. وعليه فما هو ذلك الجزء منهم الذي يبقى حرًّا، مالكًا الحكمة، إرضاءً للآلهة في عمل الفضيلة، عندما ينحني فيوحي إلى الناس بأن يتنافسوا سعيًا إلى الفضيلة في حين يبقى فكرهم مشدودًا تحت ضغط الرذيلة إلى إغراء الناس وخداعهم، مندفعًا بحماسة، إلى إنجاح أعماله الخبيثة، يقيّده عنف الحاجة إلى إيقاع الأذى والضرر بالناس؟

٧

لا يتّهم الشعراء جميع الشياطين، بل الأشرار منهم، بالحقد أو العطف على الناس من دون الابتعاد عن الحقيقة؛ وعنهم قال أبولايوس إنّهم يتيهون تحت رحمة عواصف نفوسهم. وعليه كيف يمكن القبول بهذا الجواب، ما دام يعبّر بهذا الشكل عن سائر الأبالسة قائلًا إنّ أجسامهم الهوائيّة تجعلهم وسطاء بين الآلهة والبشر؟ إليك، برأيه، خرافة الشعراء: يصنعون آلهة من عدّة أبالسة ويفرضون عليهم أسماء آلهة؛ ويتخيّلون، بلا حساب ولا عقاب، ثمّ يقسّمونهم على هواهم بين الناس، بمثابة حماة لهم أو أعداء، غير أنّ الآلهة بعيدون جدًّا عن ذلك الضلال الشيطانيّ، من خلال سعادة لهم مكتملة وإقامة تفوق الوصف بروعتها، وعليه فإنّ تسمية آلهةٍ مَن ليسوا بآلهة، بدعة أسطوريّة، أتاها شعراء وأظهروهم بأسماء آلهة يتقاتلون لمصالح بشريّة يتبنّونها؛ وفي سبيل بشرٍ يعادونهم أو يصادقونهم؛ ويضيف بأنّ تلك القصص الخياليّة، ليست بعيدة جدًّا عن الحقيقة، لأنّه بعد أن تُحذَف الأسماء الخاصّة بالآلهة لا يبقى سوى صورة زيتيّة

تمثّل الشياطين؛ تلك هي حال مينرفا في هوميروس فهي تهدّئ غضب آشيل أمام الإغريق المتجمهرين. مينرفا هذه ليست سوى مرحلة شعريّة لأنّ الإلاهة الحقيقيّة تقيم ما بين الآلهة الصالحين السعداء في الأرجاء العليا من الأثير، بعيدًا عن معايشة البشر. أمّا أن يتبنّى شيطان ما قضيّة الإغريق ضدّ الطروادييّن، وأن يدافع آخر عن الطروادييّن ضدّ الإغريق ويقوم تحت اسم مارس أو فنوس الإلهَين الذين يصوّرهما أبولايوس في الأماكن السماويّة في عصمة من تلك الأوهام فإنّ أولئك الشياطين قد يحاربون الحزب الذي يحبّونه؛ ووفقًا لاعتراف الفيلسوف، فتلك خرافة تلامس الحقيقة؛ لأنّ الشعراء لا يتكلّمون مثله إلّا عن الأرواح الشبيهة بالبشر التي تطفو فوق أوقيانوس الشهوات العاصف تحت تأثير الحبّ أو الحقد، لا مجاراةً للبِرّ بل انقيادًا وراء ذلك الغضب الأعمى الذي يقسم الشعب إلى صيّادين وسائقي عربات خيل. وتاليًا ما هي نيّة الفيلسوف الأفلاطونيّ في هذا المجال؟ أوليست نيّته في أن يتدارك غلطةً تَنْسُبُ أعمال الشياطين العاملين فوق المسارح تحت اسم آلهة، لا إلى الشياطين أنفسهم، بل إلى الآلهة بالذات؟

٨

ماذا أقول؟ أنرفض أن نُعير لفتة خاصّة إلى هذا التحديد الذي تُعيره إلى الشياطين؟ ألم يَفهمهم أبولايوس جميعًا بلا استثناء عندما قال عنهم إنّهم حيوانات شهوانيّة عاقلة؛ جسدهم هوائيّ وحياتهم إلى الأبد؟ هل بين هذه الصفات الخمس واحدة مشتركة بين

الشياطين والناس الفضلاء باستثناء الأشرار؟ وفي الواقع بعد أن تكلّم عن آلهة السماء التزم تحديد البشر ليعود بخطابه من طَرَفَيْه، أي الارتفاع اللامتناهي والانحطاط اللامتناهي إلى المنطقة المتوسّطة التي يسكنها الشياطين معبّرًا عن ذلك كما يلي: «الناس إذًا يتمتّعون بالعقل والقدرة على الكلام؛ نفسهم خالدة وجسدهم إلى الفناء؛ أرواحهم خفيفة وقلقة وأعضاؤهم رديئة وقابلة للفساد؛ أخلاق متباينة وأخطاء متشابهة؛ عناد في الجسارة ورجاء لا يُقهَر؛ نشاط عقيم وحظّ هارب؛ الفردُ منهم إلى الموت والجنس يدوم متجدّدًا بموجٍ من الذرّيّات متحرّك؛ حياتهم زائلة وحكمتهم متأخّرة؛ الموتُ يسبقهم وحياتهم كلّها تذمُّر؛ وفي الأرض مسكنهم» (*Du dieu de Socrate* IV, 126). في هذا التحديد الطويل الذي يناسب معظم البشر هل يلتزم الصمت عن هذا الامتياز الذي يعرف أنّه خاصٌّ بعدد قليل عنيت به «تلك الحكمة المتأخّرة»؟ لو أنّه نسي ذلك لنقص شيء هامّ في صحّة تحديده البالغ الأمانة؛ وإذ يبيّن سموّ الآلهة يعزو إليهم حيازة السعادة بشكل سامٍ، تلك التي يحاول البشر الوصول إليها بواسطة الحكمة؛ وعليه فإن كان قد أراد أن يترك للناس مجالًا للاعتقاد بوجود شياطين صالحين لكان احتفظ في تحديده بصفة خاصّة تشركهم إمّا بسعادة الآلهة أو بحكمة الناس؛ غير أنّه لا ينسب إليهم ما يميّز الصالحين عن الأشرار ويمتنع عن الكشف بحرّيّةٍ عن خبثهم، لا خوفًا من أن يكدّر خاطرهم، بل تجنّبًا من أن يجرح سامعيه. ومع ذلك يشير بوضوح إلى ذوي الفهم في ما يجب أن يفكّروا في الشياطين عندما يترك بعيدًا عن طيبة الآلهة وصلاحهم ما يشعر به الشياطين من شهوات عاصفة، بحيث لا

يقبل بشيء مشترك بين الآلهة وتلك الأرواح، سوى ما يُسمّى الخلود الجسديّ. وبكلّ صراحة ووضوح، يعلن أنّ روح الشياطين تندمج مع الآلهة، بل مع البشر، لا من حيث التمتّع بالحكمة التي يمكن الإنسان أن يصل إليها، بل من حيث الشهوات الشقيّة التي تسيطر على الأحمق والشرّير والتي يتغلّب عليها الحكيم والبارّ بثمنٍ غالٍ تفضيلًا للسلام على النصر عينه. وفي الواقع إن أراد أن يعني بذلك الخلود الذي يعتبره مشتركًا بين الآلهة والشياطين، خلود الأرواح لا خلود الأجساد فإنّه لا يستثني هنا البشر. بصفته فيلسوفًا أفلاطونيًّا نجده مؤمنًا إيمانًا لا يخامره ريب بخلود النفس البشريّة. ألم يقل عن الإنسان إنّه كائن ذو نفس خالدة وأعضاء فانية؟ وعليه فإن كانت الميتة الجسديّة تستثني الناس من الاشتراك مع الآلهة بالخلود فإنّ الشياطين يتمتّعون بهذا الامتياز بفضل خلودهم الجسديّ.

٩

مصير النفس والجسد

مَن هم إذًا الوسطاء الضروريّون الذين يستجدون رضى الآلهة على الناس؟ مَن هم هؤلاء الوسطاء بين الآلهة والناس الذين ينحطُّون ليشاركوا الإنسان في ذلك الجزء المشترك والأسمى في الكيان البشريّ، الذي هو النفس ويتسامَوْن فوق الإنسان بالجزء المشترك بينهم وبين الآلهة، أي الجسم؟ وفي الواقع فإنّ الكائن الحيّ مركّب من نفس وجسد؛ واحدٌ منهما يسمو على الآخر؛ ومع أنّ النفس ضعيفة وخليعة لا تزال أفضل من الجسد بكمال

قوّتها وعافيتها؛ لأنّ طبيعتها تضمن لها ذاك التفوّق ولا تستطيع الرذيلة أن تعرّيها منهما؛ وهكذا فإنّ الذهب أثمن من الفضّة أو من الرصاص وأنقى. وهؤلاء الوسطاء بين الآلهة والناس، بحيث إنّ وساطتهم تشكّل عقدة الوصل بين الإلهيّ والبشر، يشاطرون الآلهة خلود الجسد ويشاطرون الناس عيوب الروح؛ وكأنّ الديانة التي تجمع بين الناس والأبالسة بواسطة الشياطين تكمن في الجسد لا في الروح. أي خبث أو عقاب يبقي هؤلاء الوسطاء الكذبة والأشرار وكأنّهم معلّقون ورأسهم إلى تحت: الجزء السفليّ من كيانهم أي الجسد ملتزم الطبيعات العليا والجزء الأعلى أي النفس ملتزم الطبيعات السفلى؛ إنّهم متّحدون بآلهة السماء بواسطة الجزء الذي يطيع ومع الإنسان الأرضيّ بواسطة الجزء الذي يأمر لأنّ الجسد عبد. يقول سلّستس «على الروح أن يأمر وعلى الجسد أن يطيع... بأحدهما نشارك الآلهة وبالآخر الحيوانات»، في حين يتكلّم عن البشر ذوي جسد يسير إلى الفناء. وإنّ الكائنات التي تعطينا الفلسفة إياها، بمثابة وسطاء بيننا وبين الآلهة، تستطيع أن تقول أيضًا بشأن روحها وجسدها: بأحدهما نشترك مع الآلهة وبالآخر مع البشر؛ ولكن بصفتها موثقة وكأنّها معلّقة فالذي تشارك فيه الآلهة السعداء هو هذا الجسد العبد والذي تشارك فيه الناس الأشقياء هو هذه النفس السامية: مرتفعون في الجزء الأسفل ومدلّون رأسًا على عقب في الجزء الأعلى!! ينسب إليهم الخلود مع الآلهة لكونهم غير مرتبطين كالحيوانات الأرضيّة بشريعة الموت التي تحطّم عقدة الأجساد والنفس؛ ولكن يجب أن يكون معلومًا أنّ الجسد بالنسبة إليهم عربة النصر الأبديّ، بل القيد الأبديّ لعذابهم.

١٠

رأي أفلوطين في مصير النفس البشرية

إنّ أفلوطين الفيلسوف الحديث العهد المعروف باطّلاعه الواسع على تعليم أفلاطون يقول: «إنّ الآب برحمة منه في كلامه عن النفس البشريّة جعل لها ربطًا تزول». إنّ موت الجسد يشهد لرحمة الاب تجاه الناس إذ أبى أن يربطهم إلى الأبد بشقاء هذه الحياة واعتبر الشياطين غير جديرين بهذه الرأفة؛ وبالرغم من كلّ شقاوة الإنسان وما به من شهوات، لم يكن للشياطين جسد شبيه بجسده، صائر إلى الموت، بل جسد لا يموت. وفي الواقع على الإنسان أن يحسد الشياطين على سعادتهم لو كانوا يشتركون معه في ميتة الجسد ومع الآلهة في سعادة النفس؛ أمّا الشياطين فليس لهم أن يغاروا من الإنسان إن كانت نفسهم في شقائها استوجبت أن تنال جسدًا يصير إلى الموت، شرط أن تستريح من عذابها بالموت، استنادًا إلى شعور نهائيّ بالرأفة؛ ولكن شتّان ما بين سعادتهم وسعادة البشر، الرازحين تحت كلّ التعاسات الأخلاقيّة، فإنّهم يبقون أكثر منهم، شقاءً، لأنّ أبديّة أجسادهم تجعل أسرهم مؤبّدًا ولا يمكن الافتراض أنّ عودةً باطنيّة أو أيّ تقدّم في معرفة الحكمة يرفعهم إلى مصافّ الآلهة؛ ألم يقل أبولايوس بوضوح أنّ وضع الشياطين أبديّ؟

١١

ويضيف قائلًا: صحيح أنّ النفوس البشريّة هي شياطين؛ وأنّ البشر يصيرون آلهة يتولّون حراسة المنازل إذا كانوا فضلاء؛ أمّا إذا كانوا أشرارًا صاروا أشباحًا؛ وعندما يجهل الإنسان هل هم صالحون أم أشرار يُسمّون آلهة، أرواح موتى. يفتح هذا الاعتقاد هوّةً، في الفساد، سحيقة!! ومَن لا يرى ذلك بلمحة بصر؟ ألا يزداد شرّ الناس، بما فيهم من شهوة للأذى، إذا ما تصوّروا أنّهم سيصبحون يومًا ما آلهة أرواح موتى؟ وماذا أقول؟ إن اعتقدوا بأنّهم سوف ينالون بعد الموت ذبائح وإكرامًا إلهيًّا، دفعًا بهم إلى الأذى! إنّ أبولايوس يقول بأنّ آلهة المنازل سوف يتحوّلون إلى شياطين شرّيرة؛ ولهذا يقول أيضًا عن الإغريق إنّهم سمّوا الطوباويّين أرواحًا صالحة أو شياطين صالحين معترفًا، من جديد، بأنّ نفوس البشر هي أيضًا شياطين.

١٢

رأي ابولايوس في الكائنات العليا والسفلى

نتكلّم الآن فقط عن الشياطين الذين حدّد أبولايوس طبيعتهم الخاصّة كوسطاء بين الآلهة والناس، حيوانات عاقلة، شهوانيّون، هوائيّون، خالدون، لأنّه بعد أن وضع بين الآلهة والبشر المسافة اللامتناهية الفاصلة بين طبيعتهم ومكان إقامتهم من علوّ السماء وانخفاض الأرض وصل إلى النتيجة التالية: «لديكم نوعان من الكائنات الحيّة؛ الناس والآلهة المختلفون جدًّا عن البشر بسموّ

مقامهم وديمومة حياتهم وكمال طبيعتهم؛ لا اتّصال قريب بيننا وبينهم؛ بين محلّ إقامتهم السامي ومسكننا الحقير هوّة سحيقة؛ فوق حيويّةٌ مستمرّةٌ لا تنفد؛ وهنا حياةٌ هاربة وسريعة العطب؛ أرواح الآلهة ترتفع إلى ذروة السعادة وأرواح البشر تزحف في بؤس عميق. «تلك هي الصفات الثلاث المتناقضة في الطبيعتين المتباعدتين جدًّا بين السميا والسفلى. ويُبرز الميزات الثلاث الفضلى التي ينسبها إلى الآلهة مقابل الثلاث المتدنّية التي يشير إليها في البشر. للآلهة سموّ المقام والحضور الأبديّ وكمال الطبيعة. ويقابلها في المصير البشريّ الحياة الهاربة والسريعة العطب ومقابل سموّ الأرواح الإلهيّة انسحاق الفكر البشريّ في لجج الشقاء. وعلى هذا النحو فإنّ المقام الأرضيّ والشرّ والموت مقابل الكمالات الثلاثة الإلهيّة أي السموّ والأبديّة والسعادة.

١٣

الشياطين كائنات شريرة تعيش إلى الأبد

بين هذين النظامين في الصفات المتناقضة التي تفصل بين الآلهة والبشر كيف نصنّف الشياطين؟ لا نجد في بداية الأمر أيّة صعوبة في معرفة مكان إقامتهم، طال ما أنّ أبولايوس يعيّن لهم مكانًا بين الاثنين، إذ إنّ الوسط بين هذين الطرفين من السموّ والانخفاض يفرض ذاته حتمًا؛ إنّما تبقى مناسبتان تتطلّبان فحصًا دقيقًا. هل هما غريبتان عن الشياطين؟ أو كيف يمكننا أن ننسبهما إليهم دون أن ننال من وساطتهما؟ وعليه فلا يمكنهما أن

تكونا غريبتين. وفي الواقع إن حدّدنا الوسط بما ليس فوق وليس تحت فلا يمكننا إذ ذاك أن نقول عن الشياطين وهم حيوانات عاقلة ليسوا سعداء ولا تعساء على مثال النباتات أو الحيوانات العجماء التي لا عقل لها ولا شعور لأنّه من الضروريّ أن تكون النفس العاقلة إمّا سعيدة أو تعيسة. ومن المستحيل كذلك أن نقول إنّ الشياطين لا يموتون ولا يخلدون لأنّ كلّ كائن حيّ إمّا أن يحيا إلى الأبد وإمّا أن يموت؛ وبنظر أبولايوس، الشياطين خالدون. وتاليًا، ماذا يبقى سوى أنّهم يتوسّطون الطرفين ويملكون إحدى الصفات السامية وواحدة من السفلى؟ إذا اختصّت بهم صفة من النظام الأعلى وأخرى من النظام الأسفل فلن يعودوا مستمسكين بالوسط بل ينتسبون إذ ذاك إلى هذا الطرف أو ذاك. ولكنّنا برهننا أنّه من المستحيل ألّا تكون لهم معًا هاتان الصفتان؛ بل يجب أن تكون لهم واحدة من كلّ جانب لكي يحتفظوا بمقام الوسط؛ بيد أنّ الطرف السفليّ لا يؤمّن لهم الأبديّة التي لا يملكها، فيأخذونها من الطرف الأعلى؛ ولكي يجعلوا وساطتهم كاملة يبقى عليهم أن يأخذوا من الطرف الأسفل الشقاء. وعلى هذا النحوِ بحسب رأي الأفلاطونيّين تعود إلى الآلهة، سكّان السماء، الأبديّة السعيدة، أو السعادة الأبديّة، وإلى البشر المقيمين في هذا المكان السفليّ من الكون شقاء إلى الموت أو ميتة شقيّة. وإلى الشياطين القائمين في الوسط أبديّةٌ شقيّة أو شقاءٌ أبديّ. أمّا الصفات الخمس التي يصفهم بها أبولايوس في تحديده فلا تجعل بحسب وعده وساطةً للشياطين بين الآلهة والناس؛ لأنّه يرسم لهم صفات ثلاث مشتركة معنا: الطبيعة الحيوانيّة والفكر العقلانيّ والنفس الشهوانيّة وواحدة فقط

يشاركون فيها الآلهة وهي الأبديّة؛ لهم واحدة يمتازون بها على سواهم وهي الدقّة الهوائيّة لأجسادهم. وعليه كيف لهم أن يحتفظوا بالوسط إن لم يكن لهم سوى اتّصال واحد بالكائنات السامية وثلاثة بالكائنات الدنيا؟ ومَن ذا لا يرى كيف يبتعدون عن الوسط ويميلون إلى الأسفل؟ على أنّ تلك الوساطة تبقى قائمة إذا قلنا بواحدة خاصّة بهم من تلك الصفات وهو الجسم الهوائيّ كما هو الجسم السماويّ خاصّ بالآلهة في الطرفين المتناقضين والجسم الأرضيّ خاصّ بالبشر وللجميع أن يملكوا النفس والعقل. ألا يقول أبولايوس في حديثه عن الآلهة والبشر: «عندكم نوعان من الكائنات الحيّة؟» ولا يقدّم الأفلاطونيّون الآلهة إلّا كأرواح عاقلة؛ وعليه تبقى صفتان: الشهوة والأبديّة: الواحدة مشتركة بينهم وبين الكائنات التي تنتمي إلى النظام السفليّ والأخرى مشتركة بينهم وبين مَن هم من النظام العلويّ وهكذا تبقى حالهم وسطيّة في اتّزان عادل بين الأعلى والأسفل؛ ذاك هو مصير الشياطين قائم على أبديّة شقيّة أو شقاء أبديّ لأنّ الفيلسوف يصرّح بأنّ طبيعتهم الشهوانيّة قد رسمت لهم الشقاء نصيبًا لولا خجله ممَّن يعبدونهم. واستنادًا إلى ما اعترف به الأفلاطونيّون أنفسهم، وحدها العناية الإلهيّة تدير شؤون الكون؛ ولا مجال للحظّ؛ ولولا الخبثُ المتأصّل في الشياطين، لما كانوا على شقاء إلى الأبد.

إن صحّت تسمية الطوباويّين طلّابَ سعادة، فليس الشياطين الوسطاء بين الآلهة والبشر من هذا النوع. وأيُّ مقام إذًا لهؤلاء الشياطين الصالحين الذين هم دون الآلهة وفوق البشر، يقدّمون لهؤلاء المساعدة ولأولئك الخدمة؟ إن كانوا صالحين وخالدين

فهم بكلّ تأكيد سعداء على أنّ السعادة الأبديّة تقصيهم عن الوسط؛ وبقدر ما تقرّبهم من الآلهة تبعدهم عن البشر؛ وعبثًا يسعون إلى التوفيق بين سعادة الشياطين وخلودهم ووضعهم الوسطيّ بين الآلهة الخالدين السعداء والبشر التعساء الصائرين إلى الموت؛ وإن كانوا مع الآلهة يشتركون في السعادة والخلود وهما صفتان لا يتمتّع بهما الإنسان، المعدّ للشقاء وللموت؛ أليس من الأصحّ فصلهم عن الإنسان وجمعهم إلى الآلهة من أن نعطيهم مقامًا متوسّطًا بين الآلهة والإنسان؟ قد يكون ذلك أفضل لهم لو أنّهم تجاوبوا مع هذا الجانب وذاك ليس مع هذا أو ذاك؛ وعلى هذا النحو فإنّ الإنسان هو بمثابة نقطة وسط بين الحيوان والملاك؛ الحيوان كائن حيّ؛ ولا عقل له ويصير إلى الموت. والملاك كائن حيّ عاقل لا يموت؛ والإنسان بينَ بينَ، حيوانٌ عاقل دون الملاك وأسمى من الحيوان يشارك هذا في الموت ويشارك ذلك في العقل؛ إنّه بكلمة واحدة حيوان ناطق صائر إلى الموت. وعليه في بحثنا عن وسطٍ بين السعداءِ الخالدين والأشقياء الصائرين إلى الموت يجب علينا أن نجد إمّا مائتًا سعيدًا أو غير مائت شقيّ.

١٤

تساؤل عن مصير الانسان

ولكن هل يمكن الإنسان أن يكون سعيدًا وصائرًا إلى الموت؟ إنّه لسؤال كبير مطروح على الناس. بعضهم ينظر ببساطة إلى وضعه وينكر على الإنسان إمكانيّة السعادة ما دام يعيش لكي يموت؛

وبعضهم الآخر يتباهى فيتجرّأ ويقول إنّ الحكيم يستطيع أن يبلغ السعادة، وإن يكنْ صائرًا إلى الموت؛ إن كان الأمر هكذا، فلِمَ لا نرفعه إلى مصافّ الوسيط بين الكائنات التعساء والسعداء الخالدين هو الذي يشترك مع بعضهم بالسعادة ومع بعضهم الآخر بالموت!؟ إن كان سعيدًا فلا يحسد أحدًا؛ (وفي الواقع هل أتعس من الحسد؟)؛ ويساعد بقواه المائتين التعساء إلى الارتفاع حتّى السعادة لينالوا بعد الموت الحياة الأبديّة في اتّحاد مقدّس مع الملائكة السعداء والخالدين.

١٥

المسيح كائنٌ ضروري لإخراج الناس من شقاء الموت إلى خلود السعادة

إن كان الرأي الأرجح والموثوق به يقول إنّ الناس هم حتمًا تعساء؛ لكونهم صائرين إلى الموت، فيجب البحث عن وسيط ما، ليسَ إنسانًا وحسب، بل إله يُخرِجُ الناس من شقاءٍ لهم مميت، بدخوله في ميتة سعيدة ويسير بهم إلى الخلود السعيد؛ على أنّ هذا الوسيط لا يجوز أن يكون معصومًا من الموت؛ ولا أن يبقى إلى الأبد أسيرًا له. قبل الموت من دون أن يبطل ألوهيّة الكلمة بل تزوّج ضعف البشر لأنّه لم يبقَ صائرًا إلى الموت في جسده الذي أقامه من بين الأموات؛ وثمرة الوساطة هي أنّ الذين عمِل على خلاصهم لا يبقون إلى الأبد في موت الجسد؛ وكان على هذا الوسيط بيننا وبين الله أن يجمع في ذاته ميتةً إلى زمن وسعادةً إلى الأبد، ليكون مائتًا مع المائتين في ما يزول ويدعوهم من هوّة

الموت إلى ما يدوم. الملائكة الصالحون لا يستطيعون أن يكونوا في الوسط بين المائتين التعساء والسعداء الخالدين لأنّهم سعداء وغير صائرين إلى الموت؛ أمّا الملائكة الأشرار فيستطيعون لأنّهم خالدون مع بعضهم وتعساء مع بعضهم الآخر. عدوّهم هو الوسيط الصالح الذي يواجه ميتتهم وشقاءهم بميتته إلى زمن؛ واستمرار سعادته إلى الأبد؛ متكبّرون لا يموتون ومجرمون أشقياء يجعل بذخ خلودهم عاجزًا عن أن يغري؛ وبواسطة موته الذليل وسعادته السخيّة يقضي على مملكتهم في القلوب التي ينقّيها الإيمان به ويخلّصها من استبداد الأبالسة القذر.

شقيّ وصائر إلى الموت، منسيٌّ بعيدًا عن الخالدين والسعداء؛ أي وسيط يختار الإنسان ليرتبط مرّة أخرى بالخلود والسعادة؟ ما يمكن أن يرضى به في خلود الشياطين ليس سوى شقاء؛ ما يمكن أن يزعجه في موت المسيح لم يعد قائمًا. هناك شقاء أبديّ يجب أن يتحاشاه؛ وهنا موت ليس له أن يخشاه؛ لأنّه زائل يليه سعادة محبَّبة لأنّها أبديّة. أمّا الشقيّ الخالد فلا يتدخّل إلّا لكي يسدّ لنا الطريق إلى الخلود السعيد والحاجز الذي يواجهنا به أبديّ؛ إنّه شقاؤه عينه؛ المائت السعيد جعل ذاته وسيطًا وتحمّل تجربة الموت ليهب المائتين عدم الموت (قيامته برهان على ذلك) ويمنح الأشقياء السعادة التي ظلّت ملازمة له؛ وعليه نجد وسيطًا خبيثًا يفرّق بين الأصدقاء وصالحًا يصالح بين الأعداء؛ فالوسطاء الذين يفرّقون كثيرون؛ لأنّ الكثرة السعيدة لا تنهل سعادتها إلّا من اتّحادها بإله واحد؛ والكثرة الشقيّة للملائكة الأشرار تقف حاجزًا ولا تتدخّل للمساعدة؛ إنّها لأشبه بفرق نحل شرّير يحوم حولنا وكأنّه يريد أن يحوّلنا عن طريق السعادة

السامية التي يدعونا إليها وسيطٌ واحد لا عدّة وسطاء، هو الذي إذا اتّحدنا به صرنا سعداء، كلمة الله، الكلمة غير المخلوق، الخالق لكلّ الأشياء، على أنّه ليس وسيطًا لكونه الكلمة لأنّه في أعالي أزليّته ومجده بعيدٌ عن البشر الأشقياء. بيد أنّه وسيط بصفته إنسانًا وعلى هذا النحو يشير إلى أنّ الوصول إلى الله الذي يملك السعادة ويعطيها لا يتحقّق من خلال البحث عن وسطاء آخرين يعدّون لنا درجاتها ما دام الله الذي تنبعث منه كلّ سعادة لمجرّد أنّه شاركنا في بشريّتنا يشركنا بألوهيّته بأقرب الطرق. وإذ يخلّصنا من صيرورة الموت والشقاء لا يوحّدنا مع الملائكة ليجعلنا خالدين بخلودهم وسعداء بسعادتهم؛ إنّه يرفعنا إلى الثالوث بالذات الذي يجعل الملائكة المتّحدين به سعداء؛ وهكذا لكي يكون وسيطًا أراد بشكل عبد أن يتنازل إلى ما دون الملائكة ويبقى دومًا فوق الملائكة في طبيعته كإله؛ إنّه ها هنا طريق الحياة؛ هو الذي في السماوات، الحياة بالذات (**يوحنّا** ١٤: ٦).

١٦

ترفض الحقيقة الرأي الذي أخذه أبولايوس الأفلاطونيّ عن أفلاطون القائل: «ما من إله يتدخّل في شؤون البشريّة مضيفًا أنّ أهمّ ميزة في عظمة الآلهة هي أنّهم لا يتلطّخون البتّة من اتّصالهم بالإنسان. أمّا الشياطين، وفق ما يقول، فيتلطّخون به ويستحيل عليهم تاليًا أن يطهّروا مَن تلطّخوا به إذ يتساوون جميعًا بالوسخ؛ فالشياطين يتلطّخون بسبب اتّصالهم بالناس وهؤلاء يتلطّخون بسبب عبادتهم للشياطين؛ وإذا ما استطاع الشياطين أن يختلطوا

بالبشريّة من دون أن يوصموا بها فهذا يعني أنّهم أسمى من الآلهة الذين لا يستطيعون إلى ذلك سبيلًا. أليس أسمى ما يمتازون به هو سكناهم في الأعالي اللامحدودة في كوكب لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه؟ والإله السامي، الخالق لكلّ شيء، الذي نسمّيه الإله الحقّ، هو، بحسب قول أفلاطون، الذي يستشهد به أبولايوس «الوحيد الذي يعجز الكلام البشريّ، بسبب ما به من ضعف، عن أن يعطي عنه فكرة وإن ناقصة؛ ويكاد لا يظهر لعين الحكماء حين تفصلهم قدرة النفس عن الجسد ما أمكن إلى ذلك سبيلًا. لكنّه يمرّ بسرعة البرق الذي يخترق أشدّ الظلمات كثافة» (إله سقراط: أبوله). إن كان هذا الإله، المعلّم حقًّا، والسيّد، يكشف عن ذاته بهذا الشكل، كالبرق الذي يخترق خطّه نورًا صافيًا ويكون حضوره معقولًا لنفس الحكيم التي لا يتلطّخ فيها بشيء فلِمَ نضع، هؤلاء الآلهة، بعيدًا وعاليًا جدًّا عن مخالطة الناس؟ ألا تكفي رؤية تلك الأجرام السماويّة التي تنشر على الأرض نورًا يلبّي حاجات البشر؟ إن كان نظرنا لا يلطّخ تلك الكواكب المعتبرة بأسرها آلهة منظورة فهل يلطّخ الشياطين على أنّها أقرب إلى نظرنا؟ وهلّا يكون صوت الإنسان إن لم يكن نظره الذي يؤذي طهارة الآلهة فينقل الشياطين بصفتهم وسطاء الكلام البشريّ دون أن ينخفض مقامهم السامي أو تتشوّه طهارتهم؟ هل أحكي عن سائر الحواسّ؟ لا يتلطّخ الآلهة بحاسّة الشمّ حتّى إذا كانوا حاضرين؛ لأنّ الشياطين، جيران الإنسان، لا يعانون ممّا تبعثه الحياة البشريّة؛ ما دامت روائح الجثث، الذبائح، فوق هياكلهم، لا تصل إليهم؛ إنّ حاسّة الذوق عند الآلهة لا تهتمّ بضرورة إصلاح الطبيعة الصائرة إلى الموت؛

وليس للجوع أن يرغمهم على طلب القوت من الناس. حاسّة اللمس منوطة بهم والموضوع منوط بعمل هذه الحاسّة. ألا يستطيعون إن شاؤوا أن يختلطوا بالناس فيتناظروا ويتسامعوا؟ وأيّة ضرورة إلى اللمس؟ بكلّ تأكيد قد لا يجرؤ الإنسان على طلب ذلك؛ وقد تمتّع بالنظر إلى الآلهة أو الشياطين الصالحين ومحادثتهم؛ وإن دفع به فضولُه إلى أن يرتفع إلى مقامهم فكيف له أن يلمس إلهًا أو شيطانًا إذا رفضا وهو لا يقدر على أن يمسك عصفورًا إلّا إذا كان محبوسًا في قفص؟ يستطيع الآلهة أن يروا الناس ويستمعوا إليهم ويسمحوا للناس بذلك وعلى هذا النحو يتّصلون بهم جسديًّا ويتلطّخون حتّى إذا كانوا من جرّاء هذا الاختلاط يتلطّخون، في حين أنّ هذه المخالطة لا تلطّخ الشياطين، فأيّ عونٍ ينتظره الإنسان منهم بلوغًا إلى السعادة الأبديّة؟ وهل يستطيعون وهم ملطّخون أن يطهّروه ليدخلوه نقيًّا إلى حضرة الآلهة الأنقياء وإن عجزوا عن تقديم تلك الخدمة فأيّ نفع لهم من مصادقتهم واتّخاذهم كأصدقاء؟ ألكي ينتقل البشر عند خروجهم من هذه الحياة لا إلى مجتمع الآلهة بل إلى مجتمع الشياطين ليعيشوا معهم أخوة في العار والشقاء؟ سوف يقال إنّهم كالإسفنجة يمتلئون بكلّ الأوساخ ليطهّروا أصدقاءهم منها! إن كانت تلك هي حالهم أفما تحاشى الآلهة مجاوَرَة الإنسان والاتّصال به، إلّا لكي يخالطوا الشياطين الوسخين؟ وهل يستطيع الآلهة أن يحافظوا على نقاوتهم وينقّوا بالوقت عينه الشياطين، ممّا لحق بهم من جرّاء اتّصالهم بالبشر؟ ليس لهم القدرة على ذلك؛ ومَن ذا الذي يجرؤ أن يفكّر في هذا الأمر إن لم يكن فريسة خبث الشياطين. وهل يدنّس النظر؟ ألا يمتدّ نظر الإنسان

إلى الآلهة المنظورين، مشاعيل الكون وسائر الأجرام السماويّة؟ أليس الشياطين في حِمًى أكيد من ذاك الأذى، لكونهم لا يقعون تحت النظر، إلّا إذا قبلوا بذلك؟ إن كان من وصمة فليست في أن يُرى بل في أن يَرى (بفتح الياء)؛ وعليه، يجب أن يُفترض أنّ البشر لا يقعون تحت نظر الكواكب التي يجعلون منها آلهة وهي تصوّب أشعّتها إلى الأرض؛ تنتشر فوق الأشياء المتناهية في القذارة وتبقى نقيّة؛ في حين تتلطّخ الآلهة بالوسخ، لمجرّد اتّصالها بالناس، حتّى ولو كان هذا الاتّصال ضروريًّا للتخفيف من آلام البشريّة! إنّ أشعّة الشمس والقمر تلمس الأرض فهل يتأذّى نورها بذلك الاتّصال؟!

١٧

ضروريّ هو الوسيط بين الأرض والسماء

لا أعجب بما فيه الكفاية من أناس على جانب كبير من العلم يؤثرون الأشياء المعقولة واللاجسديّة على ما هو محسوس ومادّيّ ثمّ يتكلّمون عن الاتّصال المادّيّ بشأن السعادة. أين هي كلمة أفلوطين: «يجب الهروب إلى وطن عزيز جدًّا حيث هو الأب وكلّ شيء معه - أين هو المركب؟ وأين هي العربة؟ - كلّا؛ تشبّه بالله» (*Ennéades*). وعليه فإن كنّا، كلّما تشبّهنا بالله اقتربنا منه، لا يبقى سوى مسافة أدبيّة تفصلنا عنه. ونفس الإنسان تبتعد عن الكائن اللاجسديّ، الأبديّ، غير المتغيّر، بقدر ما تتعلّق بالأشياء المرتبطة بالزمن والتغيير. إنّها لنفس تجب مداواتها: وبما أنّه ليس من علاقة بين ما هو نقيّ وخالد في السماء وما هو

سافل، يزحف دومًا على الأرض، أصبح الوسيط ضروريًّا؛ ولكن لا يجوز أن يكون الوسيط متّصلًا بالنظام العالي بواسطة الخلود الجسديّ وبالنظام السفليّ بواسطة الوهن المرضيّ لنفس شبيهة بنفسنا فيجعلها توّاقة إلى ما نحن فيه من عافية لا إلى أن تساهم في تأمينها؛ نحن بحاجة إلى وسيط يتّحد بما نحن عليه من انحطاط في جسدنا المائت، فيبقى بالبرّ الروحانيّ في مجد الألوهة متجلّيًا في سموّ لا يحدّ؛ ولا يعتبر مسافة؛ بل توافقٌ ثابتٌ مع الآب، وسيط قادر على أن يساهم في تنقيتنا وخلاصنا بواسطة عون إلهيّ حقيقيّ. حاشا لهذا الإله الكلّي النقاوة أن يخشى التلطّخ بدنس الإنسان الذي لبس جسده أو الناس الذين يتعاطى معهم كإنسان! إنّ تجسّده الخيِّر سلّمنا تعليمَين عظيمَين من أجل خلاصنا: وهو أنّ الألوهة الحقيقيّة لا تقبل أن تتلطّخ بدنس الجسد؛ ولا يجوز لنا أن نعتقد بأنّ الشياطين، لكونهم ليسوا من جسد، هم أسمى منّا؛ وهاكم ما يقول الكتاب المقدّس: «الوسيط بين الله والناس يسوع المسيح الإنسان» (١ تيم ٢/ ٥) المساوي دومًا لأبيه والذي بتواضعه أصبح شبيهًا بنا. إنّما ليس المكان معدًّا للتبسّط هنا بتلك الحقائق.

١٨

لا يستطيع الشيطان أن يكون وسيطًا

أمّا الشياطين الوسطاء الدجّالون الكذبة، وإن كان فسادهم الروحيّ يشير غالبًا إلى شقائهم وخبثهم، فإنّهم يستفيدون من إقامتهم وخفّة أجسادهم ليوقفوا أو يحوّلوا تقدّم نفوسنا؛ وبدلًا

من أن يفتحوا لنا الطريق الذي يؤدّي إلى الله يزرعونه فخاخًا، ويقودوننا على طريق ضلال مليء بالأخطاء ويسيّروننا عليه؛ إنّه طريق جسديّ لا يسير عليه العدل، إذ إنّه يجب علينا أن نرتفع إلى الله ارتفاعًا روحيًّا لا يقاس، ومن خلال التشبّه غير الجسديّ به؛ وفي الطريق الجسديّ المنظّم بحسب تراتبيّة العناصر يضع هؤلاء الفلاسفة أصدقاء الشياطين بين الإنسان الأرضيّ وآلهة السماء الوسطاء الهوائيّين المقتنعين بأنّ صفةً جوهريّة في الألوهة تقوم في هذا المجال الضخم الرحب الذي يفصل بينها وبين كلّ اتّصال بشريّ بها. وعلى هذا النحو، وبحسب هؤلاء الفلاسفة، يدنّسُ البشر الشياطين ولا يطهّر الشياطين البشر؛ وقد يتلطّخ الآلهة أنفسهم لولا انكفاؤهم إلى الأعالي. أيّ شقيّ ينتظر أن يتنقّى في سبيلٍ لم يعد فيه سوى بشر يدنّسون، وشياطين دنسين وآلهة قادرين على التدنيسِ؟ ومَن ذا الذي لا يختار الطريق الذي يتجنّب عليه الشياطين الدنسين، حيث الله، الكلّي الطهر، يمحو أدناس الإنسان ليدخله في جماعة الملائكة المعروفة بطهارتها؟

١٩

وخوفًا من أن أتّهم بإقامة جدال من دون سبب حول الألفاظ، أرى أنّ كثيرين من عبّاد الشياطين ومن بينهم لابيُون (Labéon) يؤكّدون أنّ اسم الملائكة يعطى كذلك للشياطين؛ ولهذا يجب أن نقول شيئًا ما الآن عن الملائكة الصالحين الذين لا ينكر الأفلاطونيّون وجودهم بل يفضّلون أن يسمّوهم شياطين صالحين. أمّا نحن فإنّ شهادة الكتاب المقدّس، إحدى ركائز

إيماننا، تقول لنا بوجود ملائكة صالحين وملائكة أشرار ولا تسمح قطّ بلفظة شياطين صالحين ولا تعني تلك اللفظة أنّى وجدت سوى الأرواح الشرّيرة. وهذا المعنى مرعيّ بشكل عامّ عند الوثنيّين المعروفين بميلهم الشديد إلى عبادة تلك الطغمة من الآلهة والشياطين، بحيث لا نجد عالِمًا ما أو أديبًا يتجاسر على أن يقول لعبدٍ له: يسكن فيك شيطان؛ ولا إلى أيّ إنسان آخر إلّا ويجد فيه كلامًا جارحًا، حتّى ولو كان يستوجبه. وعليه، فإن كانت كلّ أذن تتخدّش لسماعها تلك الكلمات المأخوذة بمعناها المشؤوم فأيّ داعٍ يضطرّنا إلى إعطاء مزيد من الشرح ما دامت لفظة ملاك تجعلنا بمنأى عن كلّ التباس مزعج؟

٢٠

وإذا استشرنا الكتب المقدّسة فإنّ أصل لفظة شيطان تعني خصوصيّةً تستحقّ أن تعرَّف. يسمّى الشياطين بهذا الاسم بسبب علمهم؛ بيد أنّ الرسول يقول بإلهام من الروح القدس: «العلم ينفخ والودّ يبني» (١ كو ٨/ ١)، يعني أنّ العلم لا ينفع إلّا بقدر ما يلتقي مع المحبّة؛ العلم بلا محبّة ينفخ القلب ويملأه مجدًا باطلًا؛ وعلى هذا النحو فالشياطين يحوزون العلم من دون المحبّة؛ ولهذا ينتفخون كِبرًا؛ ويندفعون إلى اغتصاب الأمجاد الإلهيّة التي لا حقّ لأحد فيها إلّا للإله الواحد؛ ولكي ينتصر على تلك الكبرياء الضاغطة على الجنس البشريّ المستعبد، ما هي القدرة اللامحدودة لإلهٍ يتواضع ويظهر تحت شكل عبد؟ إنّه لسرٌّ يبقى مكتومًا عن الأنفس البشريّة المنتفخة بفسادٍ صارخ والتي

تشبه الشياطين بكبريائهم وليس بعلمهم.

٢١

المسيح هو الوسيط

وكان الشياطين يجهلون حقًّا هذا الأمر حتّى سألوا السيّد اللابس، ضعف الجسد: «ما لنا ولك يا يسوع الناصريّ حتّى جئت لتهلكنا قبل الوقت؟» (**مرقس ١/ ٢٤**). كلمة تدلّ صراحة على ما بهم من معرفة لهذا السرّ العظيم، ولكن من دون المحبّة؛ ما أحبّوا برّه؛ بل خافوا عقابه؛ وعرفوه بقدر ما سمح لهم به وأراد ما كان لهم به الكفاية؛ ولم يعرفوه كالملائكة القدّيسين بصفته كلمة الله، المشاركين له في سعادته الأبديّة، بل كشف عن ذاته لهؤلاء الظالمين المستبدّين وحطّم مملكتهم ليحرّر المختارين الذين أعدّهم منذ البدء لملكوته، لذاك المجد الحقيقيّ أبديًّا، والأبديّ حقًّا. لقد كشف عن ذاته للشياطين، بصفته الحياة الأبديّة والنور الأزليّ الذي ينير القدّيسين، نور يلمع أمام عين الإيمان ونور ينقّي القلب؛ بل بالأحرى كشف عن ذاته من خلال بعض مظاهر قدرته بشكل عارض وبعض علامات لحضوره الخفيّ التي تشعر بها الطبيعة الروحيّة للأرواح الشرّيرة أكثر ممّا يشعر بها الضعف البشريّ؛ وعندما رأى أنّه بات ضروريًّا إخفاءُ تلك العلامات البارزة اختار لزمن معيّن الدخول في سرّ عميق حتّى إنّ أركون الشياطين شكّ فيه وجرّبه ليتثبّت من أنّه المسيح؛ وما جرّبه إلّا بقدر ما سمح له المسيح ليتحوّل إلى مثالٍ يحتذى من قبلنا نحن البشر. ولكن بعد التجربة وعندما جاء الملائكة

يخدمونه وفقًا لما جاء في الكتاب، الملائكة الصالحون والقدّيسون الذين ترتعد أمامهم الأرواح الشرّيرة، أخذ الشياطين يزدادون اعترافًا بعظمته؛ مهما ظهر حقيرًا في ضعفه البشريّ، فإنّه يأمر ولا أحد يجرؤ على مقاومته.

٢٢

وعليه، يرى الملائكة القدّيسون أنّ علم الأشياء المحسوسة والزمنيّة ليس سوى علم حقير، لا لأنّه ينقصهم؛ بل لأنّ محبّة الله التي تقدّسهم هي حبّهم الوحيد، وبفضل ذلك الجمال الصافي والثابت الذي لا يوصف يحتقرون في غبطة مقدّسة، في انجذاب مقدّس، كلّ ما هو دونه، كلّ ما ليس هو، ويزدرون نفوسهم، بغية الاستمتاع بكلّ ما في كيانهم من جودة بذلك الخير الذي هو ينبوع صلاحهم. وتتأكّد معرفتهم للنظام الزمنيّ المتغيّر بقدر ما يكتشفون أسبابه الأساسيّة في كلمة الله خالق الكون؛ وهي أسباب تارة تحبّذ، وطورًا تشجب؛ ولكنّها تأمر دائمًا. إنّ هذه العلل الأبديّة أقطاب الأزمنة غير المرئيّة يجهلها الشياطين ولا يرونها في حكمة الله؛ غير أنّ خبرتهم في بعض علامات تخفى على أنظارنا تسمح لهم بأن يقرأوا أبعد منّا في أحداث المستقبل ويعلنون مسبقًا عن نيّاتهم الخاصّة فيلازمهم، غالب الأحيان، الخطأ؛ بيد أنّ الملائكة لا يخطأون أبدًا. شيء هو التكهّن في الزمن عن الزمن، وفي التغيير عن التغيير، فيطبع فيه الإنسان بصمات قليلة من إرادته وقدرته، لا تتأخّر عن أن تزول وتمضي؛ وهذا إلى حدٍّ ما يسمح به للشياطين، وشيء آخر

القراءة في شرائع الله الأبديّة الثابتة، غير المتغيّرة التي تحيا من حكمته ومعرفة تطوّرات الزمن بواسطة مشاركة الروح الإلهيّ الإرادة المعصومة عن الخطأ، حيث اليقين هو مطلقٌ كالقدرة؛ إنّه امتياز يُعطى للملائكة القدّيسين بحيث يتمتّعون في الوقت عينه بالأبديّة والسعادة ويسكرون بمشاهدة الله، خالقهم وخيرهم الأوحد، إذ إنّ رؤيته والحصول إلى الأبد عليه يضعهم في لذّة لا تنفد ولا يجفّ لها ينبوع.

٢٣

القبول بتسمية أرواح الصالحين آلهة استنادًا إلى الكتاب المقدس

إذا فضّل الأفلاطونيّون أن يسمّوهم آلهة بدلًا من شياطين وأن يضعوهم تجاوبًا مع تعليم أفلاطون أستاذهم وكبيرهم في مصافّ الآلهة الذين خلقهم الله السامي فإنّي أقبل برأيهم وأرفض الاعتراض على ألفاظ لأنّهم إن نسبوا إليهم الخلود والسعادة من دون البحث خارجًا عن الله مبدأ كيانهم وعظمتهم وإن اختلفت الأسماء فإنّنا نقبل بذلك. أن يكون هذا هو رأي الأفلاطونيّين، رأيهم بأجمعهم أو رأي أكثرهم شهرةً فكتبهم تشهد بذلك عند الحاجة؛ وإنّنا لموافقون تقريبًا على هذه التسمية ذاتها للآلهة الذين يعطونها لتلك المخلوقات الخالدة والسعيدة؛ ألسنا نطالع أيضًا في الكتب المقدّسة «إله الآلهة الربّ تكلّم»؟ وفي مكان آخر: «مجّدوا إله الآلهة» ثمّ: «ملك عظيم على جميع الآلهة» ومرهوب فوق جميع الآلهة. ويشرحه القول التالي: «لأنّ جميع

آلهة الشعوب أصنام والربّ هو صنع السماوات، أي الشياطين الذين أقيموا آلهة. إنّه رهيب؛ هي هذه الرهبة التي يكشف عنها للشياطين عندما يصرخون: «أأتيت لتهلكنا؟» (مرقس ١/ ٢٤) راجع (المزامير: ٤٩/١؛ ١٣٥/٢؛ ٩٤/٣؛ ٩٥/٤). حاشى لنا أن نقول إنّ إله الآلهة هو إله الشياطين وإنّ التعبير «ملك عظيم على جميع الآلهة» يعني ملكًا قديرًا على جميع الشياطين؛ لكنه يعني أنّ في شعب الله أناسًا يطلق عليهم الكتاب المقدّس اسم آلهة: «قلت «إنّكم آلهة؛ جميعكم أبناء العليّ». وهنا يمكننا أن نفهم القول: «إله الآلهة» أنّه إله هؤلاء الآلهة وأن يكون ملكًا قديرًا على هؤلاء الآلهة بقوله: «ملك قدير على جميع الآلهة».

ولكن قد يقولون لي: إن سمّي بشر آلهةً لكونهم ينتمون إلى ذاك الشعب الذي كلمه الله بواسطة الملائكة والناس، فكم هم أجدر بهذا الاسم، أولئك الخالدون الحائزون على السعادة التي يتوق إليها الناس من خلال عبادتهم لله؟ بماذا نجيب؟ بحقّ أعطى الكتاب المقدّس اسم آلهة، للناس الذين بقيامتهم سوف يتساوون مع السعداء الخالدين بحسب ما وعد به وعدًا لا محالة يتحقّق. أمّا الذي كان يُخشى منه، فهو أنّ ما بنا من ضعف وعدم أمانة يدفعنا إلى البحث عن إله بين تلك المخلوقات الممتازة. بيد أنّ الإنسان ما كان ذاك الخطر الداهم، ولقد سمّي أبناءُ الشعب المختار آلهةً بشكل واضح لكي يتأكّدوا، بالإيمان، أنّه هو إلههم المسمّى «إله الآلهة». حتّى وإن أعطي اسم الله أولئك السعداء الخالدين المقيمين في السماء فلم يعطوا أبدًا اسم «إله الآلهة» أي آلهة البشر المختارين في شعب الله الذين تعنيهم كلمة «قلت إنّكم آلهة؛ إنّكم أبناء العليّ» (مزمور ٨١/٦). ولهذا قال الرسول

أيضًا: «فإنّه وإن وجد ما يقال له آلهة في السماء كان أو على الأرض وقد وجد كذلك آلهة كثيرون وأرباب كثيرون، لكن لنا إله واحد، الآب الذي، منه كلّ شيء، ونحن إليه، وربّ واحد يسوع المسيح، الذي به كلّ شيء ونحن به». (١ كور ٨/ ٥)

خلاف في الرأي حول التسمية

لسنا بصدد التناقش طويلًا حول اسم ما، في حين أنّ الموضوع واضح وجليّ؛ ولا مجال لأدنى شكّ فيه. ولكن عندما نضع في عداد الخالدين السعداء هؤلاء الملائكة الذين ينقلون إلى البشر إرادة الله فلا يعود الأفلاطونيّون يتّفقون معنا لأنّهم لا يعزون هذا الدور إلى السعداء الخالدين الذين يسمّونهم آلهة بل إلى الشياطين الذين يؤكّدون خلودهم من دون سعادتهم؛ إنّه لامتياز مزدوج يضفونه عليهم أحيانًا بصفتهم شياطين صالحين وليسوا كآلهة. ألا تقوم مسافة لا حدّ لها بين الآلهة والإنسان، تحرّم عليهم التواصل؟ جدل كلاميّ؛ أجل؛ لكنّ لفظة شياطين كريهة جدًّا يجب أن نبعدها عن الملائكة القدّيسين. ختامًا لهذا الكتاب نقول إنّ السعداء الخالدين هم مخلوقات أيًّا يكن اسمهم لا يستطيعون أن يكونوا وسطاء ولا أن يقودوا إلى السعادة الأبديّة، الصائرين إلى الموت، التعساء الذين يفصل بينهم فارق مزدوج. أمّا الذين يُزعم أنّهم وسطاء ويشتركون في النظام العلويّ بواسطة الخلود وبالنظام السفليّ بواسطة الشقاء فإنّهم أشدّ غيرة على انتزاع تلك السعادة التي يفتقرون إليها منّا على أن يؤمّنوها لنا، لأنّ ما هم عليه من تعاسة عقابٌ عادل لهم. إنّ محازبي الشياطين لا يقدّمون سببًا جدّيًا يُلزمنا بعبادة الشياطين

كحماةٍ لنا؛ بينما يجب علينا أن نفضح خبثهم وشرّهم. أمّا الأرواح الصالحة الخالدة والسعيدة التي يظنّ الوثنيّون أنّه يجب أن يكرّموها، باسم آلهة، بواسطة الاحتفالات والذبائح، حصولًا على السعادة، بعد هذه الحياة، أيًّا كانوا وأيًّا يكن الاسم الذي يستحقّونه، هذه الأرواح لا تريد أن تقدّم عبادةً كتلك العبادة إلى إله غير الإله الواحد، مبدإ كيانهم ومعين سعادتهم؛ وهذا السؤال آمل أن أتعمّق في دراسته، بعون الله، في الكتاب التالي.

الكتاب العاشر

مقدمة

السعادة وعبادة الله الأحد

في هذا الكتاب ثلاثة أمور رئيسيّة:

١ - أوغسطينس يشرح فكرة الديانة

٢ - يحدّد معنى الذبيحة الحقيقيّة، أي الذبيحة الروحيّة

٣ - يوجّه نداءً أخيرًا إلى المعلّم بورفيروس يحثّه فيه على الاعتراف بسرّ الكلمة المتجسّد الذي يخلّص الإنسان بتواضعه على وجه أفضل ممّا يعمل له جميع ما في الكون من سحرة أو من اتْباع الأفلاطونيّة الحديثة.

تُقام مدينة الله من أجل سعادتنا والهدف من هذه المدينة سعادة الإنسان. وهل يريد الإنسان الذي يحبّ نفسه سوى أن يكون سعيدًا؟

الذبيحة الواجبة علينا إلى الله هي تقدمة النفس. الذبيحة التي تليق بالله هي القلب المنسحق الذي لا يرذله الله. عبادتنا لله هي عبادة عقليّة وباطنيّة لكونه يتنازل ويقيم فينا.

إنّنا نكوّن مع الأرواح مدينة واحدة يقدّم فيها الملائكة معنا عبادة لله موحّدة.

يدعو أوغسطينس بورفيروس إلى أن يسعى إلى طريق واحد تتنقّى فيه النفس وهو طريق موحّد للإنسان روحًا ونفسًا وجسدًا.

الكلمة المتجسّد يتواضع ويطرد الروح الشرّير من الإنسان ويشفي الجسد بالجسد، لا بالتسامي الفلسفيّ... الخطيئة وحدها تبعدنا عن الله وليس الجسد. ويعلن أوغسطينس حربًا أخيرة على الفلاسفة الأفلاطونيّين، ممجّدًا الجسد في الكلمة الذي صار جسدًا ومبيّنًا كبرياء الروح الذي يمنع بورفيروس وتلاميذه من قبول الإيمان المسيحيّ.

١

تأرجح الأفلاطونيّين بين الحقيقة والباطل

ممّا لا شكّ فيه أنّ كلّ إنسان عاقل يتوق إلى السعادة؛ ولكن، مَن هو السعيد؟ وكيف يصبح الإنسان سعيدًا؟ تلك هي المشكلة التي يواجهها الضعف البشريّ وتثير جدلًا طويلًا لا نهاية له يستهلك فيه الفلاسفة وقتهم وجهودهم؛ ولا أرغب في التذكير به أو الدخول فيه الآن. أجتنب الدخول في كلّ استطالة عبثيّة؛ وإذا تذكّر القارئ ما قلته في الكتاب الثامن حول اختيار فلاسفة ناقشت معهم موضوع سعادة الحياة الأخرى، أي هل هي عبادة الإله، الواحد، الحقّ، خالق الآلهة أنفسهم، توصّلنا إلى تلك السعادة أو هل الوصول إليها يستلزم عبادة عدّة آلهة آخرين، فليس له أن ينتظر منّي عودة إلى ما قلته سابقًا في حين أنّ قراءته مجدّدًا تساعد ذاكرته أو تعالج نسيانه. لقد اخترت فلاسفة مشهورين من بين الأفلاطونيّين قد اعترفوا بأنّ النفس البشريّة، وإن تكن عاقلة وخالدة، لا تستطيع أن تكون سعيدة إذا لم تشترك بنور هذا الإله خالقها ومكوّن الكون؛ وينكرون عليها الوصول إلى السعادة التي يتوق إليها البشر بأجمعهم إذا لم يوحّدها الحبّ النقيّ الصافي لِله الكلّي الصلاح، اللامتغيّر. ولكن بما أنّ هؤلاء الفلاسفة قد استسلموا إلى الضلالات الشعبيّة الباطلة أو على حدّ قول الرسول «تاهوا في ظلام أفكارهم» (روما ١١/ ٢١) اقتنعوا أو، على الأقلّ، أرادوا أن يقنعوا الآخرين بأنّ إقامة مذابح إلى هذا العدد الضخم من الآلهة أمر ضروريّ حتّى ذهب بعضهم إلى الاعتقاد بضرورة

تقديم ما يُرفَع من إكرام وذبائح إلى الآلهة، إلى الشياطين أنفسهم، وهو خطأ تكلّمنا عنه طويلًا ودحضناه. أمّا الآن فيبقى علينا أن ندرس ونناقش، قدر ما يسمح الله لنا من قوّة، ما يجب تصديقه من تلك الأرواح التي يسمّيها الأفلاطونيّون آلهة أو شياطين صالحة أو ملائكة يقيمون معنا: خالدون وسعداء أرواح يقيمون في المنازل السماويّة، سادات ورؤساء وقوّات، أيّ إكرام وأيّة تقوى يريدون منّا؟ وبتعابير أوضح هل يريدون أن يدخلوا في مشاركة مع الله؟ هل يريدون أن نحتفظ بالذبائح الاحتفاليّة لله وحده عنيت به ذبيحة نفوسنا الدينيّة؟؟

٢

للسعادة مصدر واحد

لا نرى خلافًا بيننا وبين مشاهير الفلاسفة حول هذا الموضوع لأنّهم رأوا ودوّنوا باستمرار في كتاباتهم أنّ سعادة الأرواح الخالدة وسعادتنا تنبع من مصدر واحد: ينتشر فيهم نور عقلانيّ هو إلههم وهو مختلف عنهم ينيرهم بشعاع منه والاستمتاع به يغذّي كمالهم وسعادتهم. عندما يشرح أفلوطين هذا الموضوع يؤكّد باستمرار أنّ هذه النفس بالذات التي يسمّونها النفس الكونيّة لا تتّخذ سعادتها من مبدإ مخالف لمبدئنا وأنّ هذا المبدأ ليس النور الذي يدين له بكيانه، وإذ ينيره بنور عقلانيّ يجعله يلمع لمعانًا عقلانيًّا ويُضفي على تلك الحقائق غير المادّيّة صورة يأخذها عن الأجساد البرّاقة في القبّة السماويّة. وقد يكون المبدأ السامي، بالنسبة إلى النفس، كما هي الشمس بالنسبة إلى القمر. يقال إنّ

القمر يأخذ نوره من الشمس؛ كذلك فإنّ هذا الأفلاطونيّ العظيم يدّعي أنّ النفس العاقلة أو بالأحرى العقلانيّة (لأنّه يضع تحت هذا الاسم نفوس الخالدين السعداء الذين يجعل مقامهم في السماء) لا تعرف طبيعة أسمى من طبيعتها سوى طبيعة الله، خالق الكون، وخالقها؛ وأنّ تلك الأرواح السماويّة لا تأخذ الحياة السعيدة ونور العقل والحقيقة إلّا من حيث تأتينا؛ وهو تعليم مطابق لكلام الإنجيل القائل: «كان رجل مرسل من الله يدعى يوحنّا، لقد جاء ليشهد للنور، وكان النور الحقيقيّ الذي ينير كلّ إنسان آت إلى العالم» (**يوحنّا** ١/٦-٩). إنّ هذا المقطع يبيّن بوضوح أنّ النفس العاقلة أو العقلانيّة كما هي في القدّيس يوحنّا لا تستطيع أن تكون نورها لذاتها؛ ولا تنير إلّا بمشاركتها في النور الحقيقيّ. ويوحنّا ذاته يشهد لهذا بقوله: «وأخذنا كلّنا من ملئه» (يو ١/١٦).

٣

اعتراف الافلاطونيين بالإله الحق مصدر سعادتهم

وعليه فإن كان الأفلاطونيّون أو الفلاسفة المجاهرون بالأفكار عينها يمجّدون الله الذي يعرفونه ويؤدّون له الشكر، لا يتيهون في ضلال عقولهم، سواء أكانوا مضلّلين أم مشاركين في الضلال الشعبيّ، يعترفون، بكلّ تأكيد، بأنّ إله الآلهة الواحد إلههم وإلهنا، يُعبد في سبيل الحصول على السعادة والخلود لتلك الأرواح الخالدة والسعيدة ولنا نحن أيضًا التعساء الأشقياء. له وحده يجب أن نؤدّي واجب الخدمة والسجود إمّا بموجب طقس

خارجيّ أو باطنيًّا. مجتمعون ومنفردون نحن له هياكل؛ يسكن في الكلّ متّحدين، كما يسكن في كلّ واحد على انفراد؛ ولا يسعه أن يكون في المجموعة أكبر ممّا هو في الفرد ما دامت طبيعته لا تعرف تغييرات المساحة والقسمة. عندما نرفع نفوسنا إلى العلى يكون قلبنا هيكلًا له؛ ابنه الوحيد هو الكاهن الذي يهدّئ غضبه؛ نذبح له ذبائح دمويّة عندما نقاتل حتّى الموت في سبيل حقيقته؛ ونحرق أمامه البخور الأذكى، عندما تحرقنا بحضوره نارٌ مقدّسة وخاشعة؛ نجعل له فينا من عطاياه ومن ذواتنا تقدمة شكر وامتنان، في بعض الأعياد الاحتفاليّة، وفي أيّام معيّنة، إحياءً لذكرى حسناته علينا، خوفًا من أن تطوى في النسيان، على مرّ الزمن؛ ونقرب له على مذبح قلبنا، في موقد محبّة مضطرمة، ضحيّة شكر واتّضاع (**مزمور** ١١٥ : ١٧). ولكي نراه، كما يمكن أن يكون مرئيًّا، فنرتبط به، نتنقّى من كلّ وصمة خطيئة وشهوة فاسدة؛ بقوّة اسمه نتقدّس. هو ذاته ينبوع سعادتنا، والغاية لكلّ ما نتمنّاه؛ وعليه، إذ نتعلّق أو بالأحرى نستمسك به مرّة أخرى (لأنّنا قد خسرناه بذنب منّا) ثمّ نعود إليه؛ وهذا ما تعنيه كما يقولون لفظة ديانة؛ الحبّ يشدّنا إليه لنستريح فيه ونجد الراحة على يده؛ وهي الغاية القصوى، حيث الكمال وحده يجعلنا نجد السعادة. إنّ ذاك الخير النهيويّ، الذي طال ما تناقش فيه الفلاسفة، يتحقّق في الاتّحاد بالله اتّحادًا روحيًّا يعطي النفس العاقلة، نوعًا ما، خصوبةً في الفضيلة طاهرة. ذاك هو الخير الذي يُطلب منّا أن نحبّه، من كلّ قلبنا، ومن كلّ نفسنا، ومن كلّ قوانا، بحيث تتمّ هاتان الوصيّتان اللتان تختصران الشريعة والأنبياء: «أحبّ الربّ إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ عقلك وأحْبِبْ

قريبك مثل نفسك» (متّى ٢٢ : ٣٧-٤٠). على الإنسان أن يتعلّم كيف يحبّ نفسه لأنّ غاية تعطى له لكي يوجّه إليها كلّ أعماله فيكون سعيدًا؛ وفي الواقع، يحبّ الإنسان نفسه متى أراد سعادته الشخصيّة وهي أن يتّحد بالله؛ وعندما يُطلب، ممَّن أخذ يعرف كيف يحبّ نفسه، أن يحبّ قريبه، كما يحبّ نفسه، يعني ذلك حثّ القريب، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، إلى أن يحبّ الله. تلك هي عبادة الله وتلك هي الديانة الصحيحة والتقوى الراسخة والعبادة الواجبة لله وحده. أيًّا تكن تلك القوى التي لا تموت، ومهما كانت فضيلتهم سامية، إن كانت تحبّنا كما تحبّ ذاتها، فإنّها تريد، حبًّا لسعادتنا، أن نبقى خاضعين للذي يكافئ خضوعهم بالسعادة؛ وإن لم تؤدِّ الإكرام والسجود لله تكون شقيّة لأنّ الله ينقصها وإن قدّمت السجود لله، فلا تريد لنفسها السجود الواجب لله. ماذا أقول إنّها تصفّق؛ وبكلّ قوى محبّتها، تلتزم الكلمة الإلهيّة القائلة: «كلّ مَن يضحّي لغير الربّ الإله يحذف من الوجود» (**أشعيا** ٢٢/ ٢٠)؟

٤

الذبيحة واجبة لله الحق دون سواه

ومن دون أن نتكلّم هنا عن سائر الواجبات الدينيّة التي تدخل في تكوين عبادة الله، أيّ إنسانٍ يتجاسر أن يقول إنّ الذبيحة واجبة لغير الله؟ وأخيرًا أن يتعدّى الإنسان ويغالي في تعدّيه على عبادة الله، في سبيل تكريم الإنسان، فذلك بدافع من سفالة مفضوحة أو بإغراء أثيم. ولا يزالون يعتبرون بشرًا اولئك الذين يقدّم إليهم كلّ تكريم

واحترام دينيّ حتّى العبادة. ولكن مَن ذا الذي لا يقرِّب القربان لمَن يعرف ويؤمن ويريد أن يؤمن الآخرون به أنّه الله؟ الذبيحة، في القديم، واضحة ومعروفة، من المثل الذي قدّمه الأخوان قاين وهابيل. رفض الله قربان البكر وقَبِل قربان الأخ الآخر.

٥

القلب المنكسر ذبيحة مُرْضِية لدى الله

أيّ أحمق يعتقد بأنّ الله يحتاج إلى تقدماتنا؟ يشهد الكتاب على رفضه لهذا الضلال؛ وحسبي أن أذكِّر بهذا المقطع من المزامير: «قلت للربّ: أنت سيّدي وما عداك لا خير لي». (مز ١٥/ ٢). وعلى هذا النحو فلا يحتاج الله إلى أضاحي ولا إلى أيّ شيء من الأرض قابلٍ للفساد؛ حتّى إنّه ليس بحاجة إلى برّ الإنسان؛ والعبادة الصحيحة التي تقدّم إليه تفيد الإنسان ولا تفيد الله. وأيّ فائدة للينبوع إذا ما ارتوى منه العطشان أو للنور من أن يُرى؟ ولا يجوز أن يرى الإنسان في تلك الأضاحي التي قدّمها البطاركة الأقدمون، وقد حُرّم على الشعب المؤمن أن يقدّمها اليوم سوى رموز لما يتحقّق فينا، إقامةً لاتّحادنا واتّحاد قريبنا بالله. الذبيحة المنظورة هي السرّ، أو العلامة المقدّسة للذبيحة، غير المنظورة؛ ولهذا فإنّ التائب عند النبيّ، أو النبيّ ذاته، يهتف في تضرّعه إلى رحمة الله: «لو كنت تبتغي ذبيحة لقدّمت لك ولكنّك لا ترتضي بالمحرقات إنّما ذبائح الله روح منكسر، القلب المنكسر المنسحق لا يرذله الله» (مز ٥٠/ ١٨). وبينما نرى أنّ الله يرفض الذبيحة، يقول النبيّ إنّ الله يطلب ذبيحة؛ يرفض

ذبيحة حيوان ويطلب تضحية قلب منسحق؛ وما لا يريد هو علامة أو إشارة إلى ما يريد. إنّ الله لا يريد ذبائح بحسب ما يدّعيه الحمقى أي ذبيحة يتمتّع بها باطلًا، لأنّه لو لم يكن يريد الذبيحة التي يطلبها، أي ذبيحة القلب المتواضع المنسحق تحت آلام الندامة التي ترمز إليها الذبائح، لما كان فرض تقدمتها في الشريعة القديمة. وعليه فقد وجب إلغاؤها في الوقت المحدّد والواضح، لئلّا يتبنّى الإيمان العلامة بدلًا من المعنى. ونقرأ في مزمور آخر: «إن جعت فلا أخبرك فإنّ لي المسكونة وملأها؛ أم لعلّي آكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس؟» (مز ٤٩/ ١٢-١٥)، أي عندما أحتاج إلى ذلك كلّه لن أسألك ما في متناول يدي؛ ثمّ يشرح قوله قائلًا: «إذبح لله ذبيحة شكر؛ أوفِ نذورك للعليّ والتمسني، في يوم التجربة، فإنّي أنجّيك فتمجّدني». ماذا أعمل، يقول نبيّ آخر، لكي أحوز العليّ وأربحه؟ هل بمحرقات أو بدم العجول؟ هل يقبل ذبيحة ألف خروف أو عشرة آلاف من التيوس المسمّنة؟ هل أقدّم له بكر أولادي، ثمرة أحشائي، عن خطيئتي؟ أيّها الإنسان ها إنّ الربّ يبيّن لك الصالح، وما الذي يريده منك. إنّما هو أن تجري الحكم وتحبّ الرحمة وتسير بتواضع مع الربّ إلهك» (**ميخا** ٦/ ٦). كلمات النبيّ هذه تُظهر بوضوح الفرق بين العلامة والمعنى؛ وتبيّن أنّ الله لا يطلب تلك الذبائح الرمزيّة حبًّا لها. وها إنّنا نقرأ في الرسالة إلى العبرانيّين: «لا تنسوا الإحسان والمؤاساة فإنّ الله يرتضي مثل هذه الذبائح» (**عبرا** ١٣/ ١٦). وهكذا عندما كُتب: «أريد رحمة لا ذبيحة»، يتّضح أنّ هناك ذبيحة أفضل من أخرى لأنّ ما يسمّونه ذبيحة ليس سوى علامة للذبيحة الحقيقيّة، علمًا أنّ الرحمة هي الذبيحة الحقيقيّة، وفقًا

لقول الرسول: «بها يرتضي الله». إنّ كلّ ما أوحى به الله بشأن الذبائح في خدمة الهيكل، أو تابوت العهد، متعلّق نسبيًّا بمحبّة الله والقريب، لأنّ هذه الوصيّة المزدوجة تختصر الشريعة والأنبياء.

٦

الذبيحة الحقيقيّة هي كلّ عمل نقوم به لكي نتّحد بالله اتّحادًا مقدّسًا؛ كلّ عمل يرتبط بهذا الخير الأسمى، مبدأ سعادتنا الحقيقيّة؛ لذلك فالرحمة ذاتها التي تساعد القريب إذا لم تتّخذ الله غاية لها ليست ذبيحة؛ لأنّ الذبيحة، وإن يكن الإنسان مقرّبًا لها، شيء إلهيّ، هكذا سمّاها اللاتين القدماء؛ والإنسان الذي تقدّس باسم الله، والمتعبّد لله، هو ذبيحة لكونه يموت عن العالم ليحيا لله؛ وهي رحمة يقوم بها الإنسان تجاه نفسه. ألم يقل الكتاب: «أحبب نفسك وكن قريبًا من الله» (سيراخ ٣٠/ ٢٤). عندما نُميت جسدنا بالقناعة، حبًّا لله، عندما لا نقدّم أعضاءنا للخطيئة، سلاحًا للإثم، بل إلى الله، سلاحًا للبرّ، فجسدنا هو ذبيحة (روم ٦/ ١٣). وفي هذا المجال يحثّنا الرسول بقوله: «أسألكم أيّها الإخوة بمراحم الله أن تقرّبوا أجسادكم ذبيحة حيّة مقدّسة مرضية عند الله عبادة منكم عقليّة» (روم ١٢/ ١). وعليه فإن كان هذا الجسد، أسير النفس وأداتها، إذا قرّب إلى الله واستُعمل استعمالًا صالحًا وشرعيًّا اعتُبر ذبيحة، فكم أحرى بالنفس تقدّم ذاتها إليه مضطرمة بنار محبّته وقد نزعت عنها شهوة الجسد لتتكيّف على مثالٍ لها، لا يتغيّر، تقدّم إلى الجمال اللامتناهي إكرامًا عن عطاياه الخاصّة. ويضيف الرسول قائلًا:

«لا تتشبّهوا بهذا الدهر بل تحوّلوا إلى صورة أخرى بتجديد عقولكم لتختبروا ما مشيئة الله الصالحة المرضية الكاملة». وكما أنّ أعمال الرحمة، سواء أكانت تجاه أنفسنا، أم تجاه القريب، تُعتبر ذبائح حقيقيّة، لكونها مرتبطة بالله؛ وكما أنّها تهدف إلى أن تخلّصنا من الشقاء وتجعلنا سعداء بالحصول على الخير الذي كتب عنه: «وأنا فحسن لي القرب من الله» (مز ٧٢/ ٢٨). فكلّ مدينة من مدن الفادي، مدينة القدّيسين، هي بمثابة ذبيحة شاملة يقدّمها الحبر الأعظم إلى الله وقد قرّب نفسه، في آلامه، من أجلنا ليصيّرنا أعضاء للرأس القدّوس، النازل بصورة العبد، الصورة التي يقرّبها إلى الله وفيها هو القربان؛ إذ إنّه بها وسيط وكاهن وذبيحة. وحثّنا الرسول على أن نجعل من أجسادنا قربانًا حيًّا ومقدّسًا ومرضيًا عند الربّ ونقدّم عبادة معقولة فلا نتكيّف مع العالم بل نتحوّل بتجديد الروح، ساعين إلى معرفة إرادة الله، وما هو صالح ومرضي لديه وبكلمة واحدة نكون نحن أنفسنا قربانًا. ثمّ يضيف: «فإنّي بالنعمة المعطاة لي أوصي كلّ مَن فيكم أن لا يسمو بعقله فوق ما ينبغي بل أن يتعقّل تعقّل الحكمة على مقدار ما قسم الله لكلّ واحد من الإيمان؛ فإنّه كما أنّ لنا في جسد واحد أعضاء كثيرة وليس لجميع الأعضاء عملٌ واحد، كذلك نحن الكثيرين، جسد واحد في المسيح، وكلّ منّا عضوٌ للآخرين باختلاف النعمة التي أعطيت لنا» (روم ١٢/ ٣-٦). تلك هي ذبيحة المسيحيّين: «جميعهم جسد واحد في المسيح يسوع». وذاك هو السرّ الذي تحتفل به الكنيسة غالبًا في سرّ المذبح الذي يعرفه المؤمنون وحيث تعرف إنّها القربان والمقرّب في الوقت نفسه.

٧

سكّان شرعيّون للمنازل السماويّة، أرواح خالدة سعداء، متمتّعون بخالقهم، يشاركونه في أبديّته، أقوياء بحقيقته، وقدّيسون بنعمته، يشفقون علينا نحن التعساء؛ ويموتون عن حبّ وشفقة علينا، ويضطرمون شوقًا إلى أن يشركونا في خلودهم وسعادتهم ويأبون أن نذبح لهم ذبائح، لكنَّ الذبائح هي للذي يعرفون مثلنا إنّه الذبيحة لأنّنا معهم مدينة لله واحدة التي قال فيها صاحب المزامير: «يحدّث عنك بالمفاخر يا مدينة الله» (مز ٦٨/ ٣)، مدينة، قسم منها فينا يتألّم في المنفى وقسم آخر فيهم ظافر يساعد. في تلك المدينة السامية إرادة الله معقولة لا تتغيّر. في ذاك البلاط السامي يصير الاهتمام ببؤسنا، وعلى يدي الملائكة وصلنا الكتاب المقدّس حيث نقرأ: «مَن ذبح لآلهة إلّا للربّ وحده فليُبسل» (خروج ٢٢/ ٢٠). وعجائب كثيرة شهدت لهذا الكتاب ولهذه الشريعة وتلك الوصايا، بأنّ هذه الأرواح الطوباويّة تريد أن نقدّم له الذبائح وتتمنّى لنا السعادة التي تتمتّع بها.

٨

عجائب العهد القديم

لربّما كان من الضروريّ أن نعود إلى الأجيال السالفة المتقادمة العهود، لو شئت أن أذكر بالعجائب الكثيرة التي تشهد لحقيقة الوعود التي وعد بها الله إبراهيم قبل أن تتحقّق، عندما قال له إنّ جميع الشعوب تتبارك بنسله. ومَن ذا الذي لا يعجب كيف أنّ

امرأة وقد أصيبت بالعقم، لكبر سنّها، تلد لأبي المؤمنين، وأنّ نارًا تهبط من السماء، وتمتدّ بين الذبائح إلى ذبيحة البطريرك، وأنّ ملائكة استقبلهم كضيوف من البشر يكشفون له عن وعد الله وعن إحراق سدوم بنار من السماء، وكيف أنّ ملائكة من السماء سوف يخلّصون لوطا من النار التي تلتهم المدينة الخاطئة، في حين أنّ زوجة ابن أخيه سوف تتحوّل فجأة إلى عمود ملح لأنّها تطلّعت إلى الوراء، ليعلمنا، من خلال ذلك المثل العجيب، أنْ ليس على مَن يسير على درب الخلاص أن ينظر، وبأسف، إلى ما يتخلّى عنه. لكنّ هنالك أيضًا عجائب كثيرة؛ وأهمّ من تلك، صنعها موسى لكي يحرّر الشعب المختار من عبوديّة المصريّين! عن المعجزات التي سمح بها الله لمجوس فرعون، المستبدّ بإسرائيل، كانت لتُظهر بوضوح هزيمتَهم؛ وكانوا يأتونها بواسطة الخزعبلات السحريّة التي يتقنها ويتوق إليها الملائكة الأشرار أو الشياطين؛ أمّا موسى، وقد تسلّح بقدرة من الله شرعيّة ورهيبة، فقد أخزى باسم الله خالق السماء والأرض وبواسطة الملائكة أعمالَهم وأكاذيبهم؛ فانهار السحرةُ عند الضربة الثالثة؛ ضربات عشر، رموزٌ لأسرارٍ عميقة، استعملها موسى فليَّن بها قلب فرعون وقلوب المصريّين القاسية وخلّص من بين أيديهم شعب الله؛ لكنّهم ما لبثوا أن ندموا فلحقوا بهم؛ فإذا بالبحر الذي انشقّ أمامهم يفتح ممرًّا على اليابسة، عَبر منه العبرانيّون، الهاربون؛ ثمّ عاد فأغلق على المصريّين الذين كانوا يطاردونهم فغرقوا جميعًا. وهل أتكلّم عن سواها من العجائب التي أذهلت الشعب في الصحراء؟ مياه غيرُ ممكنٍ شربُها تفقد مرارتها عند إلقاء العصا فيها فتُروي عطش الكثيرين. طعام يهبطُ من السماء

للناس حتّى إذا خُزِّن منه أكثر ممّا يلزم، أفسده الدود، ما عدا يوم السبت، حيث الحصّة المضاعفة تسلم من الفساد؛ لأنّ جمعه، يوم السبت، ممنوع؛ وبما أنّ إسرائيل كان شديد الجوع إلى اللحم ويبدو أنّ إشباع ذاك العدد الكبير منه أمر مستحيل فقد امتلأ المعسكر بالطيور فاختنقت الشهوة من كثرة الأكل حتّى القرف. الأعداء يهجمون وبأيديهم أسلحتهم فيصلّي موسى رافعًا يديه بشكل صليب؛ وينهزم العدوّ من دون أن يصاب واحد من العبرانيّين بأذى؛ بعضهم يثور ويريد الانفصال عن الجماعة التي أقامها الله، فتنشقّ الأرض وتبتلعهم أحياء، مثلٌ منظورٌ لعذابٍ غير منظور. العصا التي تضرب الصخرة تفجّر منها ينابيع عذبة؛ عضّات حيّةٍ، عقاب عادل ومميت على جرائم كثيرة يشفى منها لرؤية حيّة نحاسيّة مرتفعة منتصبة فوق جذع شجرة لكي يقوم الشعب المرهق ويهلك الموت بالموت ويصبح رمزًا للموت المصلوب. وفي ما بعد، وقد بقي ذكر هذه الحيّة حيًّا في الأذهان، يذكر الشعب في هذيانه الراغب في أن يقيم له صنمًا يعبده، نرى حزقيا يحطّمه؛ وتلك هي ميزة مجيدة لتقوى هذا الملك الذي يضع كلّ طاقاته في خدمة الله.

٩

موقف بُرفير من تنقية النفس

قد يطول بنا الكلام عن تلك الأعمال وسواها التي تهدف فقط إلى إقامة عبادة الإله الحقّ وتحريم عبادة الآلهة الكذبة ولكنّها كانت تتمّ ببساطة الإيمان والتقوى الواثقة بعيدًا عن الأعمال السحريّة،

وخزعبلات فنّيّة نجسة تقام بدافع فضوليّ مجرم، تسمّى تارة سحرًا، وطورًا تتّخذ اسمًا مقيتًا جدًّا كالسحر الأسود أو على الأقلّ السحر الأبيض؛ لأنّ الإنسان يريد أن يميّز بين تلك الممارسات ويدّعي أنّ بين مؤيّدي تلك العلوم المحرَّمة منهم مَن يسمّيهم عامّة الشعب سحرةً يتعاطون السحر الأسود وتطاردهم القوانين؛ وآخرون يتعاطون السحر الأبيض ولا يستحقّون سوى الثناء على أنّ الفريقين مرتبطان بهياكل الشياطين النجسة الذين يغتصبون اسم ملائكة. وفي الواقع إنّ برفير ذاته وبينما يَعِد بنوع من التنقية للنفس، بواسطة السحر الأبيض، نراه يتردّد ويخجل ممّا وعد به؛ وينفي بصراحة إمكانيّة التوبة إلى الله عن طريق ذاك الفنّ فيتأرجح بين أفكاره الفلسفيّة المتقلّبة ومخاطر فضولٍ أثيم، يحوّلنا تارة عن فنّ مقيت خطر في الممارسة وتحرمه الشرائع وطورًا يبدو ميّالًا إلى الرأي المعاكس فيصبح السحر الأبيض لديه مفيدًا لتنقية النفس إن لم يكن في الجزء المعقول فيها الذي به تدرك الحقائق المعقولة الخالية من كلّ الأشكال المادّيّة فأقلّه في الجزء الروحيّ حيث تجمع صور الأجساد كما يُزعم أنّ هذا الأخير مؤهّل لقبول إلهام الأرواح والملائكة الذين يكتشفون الآلهة عند رؤيته من خلال القيام ببعض طقوس دينيّة. ويعترف برفير بأنّ هذه الطقوس لا تساهم في تنقية النفس العاقلة ولا يمكنها أن تؤهّلها، لا إلى رؤية الله، ولا إلى التأمّل بحقيقةٍ ما؛ ومن ثمّ يمكن الإنسان أن يستنتج حقيقة الآلهة الذين يجدون أنفسهم، وإلى أيّة رؤيا يمكن أن يصل من خلال تلك الممارسات السحريّة حيث ما يقع تحت النظر وهميّ؟ وأخيرًا يقول برفير إنّ النفس العاقلة، أو بحسب تعبيره، النفس العقليّة، تستطيع أن تنطلق إلى الأرجاء السماويّة

من دون أن يخضع الجزء الروحيّ فيها إلى أيّ تطهير سحريّ؛ كما أنّ هذا التطهير لا يؤمّن للنفس الخلود الروحيّ. ومع أنّه يميّز الملائكة عن الشياطين فيعطي الشياطين الهواء، مركزًا لهم، والملائكة يعطيهم الأثير؛ ومع أنّه ينصحنا بأن نسعى إلى مصادقة أحد الشياطين لكي نرتفع بعد الموت، قليلًا فوق الأرض، إذ يرى أنّ الوصول إلى الملائكة في السماء يتمّ، بطريقة أخرى، يحذّر من مجتمع الشياطين؛ وذلك بإعلان صريح عن رأيه قائلًا إنّ النفس المتألّمة تخاف جدًّا عبادة الأرواح التي تتحرّق إلى إغرائها. والسحر أو مناجاة الأرواح، ذلك الفنّ الجامع بين الملائكة والآلهة، والذي ينصح به يعترف بما لديه من علاقة بالقوّات التي تحسد النفس على تنقيتها؛ وتحبّذ ما في الحسودين من خبث؛ ويذكر ما كان يشكو منه أحد الكلدانيّين قائلًا: «شكا أحد الكلدانيّين الفضلاء من أنّ جهوده الناجحة في تنقية إحدى النفوس قد وقعت ضحيّة متدرّب آخر حسود أوثق القوى المتآمرة علنًا، وقيّد إرادتها الصالحة حتّى إنّ الواحد شدّ القيود فعجز الآخر عن كسرها». ويضيف قائلًا إنّ السحر الأبيض هو في الوقت عينه أداة خير وأداة شرّ بالنسبة إلى الآلهة والناس وأنّ الآلهة خاضعون لتلك الاضطرابات التي يعزوها أبوليوس إلى البشر والشياطين من دون سواهم. بيد أنّ برفير يميّز بين الآلهة والشياطين، من حيث ارتفاع مكان إقامتهم، فيلتقي بذلك مع أفلاطون. تلك هي العبادة التي يجب أن نؤدّيها إلى الألوهة أو، بتعبير أوضح، إلى الألوهة التي يؤمن بها الإنسان دون الاستناد إلى الوحي؛ ولكي أعبّر عن هذه العبادة، بكلمة واحدة، لا أجدها في اللغة اللاتينيّة أتوجّه إلى اليونانيّة لآخذ منها لفظة تعبّر

بشكل أفضل عن فكرتي حيثما استعمل الكتاب المقدّس لفظة «لاتْريا» (Latrie) نترجمها بلفظة عبادة؛ بيد أن هذه العبادة الواجبة للناس التي يتكلّم عنها الرسول في دعوته الخدّام إلى أن يطيعوا معلّميهم يعبّر عنها بلفظة يونانيّة أخرى. إنّ كلمة «لاتريا» (Latrie) في لغة الكتب المقدّسة تعني دومًا أو تكاد باستمرار الخدمة المتعلّقة بعبادة الله، على أنّ لفظة عبادة (Culte) لا تعني حصرًا الإكرام الواجب لله من دون سواه بل تعني أيضًا الضريبة التي ندفعها إلى الإنسان من خلال حضورنا أو تذكاراتنا؛ ولا يقال فقط عن الأشياء التي نعترف فيها تجاهها بارتباطنا بها بل يتجاوزها إلى تلك التي تتعلّق بنا؛ وتشتقّ من تلك اللفظة أسماء تعني فلّاحين ومستعمرين وسكّانًا؛ ويسمّون الآلهة أنفسهم سكّان السماء؛ لا لأنّهم يحترمون السماء بل لكونهم يسكنونها. إنّ التعبير «مستعمرون سماويّون» يختلف كلّيًّا عن لفظة «مستعمرين عاديّين» لأنّ وضعهم يتعلّق بالأرض التي ولدوا فيها والتي يجب أن يحرثوها، خدمةً لمعلّميهم، بيد أنّه تعبير مرادف للتعبير الذي جاء به أحد آلهة اللغة اللاتينيّة: «مدينة قديمة كان يسكنها مستعمرون من صور» ويسمّيهم مستعمرين؛ وهي لفظة مشتقّة من لفظة إسكان لا من لفظة زراعة. وبهذا المعنى فإنّ بيوت النحل الجديدة التي بُنيت، في المدن الكبرى، تسمّى مستعمرات. وعلى هذا النحو، وإن يكن صحيحًا أنّ تلك اللفظة في مضمونها الذاتيّ والحميم تعني العبادة الواجبة لله وحده كما تأخذ معاني أخرى نستنتج من كلّ ذلك أنّ اللغة اللاتينيّة لا تستطيع أن تعبّر، بكلمة واحدة، عن العبادة التي يجب أن نقدّمها إلى الله من دون سواه.

وإن تكن لفظة ديانة تشير نوعًا ما إلى عبادة الله نرى اللاتين يستعملونها كمرادف للكلمة اليونانيّة؛ مع ذلك فإنّ التعبير العاديّ الذي يضع على لسان الجاهِل والعالِم إلزاميّة صيانة الديانة من الأحلاف والأنساب البشريّة والعلاقات الاجتماعيّة بأسرها؛ فإنّ تلك اللفظة لا تحفظ من الالتباس؛ ولا يبقى معناها محصورًا في عبادة اللاهوت بحيث لا يجرؤ احترام رُبُط الدم القائمة بين الناس، على أن يقتنصها لمصلحته. والتقوى تدخل، من حيث المعنى، في عبادة الله (وفي اليونانيّة) مع أنّها تعني أيضًا إتمام الواجبات تجاه الوالدين؛ ويعني بها الشعب أعمال الرحمة؛ وهو ما اقتُبس من الفكرة بأنّ الله يأمر بها؛ ويرضى بها أكثر من الذبائح على أنواعها (متّى ٩/ ١٣) وهذا تعبير يصف الله أيضًا بالتقيّ؛ على أنّ اليونان ما استعملوا لفظة بهذا المعنى وإن تكن لفظة تعطي معنى شعبيًّا للفظة رحمة، كما نلحظ في بعض مقاطع من الكتاب المقدّس.

١٠

وهكذا فإنّ برفير، أفلاطونيًّا آخر، قيل إنّه أعلم من أبوليوس، يعطي أحد العلوم السحريّة قدرةً على تعكير صفو الآلهة والتأثير فيهم وهل في الأمر صلوات أو تهديدات حوّلتهم عن تنقية إحدى النفوس؟ بينما هم يرتجفون تحت إمرة الشرّ فإنّ الصلاةَ السحريّة عاجزةٌ عن أن تحرّرهم من الرعب وتعيد إليهم القدرة على القيام بعمل حسن. مَن ذا الذي لا يكتشف هنا أكاذيب الشياطين إنه أحد عبيدهم التعساء الذي يجهل نعمة المحرّر الحقيقيّ؟ إن كان

الأمر متعلّقًا بالآلهة الصالحين فإنّ الفضيلة بقربهم، التي تستدعي تنقية النفس، ألا تؤثّر أكثر من الرذيلة التي تناقضها؟ إن كان الإنسان الذي يستعطفون الآلهة من أجله، يبدو لهم غير جدير بتلك النعمة، فهل يجب عليهم أن يرضخوا لتهديد رجلٍ حسود؛ أو كما يؤكّد ذلك برفير خوفًا من إله أقوى؟ أليس القرار الحرّ هو الذي يأمر بالرفض؟. وماذا؟ ألا يجد ذاك الكلدانيّ الحكيم الذي يريد أن ينقّي نفسًا من خلال عمليّات سحريّة إلهًا ما أسمى لطمأنة هؤلاء الآلهة المضطربين أو لإرغامهم قهرًا على القيام بالخير الذي يُطلب منهم؟ وفي حال انتفاء عمليّة سحريّة تنجّي، بادئ ذي بدء، من رعب مشؤوم، هذين المحرّرين للنفس، فهل يجد هذا الساحر إلهًا ما قديرًا؟ السحر الأبيض يعرف واحدًا يرهبهم ولا يعرف واحدًا آخر يطمئنهم. أجل، نجد إلهًا واحدًا يستجيب الحسود ويقيّد بالخوف العمل الطيّب لسائر الآلهة؛ لكنّنا لا نجد واحدًا يستجيب للبارّ ويعطي الآلهة، الذين اطمأنّوا، القدرة على عمل الخير. يا للسحر الأبيض العجيب! سرّ غالٍ في تنقية النفوس يعطي الحسدَ القذِرَ سلطانًا على أن يمنع الخير هو أوسع من ذاك الذي يعطي الإرادة ثقة في سبيل الحصول عليه! مساوئ كريهة لأرواح شرّيرة! فلنهرب منها ولنصغِ إلى تعليم. يقال إنّ تلك الصور الملائكيّة أو الإلهيّة جميلة جدًّا في البعض منها، يكشفها أرباب تلك العمليّات التطهيريّة الفاسدة للنفس التي تنقّت على حدّ قولهم؛ أليس ذلك من عمل الشيطان «الذي يتحوّل إلى ملاك نور» على حدّ قول الرسول (إذا كان ذلك صحيحًا)؟ إنّه هو الذي يغار على إحاطة النفوس بغلاف من الأسرار الكاذبة للآلهة الدجّالين، فيبعدها عن الإله الحقّ، الذي

وحده يقدر على أن ينقّي ويشفي؛ إنّه وحده يُكثر الأوهام وعلى مثال برونيوس «يلبس كلّ الأشكال»؛ إنّه مضطهِد مستميت ومعاون شرّير ولا يخطأ البتّة في إلحاق الأذى بالآخرين.

١١

أساطير وخرافات

إنّ برفيروس يقرّ لأنابون المصريّ بأنّه على حقّ في كتابه حيث يبدو أنّه يستشيره وحيث في الواقع يميط اللثام عن ذاك الفنّ المدنّس للقدسيّات وينقضه. فيه يثور على جميع الشياطين الذين يقول فيهم إنّهم مشدودَون بشكل جنونيّ إلى بخار الذبائح الكثيف؛ ولهذا فإنّهم لا يسكنون الأثير؛ بل الفضاء تحت القمر، وفي جرم القمر بالذات. غير أنّه لا يجرؤ أن يتّهم الشياطين بأجمعهم بتلك المفاسد والأشياء الخبيثة والتفاهات التي تزعجه حقًّا، لأنّه، كسائر الفلاسفة، يقرّ بأنّ بينهم صالحين؛ وإن كانوا بوجه عامّ على شيء من الخَبَل؛ ويعجب كيف أنّ بعض الآلهة لدى تقديم الذبائح، ليس فقط يرتاحون إليها، بل ينقادون مرغمين إلى تنفيذ إرادة البشر؛ ويسأل هل الآلهة والشياطين بالجسد وبما ليس جسديًّا يتميّزون؛ كيف يمكننا أن نعتبر آلهة الشمس وسائر الأجرام المشعّة في السماء التي هي ولا شكّ ذات أجرام؛ وإن كانوا آلهة فكيف نقبل بطيبة بعضهم وسوء الآخرين؟ وأخيرًا إن كانوا ذوي أجساد فما الذي يجمع بينهم وبين ما ليس جسديًّا؟ ثمّ يسأل، وفي سؤاله بعض الشكّ هل المنجّمون والسحرة معروفون بقدرة نفسيّة يمتازون بها عن عامّة الناس، أو هل هذه القدرة

تأتيهم من روح غريب؛ وينضمّ إلى جماعة الرأي الأخير لأنّهم يستعملون الحجارة والأعشاب لكي يفتحوا الأبواب ويمارسوا السحر وما شابه ذلك؛ ومن ثمّ، وعلى حدّ قول برفيروس كثيرون يعترفون بوجود أرواح من نظامٍ ما تصغي إلى طلبات الناس؛ طبائعها خبيثة، نافذة البصيرة، تتقلّب، بسرعة، من حال إلى حال، تارة هي آلهة، وطورًا هي شياطين وأرواح موتى، تعمل كلّ ما يحدث من شرّ أو خير؛ غير أنّها لا تعمل ما يساهم في الخير الحقيقيّ الذي تجهله؛ وبما أنّها تدعو إلى الشرّ فإنّها تقلق راحة أشدّ الناس غيرة على الفضيلة؛ وتؤخّرهم عن ممارستها. إنّهم بطّالون يتذوّقون روائح الذبائح ويهَوون التملّق والكذب. كلّ رذائل تلك الأرواح التي تنساب في النفس وتحاصر الإنسان في منامه وصحوه بألف همّ وهمّ، يشير إليها برفيروس، من دون اقتناع؛ ولكن بشكل غامض وفيه بعض الشكّ؛ كما يوحي بها رأي غريب لأنّه بات من الصعب على فيلسوف عظيم أن يرفع الستار ويتّهم بشجاعة ذاك المجتمعَ من الشياطين الذي تكتشفه بسهولة الأخيرة بين عجائزنا وتعلن عن كراهيّتها له، بلا خوف ولا وجل؛ لربّما أراد هنا أن يتجنّب الإساءة إلى أنُوبُون في كتابه إليه بصفته حبرًا في أمثال تلك الأسرار وإلى سواه من المعجبين بتلك الأسرار الإلهيّة المزعومة والمختصّة بعبادة الآلهة.

غير أنّه يتابع عارضًا وبكلّ احتياط بعض الأحداث التي لا يمكن الإنسان الذي يدقّق فيها إلّا أن يردّها إلى قوى خبيثة وخدّاعة. ولم تُعطَ الأوامر إلى الأرواح الشرّيرة بأن تنفّذ ما يأمر به البشر، بدون حقّ، بعد أن يرفع الدعاء إلى الأرواح الصالحة؟ ولِمَ لا تُستجاب صلوات ضحيّة تقدّم لفينوس، في حين أنّ

الأرواح تشجّع على أعمال الزنى مع أقارب؟ ولِمَ يفرضون على كهّانهم الامتناع عن أكل اللحوم كيلا يتلطّخوا بخطأ ما، في حين أنّهم يسكرون من رائحة الذبائح؟ ولِمَ يحرّم على المتدرّب أن يمسّ جثّة بينما لا يصير الاحتفال بالأسرار إلّا مع الجثث؟ وأخيرًا كيف يمكن مدمنًا على الرذيلة أن يهدّد شيطانًا روحَ ميت؟ ماذا أقول؟ كيف له أن يهدّد الشمس والقمر وينتزع منهما بأعمال إرهابيّة باطلة، الحقيقة؟ يهدّدهم بتحطيم السماء بأعمال بشريّة يستحيل على الإنسان أن يقوم بها؛ في حين الآلهة أشبه بأولاد مخبولين يضطربون لتلك السخافات فيطيعون الأوامر! إنسان ما يدعى شرمون متضلّع من ذلك العلم السرّيّ أو بالأحرى النجس كتب بحسب ما شهد بذلك برفيروس أنّ أسرار أوزيس وأوزيريس زوجها المبنيّة على تقاليد معروفة تؤثّر، بشكل ثابت، في إرادة الآلهة عندما يهدّدهم الساحر بتدمير طقوسهم، إذ يكشف عن أسرارهم ويصرخ بصوت مرعب مهدّدًا بتمزيق أعضاء أوزيريس إذا عصا أوامره. أن يهدّد إنسان ثائر بهذا الشكل الآلهة ويا لهم من آلهة! سكّان السماء المشعّين نورًا! ولا تبقى تلك التهديدات بلا جدوى بل تخضع ارادات الآلهة عن طريق الإرهاب؛ برفيروس يعجب لذلك بحقّ، ثمّ يشير، من خلال بحث ظاهريّ، عن أسباب هذه المظاهر إلى العمل السرّيّ لتلك الأرواح التي أعطى وصفًا لها، وكأنّه لإنسان آخر، فجاء كما يلي: أرواح خدّاعة، لا من طبعها، كما يُظنّ؛ بل عن خبث؛ نفوس أمواتٍ تجعل ذاتها آلهة ولا تجعل ذاتها شياطين كما يقول لأنّها بالحقيقة هكذا. وتلك التشكيلات المكوّنة من الأعشاب والحجارة والحيوانات وبعض الأصوات وصورٍ إمّا خياليّة أو مأخوذة،

مراقبة الحركات السماويّة، وتصبح على الأرض بين يدي الإنسان قوى لها عدّة مفاعيل: كلّ ذلك هو عمل الشياطين، دون سواهم، الذين يغشّون النفوس التي يستعبدونها ويلتذّون بخبث في أخطاء الناس. إمّا أنّ برفيروس يشكّ في الموضوع، ويسعى جدّيًّا معلنًا ضدّ مصلحة ذلك العلم الأثيم عن أحداث تبرهن أنّ الخزعبلات السحريّة لا تصدر عن قوى تساعدنا على الوصول إلى السعادة بل تصدر عن شياطين الإغراء؛ أو مسايرة لفيلسوف لا يريد أن يواجه المصريّ العبد المدّعي لتلك الأخطاء بسلطة تعليميّة تهينه، وعداوة مناهضة له تزعجه، ولكن بدافع من إنسان متواضع راغب في التثقّف يريد أن يستشيره ويتّجه به نحو أفكار جديدة ويحمله على أن يحتقر بشدّة تلك الأفكار ويخاف منها. وأخيرًا نراه ينهي تقريبًا رسالته إلى أَنِيبُون (Anébon) طالبًا منه أن يعلّمه الطريقة التي توصل بها الحكمة المصريّة الإنسان إلى السعادة. أمّا الذين يقتصر حديثهم على الآلهة على طلبات تقوم على استعادة عبد أو أرض أو وظيفة أو زوج فهذه كلّها أمور تافهة يزعجون بها العناية الإلهيّة ويجاهرون باطلًا بالحكمة. ثمّ يضيف بالرغم من تنبّؤاتهم الصحيحة حول باقي الأمور فإنّ هؤلاء الآلهة المتآلفين، فإذا لم يكن لهم أدنى مشورة أو وصيّة يعطونها في سبيل السعادة؛ فليسوا تاليًا، لا آلهة ولا شياطين صالحين بل هم الروح المغري أو كذبة بشريّة.

١٢

العجائب مرتبطة بإرادة الله وحده

وبما أنّ أمورًا عجيبة تحدث وتفوق كلّ قدرة بشريّة، ماذا يبقى علينا أن نقول بشكل معقول سوى أنّ تلك التنبّؤات أو العمليّات العجيبة الممهورة بقدرة عالية، إن لم تكن مرتبطة بعبادة الإله الحقّ الذي يقرّ ويعترف به الأفلاطونيّون، من خلال شهاداتهم العديدة، لأنّ محبّته هي الخير الوحيد والسعادة الوحيدة، وأنّ الباقي ليس سوى تدجيل وكذب تقوم به الأرواح الشرّيرة، فضلًا عن الأحابيل والإغراءات التي تضعها الأرواح الشرّيرة وتأبى الرضوخ لها التقوى الحقيقيّة؟ أمّا العجائب على أنواعها التي تتمّ على أيدي الملائكة أو بأيّة طريقة أخرى فإن كانت تصبو إلى تمجيد ديانة الإله الحقّ وعبادته تكون المبدأ الوحيد للحياة السعيدة ويجب علينا أن ننسبها إلى الأرواح التي تحبّنا حبًّا حقيقيًّا؛ ومن الواجب حقًّا الاعتقاد بأنّ الله ذاته يعمل فيهم وبواسطتهم. لسنا نصغي إلى الناس الذين يرفضون أن تكون للإله غير المنظور القدرة على اجتراح عجائب منظورة ما دام أنّه بحسب رأيهم، خالق الكون الذي لا يستطيعون أن ينكروا إمكانيّة رؤيته. كلّ ما في الكون من عجائب هو دون هذا الكون العجيب الذي صنعه الله؛ وكما أنّ سرّ عمل الفنّان ذاته يبقى مجهولًا، هكذا هي حال الإنسان. وإن تكن هذه الأعجوبة الدائمة في الطبيعة المنظورة التي ألفتها أعيننا، قد خسرت من قيمتها، مع ذلك فإنّ العقل الذي يتأمّله، بشكل جدّيّ، يجده أسمى من

أعجب العجائب وأكثرها ندورة. بين العجائب التي تتمّ بواسطة الإنسان يبقى الإنسان أعظم منها كلّها؛ إنّ الله الذي صنع السماء والأرض منظورتين يصنع عجائب منظورة في السماء وعلى الأرض لكي يرفع إلى عبادة كيانه، غير المنظور، النفس التي لا تزال مرتبطة بالمنظور؛ بيد أنّ المكان والزمان اللذين يعمل فيهما فهذا هو سرّ حكمته الأزليّة التي تأمر المستقبل وكأنّه حاضر. الله لا يتغيّر في الزمن بل يحرّك الأشياء الزمنيّة ولا فرق عنده في معرفة ما قد تمّ عمله وما سوف يتمّ؛ لا يستجيب صلاةً بغير ما كانت متوقّعة؛ عندما يصغي ملائكته إلى الإنسان فهو الذي يصغي إليه من خلالهم كما في هيكله الحقيقيّ، في هيكله الروحيّ والقدّيسون هم أيضًا هذا الهيكل وأخيرًا فإنّه يملي في الزمن الأوامر الصادرة عن شريعته في الأزل.

١٣

الله يكشف ذاته لآباء العهد القديم

ولا نعجبن من أنّ الله، غير المنظور، قد ظهر، على حدّ قول الكتاب المقدّس، بشكل منظور للبطاركة. إنّ الصوت الذي يعبّر في الخارج عن فكرة أبدعها العقل، في سرّه، ليس الفكرة ذاتها؛ والصورة التي ظهر فيها الله غير المنظور، بطبيعته، هي غير الله ومع ذلك فقد أظهر ذاته للعالم تحت ذلك الشكل كما أنّ الفكرة في نبرة الصوت تظهر لنا ولا يجهل بطاركة العهد القديم أنّ الله غير المنظور كشف ذاته لأعينهم تحت ذلك المظهر الجسديّ الذي ليس هو. إنّه يتكلّم مع موسى ويكلّمه موسى ويقول له

موسى: «إن كنت قد وجدت حظوة لديك أظهر نفسك لي فأتثبّت من أنّي أراك أنت نفسك» (خروج ٣٣/١٣). وكما أنّ الشريعة لا توجّه إلى إنسان واحد ولا إلى قلّة من الحكماء بل إلى أمّة بأسرها وإلى شعب كبير جدًّا، فيعلنها الملائكة بأصواتهم الرهيبة وتتمّ معجزات مذهلة على هذا الجبل الذي يتقبّلها عليه رجل واحد، بحضور عدد كبير من الجماعة المرتعدة، لأنّ إسرائيل لا يصدّق موسى كما صدّق لاسِيدِيمُونوس (Lacédémone) لِيكُورْغْ (Lycurgue) الذي كان ينسب إلى جوبيتر أو إلى أفلو الشرائع التي كان قد وضعها. كان من الواجب في سبيل إقامة الشريعة التي تفرض على الشعب المختار عبادة الإله الواحد أن يشار إليها بعلامات عجيبة ورهيبة تضعها العناية الإلهيّة أمام أعين ذاك الشعب لكي تعلّمه أنّه يجب على الخليقة أن تعبد الخالق في ذاك المكان بالذات.

١٤

كلّ ما في الكون من جمال هو من الله

على مثال تربية إنسانٍ واحد فإنّ التربية الشرعيّة للجنس البشريّ الذي يمثّله شعب الله قد مرّت ببعض حقبات وأعمار متتالية لترتفع من الزمن إلى الأبديّة، ومن المنظور إلى غير المنظور، وبينما كانت الوعود الإلهيّة تبشّر بمكافآت ماديّة محسوسة فقط ظلّت عبادة الإله الواحد مفروضة عليه لكي يعلّم العقل البشريّ ألّا يتوجّه إلّا إلى خالقه ومعلّمه، حصولًا على تلك الخيرات ذاتها السريعة العطب، كالحياة لأنّ ما يستطيع أن يفعله الإنسان أو الملاك من خيرٍ للإنسان مرتبط بالقدير من دون سواه؛ ومجنون كلّ مَن لا

يقبل بذلك. وفيما يتكلّم أفلوطين عن العناية الإلهيّة نراه يبرهن بواسطة جمال الأزهار والأوراق على أنّها من أعالي الألوهة الجمال المعقول واللامتغيّر فإنّ ذاك الجمال يمتدّ إلى تلك الأشياء الأخيرة من الخليقة الأرضيّة؛ وهي مخلوقات ضعيفة وزائلة. برأيه لا يمكنها أن تقدّم تجانسًا في أشكالها، إلّا إذا استمدّته من الصورة المعقولة، اللامتغيّرة، التي منها ينبع كلّ كمال. ويعلم الربّ يسوع الحقيقة ذاتها عندما يقول: «وما بالكم تهتمّون باللباس؟ تأمّلوا زنابق الحقل كيف تنمو وهي لا تتعب ولا تغزل، أقول لكم إنّ سليمان نفسه في كلّ مجده لم يلبس كواحدة منها؛ فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم وغدًا يطرح في التنور يلبسه الله هكذا فكم بالأحرى يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟» (متّى ٦/٢٨-٣٠). إنّه لصحيح أنّ النفس البشريّة المرتبطة بضعفها في أمور الأرض والزمان، المتعلّقة بتلك الخيور التي تراها ضروريّة لحاجات الحياة الهاربة، خيور حقيرة بالنسبة إلى كنوز الحياة الأبديّة تتعوّد في ألّا تنتظرها إلّا من الإله الحقيقيّ؛ بحيث لا يُبعدها التوق إليها عن ذاك الذي لا تستطيع أن تتملّكه إلّا إذا هربت منها واحتقرتها.

١٥

عمل العناية الإلٰهية في الكون

لقد أرادت العناية الإلهيّة أن تفرض على مرّ الزمن نظامًا معيّنًا وفق ما قلت سابقًا وكما جاء في أعمال الرسل؛ وأعلنت هذه الشريعة التي تأمر بعبادة الله الواحد الحقّ بواسطة الملائكة. إنّه

لحدثٌ رائع يظهر فيه الله شخصيًّا بشكل مرئيّ، إن لم يكن في جوهره غير المنظور بأعين الناس فأقلّه من خلال بعض علامات محسوسة تنقلها المخلوقات المؤمنة إلى خالقها. فيها يعبِّر اللسان البشريّ، في تقطّع متتابع من الكلمات، عن ذاك الذي كلمته روحٌ وعقلٌ وأبد، كلمة لا بداية لها ولا نهاية؛ كلمة تسمع بكلّ نقاوتها لا بالأذن بل بالفكر وبواسطة خدّامه ومبعوثيه الذين يحظون بحقيقته اللامتغيّرة في وسط سعادة أبديّة؛ كلمة تعطيهم بشكل لا يوصف الوصايا الواجب نقلها في النظام المحسوس والظاهر وينفّذونها، بسرعة، من دون تلكّؤ. لقد أُعطيت الشريعة بحسب تقسيم الأزمنة؛ اكتفت في البداية بإعطاء وعود بخيرات زمنيّة ترمز إلى الأبديّة. إحتفالات منظورة تتضمّن في طيّاتها أسرارًا، يحتفل بها الشعب بأسره، في حين يبقى فهمها مقصورًا على عدد ضئيل. ولكن تتّفق كلّ الكلمات والاحتفالات على الدعوة عاليًا إلى عبادة الإله الواحد. مَن هو ذاك الإله؟ إنّه ذاك الذي خلق السماء والأرض وكلّ نفس وكلّ روح متميّز عنه؛ إنّه الخالق الذي صنع بيديه جميع الكائنات التي تحتاج إلى الذي صنعها لتكون وتبقى.

١٦

يجب التمييز بين مَن يطلبون الذبائح لأنفسهم ومن يطلبونها للإله الواحد

مَن من الملائكة نصدّق في ما يختصّ بالحياة السعيدة والأبديّة؟ هل نصدّق الذين يطالبون لأنفسهم بالعبادة، ويطلبون

من الناس أن يكرموهم كآلهة، ويقدّموا لهم ذبائح، أم الذين يوجّهون كلّ تكريم إلى خالق الكون ويريدون أن يصلوا إلى الله من خلال تقوى حقيقيّة؛ الله وحده الذي برؤيته يسعدون، ويعدوننا بسعادة مثيلة لها؟ مشاهدة الله هذه هي ذات جمالٍ رائع أهلٌ لأن يحبّ كثيرًا بحيث إنّ الإنسان بدونها، وإن فاضت عليه خيور الأرض كلّها، يبقى تعيسًا جدًّا وذاك ما أعلنه أفلوطين *(Ennéades 1)*. وعلى هذا النحو كما أنّ بعض الملائكة يدعونا بواسطة علامات هذا الكون إلى عبادة الإله الواحد وإلى عبادتهم من دون سواهم، مع هذا الفرق، وهو أنّ أولئك يحرّمون علينا أن نعبد هؤلاء؛ وهؤلاء لا يجرؤون على أن يحرّموا عبادة إله الأوّلين. فمَن يبقى علينا أن نصدّق؟ أجيبوا أيّها الأفلاطونيّون؛ أجيبوا أيّها الفلاسفة؛ أجيبوا يا أصحاب السحر الأبيض أو بالأحرى أجيبوا يا زبانية الجحيم لأنّه اللقب الذي ينطبق على جميع الممتهنين لتلك الحِيَل السحريّة. وأخيرًا أجيبوا أيّها الناس إن بقي فيكم بعض إحساس في طبيعتكم العاقلة؛ أجيبوا: هل للآلهة تضحّون أم للملائكة طالبي الذبيحة باسمهم الخاصّ تضحّون؟ أم لهذا الإله الواحد الحقّ الذي يوجّهكم إليه هؤلاء الذين يحرمون تقديم الذبيحة إليهم وإلى الآخرين؟ وبينما لا تقوم من هنا وهناك أيّة أعجوبة ويظلّ كلّ شيء محصورًا بين دعوةٍ من هؤلاء، وتحريم من أولئك، ينحصر التمييز بين الفئتين، فئة المتكبّرين المزهوّين، وفئة الدين الصحيح في يدي التقوى الصحيحة، ثمّ أضيف قائلًا: عندما ينفرد مغتصبو الحقوق الإلهيّة بصنع أعمال مذهلة ليفاجئوا بها نفوس البشر من دون أن تبرهن الأرواح الأمينة عن سلطتها بأعجوبة منظورة على التقوى، آنذاك

تتفوّق عليها بالمنطق من دون الحواسّ؛ ولكن عندما يسمح الله لتلك الأرواح الخالدة التي لا تبالي بمجدها الخاصّ، بل بمجده تعالى، فتعلن حقيقته بمعجزات عظيمة ثابتة وواضحة وتوفّر على النفوس الضعيفة خطر الوقوع في الجحود، الذي قد يدفعها إليه المضلّلون المناصبون العداء لمجد الله بما يقدّمون لها من مظاهر وهميّة خدّاعة، إذ ذاك أين يكون الأحمق الرافض الحقيقة بقلب فرح وهي تقدّم له المعجزات التي تدعو إلى الإعجاب؟ إنّ كلّ ما يذكره التاريخ من أعمال مذهلة لآلهة الوثنيّين، ولست أتكلّم هنا عن تلك الأحداث الطبيعيّة ونتائجها الغريبة التي رتّبتها وحدّدتها العناية الإلهيّة والمعجزات التي تظهر من وقت إلى آخر: نتاج حيوانيّ ممسوخ؛ حوادث غير عاديّة في السماء وعلى الأرض، ضربٌ وتهديدات، قد تقوى الشياطين، إذا ما صحّت أكاذيبهم، أن تسيطر عليها أو تحدّ منها؛ إنّما أتكلّم عن الغرائب التي تحدّث عن قدرتهم كصور الآلهة المختصّين بالمنازل التي حملها معه إينيه من طروادة، أثناء هربه، متنقّلًا منها من مكان إلى آخر؛ وذلك الحجر الذي يقطعه تركوينوس بموسى الحلاقة وحيّة أبيدوريوس الرفيق الأمين لأسكولاب خلال سفره إلى روما والسفينة التي حملت صنم الإلهة الفريجيّة الكبيرة والتي لم يستطع أن تحرّكها مجموعة من البشر والثيران، في حين أنّها تحرّكت، لمجرّد أنّ امرأة ما شدّتها بزنّارها شهادةً لطهارتها؛ وتلك المرأة، المتّهمة بالفسق، برهنت عن براءتها عندما استقت الماء من نهر التيبر في الغربال؛ وهل يمكن أن نقارن بين تلك الغرائب وكثير سواها والعجائب التي شهدها شعب الله؟ والآن هل يجرؤ إنسان على أن يقارن بينها وبين أعمال السحر والعرافة التي تحرمها

وتعاقب عليها قوانين الشعوب التي تعبد آلهة سفلة؟ إنّه لتدجيل وتضليل لكثيرين، أن ينزل القمر، مثلًا، كما يقول الشاعر لوكَايْن بغية أن يقطر زبده على الأعشاب عن كثب. ومع أنّ تلك الغرائب تبدو، ظاهريًّا، شبيهة ببعض العجائب الشرعيّة، فهذه تختلف عنها من حيث الغاية وتتفوّق بها عليها كثيرًا. بعضها يتحقّق لمصلحة آلهة كثيرين لا يستحقّون شيئًا من ذبائحنا التي يلحّون عليها؛ وبعضهم الآخر لا يهدف إلّا إلى مجد الإله الواحد الذي يبيّن لنا من خلال الكتب المقدّسة ثمّ من خلال إلغاء الطقوس الدمويّة أن لا حاجة لديه إلى تلك التقدِمات. وعليه فإن وُجد ملائكة يطالبون بالذبائح، لأنفسهم، إذ ذاك وجب أن نفضّل عليهم مَن يطالبون بالذبائح، للإله الواحد، الذي يعبدونه، خالق الكلّ، وبذلك يبرهن لنا هؤلاء الملائكة الأمناء عن محبّتهم الصادقة لنا، لأنّهم لا يريدون أن يُخضعونا لهم بل لمَن يسعدون بمشاهدته بشكل سام ويدعوننا إليها وهي جزاء أمانتهم التي لا غشّ فيها. إن وجد ملائكة لا يريدون أن يقدّموا ذبائح إلى إله واحد بل إلى عدّة آلهة، لا إلى ذواتهم بل إلى الآلهة الذين أقيموا ملائكة لهم فيجب أن نفضّل عليهم ملائكة إله الآلهة الذين يأمرون بتقديم الذبائح له وحده ويحرمون تقديمها لسواه عندما، لا أحد من جهة أخرى، يحرّم تقديم الذبيحة لهذا الإله الواحد الذي يوصوننا به. وعليه فإن كانت الأرواح التي تفرض الذبيحة لنفسها ليست ملائكة صالحين ولا ملائكة آلهة صالحين فأيّة رعاية نطلبها أقوى من رعاية الإله الواحد الذي يخدمه الملائكة الصالحون الذين يأمروننا بأن نضحّي فقط لمَن يجب أن نكون له الذبيحة؟

١٧

الله يرافق شعبه وعندما يخطأ يعاقبه

ولهذا فإنّ الشريعة الإلهيّة المعلنة بواسطة الملائكة الآمرة بعبادة الله الواحد، إله الآلهة، دون سواه، كانت في تابوت الشهادة؛ ويوضح هذا التعبير أنّ الله الذي يكرم إكرامًا خارجيًّا، وإن يكن من قلب التابوت يعطي أجوبته، بواسطة علامات محسوسة، مع ذلك فإنّه لا يعرف حدودًا ولا سورًا، لكنّه داخله يعلن إرادته. الشريعة ذاتها كانت مكتوبة على ألواح من حجر وموضوعة في التابوت؛ ويوم كان الشعب تائهًا في الصحراء، كان الكهنة يحملونها باحترام في التابوت المسمّى كذلك تابوت الشهادة، وكان يستدلّ بعلامة، وهي كناية عن عمود من دخان يسير أمامه. والعبرانيّون يتبعونه وحيثما يقف كانوا ينصبون خيامهم. ولكن، فضلًا عن تلك المعجزات والأصوات الخارجة، من داخل التابوت، شهدت عجائب كثيرة أخرى للشريعة. وفي مدخل أرض الميعاد ويوم اجتاز التابوت نهر الأردنّ، ضبط النهر مياهه العالية، وترك السفلى تجري لكي يمرّ الشعب المرافق. والمدينة الأولى التي التقاها مدينة عدوّة عابدة للأصنام رأت أسوارها تقع، بلا مهاجمة، ولا كبش بعد أن طاف حولها سبع مرّات. وبعد أن أقام العبرانيّون في أرض الميعاد وخطئوا، عوقبوا على خطاياهم فسيطر الأعداء على التابوت ووضعوه، مكرّمًا في الهيكل، فوق كلّ شيء، إلى جانب الصنم؛ وفي الغد عندما فتحوا الباب وجدوا الصنم مطروحًا، أرضًا، ومحطّمًا بشكل مخجل. إستولى الرعب على الأعداء لما رأوا

ونزلت بهم ضربة مخجلة إذ ذاك أعادوا إلى إسرائيل تابوت العهد الإلهيّ. ولكن كيف تمّ ذلك؟ رفعوا التابوت على عربة تجرّها عجلاتٌ فُطِمَتْ صغارُها فأطلقوا لها العنان، لكي يعرفوا تصميم الله. فانطلقت البقرات بالعربة مباشرة إلى العبرانيّين من دون أن تصغي إلى خوار صغارها الجائعة وحملت إلى عبّاد الأسرار الإلهيّة التابوت السرّيّ. إنّها لأحداث تافهة بالنسبة إلى الله؛ أمّا بالنسبة إلى البشر فإنّها ملأى بالتعاليم والخوف الخلاصيّ. إنّ الفلاسفة ولا سيّما الأفلاطونيّين الأكثر حكمة من سواهم يجدون في هذا الجمال المتعدّد الذي يكسو الأجسام الحيّة وعشب الحقول دليل عناية ترعى كلّ ما في الطبيعة من صغار الأشياء. ما أقربها إلى الإلهيّات تلك الشهادات لديانةٍ تحرّم تقديم ذبيحة لغير الله بالذات من دون أيّة قدرة بسواه على الأرض وفي السماء. إنّه الإله الذي، بحبّه، يجعل مَن يحبّونه سعداء؛ ديانة تبشّر بنهاية الذبائح المفروضة وإصلاحها بواسطة حبر عظيم، يبيّن أنّ الله ليس بحاجة إلى تلك الذبائح، ظلّ لذبائحَ أكمل ورموزٍ لها؛ ولا يهدف ذلك الإكرام الذي لا يفيد منه إلّا لأن نرتبط به بربط الحبّ المضطرمة وعبادة أمينة؛ إنّه لإكرام لا يزيد في سعادته بل منه وحده ننهل سعادتنا.

١٨

الله يهب السعادة

لربّ إنسان يقول: يا لها من أعجوبة كاذبة! لقد كُذّب التقليد! كلّ مَن يتكلّم هكذا ويزعم أنّه، على هذا النظام من الأحداث، ما

من تقليد جدير بالإيمان، ويدّعي أيضًا أنّ لا إله يهتمّ بالنظام الزمنيّ لأنّ آلهة الأمم ما أسّسوا عبادتهم، كما يشهد بذلك تاريخهم، إلّا على أحداث عجائبيّة تثير إعجاب الناس ولا تستحقّ تقديرهم. إنّني لم آخذ على نفسي في هذا الكتاب العاشر الذي نحن بصدده بأن أدحض مزاعم كلّ مَن ينفي القدرة الإلهيّة أو العناية الإلهيّة، لكني أقصد الذين يفضّلون آلهتهم على إلهنا الذي أسّس المدينة المقدّسة والمجيدة من دون أن يشكوا بأنّ إلهنا هو المؤسِّس، غير المنظور، الذي لا يتغيّر، لهذا العالم المنظور، المتغيّر والذي يوزّع حقًّا السعادة الأبديّة التي ليست بالنسبة إليه استمتاعًا بمخلوقاته بل هبةُ ذاتِه. ألم يقل نبيّ الحقيقة: «وأنا فحسن لي القرب من الله». (مزمور ٧٢/٢٨). إنّه، كما نعلم، لمسألة يتناقش فيها الفلاسفة، مسألة الخير النهائيّ، هدف كلّ الواجبات. ما قال النبيّ: حسن لي أن أملك الثروات الطائلة وألبس الأرجوان وأتقلّد التاج وعصا الملك. كما لم يخجل بعض الفلاسفة من أن يقول: «حسن لي أن أتمتّع بملذّات الجسد». وبحسب رأي شريف بفلاسفة أكثر حكمة من سواهم: خيري هو أن تتحلّى نفسي بالفضيلة. يقول صاحب المزامير: «أمّا أنا فحسن لي القرب من الله» بمعزل عن كلّ إنسان. ذاك الذي ما تعلّمه ممَّن يطالب الملائكة القدّيسون بتقديم السجود له من دون سواه، مقدّمين العجائب شهادة لتعليمهم. لقد أصبح هو ذاته الذبيحة لذاك الإله الذي كان يتحرّق روحيًّا للاتّحاد به ويشتهي في نشوة من الشوق المقدّس أن يعانقه عناقًا طاهرًا يعجز عنه الوصف. ومن ثمّ فإنّ الذين يعبدون آلهة كثيرة، وأيًّا يكن رأيهم في الآلهة الذين يعبدونهم، يؤمنون بالعجائب المنسوبة

إليهم، استنادًا إلى التاريخ وإلى شهادات السحر أو إلى علم معروف بعلم استحضار الآلهة، يظنّونه أقرب إلى الشرعيّة، لماذا يا ترى، يرفضون الإيمان بعجائبنا التي تشهد لها الكتب المقدّسة التي تستمدّ سلطتها من عظمة ذلك الذي هو أعظم من الكلّ، الله الذي له وحده تأمر بتقديم الذبائح؟

١٩

الذبيحة المنظورة وغير المنظورة لله وحده

أن يزعم إنسان أنّ الذبائح المنظورة هي للآلهة الآخرين وأنّ الذبائح غير المنظورة لله غير المنظور، للأعظم أعظمها وللأفضل، كما هو احترام نفس نقيّة وإرادة صالحة. فهذا يعني الجهل بأنّ الذبائح المنظورة بالنسبة إلى الذبائح غير المنظورة هي كالكلمة بالنسبة إلى الحقيقة التي تعبّر عنها. الصلاة والمدائح تعبير عن التقدمة الباطنيّة؛ علينا أن نعرف أنّنا حين نقدّم ذبيحة نقدّم ذواتنا، في سرّ قلوبنا، ذبيحة غير منظورة، لمَن تحقّ له وحده الذبيحة المنظورة؛ وحينذاك يرتضي بنا الملائكة ويفرحون بفرحنا التقويّ؛ ونحظى بعون الفضائل السامية التي نقوى بقدسيّتها؛ ولكن حين نريد أن نكرّم تلك الأرواح الأمينة فنحن واثقون من أنّنا لن نرضيهم. وإن قاموا عند الإنسان بمهمّة مادّيّة فإنّهم يحرّمون علينا أن نقدّم لهم العبادة؛ الكتب المقدّسة تقدّم لنا أمثلة كثيرة على ذلك. فئة من الناس اعتقدت بأنّه يجب عليها أن تقدّم للملائكة، عن طريق العبادة أو الذبيحة، الإكرام الواجب لله فرفضته الملائكة وأمرت بعبادة الله الواجبة له وحده شرعًا.

القدّيسون يحذون حذو الملائكة؛ وعندما صنع بولس وبرنابا شفاء عجائبيًّا في ليكونيا اعتبرهما السكّان إلهَين وأرادوا أن يذبحوا لهما ذبائح، بيد أنّهما بتواضع عميق، شجبًا هذا الإكرام وبشّرا الناس بذاك الإله الذي به يؤمنان. أمّا الأرواح الكاذبة فإنّها تطالب بهذا الإكرام لها لأنّها تعرفه حقًّا لله، من دون سواه؛ وليس كما آمن برفيروس وسواه الذين يحبّون رائحة الذبائح بل يحبّون تكريم الله. على أنّ روائح الذبائح لا تنقصهم، ولو أرادوا المزيد منها لكان لهم ما يريدون. وماذا يريد هؤلاء الذين اغتصبوا بوقاحة مجد الله؟ إنّهم لا يريدون بخار ذبيحة لحميّة تحترق، بل رائحة نفس تتوسّل، وتنقاد وراء إغرائهم وتخضع لهم ويتوقون إلى أن يغلقوا بوجهها طريق السماء؛ ولا يستطيع الإنسان أن يكون قربانًا لله الواحد عندما يقرّب لسواه ذبيحة كفر.

٢٠

المسيح ذبيحة مستمرة في الكنيسة

إنّ الوسيط الحقيقيّ بين الله والناس الذي أخذ صورة العبد، يسوع المسيح، الإنسان القابل على مثال الله، الذبيحة مع أبيه، الإله الواحد معه، قد قبل أن يكون في صورة العبد؛ وفضّل أن يكون الذبيحة، بدلًا من أن يقبلها؛ فلا يدع آيّة ذريعة للإنسان تجعله يعتقد بضرورة تقديم الذبيحة لخليقة أيًّا كانت؛ وعليه، فهو إذًا الكاهن الذي يقرّب وأراد أن يستمرّ هذا السرّ في ذبيحة الكنيسة اليوميّة، الكنيسة، هذا الجسد، الذي هو رأسه والذي يقدّم ذاته بواسطته. كانت ذبائح القدّيسين القديمة رموزًا لهذه الذبيحة

الحقيقيّة، وهو معنى خفيّ تحت كثير من العلامات، كما يعلن الإنسان عن الفكرة ذاتها بأشكال مختلفة ليوقظ انتباه السامع ويستدرك الضجر. أمام هذه الذبيحة الجليلة والحقيقيّة اختفت جميع الذبائح الكاذبة.

٢١

ينتصر القديسون بواسطة الفضائل

ولكنَّ الأمر يترك أحيانًا، وفي أوقات معروفة مسبقًا ومحدّدة، للشياطين، لكي يثيروا الكراهية في الرجال الخاضعين لهم ضدّ مدينة الله؛ فيعاملوها بقسوة ويقبلوا منها الذبائح أو يفرضوها عليها فرضًا، وماذا أقول؟ يفرضونها عليها عنوة وعن طريق الاضطهاد. ولن يكون هذا الامتحان القاسي على الكنيسة ويلًا عليها بل خيرًا، إتمامًا لعدد الشهداء، سكّان المدينة الإلهيّة، يعصبون جباههم بالتيجان التي يقاس لمعانها بمقياس ما جاهدوا وضحّوا بسخاء حتّى سفك دمائهم! لو أنّ لغة الكنيسة تقبل لسمّيناهم أبطالنا وهو اسم مشتقّ من اسم جونن وباليونانيّة هِيرا (Hera). ولست أدري أيًّا منهم يسمّى في الأساطير الهلّينية بهذا الاسم؛ والمعنى السرّ لتلك الأسطورة هو أنّ الهواء أو جونن مكان إقامة الشياطين، والمكان الذي يعطى أيضًا للأبطال، أي لأرواح مشاهير الموتى؛ على أنّ موتانا الشهداء، إذا سمح التعبير الكنسيّ، يسمّون أيضًا أبطالًا، لا كمَن يقيمون في الهواء ويرافقون الشياطين بل كظافرين على الشياطين أو على سلاطين الجوّ وعلى جونن ذاتها، أيًّا تكن جونن هذه التي يقدّمها بحقّ

الشعراء كعدوّة للفضيلة تغار من النفوس السخيّة التي تتوق إلى السماء؛ بيد أنّ فرجيل ذاته يقع، ويا للأسف، تحت سيطرتها المشؤومة؛ وبعد أن وضع على لسانها الاعتراف التالي: «تغلّب عليّ إينيه». ينصح الرئيس الطروادي بلسان هلينوس بما يلي: «قدّم إكرامًا من قلبك إلى جونن وتغلّب على تلك الملكة القديرة بما تقدّم لها من هدايا تستعطفها بها». (إنييد ٧: ٣١٠؛ ٣: ٤٣٨). واستنادًا إلى هذا القول، الذي يعتبره رأيًا غريبًا، يزعم برفيروس أنّ إلهًا صالحًا أو عبقريًّا لا يأتي إلى إغاثة الإنسان قبل أن يطرد منه الروح الشرّير؛ ويظنّون أنّ آلهة الشرّ هم أقوى من آلهة الخير لأنّ الصالحين بينهم لا يمكنهم مدّ يد المساعدة إن لم يرض بذلك الأشرار بعد أن يستعيدوا هدوءهم. إنّ ما يبديه الآلهة الأشرار من مقاومة تضرب الصالحين منهم بالعجز؛ أمّا ما يبديه الصالحون فلا يستطيع أن يقيّد السوء لدى خصومهم.

رحمة الله تنقّينا

ليست هذه هي طريقة الديانة الحقيقيّة المقدّسة ولا يتغلّب شهداؤنا بهذا الشكل على جونن وعلى قوّات الجوّ التي تغار من الأنفس القدّيسة؛ ولا يتغلّب أبطالنا على هيرا بواسطة التقادم الاستعطافيّة بل بالفضائل الإلهيّة؛ وهل استحقّ شيبيون لقب الأفريقيّ في إعادة الهدوء إلى أفريقيا بواسطة مواهبه أكثر ممّا فعله بواسطة سلاحه؟

٢٢

بقوّة التقوى الصحيحة يحارب الناس سلطان الجوّ، عدوّ التقوى، فيبعدونه، لا بالتهدئة، بل بالتعزيم عليه؛ ويصدّون هجماته الشرسة؛ لا عن طريق التوسّل بل بالاستقواء بالله عليه لأنّ ذلك السلطان لا يقوى، فينتصر ويتسلّط، إلّا بالتواطؤ. وتاليًا، فالغلبة عليه مضمونة، باسم الذي صار إنسانًا وعاش بدون خطيئة لكي تغفر كلّ خطيئة فيه، الكاهن والذبيحة؛ إنّه الوسيط بين الله والناس يسوع المسيح، الإنسان وفادينا، الذي يصالحنا مع الله (١ تيمو ٢/ ٥). ولا شيء يفصلنا عن الله سوى الخطيئة؛ وفي هذه الحياة لا نتنقّى بقوّتنا بل برحمة منه؛ لا بقدرتنا بل برأفة منه لامتناهية. وفي الواقع فإنّ هذا القدر اليسير من القدرة التي لنا ليست منّا بل إنّها هبة من صلاحه. ولولا عفوه علينا، بماذا ندّعي نحن الذين نعيش في أطمارنا البالية حتّى اليوم الذي فيه نتخلّى عنها؟ بالوسيط وصلتنا النعمة حتّى يمحو شبه جسد الخطيئة ما تلطّخ به جسدنا الخاطئ. تلك هي النعمة الإلهيّة التي تشهد لرحمته الحقيقيّة، الفائقة الوصف، لتقودنا في هذه الحياة بالإيمان؛ وترفعنا بعد الموت بالمشاهدة الصافية للحقيقة التي لا تتغيّر حتى الكمال التامّ.

٢٣

وكانت أجوبة الآلهة أنّ السحرة بكرامة القمر والشمس لا يستطيعون أن يطهّرونا فيعتمد برفيروس جوابهم ليقول بأنّ السحرة

غير قادرين على تنقية الإنسان. وفي الواقع مَن هم السحرة القادرون على ذلك، إن عجز سحرة الشمس والقمر المتبوّئون المركز الأوّل بين الآلهة السماويّين؟ لكنَّ للمبادئ القدرة على ذلك. والجواب الإلهيّ ذاته يشهد بذلك على حدّ قول برفيروس خوفًا من أن يكون الإعلان عن عجزهم حافزًا إلى تقديم الذبائح إلى إله عاديّ من عامّة الآلهة ولكن بصفته أفلاطونيًّا ماذا يعني بالمبادئ؟ نعرف ذلك. إنّه الله الآب والله الابن الذي هو عقل الآب أو فهمه. أمّا الروح القدس فإمّا أن يلتزم الصمت بشأنه أو يتكلّم عنه بشكل غامض. وفي الواقع، ما هو هذا الوسط بين الآب والابن الذي يبدو مشيرًا إليه؟ أنا لا أفهمه؛ لأنّه لو أراد أن يتكلّم على مثال أفلوطين عن الجوهر الثالث الأساسيّ للنفس العاقلة لما أشار إليها كما إلى وسط بين الآب والابن. لا يضع أفلوطين تلك النفس إلّا بعد عقل الآب غير أنّ الوسط لا يمكن أن يكون بعد، بل بين، ويعبّر برفيروس كما يستطيع أو بالحريّ كما يريد ليقول ما نقوله أنّ الروح القدس ليس فقط روح الآب أو الابن بل روح الآب والابن. كلمة الفلاسفة حرّة كلّيًّا؛ وفي تحريكهم للصعب من المسائل، لا يكترثون كثيرًا لما تشعر به الآذان التقيّة من حساسيّة؛ أمّا نحن فإنّنا نحصّن تعابيرنا بما أمكن من الدقّة لأنّ المزيد من الحرّيّة في التعبير تقود بسرعة إلى الآراء التي لا تخلو من التهوّر.

٢٤

وهكذا عندما نتكلّم عن الله لا نتكلّم عن مبدأين أو ثلاثة ولا عن إلهين أو ثلاثة آلهة وإن كنّا نعترف بأنّ الآب أو الابن أو الروح

القدس هو الله ولا نقول مع دعاة بدعة سابيليوس إنّه هو ذاته الابن والروح القدس هو ذاته الآب والابن؛ بل نقول إنّ الآب هو آب الابن وأنّ الابن هو ابن الآب وأنّ الروح القدس هو روح الآب والابن وأنّه ليس الآب ولا الابن. وعليه فالمبدأ وحده ليس المبادئ كما يقول الأفلاطونيّون هو الذي ينقّي الإنسان؛ غير أنّ برفيريوس أسير تلك القوّات التي يتآكلها الحسد فيخجل منها ولا يجرؤ أن يهاجمها بحرّيّة لا يريد أن يعترف في المسيح يسوع المبدأ الذي بتجسّده يطهّرنا إنّه يحتقره في الجسد الذي لبسه في سبيل أن يكون الذبيحة التكفيريّة؛ إنّه لسرّ عميق لا تستطيع أن تدركه الكبرياء التي يقضي عليها تواضع الوسيط الصالح والحقيقيّ، هذا الوسيط الذي يبدو للبشر أسير الموت، على مثالهم؛ بينما وسطاء الوقاحة والكذب الفخورون بأنّهم لا يموتون، يعدون البشر الصائرين إلى الموت بمساعدة تافهة لا قيمة لها. الوسيط الحقيقيّ يبيّن لنا أنّ الخطيئة وحدها شرّ؛ وليس جوهر اللحم أو طبيعته الذي اتّخذه مع النفس البشريّة دون الخطيئة؛ والتي لبسها وتركها بموته وجدّدها بقيامته؛ ويبيّن أيضًا أنّه يجب ألّا نتجنّب الموت ذاته بالخطيئة؛ وإن يكن الموت ثمرة الخطيئة؛ بل بالحريّ علينا أن نتحمّله في سبيل البرّ. وإن كان قادرًا أن يغفر لنا خطايانا بموته فهذا يعني أنّه يموت لا لأنّه خاطئ. إنّ الأفلاطونيّ لا يرى فيه المبدأ وإلّا لاعترف بأنّه يطهّر. وفي الواقع ليس اللحم المبدأ وليت نفس الإنسان؛ بل الكلمة، خالق كلّ شيء. الجسد لا يطهّر من ذاته بل الكلمة الذي اتّخذه «والكلمة صار جسدًا وسكن بيننا» (يوحنّا ١/ ١٤). وبينما راح يتكلّم عن تناول جسده فالذين لم يفهموه انصرفوا عنه

قائلين: «هذا الكلام صعب مَن يستطيع سماعه؟» (يوحنّا ٦: ٦١) ويجيب يسوع الذين بقوا معه: «الروح هو الذي يحيي أمّا اللحم فلا يفيد شيئًا». وهكذا فإنّ المبدأ، الذي اتّخ نفسًا وجسدًا، هو الذي يطهّر نفوس المؤمنين وأجسادهم؛ وعندما سأله اليهود مَن أنت أجاب إنّه المبدأ؛ وهل يمكننا أن نفهم ذلك نحن معشر الجسديّين، المرضى والخطأة المتلبّسين بظلمات الجهل، لو لم نكن قد تطهّرنا وشفينا بنعمة منه ممّا كنّا وممّا لم نكن؟ لقد كنّا بشرًا ولم نكن أبرارًا؛ وبتجسّده كانت الطبيعة البشريّة بارّة بلا خطيئة وها هو الوسيط يمدّ لنا يده حيث كنّا في لجّة سقطتنا! تلك كانت الجماعة التي عمل الملائكة على تهيئتها؛ فأذاعوا الشريعة القديمة الآمرة بعبادة الإله الواحد، والواعدة بمجيء الوسيط الإلهيّ.

٢٥

الإيمان بهذا المجيء السرّيّ الذي رافقته حياة تقيّة توصل أبرار الأيّام السالفة إلى الحصول على خلاصهم إمّا في الأزمنة التي سبقت الشريعة حيث كان الله ذاته أو ملائكته يوحون إليهم بذاك السرّ؛ وإمّا تحت الشريعة؛ وإن يكن الوعد بالخيور الروحيّة يختبئ تحت حجب الوعود اللحميّة ومنه اسم العهد القديم. ذاك زمن الأنبياء الذين أذاع صوتهم، كصوت الملائكة، الخلاص الآتي؛ ومن بين أولئك الأنبياء هذا الذي أعطى الجواب الإلهيّ بشأن خير الإنسان الأسمى قائلًا: «وأنا فحسن لي القرب من الله». (مز ٧٢/٢٨) إنّ المزمور الذي اتّخذت منه هذه الآية يميّز

بوضوح هذا العهد من ذاك، لأنّ الوعود الأرضيّة واللحميّة التي توجّه خيراتها إلى الأئمة تجعل النبيّ يقول إنّ قدميه تعثّرتا أو كادت ركبتاه تخونانه؛ كما لو أنّه اعتنق باطلًا خدمة الربّ ورأى السعادة التي كان ينتظرها منه تنتقل إلى الأئمة الذين يحتقرونه؛ ثمّ يضيف أنّ تلك المشكلة قد استهوته بشدّة، ولكن دون جدوى، حتّى اليوم الذي دخل فيه قدس الله رأى خطأه ونهاية الذين كان يحسدهم على سعادتهم فيراهم يسقطون من ذروة مجدهم ثمّ يختفون ويهلكون بسبب آثامهم فتتلاشى كلّ تلك السعادة الزمنيّة كحلم يترك لدى المستيقظ صباحًا أفراحًا كاذبة كان يحلم بها وكما كانوا ها هنا في المدينة الأرضيّة ممتلئين شخصيًّا من عظمتهم قال: «يا ربّ سوف تفني صورتهم في مدينتك». مبيّنًا بذلك ألا ينتظر ذاك النجاح والازدهار إلّا من سخاء الإله الواحد الحقيقيّ سيّد الأشياء كلّها ويقول: «لقد صرت أشبه بحيوان أمامك ومع ذلك لم أتخلّ عنك» أشبه بحيوان لا عقل له إذ لم أنتظر منك إلّا ما هو مشترك بيني وبين الأئمة، لا تلك الوفرة العقيمة التي شاركت بها الذين رفضوا أن يخدموك؛ ممّا جعلني أعتقد بأنّ خدمتك ذهبت سدًى من دون أن أمتنع عن أن أكون بقربك؛ لأنّ الرغبة في تلك لم تحوّل إكرامي إلى آلهة أخرى؛ ويقول أيضًا لقد أخذتني بيميني وسرت بي حيثما أردت وعظّمتني كما لو أنّ تلك الخيور ليست إلّا لليد اليسرى، تلك الخيور المعطاة للأئمة قد خضّته كثيرًا ثمّ هتف: «وهل أطلب في السماء وعلى الأرض سواك؟» أخذ ذاته وشجبها عندما علم أنّ في السماء خيرًا عظيمًا إلى ذاك الحدّ له (وأخيرًا فَهِمَ ذلك الأمر) فهم أنّه يسأل إلهه على هذه الأرض سعادة تزول

وتفنى، سعادةً من خزف وطين ويقول: «أنهار قلبي وجسمي يا إله قلبي». يا لها من سقطة من الأرض حتّى السماء وفي مكان آخر: «تشتاق وتذوب نفسي إلى ديار الربّ» (مز ٨٣: ٣) «ونفسي تنهار في انتظار خلاصك» إنّه يتكلّم عن سقطة النفس والجسد المزدوجة؛ ولا يقول «إله قلبي وجسمي بل فقط «إله قلبي» لأنّ القلب هو الذي ينقّي الجسد» والمعلّم يقول: «نقّ الداخل حتّى يتطهّر الخارج» (متّى ٢٣/ ٢٦)؛ والنبيّ يقول كذلك إنّ الله نصيبه وليت واحدة من صنائعه بل الله بالذات: «إله قلبي حظي إلى الأبد». من بين الأشياء كلّها التي يجدها الناس أهلًا بأن يطلبوها يرون أنّ الله وحده جدير بأن يختار. لأنّ الذين يبتعدون عنك يهلكون وقد نبذت عنك كلّ نفس خائنة بسبب زناها مع هذا العدد الضخم من الآلهة مضيفًا تلك الكلمة التي من أجلها ذكّرنا بسائر آيات المزامير: «حسن لي أن أبقى بقرب الله» فلا أبتعد ولا أتلهّى بما أخونه به؛ على أنّ ذلك الاتّحاد يكون تامًّا إذا لم يبق من شيء يجب تحريره؛ والآن، عليّ أن أضع رجائي في الله لأنّ مَن يرى ما يرجوه لا يرجو ومَن ذا يرجو ما قد رآه؟ يقول الرسول إن كنّا نرجو ما لسنا نراه فنحن ننتظره بالصبر. وفي الرجاء نتكيّف بحسب وصايا المزمور؛ فلنكن أيضًا بحسب استطاعتنا، ملائكة الله، أي رسله لنبشّر بإرادته ونذيع مجده ونعمته؛ يقول النبيّ سوف أرجو الله «ثمّ يضيف» لكي أخبر بصنائعه العظيمة على أبواب صهيون مدينة الله الممجّدة التي تعرفه ولا تخدم سواه والتي بشّر بها الملائكة القدّيسون ويدعوننا إلى أن نكون في جماعتهم المقدّسة مواطنين معهم فيها ولا يريدون أن نخدمهم كآلهة لنا بل أن نخدم معهم إلههم وإلهنا ولا

يريدون أن نقرّب لهم ذبائح بل أن نكون معهم قربانًا لله. إنّ مَن يحكم على هذه الأمور بحرّيّة بعيدًا عن كلّ تعنّت خبيث يتأكّد حقًّا من أنّ هؤلاء السعداء إلى الأبد الذين لا يحسدوننا (ولو عرفوا الحسد لما كانوا سعداء) ويحبّوننا ويتمنّون علينا أن نشاطرهم سعادتهم ويؤمّنون لنا نعمةً وعونًا قويًّا عندما نعبد وإيّاهم الله الأحد الآب والابن والروح القدس ولا نعبدهم ونقدّم لهم ذبائحنا.

٢٦

إنّما يبدو أنّ برفيروس يخجل من أصدقائه السحرة، إذ لا تنقصه المعرفة؛ ولكن ليس حرًّا في الدفاع عن قناعاته الداخليّة؛ وفي الواقع يقول بوجود ملائكة نزلوا ليدرّبوا السحرة على العلم الإلهيّ؛ وأنّ منهم مَن جاءوا ليكشفوا لنا عن إرادة الآب وأعماق عنايته الفائقة الوصف وتاليًا هل يجب الاعتقاد بأنّ الملائكة الذين أنيطت بهم هذه المهمّة السامية يريدون منّا أن نخضع لغير الذي يكشفون لنا عن مشيئته؟ ومن ثمّ فهل ينصحنا ذلك الفيلسوف الأفلاطونيّ بأن نحذو حذوهم من دون أن نستشفعهم؟ وهل يجب علينا أن نخشى إلحاق الإهانة بالسعداء الخالدين خدّام الإله الواحد إذا لم نقدّم لهم الذبائح؟ بينما يعرفون أنّ ذاك الإكرام واجب للإله الحقّ أصل سعادتهم إن عرفوا أن يتّحدوا به. كلّا إنّهم لا يريدون لأنفسهم، لا هذه الذبائح الرمزيّة، ولا الذبيحة الحقيقيّة، التي عبّرت عنها تلك الذبائح ويدعون هذا التفكير الجنونيّ لجماعة الشياطين التعساء المجانين؛ ويا ما أبعد تقواهم وأمانتهم عن ذلك التفكير لأنّ

سعادتهم الحقيقيّة لا تقوم إلّا باتّحادهم بالله تعالى! أصدقاء أوفياء لا يتسلّطون علينا بل يدعوننا إلى مشاطرتهم سعادتهم، وإلى أن نحبّ الذي يدعونا إلى السعادة في ملكه وسلامه. ترتعد أيّها الفيلسوف ولا تجرؤ أن ترفع صوتك بحرّيّة ضدّ القوّات المعادية للقِيَم الصحيحة وعطايا الله الحقّ! لقد ميّزت بين الملائكة الذين يعلنون إرادة الآب ومَنْ ينساقون وراء فنّ معيّن فينزلون نحو السحرة. ولم تكرّم هؤلاء الملائكة قائلًا إنّهم يكشفون؛ عن العلم الإلهيّ؟ وما هو العلم الذي عنه يكشفون فيما لا نراهم يعلنون عن إرادة الله؟ إعترف أوّلًا بتلك الأرواح التي منعها رجل يتوق إلى تنقية النفس بما تآمر به عليها من دون أن تقوى ألوهة صالحة، باعتراف منك، على أن تعيد إليها حرّيّتها وقدرتها؟ ماذا؟ إنّك لا تزال على شكّ أو بالأحرى إنّك تتظاهر بعدم المعرفة، خوفًا من أن تغيظ السحرة الذين أغووك في إيمانك، تشكرهم وكأنّهم أحسنوا إليك من خلال ما لقّنوك من أمور شاذّة وشيطانيّة! وتلك القدرة؟ بل بالأحرى ذاك الخَبَل الحسود أسير النفوس الحسودة وليس سيّدها، هل تجرؤ أن ترفعه فوق السحب إلى السماء وتعطيه مقامًا بين آلهتك السماويّين وتطبع على جباه الكواكب ذاتها هذه العلامة المخجلة!؟

٢٧

إنّ الضلال الذي وقع فيه أبوليوس أقرب إلى القبول، إنسانيًّا؛ لأنّه على مثالك، من أتباع أفلاطون الذي ينسب إحساسات النفس العنيفة والعاصفة إلى الشياطين، سكّان المناطق، التي تحت القمر؛ أن يكون هذا الاعتراف حرًّا أم لا وأن يكون احترامه لهم غير

مستدرك إلّا بالنسبة إلى الآلهة الأعظمين الذي يسكنون في أرجاء الأثير، سواء أكانوا الآلهة المنظورين المشعّين نورًا كالشمس والقمر إلخ. . . . أو أولئك الآلهة الذين يعتبرهم، غير منظورين، وبطريقة مستمرّة مستعملًا كلّ الأساليب الممكنة، نراه يخرجهم دومًا عن وصمة الشهوات. لا يأتيك هذا التعليم من أفلاطون بل من الكلدانيّين: هؤلاء هم الذين علّموك أن ترفع رذائل الإنسان إلى آخر حدود القبّة السماويّة، وآخر حدود السماء، لكي يتمكّن آلهتكم من أن يدرّبوا السحرة على العلم الإلهيّ؛ ومع ذلك نراك تضع ذاتك فوق ذاك العلم بحياتك العقلانيّة الصرف. بصفتك فيلسوفًا لا تعتقد بأنّك تحتاج إلى أن تتنقّى بواسطة الممارسات السحريّة غير أنّك تفرضها على الآخرين؛ إنّه بالنسبة إليك، كأجر تدفعه إلى معلّميك، في سبيل إغراء الأرواح الغريبة عن الفلسفة، فتكتسبها إلى تلك الممارسات التي يحتقرها تفوّقك الفكريّ. وعلى هذا النحو فإنّ الذين ينجون من تأثير الفلسفة عليهم، والفلسفة علم صعب محفوظ للعدد اليسير، يعودون بفضل نصائحك إلى السحرة ليطهّروا النفس بدلًا من أن يطهّروا العقل كما أنّك تفتح، من خلال هذا التصرّف، أمام الجماهير، مدارس سرّيّة غير مسموح بها؛ وتظلّ مدرسة أفلاطون مغلقة بوجوههم. إنّ الشياطين الذين يريدون أن يكونوا آلهة في الأثير والذين أغدقوا عليك الوعود الجميلة يجعلون منك مدافعًا عنهم ويؤكّدون لك أنّ النفوس التي تنقّت بالفنّ السحريّ في كيانها الروحيّ، ولكونها لا تستطيع العودة إلى الآب، تتّخذ، أقلّه، مسكنًا لها في الأرجاء الأثيريّة مع الآلهة السماويّين. تلك فظائع يكرهها تلاميذ المسيح

العديدون هو الذي جاء ليخلّص البشريّة من سيطرة الشياطين! فيه وحده يجد المؤمنون تنقية نفوسهم ورحمتها كما يجدون تنقية عقولهم وأجسادهم؛ ولهذا نراه قد صار إنسانًا كاملًا، في ما عدا الخطيئة، ليشفي الإنسان بأكمله من الخطيئة؛ ليتك أنت ذاتك عرفته لتضع بشكل ثابت وأكيد شفاءك بين يديه؛ فلا تطلب الشفاء لك من قواك الشخصيّة البشريّة التي هي ضعف ووهن فلا تطلبها كذلك من فضول لك خبيث ما كان خدعك هو الذي اعترفت من خلال أدعيتك له لأنّه قدّوس لا يموت. ألا يشهد له بذلك شاعر كبير؟ خدعة حقيقيّة لأنّ الشعر يتوجّه إلى إنسان صائر إلى الموت أمّا إذا توجّه إلى السيّد المسيح فيكون حقيقة صافية «إن كانت بعض الآثار لجرائمنا التي قضي عليها إلى الأبد حاضرة، تحت رعايتك، فسوف تخلص الأرض من إنذارات لها أبديّة» (فرجيل، إبلوغ ٤ : ١٣) وفي الواقع أيًّا يكن تقدّم البشريّة على دروب البرّ، حتّى وإن اختفت الجريمة فإنّ ضعفنا المائت يظلّ محتفظًا بآثار لها لا يمكن أن تشفيَ منها إلّا يدُ المخلّص الذي أشارت إليها الجملة السابقة إذ إنّ فيرجيل في نشيده الراعويّ القصير يريد أن ندرك أنّه لا يتكلّم عن ذاته قائلًا: «الزمن الأخير الذي تنبّأ عنه الإله كوم (Cumes) قد تمّ». وهذا يعني أنّه يأخذ أناشيده عن تنبّؤات سيبيل. بيد أنّ هؤلاء السحرة أو بالأحرى الشياطين في صورة الآلهة لا يطهّرون النفس البشريّة بل يلطّخونها بأكاذيب أشباحهم ونجاسة أدعيتهم. وكيف للأرواح النجسة أن تنقّي عقل الإنسان. ألا يخضعهم دنسهم الذاتيّ إلى سحر ساحر؟ ألا يدفعهم، عن خوف أو عن حسد، إلى أن يرفضوا ذاك الخير الوهميّ الذي يتظاهرون بأنّهم يريدون إعطاءه؟

إنّنا نكتفي بما اعترفت به، حسبنا أن تكون التجربة السحريّة عاجزة عن تنقية النفس العاقلة حتّى إذا طهّرت النفس الروحيّة تعجز عن أن تعطيها الخلود. أمّا السيّد المسيح فإنّه يعد بالحياة الأبديّة ولهذا، أيّها الفلاسفة أمام سخطكم وانذهالكم، نرى العالم يسرع إليه. لا تستطيع أنت يا برفيروس أن تنكر أنّ العلم السحريّ وهمٌ وخرافة؛ وأنّ المؤمنين بذاك العلم لا يجنون منه سوى الجهل والعمى. ألا تعلم أنّه من الخطأ الفاحش والأكيد تقديم الذبائح والصلوات إلى الملائكة والقوّات؟ ومع أنّك متمسّك بما عانيت من تعب باطل تحصيلًا لتلك الدروس نراك توجّهنا إلى المنجّمين السحرة لكي يطهّروا النفس الروحيّة ممّن لا يحيون الحياة العقليّة!

٢٨

المسيح وحده قوّة الله وحكمته

وهكذا فإنّك تلقي بالناس في ضلال فاضح ولا تخجل من جريمتك تلك وتجاهر بحبّك للحكمة والفضيلة! لو كنت على حبّ صادق ومخلص، لعرفت المسيح، قوّة الله وحكمته، ولما كان العلم الباطل يقوم ضدّ تواضعه الخلاصيّ، بثورة قائمة على الكبرياء، على أنّك تعترف أنّ الجزء الروحيّ من النفس قد يطهّر بقوّة التعفّف، بعيدًا عن تلك الممارسات السحريّة والقائمين عليها، والتي قضيت زمنًا طويلًا في دراستها والتي لم تجد نفعًا؛ وتقول أيضًا إنّ السحرة لا يستطيعون أن يرفعوا النفس بعد الموت فيظهر بعد هذه الحياة بطلانُ أعمالهم الآيلة إلى رفع الجزء الروحيّ من النفس! إنّك تقول هذا وتكرّره براحة؛ وغايتك

الوحيدة هي أن تظهر علمك في تلك الأشياء فتسترضي العقول الساعية بنهم إلى تلك العلوم المحرّمة أو بأن تثير فيها الفضول. لكنك أنت على حقّ حين تصرّح بأنّها خطرة، إمّا في ممارستها أو بسبب تحريمها من قبل القانون: ألا ليت محازبيهم التعساء يسمعونك، فيتراجعون؛ أو بالأحرى، لا يدنون قطّ من تلك اللجج السحيقة! وعلى الأقلّ إنّك تؤكّد بأنّ السحرة لا يستطيعون أن يخلصوا من الجهل ومن الرذائل التي يقود إليها الجهل وأنّ المحرّر الوحيد هو عقل الأب المتدرّب على سرّ إرادته. أنت لا تؤمن بأنّ المسيح هو هذا العقل؛ وتحتقره بسبب الجسد الذي أخذه من امرأة، ولما تحمّل من إهانة على صليبه. وبينما تنظر باحتقار إلى ما تحمل من إهانات، تظلّ قادرًا على أن ترفعه مع الحكمة اللامتناهية؛ أمّا هو فإنّه يكمل ما تنبّأ به عنه الأنبياء القدّيسون: «أبيد حكمة الحكماء وأرذل رأي الفهماء» (مزمور ١٩/٢٤). على أنّ الحكمة التي يبيدها فيهم ليست العلم، ولا الحكمة التي أعطاهم إيّاها؛ بل تلك التي يدّعونها من دون أن تأتي منه؛ وكذلك، فإنّ الرسول إذ يذكر شهادة الأنبياء يضيف: «أين الحكماء وأين علماء هذا الدهر؟ ألم يسمّ الله حكمة هذا العالم جنونًا؟ إنّه إذ كان العالم وهو في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة، فقد حسن لدى الله أن يخلص بجهالة الكرازة الذين يؤمنون. اليهود يسألون الآيات واليونانيّون يبتغون الحكمة. أمّا نحن فإنّنا نكرز بالمسيح مصلوبًا، شكًّا لليهود، وجهالة للأمم؛ أمّا للمدعوّين من اليهود واليونانيّين فالمسيح هو قوّة الله وحكمته لأنّ ما يبدو حماقة لدى الله هو أحكم من الناس وما يبدو أنّه ضعف من الله هو أقوى من الناس» (١ كورنتس ١: ٢٠-٢٥).

تلك هي الحماقة وذلك هو الضعف اللذان يحتقرهما الحكماء والأقوياء من الناس بقواهم الخاصّة! تلك هي النعمة التي يخلص بها الضعفاء الذين لايعرضون، بكبرياء، سعادةً لهم كاذبة؛ بل يعترفون متواضعين بحقيقة بؤسهم.

٢٩

الفيلسوف يرفض تجسّد ابن الله

إنّك تعرف الآب وابنه وتسمّيه عقل الآب؛ وتعرف وسيطًا بينهما؛ وتقدّمه على ما أظنّ كالروح القدس: ثلاثة آلهة في لغتهم الفلسفيّة. وعلى هذا النحو فأيًّا يكن تعبيرك هذا الذي تتصرّف فيه بحرّيّة، فإنّك بنظرةٍ متأرجحة وغامضة، إلى حدّ ما، ترى الهدف الذي يجب أن تتوق إليه؛ بيد أنّ تجسّد ابن الله الذي لا يتغيّر، سرّ خلاصنا الذي يرفعنا نحو الغاية من إيماننا حيث يكاد عقلنا لا يصل إليه؛ ذاك هو ما لا تريد أن تعترف به. إنّك تكتشف في البعيد، كما لو كان من خلال الغيوم، مركز الوطن؛ لكنّك لا تستعمل الطريق الموصلة إليه. ومع ذلك تعترف بالنعمة عندما تقول إنّه لم يعطَ إلّا لعددٍ قليل الوصول إلى الله عن طريق نور العقل. ولا تتكلّم عن الإرادة المطلقة، وعن مشيئة عدد صغير، لأنّه كما يقال لم يعط إلّا عدد قليل؛ وعليه، أنت تعترف بنعمة الله وعجز الإنسان، كما تتكلّم عن النعمة بألفاظ أكثر وضوحًا عندما تقرّر، وفق ما يراه أفلاطون، أنّه يستحيل على الإنسان، في هذه الحياة، أن يبلغ كمال الحكمة؛ أمّا بعد الحياة فكلّ ما ينقص الإنسان الذي يعيش بعقله تعوّضه العناية والنعمة الإلهيّة.

لو أنّك عرفت نعمة الله في يسوع المسيح، ربّنا، كنت رأيت في التجسّد الذي به يأخذ نفس الإنسان وجسده نعمة رائعة! ولكن ماذا أقول؟ أنت ميت وعبثًا أحدّثك. أحاديثي بالنسبة إليك ضائعة: كلّا قد تكون بالنسبة للمعجبين بك وللذين يشدّهم إليك حبّ الحكمة أو فضول الاستطلاع على العلوم، التي ما كان عليك أن تدخل فيها؛ في حديثي إليك أتحدّث إليهم ليتهم يسمعونني ويفهمون! هل كان على الله أن يذيع نعمته، بشكل أفضل من هذا السرّ، الذي مكث فيه ابنه لا يتغيّر بعد أن اتّخذ بشريّتنا وشهد لنا عن محبّته، بواسطة الإنسان الذي توسّط بينه وبين الناس، بين البار والسعيد الذي يتغيّر، بين مَن لا يموت الذي لا يتغيّر، البار السعيد، والناس المرتهنين للموت والتغيير والخطيئة والشقاء؛ وبما أنّ التوق إلى السعادة والخلود غريزة طبيعيّة يضعها فينا، فإنّه ببقائه في السعادة، وفي قبوله الموت ليعطينا سرّ محبّته، فإنّه يعلّمنا، من خلال آلامه، أن نحتقر ما يسبّب لنا الرعب والخوف. ولكن، قبولًا بتلك الحقيقة، التواضع ضروريّ؛ وهي فضيلة يصعب على رؤوسكم المتشامخة أن تقبل بها. أيّ شيء لا يصدّق بالنسبة إليكم ولا سيّما أنتم الذين تدعوكم تعاليمكم إلى ذلك؛ وما الذي لا يصدّق عندما نقول إنّ الله أخذ نفس الإنسان وجسده؟ على أنّ لكم عن النفس العاقلة، النفس البشريّة فكرة سامية بحيث إنّها تستطيع بنظركم أن تكون مساوية في الجوهر لعقل الآب الذي تعرفون فيه ابن الله. ألا يصدّق أنّه من خلال اتّحاد فريد من نوعه قد اتّخذ نفسًا عاقلة في سبيل خلاص الكثيرين؟ يتّحد الجسم بالنفس ليكون الإنسان كاملًا؛ إنّنا لنعرف ذلك وتشهد لنا به طبيعتنا؛ ولولا هذه القناعة

المستندة إلى الاختبار لبدا لنا هذا الأمر صعبَ التصديق؛ إذ بالرغم من المسافة الفاصلة بين الإلهيّ والبشريّ وبين ما يتغيّر وما لا يتغيّر لكان الأسهل القبول باتّحاد الروح مع الروح، أو بحسب تعابيركم العاديّة، وما ليس ماديًّا مع غير الماديّ، من القبول بما هو ماديّ مع ما ليس ماديًّا. هل هي الولادة الغريبة من عذراء التي تجرحكم؟ حاشى؛ بل موضوع تقويّ يؤثّر فيكم؛ وهو أن تبدأ حياة عجائبيّة بولادة عجائبيّة. وهل الجسم الذي يقضي عليه الموت ثمّ يتحوّل بالقيامة، وبعد أن يتحرّر من الفساد والموت، يصعد ممجّدًا إلى السماء هل هذا يزعجكم؟ أهذا ما ترفضون الإيمان به؟ وهل تنسَون أنّ برفيروس في كتبه، عن عودة النفس، التي استقيت منها الكثير يضع مبدئيًّا وباستمرار أنّه يجب الهروب من كلّ جسم لكي تتمكّن النفس من البقاء سعيدة مع الله؟ إنّما عليكم أن تشجبوا أفكار برفيروس تلك، المناقضة لكلّ ما تجاهرون به معه حول روح هذا العالم المرئيّ جسد الكون الفسيح. ألا تقولون استنادًا إلى أفلاطون إنّ هذا الكون حيوان وحيوان سعيد جدًّا؟ كما تريدونه أبديًّا؛ وتاليًا، كيف يكون دائم السعادة وهو مقيّد بربط الجسد الأبديّة إن كان على النفس أن تهرب من الجسد لكي تكون سعيدة؟ إنّكم تعترفون أيضًا بأنّ الشمس والكواكب أجرام، وهذا ما يراه معكم ويعترف به جميع الناس؛ إنّما بحسب رأيكم المستند إلى علم سامٍ تعتبرونها كحيوانات سعيدة لها أجساد تشاركها في الخلود. عندما يريدون أن يقنعوكم بالإيمان المسيحيّ تنسون أو تتظاهرون بنسيان التعاليم التي تؤيّدونها وتعلّمونها؟ لِمَ تقبلون هنا بما ترفضونه وتحاربونه فيما بعد؟ هل تمنعكم من أن تكونوا مسيحيّين لأنّ المسيح جاء، متواضعًا؛

وأنتم متكبّرون؟ أمّا كيف يصير تحوّل أجساد القدّيسين بعد القيامة فهذه مسألة المؤمنين الضالعين في الكتب المقدّسة؛ وأن يصيروا خالدين وأن يصيروا مشابهين للمثال الممجّد؛ المسيح القائم من الموت، فلا مجال للشكّ في ذلك؛ مهما يكن ذلك التحوّل الآتي فإنّ تلك الأجساد التي لبست عدم الفساد وعدم الموت لا تستطيع أن تقف حاجزًا أمام تأمّل النفس الغارقة في الله. وبما أنّكم تضعون أنتم بأنفسكم، في المساكن السماويّة، الأجساد الخالدة للخالدين، السعداء، فما هو الرأي القائل بوجوب الهروب من كلّ جسد، وصولًا إلى السعادة؟ وهذا يعني أنّكم تحتفظون بحجّة غريبة من نوعها، نبذًا للإيمان المسيحيّ؛ وهذا يعني أيضًا للمرّة الثانية: يسوع المسيح هو متواضع؛ وأنتم متكبّرون. ولربّما تخجلون من التخلّي عن ضلالكم. أليس ذلك تمامًا عيب المتكبّرين؟ يخجل أولئك الناس العلماء من أن يتركوا مدرسة أفلاطون ليصيروا تلاميذ المسيح، الذي يضع على لسان صيّاد امتلأ من روحه، هذه الحقائق الإلهيّة: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان مع الله والكلمة كان الله؛ وفي البدء كان عند الله. كلّ به كون؛ وبغيره لم يكون شيء ممّا كوّن. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور في الظلمة يسطع والظلمة لم تقو عليه». (يو ١/ ٢-٥) إنّ الشيخ سِمبْلِسْيانُوس القدّيس منذ اعتلائه كرسيّ ميلانو يخبرنا أنّ فيلسوفًا أفلاطونيًّا يتمنّى لو يكتب مقدّمة إنجيل يوحنّا بأحرف من ذهب وتعرض في المكان الأعلى في الكنائس كلّها، غير أنّ المتكبّرين أبَوا أن يتّخذوا هذا الإله ربًّا لهم؛ لأنّ «الكلمة صار بشرًا وحلّ بيننا». قليل على أولئك الأشقياء أن يكونوا مرضى بل أن يتّعظوا بسبب مرضهم ويخجلوا

من الطبيب الذي يستطيع أن يشفيهم!! يا للعار المميت الذي يجرّهم إلى لجّة رهيبة ولا يبقيهم واقفين!

٣٠

إذا قبلنا بما يعلم أفلاطون بمعزل عن كلّ إصلاح فكيف يحقّ لبرفيروس أن يعدل في تعليمه عدّة نقاط هامّة؟ أكيد من أنّ أفلاطون يجاهر بعودة النفوس البشريّة بعد الموت إلى أجسام حيوانات. ذاك كان تفكيره وتفكير أفلوطين أستاذ برفيروس على أنّ هذا الأخير لا يقبل بهذا الرأي وهو على حقّ؛ إنّما يقبل بعودة النفوس، لا إلى الأجساد التي تخلّت عنها، بل إلى أجساد بشريّة جديدة؛ ويرفض رأي أفلاطون عن خجل من التفكير بأن تتحوّل أمّ إلى بغلة قد تصبح مطية لابنها ويفترض بلا خجل إمكانيّة تقمّصها في فتاة لتصبح زوجة له. أليس من المفضل بكثير الإيمان بما علّمه الملائكة القدّيسون، وبما بشّر به الأنبياء الذين ألهمهم روح الله؟ كلمة من وعد الأقدمون الذين سبقوه بمجيئه وكلمة الرسل أولئك المبعوثين الذين ملأوا العالم بالبشارة؟ أجل، أليس الأشرف بأن يؤمن الإنسان بعودة وحيدة للنفس إلى جسدها الخاصّ، دون عودات متكرّرة، إلى أجسام متنوّعة؟ على أنّ برفيروس يدخل على تلك التعاليم إصلاحًا هامًّا؛ إذ يرفض أن تقع النفس في غير جسم الإنسان ويلغي ذلك المنفى الكريه ضمن أعضاء حيوان كما يقول إنّ الله أعطى العالم نفسًا حتّى إذا عرفت الشرّ، الكامن في المادّة، التي هي أصله، عادت إلى الآب متحرّرة من كلّ حلف شرّير. أيًا يكن ضلال هذا الرأي (إنّ النفس تعطى للجسد من

أجل الخير؛ وإذا لم تعمل الشرّ يبقى الشرّ غريبًا عنها)؛ ذاك تعديل جوهريّ للآراء الأفلاطونيّة لكونه إقرارًا بتجدّد النفس واتّحادها بالله الذي يحرّرها إلى الأبد من شرور هذا العالم. وهكذا فإنّ برفيروس يقضي على العقيدة الأفلاطونيّة القائلة بالانتقال الدائم للنفوس من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت ويظهر أيضًا الخطأ الذي يبدو أنّ فيرجل قد يأخذه عن أفلاطون عندما يدّعي أنّ النفوس المرسلة بعد التكفير إلى ما تسمّيه الأسطورة «الأفراح السعيدة» مدعوّة إلى شاطئ نهر Léthé أو نسيان الماضي، «فترتفع مرّة أخرى حرّة من كلّ ذكرى إلى الأرجاء السماويّة؛ مع الشوق الجديد إلى الدخول في قيود الجسد» (فرجيل، إنييد ٦: ٧٥٠). تعليمٌ يرفضه بحقّ برفيروس؛ جنون هو الاعتقاد بأنّ النفوس تتوق إلى الدخول في قيود الجسد والنزول، مجدّدًا، إلى ما هو على الأرض كما لو أنّ الهدف من تطهيرها يعني حملها على الرغبة مجدّدًا في وصمات جديدة. وعليه فإن كانت نتيجة هذا التكفير أن تنسى جميع ويلاتها، وإن كان هذا النسيان يحيي فيها الشوق إلى أجسادها، حيث يقيّدها الشرّ مرّة أخرى، إذ ذاك يجب أن يقال لها إنّ السعادة المثلى تتسبّب لها بالشقاء؛ والحكمة الكاملة تتسبّب لها بالجنون؛ والتنقية الأخيرة تتسبّب لها بالفساد. وأيًّا تكُنْ إقامةُ النفس في تلك المساكن السعيدة فليست الحقيقة هي التي تجعلها سعيدة؛ ما دام أنّ خطأً ما كان لها شرطًا ضروريًّا. وفي الواقع لا يمكنها أن تكون ما لم تكن مطمئنّة؛ وهذا الاطمئنان لا يتحقّق إلّا إذا اعتقدت بأبديّة سعادتها؛ إنّه لاعتقاد مغلوط؛ لأنّها ستصبح شقيّة في يوم من الأيّام. وكيف يمكن للحقيقة أن تكون مصدر فرح لها، طال ما أنّ الوهم هو سبب

سعادتها؟ لقد رأى جيّدًا ذلك برفيروس؛ ولهذا فإنّه يدّعي أنّ النفس المطهّرة تعود إلى الآب بعد أن تتحرّر كلّيًّا من كلّ وسخ جسديّ. وعلى هذا النحو هنالك أفلاطونيّون كثيرون يخطأون عندما يعتقدون بأنّ النفس انخرطت حتميًّا في هذا الإطار الذي لا حدّ له ذهابًا وإيّابًا؛ ولو كان هذا الشيء صحيحًا، فأيّ فائدة من معرفته؟ وعليه فإنّ الأفلاطونيّين قد يفاخرون لكوننا لا نعرف في هذه الحياة ما قد يجهلونه؛ على ما هم فيه من الحكمة والصفاء، في حياة فضلى حيث سعادتهم تستند إلى الوهم؟ وهل من شيء أدعى إلى التفاهة والسخافة من ذلك؟ من الثابت أنّ رأي برفيروس أفضل من رأي أولئك الذين اخترعوا هذا الإطار للنفوس، تتأرجح فيه، مدى الأبد، بين الشقاء والسعادة. وعلى هذا النحو نرى أفلاطونيًّا يتنصّل من أفلاطون؛ وإنّه لمنطقيّ في تفكيره فيرى ما لم يره أفلاطون ولا يخشى من أن يناقض أستاذًا، على هذا القدر من العظمة، ويفضّل الحقيقة على الإنسان.

٣١

وفي هذه المسائل التي يرهق درسها العقل البشريّ، لِمَ لا نفضّل العودة إلى اللاهوت الذي يؤكّد لنا أنّ النفس ذاتها ليست مساوية لله في الأزليّة، لأنّها مخلوقة؟ إنّ الأفلاطونيّين يرفضون هذه الحقيقة لكونهم يعتمدون المبدأ القائل بأنّ ما لم يكن دائمًا موجودًا لا يمكنه أن يكون أبديًّا؛ ومع ذلك عندما يتكلّم أفلاطون عن الكون وآلهته، مخلوقات الله، يقول بوضوح أنّ لكيانهم بداية؛ ولن تكون له نهاية؛ وأنّ الله بإرادته القديرة يضمن لهم

حضورًا إلى الأبد؛ غير أنّ الأفلاطونيّين يتخيّلون هنا فرقًا دقيقًا جدًّا بين بداية الزمن وبداية السبب، قائلين: «إذا انطبعت قدم الإنسان في التراب منذ القديم يظلّ أثرها باقيًا؛ ومَن ذا الذي يستطيع أن ينكر أنّ ذاك هو أثر القَدَم؟ على أنّ الواحد لم يسبق الآخر؛ وإن يكن الواحد سبب الآخر؛ وهكذا فإنّ الكون والآلهة المخلوقين فيه كانوا دومًا فيه والذي خلقهم، دائم الوجود؛ ومع ذلك فإنّهم مخلوقون».
ولكن إن كانت النفس دائمة الوجود فهل هذا يعني أنّ شقاوتها دائمة الوجود؟ وإن كان فيها شيء، لم يكن منذ الأزل، بل بدأ يكون في الزمن، ألا يمكن أن تكون هي أيضًا قد بدأت في الزمن، لأنّها لم تكن سابقًا؟ ثمّ إنّ هذه السعادة التي تأتي إلى النفس بشكل دائم ومستمرّ بعد أن اختبرت مشاكل الحياة تبدأ في الزمن وتستمرّ فيه بحسب ما يعلن عنه أفلاطون حتّى وإن لم تكن دومًا موجودة؛ وعليه كيف يكون حال المبدأ القائل بأنّ لا شيء في الزمن يكون بلا نهاية، إلّا إذا كان بدون بداية؟ وها هي سعادة النفس التي تولد، في الزمن، تبقى إلى ما بعد الزمن.
على الضعف البشريّ أن يسلّم أمره إلى السلطة الإلهيّة؛ إنّنا نصدّق استنادًا إلى الدين الحقيقيّ أولئك الطوباويّين الخالدين الذين يرفضون اغتصاب الإكرام، الواجب لإلههم، الذي هو إلهنا؛ ولا يطلبون منّا أن نقدّم ذبيحة إلّا لمَن يجب أن نكون وإيّاهم الذبيحة له؛ وهذا ما قلته؛ ولن أكفّ عن المجاهرة به؛ إنّه الذبيحة الحيّة التي يقدّمها الكاهن هو الذي في البشريّة التي أخذها وبموجبها أراد أن يكون الكاهن تنازل وصار من أجلنا الذبيحة حتّى الموت (فيليبّي ٢: ٨).

٣٢

إقرار الفيلسوف بعجز الفلسفة عن معرفة الطريق الخلاصيّ

تلك هي الديانة الحقيقيّة التي تتضمّن الطريق المطلق لخلاص النفس؛ والتي لا تستطيع أيّ نفس أن تخلُصَ إلّا بها. وهي بمثابة الطريق الملوكيّ الذي، وحده يوصل إلى هذا الملكوت، الذي لا تتأثّر عظمته بتقلّبات الأزمنة؛ بل تثبت على أسس الأبديّة الراسخة على أنّ برفيروس في نهاية كتابه عن عودة النفس يدّعي أنّه حتّى ذلك الزمن لم تقم شيعة تتضمّن الطريق المطلق لخلاص النفس؛ ولا يعرف أنّ الفلسفة، الأقرب ما تكون إلى الحقيقة، ولا نظام حكماء الهند ولا تدريبات الكلدانيّين ولا أيّ تقليد تاريخيّ آخر ولا أيّ شيء من كلّ ذلك استطاع أن يكشف عن ذلك الطريق. ومع أنّه لا يزال يجهله، يعترف بكلّ تأكيد بوجوده. وعلى هذا النحو فإنّ كلّ ما تعلّمه وعانى في سبيله؛ وكلّ ما يدّعيه من علم، وكلّ ما عرف الناس فيه، من علم، حول هذا الموضوع، لم يكن ليرتاح إليه كلّيًا؛ بل كان يشعر هنا بحاجة إلى سلطة ما قديرة يجب عليه أن يتبعها. وعندما يقول إنّه، حتّى في الفلسفة الأقرب إلى الحقيقة لا يجد شيعة تتضمّن الطريق المطلق إلى خلاص النفس يعترف بصراحة، على ما أرى، بأنّ الفلسفة التي يدين بها، ليست الأقرب إلى الحقيقة؛ أو أقلّه لا تتضمّن ذاك الطريق. وكيف لها أن تكون، الأكثر حقيقة، إن لم يكن ذاك الطريق فيها؟ وهل من طريق آخر، مطلق، لخلاص النفس، غير الذي يخلص كلّ النفوس وخارجًا عنه لا خلاص لأيّ نفس؟

ولكن عندما يضيف برفيروس قائلًا بأنّ لا نظام حكماء الهند الصارم
ولا تدريبات الكلدانيّين توصّل إلى ذلك الطريق، يعلن عقم التعاليم
التي استقرضها من بلدان الهند والكلدان لأنّه يعجز عن إخفائه لكونه
يأخذ عن الكلدان الأجوبة الإلهيّة التي يستشهد بها باستمرار. وإذًا،
ما هو الطريق المطلق الذي يريد أن يتكلّم عنه، والذي غاب عن
أهمّ وأشهر النظم الفلسفيّة والتعاليم التي تنادي بها الأمم التي
تدين بشهرتها في العلم الإلهيّ إلى الاستطلاع الفضوليّ الضنين
بمعرفة الملائكة الصالحين والطالحين وعبادتهم، الطريق الذي لم
يعرف به أيّ تقليد تاريخيّ؟ ما هو هذا الطريق المطلق الشامل؟
إنّه الطريق الذي تمنحه النعمة الإلهيّة، لا لشعب خاصّ، بل
لشعوب العالم بأسره. لا يشكّ برفيروس، ذاك العقل الكبير،
بوجود ذاك الطريق ولا يمكنه أن يصدّق بأنّ العناية الإلهيّة تركت
الجنس البشريّ بدون هذا العون؛ ولا ينكر وجود هذا العون
الثمين؛ لكنّه يقول إنّ الجنس البشريّ لم يجده ولم يتوصّل إلى
أن يعرفه. وهل من عجب في ذلك؟ في أيّام برفيروس، كان الله
يسمح بأن يتعرّض هذا الطريق الخلاصيّ للنفس لهجمات الوثنيّين
على أيدي عبيد الشياطين وأمراء الأرض، إكمالًا وتقديسًا
للشهداء، شهود الحقيقة، الذين أظهروا بثباتهم أنّ الاستعداد
لتحمّل سائر العذابات الجسديّة ضروريّ، دفاعًا عن الإيمان
ومجد الديانة الحقيقيّة. عندما رأى برفيروس الاضطهادات كان
يظنّ أنّ ذاك الطريق سوف يختفي، مقتنعًا بأنّه ليس الطريق
المطلق لخلاص النفس؛ وما كان يرى أنّ ذاك الطريق سوف
يخرج أشدّ منعة وعزّة من التجربة التي كان هولها يمنع عقله من
الالتزام بها. ذاك هو طريق النفس المطلَق الذي فتحته الرحمة

الإلهيّة أمام أمم الأرض قاطبة؛ وأيًّا يكن مكان انتشاره ماضيًا
ومستقبلًا فلا يحقّ لأحد أن يقول له: لِمَ هذا الإبكار أو لِمَ هذا
التأخير؟ يبقى رأي مَن يعطي الأمر خفيًا عن العقل البشريّ وهذا
يعرفه أيضًا برفيروس عندما يقول إنّ عطيّة الله هذه لم تنكشف
بعد ولا علم له بها؛ مع أنّه يعرف أنّها حقيقيّة؛ ذاك هو الطريق
المطلق لخلاص المؤمنين، وهو الذي كشفه الله لإبراهيم حين
قال: «وبنسلك تبارك أمم الأرض قاطبة» (**تكوين** ٢٢: ١٨) لقد
ولد في بلاد كلدان ثمّ أمره الله بأن يخرج من وطنه ومن عائلته
ومن بيت أبيه لكي يفيد من ثمار الوعد ومنه يتوزّع ذاك النسل
الذي رتّبه الملائكة في يد الوسيط، الذي به يظهر الطريق
الخلاصيّ المطلق. إذ ذاك كان أوّل مَن تحرّر من خرافات
الكلدانيّين، فعبد الإله الواحد الحقّ وآمن بالوعد بكلّ قداسة.
أجل هو الطريق المطلق الذي قال فيه النبيّ القدّيس: «ليرحمنا
الله وليباركنا وليضئ بوجهه علينا؛ ليرحمنا لكي نعرف في
الأرض طريقه وفي جميع الأمم خلاصه» (**مز** ٦٦/ ٢). وإذ أخذ
جسدًا، على مرّ الأزمنة، من نسل إبراهيم، قال المخلّص أيضًا
عن ذاته: «أنا هو الطريق والحقّ والحياة». وعن هذا الطريق
المطلق أدركت الأزمنة القديمة تلك النبوءة: «ويكون في آخر
الأيّام أنّ جبل الربّ يوطّد في رأس الجبال؛ ويرتفع فوق التلال
وتجري إليه جميع الأمم وينطلق شعوب كثيرون؛ ويقولون هلمّوا
نصعد إلى جبل الربّ إله يعقوب وهو يعلّمنا طرقه فنسلك في
سبله لأنّها من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الربّ»
(**أشعيا** ٢: ٢). وهذا الطريق ليس طريق شعب واحد بل طريق
جميع الأمم؛ والشريعة كلمة الربّ لا تبقى في صهيون وأورشليم

بل تخرج منهما لتنتشر في العالم كلّه. ولهذا فإنّ الوسيط ذاته قال لتلاميذه المضطربين بعد قيامته: «ينبغي أن يتمّ كلّ ما كتب في ناموس موسى وفي الأنبياء والمزامير» (لوقا ٢٤/ ٤٤-٤٧) ثمّ فتح أذهانهم ليفهموا الكتب قائلًا لهم: «كان ينبغي للمسيح أن يتألّم وأن يقوم في اليوم الثالث من بين الأموات وأن يُكرَز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا في جميع الأمم ابتداء من أورشليم» (لوقا ٢٤). ذاك هو الطريق لخلاص النفس الذي بشّر به الملائكة والأنبياء القدّيسون، العدد القليل من الناس، الذين التقوا نعمة الله وبخاصّة شعب إسرائيل، الجمهوريّة، التي تكرّست، نوعًا ما، للتبشير بهذه المدينة الإلهيّة التي ترمز إليها وفيها تجتمع شعوب الأرض؛ قدس الأقداس والهيكل والكهنوت والذبائح والشهادات الواضحة أحيانًا والغامضة أغلب الأحيان، تلك هي العلامات والتنبّؤات. بيد أنّ الوسيط الحاضر بجسده ورسله الطوباويّين أزاحوا الستار عن نعمة العهد الجديد وبدّدوا عن الطريق الظلال التي كانت تغطّيها في الأزمنة السالفة وهكذا فإنّ الله وبحسب ما شاءت حكمته سمح للجنس البشريّ أن يتعرّف إليها، من خلال أعماله الإلهيّة والعلامات العجائبيّة. ولا يتمّ ذلك إذ يظهر الملائكة فقط ويعلو صوت خدّام السماء؛ بل عندما يتكلّم رجال الله كلامًا تقويًّا تخرج الأرواح الشرّيرة من جسد الإنسان وحواسّه ويشفى من كلّ ضعف؛ وتخضع للأوامر الإلهيّة كلّ ما يهيم على الأرض من حيوانات وما في البحار من أسماك، طيور الجوّ والنبات والحجر والعناصر وكلّ ما في السماء من طيور وكواكب كلّها تخضع لأوامره؛ الجحيم يستسلم والموتى يقومون؛ أنا لست أتكلّم عن عجائب المخلّص الخاصّة

به ما بين البلاد الذي كشف عن سرّ بتوليّة أمّه وقيامته من بين الأموات التي هي المثل الواضح عن القيامة المستقبليّة.

المسيح هو الطريق الوحيد الذي ينقّي الإنسان ويؤهّله للحياة الأبديّة

ذاك هو الطريق الذي ينقّي الإنسان بكامله؛ وبصفته صائرًا إلى الموت، يعدّه بكلّيّته لعدم الموت؛ لأنّ ذاك المنقّي الحقيقيّ والفادي القدير، يأخذ الإنسان بكلّيّته على عاتقه فلا يسعى الإنسان بطريقة ما إلى تنقية هذا الجزء من النفس الذي يسمّيه برفيروس عقليًّا ثمّ الجزء الروحيّ والآخر الجسديّ. خارجًا عن هذا الطريق سواء أكان في عهد المواعد أم في زمن تحقيقها لم يكن من سبيل آخر للخلاص، لا ماضيًا، ولا حاضرًا، ولا مستقبلًا. يدّعي برفيروس أنّ شهادة التاريخ لم تكشف له حتّى أيّامه عن طريق الخلاص المطلق؛ وأيّ شيء أهمّ من هذا التاريخ؟ لقد استولى هذا التاريخ على الكون وسيطر عليه بقوّة ولا أروع. إنّه شديد الأمانة: قصّة الماضي تروي المستقبل، وما تحقّق فيه؛ وكنّا له شهودًا، يؤكّد لنا ما نرجوه؛ لا برفيروس ولا سائر الأفلاطونيّين يستطيعون أن يحتقروا التنبّؤات التي تمّت في هذا الطريق لكونها لا تهتمّ إلّا بالأرض وبهذه الحياة الصائرة إلى الموت وحسبهم أن يحتفظوا بذاك الازدراء للممارسات السرّيّة التي لا أعرف عنها شيئًا والحمد لله؛ لتلك التكهّنات ولأولئك المنجّمين لا يقيمون أيّ اعتبار، وإنّهم لعلى حقّ؛ إنّ التنبّؤات المعروفة بذاك النوع تستند، في الواقع، إمّا إلى معرفة بدائيّة للأسباب اللاحقة، كما يستدرك الطبيب، بفنّه، من خلال

أعراض سابقة كلّ ما يحدثه الداء في المريض أو إلى كلام الشياطين الذين يكشفون عمّا صمّموا عليه، تاركين تنفيذه إلى الإرادات المغرورة والشهوات الفوضويّة؛ وقد أخفوا حوافز عملهم في مناطق الضعف البشريّ. في حين أنّ القدّيسين الملتزمين الطريق الخلاصيّ المطلق للنفس لا يرتبطون بتلك التكهّنات لا لأنّ أحداث ذاك النظام تفوتهم وقد سبقوا وتنبّأوا عن أحداث كثيرة ليدعموا مصداقيّة الذين تعجز الحواسّ عن الوصول إليها؛ ولا يستطيع الناس أن يقتنعوا بصوابيّتها من خلال اختبار سريع وسهل: إليكم الأحداث التي هي حقًّا عظيمة وإلهيّة؛ ويسمح الله للناس بأن يقرأوها في مشيئته وأن يتنبّأوا عنها مثلًا: مجيء يسوع المسيح المنظور وسائر المعجزات التي كشف عنها في شخصه وتمّت باسمه؛ الندامة وعودة الإرادات إلى الله ومغفرة الخطايا والنعمة والبرّ وإيمان النفوس التقيّة وتلك المجموعة البشريّة المنتشرة في أنحاء المعمور كافّة التي أقبلت إلى معرفة الله الحقّ؛ القضاء على عبادة الأصنام والشياطين؛ امتحان التجربة وتنقية المؤمنين وتحريرهم نهائيًّا من الشرّ؛ يوم الدينونة وقيامة الأموات والقضاء إلى الأبد على ذرّيّة الأثمة والملكوت الأبديّ لمدينة الله الممجّدة في الأفراح التي لا توصف بالمشاهدة السعيدة: ذاك ما جرى التنبّؤ عنه وذاك ما وعدت به كتب هذا الطريق المقدّس؛ إنّ حقيقة الوعود التي تمّت تحت أنظارنا تعطينا ثقة تقويّة بالمستقبل. أمّا هذا الطريق الذي لا توصف استقامته وتقود إلى مشاهدة الله والاتّحاد به إلى الأبد فكلّ مَن يأبى الإيمان به بالرغم من شهادات الكتاب المقدّس الواضحة كلّيًّا ثمّ يفقد عقله يمكنه أن يهاجمه إنّما عليه أن يقطع كلّ رجاء له في إمكانيّة

القضاء عليه!

وهكذا إنّني في الكتب العشرة التي أنهيت تأليفها ودون أن أجاوب على انتظار الكثيرين، قد تجاوبت، بفضل نعمة الإله الحقيقيّ، مع رغبة البعض إذ دحضتُ أقوال الأئمة المتناقضة الذين يفضّلون آلهتهم على مؤسّس المدينة المقدّسة؛ فالكتب الخمسة موجّهة ضدّ الذين يتعلّقون بعبادة الآلهة حبًّا لخيور الحياة الحاضرة، والخمسة الأخيرة، موجّهة ضدّ الذين يحتفظون بها لمصلحة الحياة المستقبليّة. وما تبقّى سوف يفي بوعود الكتاب الأوّل وأرجو، بقدر ما تسمح لي به قواي، وبنعمة الله، أن أتبسّط في أصل المدينتين وتقدّمهما وغايتهما اللتين يقدّمهما لنا العصر متداخلتين ومتشابكتين.

فهرس المحتويات

الكتاب الأوّل ٧

الكتاب الثاني ٦١

الكتاب الثالث ١١١

الكتاب الرابع ١٦٥

الكتاب الخامس ٢١٧

الكتاب السادس ٢٧٥

الكتاب السابع ٣١١

الكتاب الثامن ٣٦٣

الكتاب التاسع ٤١٧

الكتاب العاشر ٤٥٥